سمير عطا الله

جنرالاتُ الشَّرق

دورالعسكريين الأجانب في العالم العربي بين الحربين



ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطاالله، سمير

جنرالات الشرق./ دور العسكريين الأجانب في العالم العربي بين الحربين/سمير عطاالله. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٣٥٧ ص؛ ١٦،٥ × ٢٤سم

ردمك: ٩-٦٠٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- العالم العربي - تاريخ - العصر الحديث ١- القادة العسكريين أ- العنوان

ديوي ٩٥٦،٠٢ ١٤٣٠/٣٥٤

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٣٥٤

ردمك: ٩-٦٠٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥





إلى

رجاء الصيداوي،

أخاً وصديقاً

المقدمة

شرق يبهر الغربيين

«الشرق الأوسط» ليس تعبيراً عربياً، ولا أطلقه العرب على هذه المنطقة التي يعيشون فيها منذ التاريخ المعروف، أو المدّون. إلا أنَّه نعت استخدمه الغربيون في توجههم شرقاً حتى الصين، وما لبث أن تحول بعد اندلاع الصراع العربي ـ الإسرائيلي إلى صفة سياسية شبه ثابتة تحدد إطاراً جغرافياً معيناً، يقصد به الإطار الذي يضم الدول المعنية مباشرة بهذا الصراع، وعلى وجه التحديد العالم العربي وإسرائيل.

وقد تغيرت التسميات للمنطقة العربية مع تغير الظروف السياسية، فيها وفي الخارج معاً. وطوال قرون أشار علماء الجغرافية الغربيون وسياسيوها إلى الشرق العربي على أنّه «الشرق الأدنى»، وذلك طبعاً قياساً إلى مواقع بلدانهم، خصوصا الواقعة على حدود الأطلسي وغرب المتوسط، مثل بريطانية وإسبانية والبرتغال وفرنسة وهولندا والإمارات الإيطالية السابقة التي كانت على علاقة تجارية واسعة مع الشرق الأدنى. على أن هذا التعبير التجاري والسياسي والجغرافي تبنته قوى أخرى، أو بالأحرى القوى الرئيسة في تلك المرحلة: روسية والنمسا وألمانية، خصوصاً أنها كانت تتجه نحو الشرق الأدنى للأسباب نفسها.

لكن فيما كانت تحلم قوى ذلك العصر بالنفوذ التجاري أو السياسي أو كليهما، جاء العثمانيون وبسطوا سلطة كاملة على هذه البقعة الهائلة. وحين بلغت إمبراطوريتهم أوجها في القرن السادس عشر، كان «الشرق الأدنى» في حجم الولايات المتحدة الأميركية اليوم، يمتد إلى جنوب أوروبة وغرب آسية وشمال إفريقية ويربط المحيط الهندي بالمحيط الأطلسي ومنه إلى المحيط الهادي! إنّها الإمبراطورية التي كانت تشمل أجزاءً من النمسا وهنغارية ودول البلقان الخمس ومعظم الخليج والجزيرة والدول العربية المشرقية وأجزاء من إيران وستاً من الدول السوفياتية السابقة وجميع

الدول الإفريقية العربية على ساحل المتوسط، وجميع جزر المتوسط باستثناء مالطة وجميع الممرات البحرية المؤدية من إلى المحيط الأطلسي والمحيط الهندي.

حتى تفكك الإمبراطورية العثمانية، الذي انتهى في أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى قيام الدولة التركية، استغرق أكثر من قرن ونصف القرن، ومع كل تفكك كانت تنشأ قضايا ومضاعفات بين الدول الأوروبية القادمة وبين الأتراك الراحلين، سميت القضايا الشرقية أو المسائل الشرقية، وعرفها العرب بالمسألة الشرقية، للاختصار.

خلال المرحلة التي بدأت فيها دول البلقان في العثور على استقلالها أو هوياتها، سُحبت شبه جزيرة البلقان من تعبير «الشرق الأدنى» وأخذت تُعرف ـ «جنوب شرق أوروبة». وفي هذه الأثناء أيضاً بدأ الأوروبيون يستخدمون تعبير «الشرق الأوسط» في الإشارة إلى المنطقة الواقعة بين الشرق الأدنى العثماني وبين الشرق الأقصى، التي كانت تضم من ثم دولاً غير متوسطية مثل إيران والهند وأفغانستان.

الأميركيون أيضاً استخدموا التعبيرين أو التسميتين بطرق ودلالات مختلفة إذ يحدد ا.إي. سبايزر ـ في كتابه «أميركة والشرق الأدنى» (1947) ـ الشرق الأدنى بأنه المنطقة التي تضم الدول الأعضاء في الجامعة العربية، وفلسطين، وإسرائيل، ولا تشمل حتى تركية. وبالنسبة إلى الجمعية الأميركية الشرقية فإنَّ الشرق الأوسط ليس سوى إيران والعراق. وفي مفهوم قسم الأبحاث في وزارة الخارجية الأميركية بعد الحرب مباشرة كانت منطقة «الشرق الأدنى وإفريقية» تعني إفريقية (فيما عدا الجزائر واتحاد جنوب إفريقية) واليونان، وتركية، والعالم العربي، وإيران، وأفغانستان وبورما، وباكستان، والهند، وسيلان، (سري لانكا الآن). وحين صدرت (1946) ذي ميدل إيسن صحيفة في واشنطن قالت في افتتاحيتها الأولى: إنَّ «اهتمامنا سوف يركز على قلب المنطقة: تركية، وإيران، والعراق، وسورية، ولبنان، وفلسطين، وشرق الأردن، وشبه الجزيرة العربية، ومصر، ولكن ليس من دون عناية أيضاً بالمناطق المتاخمة مثل مداخل المتوسط، في شمال وشرق إفريقية، بالإضافة إلى بلاد القفقاس، وأفغانستان والهند، وتركستان».

خلال الحرب العالمية الثانية (1941-1946)، كان المركز المشترك للتموين في الشرق الأوسط» التابع للأميركيين والروس والبريطانيين، يضم في عملياته: في آسيا، سورية، لبنان، فلسطين، الأردن، العراق، السعودية، الإمارات (آنذاك) المتصالحة، عدن، إيران، وتركية. في إفريقية: مصر، السودان، إثيوبية، إريترية، الصومال، ولاية طرابلس وولاية برقة (ليبية الآن). وفي المتوسط قبرص ومالطة. ولم يكن يضم تركية بسبب (آنذاك) وقوفها على الحياد.

في العام 1948 حاولت إحدى اللجان الفرعية التابعة للأمم المتحدة أن تحدد الدول المشمولة بتسمية «الشرق الأوسط» وتوصلت إلى اللائحة التالية: اليونان، تركية، إيران، أفغانستان، الدول السبع الأعضاء في الجامعة العربية وإثيوبية. وقد أُنشئت من أجل هذه المنطقة لجنة دولية لمساعدتها في حقول التنمية. وبعد الإعلان عنها تقدمت باكستان بطلب للانضمام فقبلت، فيما رفض طلب مماثل تقدم به الاتحاد السوفياتي.

تبنى الأميركيون تعبير «الشرق الأوسط» الذي كان البريطانيون أول من استخدمه، ويبدو أن الفرنسيين وبقية الأوروبيين فعلوا الشيء نفسه تدريجياً. وفي العام 1950 أبلغ رئيس الوزراء البريطاني إشلي مجلس العموم أنه «قد أصبحت ممارسة مقبولة استخدام تعبير الشرق الأوسط بحيث يشمل العالم العربي وبعض البلدان المجاورة. وتبدو هذه الممارسة مريحة ولا أرى سبباً لتغييرها». وحلّت جامعة كولومبيا المسألة على طريقتها حين قال معهد الشرق الأوسط فيها بأنه من الأفضل استخدام «الشرق الأدنى والأوسط» في الإشارة إلى كل المنطقة المعنية وتشمل اليونان وتركية وإيران وأفغانستان والعالم العربي بما فيه المغرب وإسرائيل، كما ضمت إليها باكستان بسبب أكثريتها الإسلامية وعلاقتها الدينية مع العرب.

• • •

ربما لم تعرف منطقة أخرى في العالم ما عرفه الشرق الأوسط من تقلبات وحروب وإمبراطوريات وشعوب. لكن الثابت الوحيد عبر العصور ظل الشيء الوحيد الذي لا

يتغير على الأرض: الجغرافية، ولذلك أطلق عليها ذلك الإستراتيجي الكثير التجارب، المسيو بونابرت، لقب «أمّ السياسات». ولست أذكر على وجه الضبط إنْ كان قد قال هذا الكلام قبل أن تهزمه جغرافية الشرق الوسط أم بعدها.

التاريخ هو أيضاً جغرافية متحركة، ولا أدري إن كان هذا القول للمسيو بونابرت أم لغيره، وقد أدت الجغرافية الدور الأساسي في تاريخ الشرق الأوسط لسبب بسيط جداً: أنها المنطقة الواقعة في قلب أو في وسط العالم، حيث تلتقي ثلاث قارات وتتلاصق في البحر الوسيط هو أيضاً، الذي سمي طبعاً المتوسط!

حول هذا البحر، أو من أجل الوصول إليه، تداخلت تواريخ المنطقة بعضها ببعض منذ حروب طروادة، حتى منتصف القرن العشرين! وحول وسط الأرض والبحر المتوسط تجمعت شعوب منطقة الشرق الأوسط، لكي تردَّ الهجمات القادمة من الشرق والغرب، أو تقاتلت فيما بينها من أجل السيطرة على السيادة في هذه البقعة النادرة الجغرافية، الوحيدة في التاريخ. وفي تعبيره الأشمل يشكل الشرق الأوسط مستطيلاً بين البحر الإدرياتيكي ونهر الإندوس (Indus)، وبين البحر الأسود والمحيط الهندي. وتشمل سواحله ثلاث أشباه جزر (اليونانية ـ البلقانية، العربية، والتركية) وثلاثة مضائق تربط ثلاثة بحار متقاربة: الإدرياتيكي والأسود، والأحمر، بالإضافة طبعاً إلى المتوسط الذي يفتح أو يسد المخارج إلى المحيطات الثلاث. وفي هذه القارات الثلاث تجري الأنهار التي قامت حولها حضارات المنطقة وأرزاقها منذ أقدم العصور: النيل الفرات ودجلة والدانوب.

هذه الحقائق الجغرافية، القائمة منذ فجر التاريخ، هي التي أدت منذ الجغرافية والتاريخ، إلى كل هذه الصراعات على المياه واليابسة والسلطة والسيادة والخيرات وطرق البهارات والحرير! لذلك قال بونابرت ما قاله بطرس الأكبر من أنَّ الذي يحكم القسطنطينية يحكم العالم. لذلك - أيضاً -، حاول كلاهما أن يحقق ذلك وأخفق. وحاول هتلر فيما بعد الوصول إلى المتوسط واختراق قناة السويس لكن دبابات المارشال رومل احترقت في أكبر معركة عسكرية جرت على أرض المنطقة خلال الحرب العالمية الثانية (راجع الفصل المتعلق بمعركة العلمين).

الأباطرة الجدد تطلعوا إلى الشرق الأوسط، واكتشفوا الحقائق نفسها. وفي العام 1947 سوف يقول الجنرال دوايت أيزنهاور إنه إذا أُغلق المتوسط في وجه أميركة فسوف تذهب إلى الحرب. وقبل سبع سنوات من هذا البيان كانت الحكومة الأميركية قد أعلنت أن استقلال دول الشرق الأوسط «ضروري بالنسبة إلى أمنها». ذلك أن الاختراعات الحديثة قد طورت وسائل النقل والاتصال بحيث إنّ الشرق الذي كان وسط العالم القديم أصبح في العام 1940 «مركز الثقل في العالم الجديد»! وقائل هذا الكلام هو المستر فرانكلين ديلانو روزفلت! ذلك أن المتوسط، الذي يصل بين الأطلسي والهادي قد أصبح بالنسبة إلى الولايات المتحدة في أهمية قناة باناما والبحر الكاريبي. وسوف يعود دوايت أيزنهاور إلى القول في العام 1951 إنه «ليست هناك منطقة أكثر أهمية إستراتيجية في العالم من الشرق الأوسط».

يصف الإستراتيجي البريطاني، السير هالفورد ماكيندر، الشرق الأوسط بأنه «قلب اليابسة في الجزيرة الأوروبية الآسيوية الإفريقية».

في صيف العام 1957 عقدت كلية «العلوم الدولية المتقدمة» في جامعة «جونز هوبكنز» في واشنطن، حلقة دراسية خاصة حول «التوتر في الشرق الأوسط»، كان بين خطبائها المستر روبرت شتراوس ـ هوبيه، مدير معهد الأبحاث للسياسة الخارجية في جامعة بنسلفانيا، الذي قال: إنَّ تعبير «الشرق الأوسط» في السياسة الخارجية الأميركية يعني «مجموعة معقدة من المشاكل المتداخلة في الإستراتيجية والديبلوماسية والاقتصاديات الدولية أكثر مما يعني منطقة جغرافية». ويقول: إنه «في غابر الزمان عندما ربضت بريطانية بين السويس وممر خيبر، الشرق الأوسط يعني الشرق إلى الغرب، والهند إلى الشرق، وبحر قزوين إلى الشمال، وبحر (العرب) إلى الجنوب. ومع أن مثل هذا «الشرق الأوسط» كان وهماً جغرافياً فإنه كان يؤمِّن تضمين عدد من المصالح الإقليمية للسياسة البريطانية، تماماً كما أنّ «الشرق الأدنى» كان يعني شبه جزيرة البلقان وتركية والمشرق، ويتضمن مجموعة أخرى من المشكلات البريطانية».

بالنسبة إلى الولايات المتحدة، يقول شتراوس ـ هوبيه، إنَّ الشرق الأوسط يمتد من أثينا إلى طهران، ومن أنقرة إلى القاهرة.

«وقد أصبح التعبير اليوم عملياً أكثر من أي وقتٍ مضى، فالشرق الأوسط هو الجهة الجنوبية المواجهة للحلف الأطلسي، وهو عالم القومية العربية، وأكبر مخزونات النفط التي يعتمد عليها الغرب، والرابط الواهي للتحالفات التي تقيمها أميركة في جنوب شرق آسية. أنّ الشرق الأوسط اليوم هو تلك الخريطة الجغرافية التي نتجت من انهيار الإمبراطوريات الأوروبية وقيام القوتين الأميركية والروسية.

بكلام آخر، كان تحديد الشرق الأوسط في السياسة الخارجية الأميركية يعتمد إلى حدٍ بعيدٍ على هواجسها السوفياتية. وقد عبّر الدكتور شارل مالك، أحد المنظرين الرئيسين للرأي الغربي، عن هذا الواقع بالقول: إنَّ «ثمّة تحالفاً عضوياً في المنطقة بين الشيوعية والقومية». وعلى الرغم من العداء التاريخي بين الشيوعية والقوميات، وهو ما بدا واضحاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في معظم جمهورياته السابقة، فإنَّ السياسة السوفياتية استطاعت أن تضايق السياسة الأميركية في الشرق الأوسط أكثر من أي منطقة أخرى، فتحولت طوال عقودٍ إلى سياسة ردٍّ فعل، بدلاً من أن تكون سياسة فاعلة كما في مناطق أخرى. وخرج كل رئيس أميركي من البيت الأبيض تقريباً وقد ترك خلفه المبدأ المعروف باسمه. وقد تأكدت أهمية المنطقة الإستراتيجية بالنسبة إلى واشنطن في مبدأي ترومان وأيزنهاور اللذين اتبعا الخط الإمبراطوري البريطاني في القرن التاسع عشر: وراثة الإمبراطورية العثمانية وإبعاد روسية عن الخليج، وهو أمر لم يتغير مع التقدم التكنولوجي الطاغي الذي ظهر مع القوة الأميركية خلال الحرب العالمية الثانية.

في القرن التاسع عشر كان الهاجس البريطاني الأساسي هو الهند، والخوف على الهند. وقد بدأ التغلغل البريطاني في الشرق الأوسط في مراحله الأولى مجرد وسيلة لحماية الطريق إلى الهند، ثم تحول إلى غاية في حد ذاته، خصوصاً بعدما تحولت قناة السويس إلى جوهرة أخرى في التاج. وهكذا بدأت أهمية الشرق الأوسط بالنسبة إلى الأميركيين على أنّه مجرد قاعدة في القوس الآسيوي الذي يصل حتى الصين والهند واليابان. لكن مع تعاظم الحاجة إلى النفط تحول أيضاً إلى غاية في حد ذاته، خصوصاً حين اشتدت التجاذبات بين الغرب والشرق قبيل إسرائيل وبعدها، وتغيرت

ملامح المنطقة جذرياً مرة أخرى. «الشرق الأوسط، مثل كل الساحات المتنازع عليها، يقول شتراوس ـ هوبيه، هو تربة خصبة للنزاع». وهذه التربة الخصبة حولت الولايات المتحدة من متردد في بداية القرن، إلى متأنٍ، إلى مندفع، إلى طرف. وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي بدا أنه لم تعد هناك مهمة، ولا عاد هناك عمل لوزير الخارجية الأميركية سوى النزاع ـ أو الحل ـ في الشرق الأوسط.

خلافاً لما كان عليه الحال أيام الإمبراطورية البريطانية، رأت السياسة الأميركية نفسها أمام أربعة عناصر مختلفة ومتناقضة في الشرق الأوسط: الأول: الخوف من السيطرة السوفياتية والامتداد الشيوعي، والثاني: الصراع العربي التقليدي من أجل الزعامة، والثالث: التصارع الغربي نفسه حول بقايا النفوذ التقليدي، والأخير الصراع العربي ـ الإسرائيلي الذي كانت أميركة فيه، مثل غيرها طرفاً رئيساً.

لقد عجَّلت أميركة، كما عجّل المدُّ القومي من ناحيته، في خروج الوجود العسكري البريطاني والفرنسي من المنطقة خصوصاً بسبب الموقف الذي اتخذه أيزنهاور في السويس.

وكان الوجود العسكري الأوروبي سينتهي بالتأكيد، بأميركة أو من دونها، لكن السياسة الأميركية كانت عنصراً في التعجيل، خصوصاً بسبب مخاوفها من تقدم السوفيات الذين تخطوا بمسافات أحلام بطرس الأكبر في المياه الدافئة!

في تلك الحلقة الدراسية في «جونز هوبكنز» تحدث أيضاً نائب الأميرال روڤنفن ليبي (R. Libby)، نائب رئيس العمليات البحرية، وربما كانت المطالعة التي أدلى بها تلقي بعض الضوء على الأهمية العسكرية للشرق الأوسط في الإستراتيجية الأميركية، وقد بدأ الرجل حديثه بالقول: «أعتقد أننا جميعاً نتفق على أهمية الشرق الأوسط الإستراتيجية الكبرى بالنسبة إلى العالم الحر». ويرد الأميرال ليبي أهمية المنطقة أولاً إلى أنّها صراع مستديم منذ بدء التاريخ البشري، وإلى أنّها كانت دائماً عرضةً لغزو الجيوش الأجنبية، لم تقع تحت حكم واحد إلاّ إبان المرحلة العثمانية الطويلة. على أن هذه المنطقة تحولت إلى نقطة ارتكاز وتجاذب عالمي أو كوني في الحرب الأولى، ثم

عشية الحرب الثانية حين بدأ الحوار بين ستالين وهتلر على أن تظل المنطقة «الواقعة جنوب باطوم وباكو في اتجاه الخليج الفارسي، معترف بها على أنّها مركز طموحات الاتحاد السوفياتي».

ويقول ليبي: إنّه لو قدر لهتلر أن يدرك أكثر معنى القوة البحرية، ولو أنّه كان أكثر إصغاء لنداءات رومل، لكان اتفق مع اليابانيين على عملية التفاف في محيط الهند، ولكان سير الحرب العالمية الثانية كله قد تغير.

تروي النقوش الحجرية فوق تلال أنقرة قصة الشرق الأوسط من أيام الحثيين القدماء (1550 ق.م)، إلى خطاب الإمبراطور أغسطس إلى رعايا روما المنقوش قرب أنقرة في العام الرابع عشر م. الأسماء هناك: مصر، آشوريا، بابل، فارس، روا، وبعدها بيزنطية والإمبراطورية العثمانية. وفي الطريق الضيق عبر جبل طوروس المغطى بالثلوج، تروي النقوشات اليونانية والحجارة الرومانية وفقاً لرؤيتها، حكاية الأباطرة الذين عبروا الممر: زينون والإسكندر الكبير، ومن بعدهما مارك أنطوني، صديق القيصر، والإمبراطور الروماني جوليان.

وفي لبنان تحكي النقوش والآثار حكايات لا نهاية لها عن القادة الذين جاؤوا إلى الشرق الأوسط خلف أحلامهم وأمانيهم، التي عاش بعضها فترة ما، وارتطم البعض الآخر في الصخور، أو انطفأ على السواحل. وقد جاءت أكثرية القادمين عبر أشهر ممرين مائيين في التاريخ: الدردنيل وقناة السويس. الأولى، طبعاً، هي الأكثر قدماً وربما الأكثر أهمية. فقد أدى إغلاق قناة السويس بعد العام 1967 في وجه الملاحة الدولية إلى أن العالم أخذ يبحث عن بدائل لحركة النقل، خصوصاً في حقل النفط، أما مضائق الدردنيل فلا يستطيع المرء أن يتصورها مغلقة من دون أن يحدث ذلك أزمة عالمية كبرى في السلم أو في الحرب.

وبسبب التنافس الفرنسي ـ البريطاني ـ الروسي في الشرق الأوسط طوال قرنين على الأقل، توصل البريطانيون والفرنسيون إلى قناعة بترك هذا الممر الدولي المائي في ظل الحماية التركية، ولكن من خلال اتفاقات ومعاهدات دولية (مؤتمر مونترو،

سويسرا، العام 1936). وقد انضم الأميركيون إلى الموقف الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية، ودافعت تركية عن حقها في السيطرة على الدردنيل منذ العام 1356 وخاضت من أجل ذلك عشر حروب في قرنٍ واحد. كما خاضت حربين بريتين ضد جيوش زاحفة من مصر في الجنوب: نابوليون في العام 1799. ومحمد علي في العام 1833 الذي وقف في بورسة على مقربة من المضائق. وخاضت تركية خمس حروب ضد روسية في الأعوام 1806، 1828، 1853، 1877 و1914. وخاضت تركية حربين ضد قوى بحرية قادمة من المتوسط: إيطالية في العام 1911 والبحرية البريطانية ـ الفرنسية في الحرب العالمية الأولى. وتحالفت تركية 4 مرات مع بريطانية وفرنسة ضد الخطر البري القادم من البلقان، كما تحالفت مرتين مع روسية ضد الخطر البري القادم من مصر.

انتهى العمل في قناة السويس في العام 1869. إلاَّ أنَّ تاريخها يعود إلى أربعة آلاف عام. فقد أمر الفراعنة بحفر قناة بين النيل وخليج السويس سميت «قناة الفراعنة»، ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم «قناة داريوس»، وفي النهاية سميت «قناة أمير المؤمنين». وعندما سدت الإمبراطورية العثمانية الطرق البحرية في وجه الآخرين، راح الإستراتيجيون الإسبان والبرتغاليون يبحثون عن طرق بديلة إلى الشرق الأقصى، وهكذا اكتشفوا أميركة بطريق الصدفة.

في البداية كانت الحرب من أجل الشرق الأوسط تدور عادة حول الممرات المائية، إلا أنّها تحولت فيما بعد إلى التنافس على الطرق البرية، ثم الخطوط الحديدية. وقد خطط العثمانيون مثلاً للخط الحديدي بين الآستانة وبغداد من أجل ربط أرجاء الإمبراطورية بالعاصمة الإدارية، ولأسبابٍ إستراتيجية أيضاً. إلا أنَّ المشروع أثار حفيظة القوى السياسية المتطلعة إلى المنطقة بلا استثناء. ولم تتطلع العواصم الأخرى إلى هذا الطريق الثابت على أنه مجرد مشروع زراعي أو مبنى بلدي ضخم، بل رأت فيه طريقاً إلى الغزوات المقبلة، وإلى احتلال المزيد من المواقع الإستراتيجية.

هذا الخط الحديدي، الذي يرسم في تصميمه خطاً بيانياً للصراعات السياسية في أوروبة آنذاك، سماه البعض أيضاً خط برلين ـ بغداد! ولذلك طبعاً أسباب أخرى.

فقد برز المشروع أول مرة حين تبناه البنك الألماني (دويتش بنك) في العام 1888، حين التزم للحكومة العثمانية بإقامة الخط الحديدي للأناضول، بين إسطنبول وكونيا. وقد بلغ الخط أنقرة في العام 1892 وكونيا في العام 1896. وفي العام 1899 تمت الموافقة على مده حتى بغداد، لكن حتى العام 1908 لم يكن قد وصل إلاّ إلى إيغرلي، وعند ذلك بدأ التفكير فيه كمشروع أوروبي مشترك (ألماني ـ فرنسي ـ بريطاني) لتطوير الشرق الأدنى. لكن سرعان ما تحول هذا المشروع الاقتصادي إلى قضية سياسية بين القوى الأوروبية المتطلعة إلى إمكانات الشرق الأدنى الإستراتيجية والطبيعية، فقد حاربه الروس على أساس أنّه يخدم «عدّوهم التقليدي»: الأتراك. وأيده البريطانيون ثم حاربوه. وكذلك اختلف الموقف الفرنسي منه غير مرة.

ثمة ظاهرة ثابتة تقريباً في التاريخ وهي أنَّ القوى القادرة على استخدام الطرق البحرية كانت غالباً تنتصر على الدول التي لا تملك سوى الطرق البرية. وبعض الأمثلة على هذه القاعدة العامة: اليونانيون في طروادة، وهزيمة فارس (إيران) أمام اليونانيين في معركة سالاميس وانتصار روما على قرطاجة. وقد انتصرت بريطانية على أعدائها الأوروبيين وفرنسة النابوليونية، بسبب سيطرتها أو امتلاكها الطرق البحرية. وفي الحرب العالمية الثانية ظلت هذه القاعدة على حالها حين انتصر الحلفاء في المغرب العربي بسبب الدعم البحري، وحين أقامت أميركة «جسر الانتصار» بين المحيط الهادي والشرق الأوسط.

لقد أخفق وليم الثاني وفرنسيس جوزف في الحرب العالمية الأولى، كما أخفق هتلر وموسوليني في الحرب العالمية الثانية، لأنهم لم يملكوا في بداية هذه الصراعات الكبرى طرقاً بحرية كبرى! لقد تكررت هزيمة هينسبك ونابوليون مرة أخرى. فقد هُزم الاثنان على الرغم من كل الانتصارات في المتوسط من قبل أعداء يملكون التفوق في هذا البحر الرائع. ولم تكفَّ هذه القاعدة عن تكرار نفسها في الشرق الأوسط على الدوام: مثل اليونانيين؛ والفرس؛ والإسبان؛ والبرتغاليين؛ وجنوى والبندقية في مواجهة العثمانيين. ومثل الروس؛ والفرنسيين والبريطانيين في القرن التاسع عشر.

هذا القرن شهد بداية عصر الطيران، الذي لا يخضع للأمواج العاتية وحالة الطقس. لكن الطيران لم يقلل من أهمية الشرق الأوسط الإستراتيجية، بل على العكس زاد فيها كثيراً. وفي مرحلة ما كانت القواعد الجوية البريطانية والأميركية تملأ المنطقة من المتوسط إلى الأطلسي. وقد بدأ عصر الطيران مع عصر النفط والطاقة واعتماد الغرب على حقول المنطقة في حياته اليومية. وباكراً أو مبكراً في العام 1945 قال الملك عبد العزيز للرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت حين التقيا على متن بارجة أميركية في السويس: إنّ «الذي يملك الطريق إلى حقول النفط الراكدة في الشرق الأوسط، سوف يملك المقدرة على صنع الحرب أو السلام». وقد وصف الجيولوجيون الأميركيون الشرق الأوسط بأنَّه: «مركز وقلب إنتاج النفط العالمي»، وقالوا: إنّ فيه «أضخم احتياطي من النفط العالمي بما لا يستطيع أحد تخّيله» وإنّ البحث عن النفط هناك «هو أكبر مشروع أميركي للبحث عن الثروات الطبيعية في التاريخ».

كان جورج كليمنصو قد تطلَّع إلى النفط من وجهة نظره ومن مصلحة فرنسة، ولذلك قال هو أيضا: إنَّ النفط هو «الكلمة الأخيرة في قضايا الحرب والسَّلام». وبسبب هذه الثروة اندفعت هذه المرة الشركات الغربية نحو المنطقة، وليس الأساطيل. وفاز الأميركيون بحقول السعودية، فيما تقاسموا مع بريطانية حقول إيران، وفي العراق كانت هناك حصة إضافية للفرنسيين والهولنديين. ولايزال النفط، على الرغم من دخول العالم العصر الذري، هو العصب الأساسي للطيران والبحرية وأي سلاح بري. كلما بدا أنَّ أهمية الشرق الأوسط قد تنخفض تبَّين أنها أضافت إلى نفسها أهمية أخرى.

• • •

منذ أن وعيتُ على القراءة وأنا أقرأ أو أسمع عن شيء اسمه «المسألة الشرقية» وحين كبرت قرأت كثيراً لكي أستطيع أن أحدد لنفسي ما هو معنى «المسألة الشرقية»، أو «المسألة الشرق أوسطية» كما ذهب بعض الكتاب الأميركيين. وفي نهاية الأمر توصلت إلى قناعة، ازدادت أو ترسخت مع حرب البوسنة في بداية هذا العقد، بأن المسألة الشرقية هي مسألة الأقليات المسيحية في الشرق الإسلامي والأقليات المسلمة

في الغرب المسيحي. ومع أنّ بعض المؤرخين يفضل أن يرد المسألة الشرقية إلى ما قبل الإمبراطورية العثمانية، فالواقع أنها مرتبطة بالترتيب والتراتب الجغرافي والتاريخي الذي رافق قيام الإمبراطورية العثمانية ثم رافق تفككها منذ نهايات القرن الماضي، وها نحن نشهد في نهاية القرن العشرين كيف أن ترسبات الحقبة العثمانية تتفجر من جديد في بلاد البلقان والقفقاس على السواء.

يُعنى «جنرالات الشرق» بالمرحلة الواقعة بين الحربين، أي المرحلة التي تكون خلالها - سياسياً وجغرافياً - «الشرق الأوسط» في مفهومه ومنظوره الحالي. وبالتالي فإنَّ «المسألة الشرقية» هنا هي ما يصفه الأميركي وليم ل. لانغر «بالترتيبات التي ظهرت في القرن العشرين ونشأت عن الحرب العالمية الأولى». ذلك أن الأحداث السياسية والعسكرية التي وقعت في سورية وبلاد ما بين النهرين (العراق) أحدثت تغييراً أساسياً في المفهوم الجغرافي والمعنوي «للمسألة الشرق أوسطية» كما تعارف عليها الغرب. وحين ظهرت القضية الفلسطينية بوصفها مأساة عربية وتحولاً ديموغرافياً، تسارعت الدول الكبرى إلى الاعتراف بها، وصار «للمسألة الشرق أوسطية» بعدٌ آخر مختلف تماماً. وبين قيام إسرائيل وتوقيع اتفاق 13 أيلول/سبتمبر 1993 في حديقة البيت الأبيض، كانت أي أشارة إلى «قضية الشرق الأوسط» تعني بالضرورة القضية الفلسطينية والحروب التي خاضها العرب أولاً من أجلها، ثم من أجل استعادة الأراضي العربية التي احتلت في العام 1967.

على أن المسألة الشرقية في بداية القرن قامت يوم استطاعت بريطانية، بمساعدة قوات كبرى من الهند وأوسترالية ونيوزيلندة (تدعمها فرنسة إلى حد ما) أن تهزم تركية وحليفتها الأوروبية التقليدية، ألمانية، ونتيجة لهذه الهزيمة توقف فجأة الاندفاع الألماني نحو الشرق، أو ما سماه الألمان (Drang Nach Osten) أي «البحث عن الشرق»، كما تراجعت الإمبراطورية العثمانية نحو بلاد الأناضول. ومع ذهاب تركية العثمانية قامت أو ظهرت أول مرة حركة القومية العربية، التي لقيت بادئ الأمر تشجيعاً من بريطانية لكنها عادت فدخلت معها في صدام دموي خلال معارك الاستقلال. وقد أسهم العرب في الزحف البريطاني على فلسطين لكنهم اكتشفوا فيما بعد أن القوى

الحليفة (1916) أي بريطانية؛ وروسية؛ وفرنسة؛ وإيطالية كانت قد عقدت اتفاقات سرية فيما بينها على تقاسم مناطق النفوذ بعد الانتصار على العثمانيين. وبموجب هذه الاتفاقات ينال البريطانيون العراق، والفرنسيون سورية ولبنان، ولا يكون الحكم العربي هناك أكثر من مظهر رمزي. لكن الفرنسيين والبريطانيين ما لبثوا أن تنازعوا فيما بينهم توزيع السلطة وانتهى الأمر إلى انتداب بريطاني في العراق وفلسطين، وانتداب فرنسي في سورية ولبنان، ومن بين الانتدابات الأربع تحول انتداب فلسطين إلى ما عرف بـ«وعد بلفور» في تشرين الثاني/نوفمبر 1917، الذي أدى في نهاية المطاف إلى قيام إسرائيل، لأن «الوطن القومي» الوارد في بيان بلفور أغفل عمداً الإشارة إلى العرب كما أغفل تماماً تحديد «الوطن القومي» وامتداداته.

اتفق المؤرخون الغربيون على القول: «إن الشرق الأوسط ولد في النزاع». و«الشرق الأوسط» الذي نعرفه اليوم، أي الذي ولد من الحرب العالمية الأولى، كلف الغرب نحو ربع مليون قتيل من أجل الانتصار النهائي على الأتراك. ومع ذلك فإن الغرب، الذي هو أوروبة آنذاك، اعتبر أن الجائزة تستحق هذا الثمن الباهظ في المال والأرواح. لقد توسعت الإمبراطورية البريطانية في كل الاتجاهات وعلى كل الطرق المؤدية إلى الهند، «جوهرة التاج»، كما انبسطت السلطة الفرنسية عبر المشرق وخلف أحلام بونابرت. وإذ طرح وودرو ولسون في واشنطن مبدأ تحرير الشعوب، لم تدخل لندن وباريس معه في مواجهة حول الأمر، بل كان من السهل تصوير الدورين البريطاني والفرنسي على أنه سعي إلى مساعدة العرب واليهود واليونانيين والأرمن.

ولم يكن هذا استعماراً بل «انتداباً» مطابقاً لكل شروط ومبادئ مؤتمر السلام. أي أن الدول العربية لن تكون «محميات» لدى الدولتين الكبريين وإنما هي تحت «الوصاية» كما يمكن أن يحدث لأي عائلة في بيت واحد، إلا أن العرب طبعاً أخذوا الوعد بالاستقلال على أنه وعد بالاستقلال، لا أقل ولا أكثر. وهكذا شهدت العقود اللاحقة في الثلاثينيات والأربعينيات بداية الصراع العربي من أجل الحرية مقابل المحاولات البريطانية والفرنسية للمحافظة على هذه المواقع الإستراتيجية النادرة التي استثمرت فيها أرواح الرجال وأموالهم.

هنا، في الشرق الأوسط، سوف يتعلم الغربيون مواجهة الحاجة الطارئة ليس إلى الغزو بل إلى الجلاء، إجلاء العسكر والرعايا على السواء. فالغزو عملية مبسطة واضحة لها قواعدها وقوانينها، أما الجلاء فهو معضلة لم تكن الدول التوسعية تحسب لها حساباً في السابق. بالإضافة إلى هذه الأمثولة التي ستتبع في كل مناطق العالم ومن قبل جميع الدول الكبرى فيما بعد، تعلمت لندن وباريس أيضاً، أو ازدادتا قناعة بأنه لا يمكن ترك شرق المتوسط من دون الحصول على ضمانات حاسمة للمنشآت النفطية والعسكرية على السواء، ذلك أن تحالفات الحرب الأولى بدأت تتغير تلقائياً. وها هم الإيطاليون يغازلون الألمان الآن. وها هي روسية السوفياتية تحاول أن تطرق بوابة المتوسط بيد من حديد تماما مثل روسية القيصرية التي حلمت بالمياه الدافئة منذ بطرس الأكبر.

ولم يقتصر الصراع والتململ والقلق والمواجهة على العرب وأهل الانتداب بل شهدت سورية واحداً من أسوأ الصراعات التاريخية بين بريطانية وفرنسة أيضاً.

ليس هناك إحصاء حقيقي لعدد المعاهدات والاتفاقات والقرارات والعقود الدولية التي تداخلت في حياة الشرق الأوسط وتاريخه. لكن كما دار تاريخ النصف الأخير من القرن العشرين في الجدل حول تفسيرات قرار مجلس الأمن رقم 242 (1967) ومعانيه ومضامينه وبنوده، هكذا دار النصف الأول من هذا القرن حول معاهدة سايكس ـ بيكو ووعد بلفور، ولم يكن أقل منهما شهرة الجدل حول معاني «مؤتمر السلام» في باريس ومعاهدة سيفر ومعاهدة سان ريمو.

انعقد «مؤتمر السلام»، كما هو واضح من اسمه، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى التي كانت الاختبار التمهيدي لعملية الدمار الكوني التي سوف تبدأ بعد ذلك بعقدين تماماً. وقد تنادى إلى حضور مؤتمر السلام كل من استطاع الحضور! ديبلوماسيون وجنرالات وصحافيون ورجال دولة ومحترفو تطبيقات وسواهم. ولم يكن الشرق الأوسط القضية الأولى في التجمع الباريسي، لكنه كان حتماً إحدى الأولويات الرئيسة، كما كان إلى حد بعيد «ضحية» القرارات الأخرى حول ألمانية وأوروبة الوسطى والقضايا التي كانت تشغل القارة آنذاك.

كان كل فريق يريد من مؤتمر باريس ما.. يريد! وقد أعلن لويد جورج في العاصمة الفرنسية أن كل ما يريده هو خير شعوب الشرق الأوسط وازدهارها، لكن الواضح أنه كان يريد أيضاً خير الإمبراطورية وازدهارها. وقد بدا واضحاً الآن أن جوائز الإمبراطورية هي مصر والعراق وبعض الجزيرة العربية وفلسطين وإيران وقبرص!. أي معظم الشرق الأوسط باستثناء سورية ولبنان! أما جورج كليمنصو فقد كان يأمل في السيطرة على مضائق الدردنيل، بالإضافة إلى سورية ولبنان و«جنوب بلاد الأناضول»، كما كان يحلم بوضع «مستشار» فرنسي على كتف السلطان التركي شبيه «بالمستشار» البريطاني في مصر! أما الضيف الجديد والأكثر إثارة للاهتمام في المؤتمر فكان بالتأكيد الرئيس الأميركي وودرو ولسون الذي عبر الأطلسي على ظهر الباخرة «جورج واشنطن».

كان الرجال الثلاثة يحملون ثقل القرار الدولي، على الرغم من أن الولايات المتحدة لم تكن قد دخلت أو وصلت إلى الشرق الأوسط بعد! وبين الحاضرين أيضاً كان الشريف فيصل الذي جاء إلى المؤتمر يسائل البريطانيين عن وعدهم بالدولة العربية المستقلة. وتمثل الأرمن بثلاثة وفود مختلفة. وجاء رئيس وزراء اليونان فينزيلوس يبحث عن «اليونان الكبرى» واستعادة الإمبراطورية اليونانية بحيث تشمل الجزء الغربي من آسية الوسطى وإسطنبول ومضائق البوسفور. وحضر رئيس الوزراء الإيطالي السنيور أورلاندو وفي ذهنه أن يعطى من بين أمور أخرى جنوب غرب آسيا الصغرى ومنطقة أزمير! وبالإضافة إلى كل هؤلاء السادة وأحلامهم فإن هناك رهطاً من رجال المصارف وأهل العلاقات العامة ومصدري السندات وبائعيها! وفي القاعات المليئة بدخان السجائر الفاخرة والقصور القريبة من باريس تم بحث «مستقبل» الشرق الأوسط!. الجميع كانوا هناك إلا الأتراك الذين تحدث باسمهم الداماد فريد باشا مرة واحدة أمام المجلس الأعلى للمؤتمر.

لم يأت الأرمن وحدهم مختلفين إلى باريس بل اليهود أيضاً! فقد جاء حاييم وايزمان ومعه وفد من دعاة الفكرة الصهيونية للدفاع عن وعد بلفور وإدراجه في البيان النهائي حول الشرق الأوسط، في حين وقف في وجههم وفد يهودي من أشهر

أعضائه: أدوين مونتاغو؛ وكلود مونتيفيوري؛ وجاكوبي شيف ولويس مارشال! وكان بين هؤلاء أيضاً هنري مورغنتاو، السفير الأميركي السابق لدى الباب العالي وأمين اللجنة الوطنية للحزب الديموقراطي، الذي عارض الفكرة على أساس أن الصهيونية تعيق انصهار اليهود في المجتمعات الغربية. كما كان مورغنتاو يقول: إن إقامة دولة صهيونية في فلسطين سوف يطرح مسألة الازدواجية الوطنية. وهكذا وقّع مع 299 يهودياً أميركياً آخر التماساً إلى الرئيس الأميركي ولسون يناشده فيه عدم دعم قيام دولة يهودية.

لكن مؤيدي الفكرة الصهيونية هم الذين ربحوا عطف ولسون بالإضافة ـ طبعاً ـ إلى لويد جورج، الذي كان يخيفه أن يرى الأراضي المقدسة تحت «سلطة فرنسة الملحدة العلمانية»! وكان في ذهن السياسي البريطاني طبعاً الإبقاء على فلسطين كقلعة لحماية السويس والمصالح البريطانية الأخرى. وقد لعبت الحركة الصهيونية على الوتر الحساس إذ أخذت تتعهد علناً بإبقاء الوطن القومي اليهودي ضمن الكومنولث البريطاني. وهكذا ضمنت بنود وعد بلفور معاهدات السلام وأقرتها عصبة الأمم.

كان مؤتمر باريس بداية الإطلالة الأميركية العلنية على المنطقة التي ستبعد منها النفوذ البريطاني والفرنسي. وبناء على اقتراح من المستر بليس، رئيس الجامعة الأميركية في بيروت، اقترح الرئيس الأميركي على المجلس الأعلى للمؤتمر تشكيل لجنة من ممثلين عن أميركة؛ وفرنسة؛ وبريطانية؛ وإيطالية تذهب إلى سورية؛ ولبنان؛ وفلسطين؛ والعراق وأرمينية للتحقيق في أوضاع هذه البلدان، وتضع تقريراً يمهد للحكم الذاتي فيها. ووافق الإيطاليون والفرنسيون والبريطانيون على الفكرة بادئ الأمر لكنهم عادوا فغيروا موقفهم، فما كان من أميركة إلا أن أرسلت مندوبيها في اللجنة وحدهما، وكانا المستر هنري كنغ، رئيس كلية أوبرلين، والصناعي تشارلز كرين، وقد عرفت هذه بلجنة كنغ ـ كرين، وقامت في ربيع 1919 بجولة في سورية وفلسطين وتركية، ثم رفعت تقريرها في خريف ذلك العام وسط ترحيب عربي بمضامينه. غير أن فرنسة وبريطانية وقفتا في وجهه، ثم أصيب وودرو ولسون بمرض شغله عن المسألة تماماً.

لم يتوصل مؤتمر باريس إلى قرارات نهائية حول الشرق الأوسط، وبدت «معاهدة السلام» الموعودة بعيدة التحقيق أكثر من أي وقت مضى. ومع اشتداد وطأة المرض على ولسون لم تعد واشنطن متحمسة للمشاركة في أي انتداب أو وصاية خارجية. وكانت روسية خارج الصورة. وألمانية والنمسا كانتا في مناخ الانكسار. وإيطالية كانت غارقةً ـ كالعادة ـ في الانقسامات الداخلية واليأس!. وهكذا بقيت مسألة الشرق الأوسط تلقائياً، في هذه المرحلة، بين يدي فرنسة وبريطانية، مع أن الوضع سيتغير جذرياً كلما اقترب العالم فيما بعد من طموحات أهل الحرب العالمية الثانية، في روما وبرلين وفيينا!

لكن الآن تحتل جيوش بريطانية وفرنسة المنطقة برمتها، ومع انتشار قوات الجنرال اللنبي في مصر وفلسطين وسورية بدا واضحاً أن لندن سوف تعتبر ضمناً أن الشرق الأوسط جزءٌ نهائيٌ من إمبراطوريتها، مع أن عدداً كبيراً جداً من العسكريين الذين جندوا خلال الحرب كانوا يحلمون بالعودة إلى الحياة المدنية، الأمر الذي أدى إلى حركة نقل وتسريح واسعة في صفوف القوات البريطانية. وفي الأشهر الأخيرة من العام 1919 انسحبت الفرق البريطانية عن الساحل اللبناني وحلت محلها فرق فرنسية، الأمر الذي أكد المخاوف العربية بأن تقسيمات سايكس ـ بيكو قد وضعت كي تطبق.

كانت الخلافات الفرنسية ـ البريطانية في حد ذاتها كثيرة إلا أن الصراع الأكثر علانية تركز حول نفط الموصل. وكانت شركة النفط التركية (75 بالمئة بريطانية، 25 بالمئة ألمانية) قد حصلت قبل اندلاع الحرب بأسابيع في العام 1914 على امتياز للتنقيب عن النفط في الموصل، إلا أن اتفاقات سايكس ـ بيكو جعلت الموصل تحت رعاية فرنسية. ومنذ عام 1918 بدأ البريطانيون محاولة تغيير الوضع القائم، بأن عرضوا اقتسام النفط مع فرنسة في المستعمرات الأخرى، لقاء إبقاء الموصل ضمن العراق. ومن أجل الاتفاق على التفاصيل سافر مفاوضو البلدين إلى مدينة سان ريمو على الريفييرا الإيطالية حيث ستسوي المعاهدة التي ستحمل اسم المدينة الجميلة أوضاع النفط والأنابيب وما إليهما.

فتحت معاهدة سان ريمو الباب أمام تسوية أوسع نطاقاً مع الإمبراطورية العثمانية، فكانت معاهدة سيفر في آب/أغسطس 1920. التي بموجبها أقر الباب العالي بخروج سورية؛ ولبنان؛ ومصر؛ والعراق والجزيرة العربية من دائرة الإمبراطورية العثمانية.

غير أن معاهدة سيفر انتهت قبل أن تبدأ، بل إنّها لم تُقَرّ تماماً، ولذا كان لا بد «للترتيبات» النهائية في الشرق الأوسط من أن تنتظر معاهدة لوزان العام 1923.

• • •

«لقد ولد»، هذا الشرق الأوسط إذاً، «في النزاع». وحين حلت بدايات القرن العشرين كانت آثار القرون الماضية لا تزال واضحة كالندوب على وجه المنطقة الجغرافي من أناضولية ـ أو بلاد الأناضول كما سماها العرب ـ إلى البحر الأحمر، إذ قبل سبعة قرون تقريباً كانت موجات الغزو المغولي وأوبئة الطاعون قد دمرت المدن وأبادت الشعوب وأجدبت الغابات وجففت قنوات الري، وحين جاء العثمانيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يفعلوا شيئاً، أو ربما فعلوا القليل من أجل تغيير هذه الصورة المحزنة. وخلال خمسة قرون من الحكم العثماني لم تقم تلك الإدارة المركزية التي تستطيع إحياء قنوات الري، ونشر الزراعة، وحفر الآبار الضرورية. وباستثناء «الهلال الخصيب» الشرقي ودلتا النيل ظل العالم العربي جافاً أجرد لا يزرع من أرضه أكثر من 5 بالمئة، وظلت مواشيه وقفاً على الغنم والماعز القادرة على العيش على أي نوع من العشب.

وقد انتعشت الآمال في أرض الإمبراطورية مرحلة قصيرة مع قيام حركة «تركية الفتاة» بين عامي 1909 و1911، إلا أن النتائج لم تكن بحجم التوقعات. ثم ما لبثت الإمبراطورية نفسها أن انهارت، وأطل الغربيون من كل البوابات: فرق المشاة البريطانية ـ الهندية تدخل بغداد في أواخر العام 1917. وفرقة الخيالة البريطانية تدخل فلسطين في العام 1918. ورجال المارينز الفرنسيون ينزلون في بيروت في الأسابيع الأخيرة التي سبقت توقيع الهدنة! إنه الغرب يرث «رجل أوروبة المريض».

لكن قبل أن يصل هؤلاء إلى الأرض نفسها كان الفرنسي جورج بيكو، والبريطاني مارك سايكس قد وقعا اتفاقاً في شباط/فبراير 1916 على اقتسام المنطقة كمن يقتسم قطعة من الحلوى: سورية ولبنان لفرنسة، والعراق وشرق الأردن لبريطانية. ومن أجل منع أي «تعدٍ» في المستقبل أقرَّ هذا الاتفاق في مؤتمر سان ريمو الإيطالي (قرب الساحل الجنوبي الفرنسي) في نيسان/إبريل 1920. ثم أقرته عصبة الأمم في جنيف في أيلول/سبتمبر 1922. وقد عكس التعديل الوحيد الذي أدخل على اتفاقات سايكس ـ بيكو، التفوق البريطاني العسكري في المنطقة حين أعطي انتداب فلسطين للندن بدلا من أن يعطى لمجموعة من «الدول الحليفة».

كان «الانتداب» ـ بدلاً من «الحماية» ـ إقراراً بالمساعدة التي قدمها العرب في ظل الشريف حسين، في حملة الجنرال اللنبي على القدس (راجع الفصل المتعلق به). لكن عندما حاول الملك فيصل أن يقيم مملكته في دمشق عام 1920، لجأ الفرنسيون إلى تفسيرهم الخاص لبنود الانتداب، فأقدموا على هدم نظامه ونفيه إلى الخارج، فيما قمع البريطانيون في خريف ذلك العام حركة مماثلة في العراق.

«الانتداب» لم يكن انتداباً على الإطلاق، لقد كان حكماً مباشراً مارسه البريطانيون والفرنسيون على السواء عبر نظام «المفوض السامي»، الذي حل محل المتصرف العثماني، لكن إلى جانب المفوض السامي سمحت «الإصلاحات» الأوروبية بإقامة أنظمة إدارية في بيروت؛ ودمشق؛ والقدس؛ وعمان وبغداد لتدير شؤون الأمن الداخلي ـ في الحالات العادية ـ والعدل والصحة وغيرها.

وبين العشرينيات وأواخر الثلاثينيات كانت خريطة المنطقة قد تغيرت، كما تغيّر شيء من مظهرها العام كذلك. إذ مع حلول عام 1939 قامت شبكة من الخطوط الحديدية التي امتدت من البصرة إلى بغداد، ومن هناك إلى أنقرة، كما شملت دمشق ويافا والقاهرة. وأقيمت في الوقت نفسه شبكة من الطرقات وأنشئت المستشفيات الحديثة وفتحت مئات المدارس الابتدائية والثانوية التي اعتمدت المنهج الأوروبي في الغالب.

وكان الفرنسيون، بسبب الحلم النابوليوني القديم، أكثر بذخاً وأكثر انخراطاً في شؤون التعليم، وحتى قبل حلول القرن العشرين كانت الحكومة الفرنسية تقدم إلى إرسالياتها الدينية في سورية نحو 800 ألف فرنك في العام، وفي سنة 1914 كان نحو 120 ألف تلميذ من أولاد المنطقة قد انخرطوا في المدارس الفرنسية. كذلك كانت الأموال الفرنسية التي صرفت في حقول أخرى تفوق في حجمها مصروفات بريطانية المقابلة. إذ حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى كان الفرنسيون قد صرفوا نحو 200 مليون فرنك على الطرقات والمنشآت العامة في سورية ولبنان. وبالتالي فإن اتفاق «مؤتمر السلام» على جعل فرنسة دولة الانتداب فيهما كان أمراً شبه طبيعي.

طبعاً لم يكن لبنان الحالي قائماً آنذاك. وبالتالي فإن خريطة الانتداب الفرنسي على سورية كانت تغطي منطقة شاسعة مساحتها 76 ألف ميل مربع وتمتد من تركية في الشمال، إلى فلسطين في الجنوب. وكان غرب سورية ومعه لبنان يضم أجمل قطعة على المتوسط وسلسلة من الجبال الشاهقة والأنهر والأراضي الخصبة. أما سكان منطقة الانتداب الفرنسي الذين بلغ عددهم 3 ملايين نسمة في العام 1920 فقد كانوا خليطاً من الشعوب التاريخية: كالعموريين والآراميين والحثيين والأكراد واليونانيين واليهود والأتراك والأرمن والمصريين.

في هذه المرحلة مدت خطوط الهاتف والتلغراف بين المدن الرئيسة، وطورت الحركة الزراعية في أراضي سورية الشديدة الخصب، ووسع مرفأ بيروت بحيث أصبح أحد أهم مرافئ الشرق وأقيمت معاهد التنقيب عن الآثار. لكن في الوقت نفسه حاول الفرنسيون أن ينقلوا مدن فرنسة، بكل عاداتها، إلى قلب المشرق العربي، وبلغ النفوذ الفرنسي (حيال العالم والعرب) أوجه في العام 1920، حين أطيح بالقوة العسكرية في تموز/يوليو من ذلك العام في مملكة فيصل الأول التي لم تعش طويلاً في دمشق، ونفي الملك نفسه إلى غير عودة. وإذ عززت فرنسة قوتها العسكرية في سورية إلى أقصى ما تستطيع، لم يكن هاجسها الحركة الوطنية فحسب بل كان هاجسها في الدرجة الأولى الخوف من أن يبعدها البريطانيون خارجاً، وبذلك خالفت أيضاً قوانين وبنود الانتداب الذي يفترض أن يكون مؤقتاً.

أقام الفرنسيون في المشرق حكماً متشدداً لم يترك للوطنيين شيئاً من السلطة سوى في أدنى مستوياتها. وقد نقلوا إلى المشرق ذلك النظام الذي أقامه الماريشال لويس لايوتيه في المغرب. ومعظم الضباط الفرنسيين الكبار الذين حكموا في المشرق كانوا قد عملوا من قبل تحت إمرة لايوتيه في المغرب ولعل أشهر هؤلاء الجنرال هنري غورو، أول مفوض سام في سورية ولبنان، والذي كان قد خلف لايوتيه في المغرب. كذلك كان الجنرال دولامونت الذي انتدبه غورو على مقاطعة حلب، قد جاء من منصب مماثل في مدينة مراكش. ومن بين المسؤولين الآخرين الذين انتقلوا من مناصب في المغرب إلى مناصب مشرقية، الكولونيل إدوار برومون والصحافي السابق روبير دولي الذي صار سكرتيراً مدنياً عاماً.

كان النظام الانتدابي موسعاً ومكلفاً على صورة النظام القائم في باريس: ولا بأس أن نسهب قليلاً في وصف هذه المرحلة، بسبب ما تعنيه طبيعة الكتاب وفترته الزمنية. لقد كان المفوض السامي في الواقع بمثابة رئيس الدولة في التركيبة الفرنسية: هو المسؤول الأول في شؤون الدفاع والخارجية وهو الذي يقر أو ينقض جميع القوانين الداخلية، وكانت مختلف قطاعات الحكم الإداري توضع تحت إشراف «السكرتير العام» المكلف بتصريف الشؤون اليومية.

وقد سعت فرنسة الانتدابية بالدرجة الأولى إلى تدمير أو تفكيك ما اعتبرته «أسطورة» الأمة السورية، فقسمت سورية إلى دول اتحادية، في حلب وجبل الدروز ولواء الإسكندرون واللاذقية. إلا أن النظام الاتحادي ما لبث أن أثبت فشله وأعادت باريس العمل بالدولة المركزية في سورية في العام 1924 لكنها أبقت جبل الدروز خارجها. كذلك أبقت «مستشاراً» فرنسياً لكل مسؤول وطني في سورية ولبنان، واستمر القضاة الفرنسيون في ترؤس المحاكم كما استمر الضباط في ترؤس جيشي البلدين. وحتى أواخر الثلاثينيات لم تكن سورية ولبنان فعلياً سوى محميتين فرنسيتين.

كان البريطانيون في الذهن الفرنسي دائماً، (وكذلك كان الفرنسيون دائماً في الذهن البريطاني) ولذلك صرفت فرنسة من الأموال من أجل الجاه السياسي ما يفوق بكثير فائدتها الاقتصادية التي هي عادة قاعدة العمل الاستعماري. وعلى سبيل

المثال كان حجم التجارة الفرنسية مع المشرق في العام 1938 نحو 300 مليون فرنك، مع أن الانتداب كان قد كلف باريس 5 مليارات فرنك، ذهب أكثرها طبعاً ـ أربعة أخماسها ـ على التكاليف العسكرية، وقد وصف موريس باريس مناخ الإمبريالية الفرنسية في العشرينيات بقوله: «من أجل أن نكون متفوقين في عالم المثل، من أجل أن نسيطر على عقولهم ونفوسهم، هذا هو هدفنا. إن الآخرين قد يتفوقون علينا في حقل المال أو الحرب، لكن كل ما نطلبه هو الترحيب الذي يأتي من القلب»!. لقد خسرت فرنسة معاركها العسكرية في أوروبة وها هي في المشرق تطلب «الترحيب» البديل، الذي يؤكد لها أن هزيمتها العسكرية لا تعني هزيمتها الحضارية أيضاً.

لكن بالإضافة إلى شاعرية موريس باريس، فإن فرنسة كانت ترمي من خلال وجودها في المشرق إلى تحقيق مجموعة من الأهداف السياسية والإستراتيجية: كالمحافظة على وضعها كقوة متوسطية، وحماية خطوطها البحرية والجوية إلى الشرق الأقصى، والدفاع عن خط أنابيب النفط الممتد من كركوك إلى طرابلس الذي كانت كميات الوقود المتدفقة منه تزود قواتها المسلحة. وفوق ذلك كله «كان من الأهمية القصوى بالنسبة إلى فرنسة أن تحتل سورية فعلياً، باعتبارها العصب المركزي للرأي العام السياسي العربي، ومدى ما له من تأثير على الإمبراطورية الفرنسية في شمال إفريقية» كما يقول كتاب «أوروبة تغادر الشرق الأوسط».

بكلام آخر، كانت حكومات باريس المتعاقبة، في كل قرار تتخذه في سورية، تأخذ في الاعتبار رد الفعل في المغرب العربي، وبالتحديد في المغرب وتونس والجزائر، إذ من ناحية كان قمع الحركات الوطنية في سورية ولبنان يمكن أن يؤدي إلى التململ في بلاد المغرب لكن من ناحية أخرى فإن تشجيع المطالب الوطنية في المشرق كان يمكن أن يؤدي أيضاً إلى مطالب مماثلة في المغرب.

على أن هذه الإدارة المركزية المتشددة من ناحية، والإعمارية من ناحية أخرى، لم تَحُلْ دون انتفاض الحركة الوطنية في سورية. وفي ربيع وصيف 1920 برزت موجة من الاعتراض القومي الذي بدأ في تحويل خط التاريخ السوري. وغالباً ما كانت الأخطاء السياسية الفرنسية تغطي الإنجازات الإدارية. وسرعان ما بدأ انفصام هائل في

«المهمة التمدينية» (Mission civilsatrice) التي رفعها الفرنسيون كشعار، إذ ملأ الجنود السنغاليون شوارع المدن السورية واللبنانية بالبنادق والهراوات، ونشرت مجلة «الصياد» يومها صورة كاريكاتورية لاتزال تفاخر بها وتعيد نشرها في مناسباتها الرئيسة، يبدو فيها رجل سنغالي يقف فوق صدر أحد المواطنين ومعه حربة ويخاطبه بلغة فرنسية مكسرة قائلاً: «لقد جئت لكي أمدنك».

حاول الفرنسيون بأساليب وطرق كثيرة، ـ من الرقابة إلى النفي إلى العزل ـ الحد من تصاعد الحركة الوطنية التي تحولت إلى ثورة عارمة في جبل الدروز في العام 1925. ثم لجأت باريس إلى أسلوب المراضاة حين أعطت لبنان في العام 1926 دستوراً جديداً ومزيداً من الحكم الذاتي. وفي أعقاب الثورة السورية أوفدت إلى المشرق مفوضاً سامياً مدنياً هو: (هنري بونسو) ومعه تعليمات بفتح باب التعاون مع المواطنين. وقد وضع بونسو صيغة الجمهورية اللبنانية الجديدة، لكن مشاريعه أخفقت في سورية التي أصرت على بقاء اللاذقية وجبل الدروز جزءاً لا يتجزأ من وحدتها، وعلى جلاء القوات الفرنسية فوراً.

في العام 1930 أصدر بونسو بياناً يعلن فيه قيام «الجمهورية » السورية يبقي لفرنسة السلطة على الشؤون الخارجية والدفاع وأمن الأقليات، وفي العام 1932 انتخب أول برلمان سوري، لكن حركة الاعتراض استمرت بكل الطرق والوسائل طلباً للاستقلال الكامل، وقامت أحزاب وتكتلات سياسية كثيرة تعارض الانتداب. وحين توفي رئيس حزب الكتلة الوطنية إبراهيم هنانو في كانون الأول/ ديسمبر 1935 تحول إضراب عام في دمشق إلى شبه ثورة امتدت إلى جميع المدن الأخرى، وفقد الانتداب أعصابه أمام الحدث، وأمر المفوض السامي الكونت دو مارتل باعتقال الزعماء الوطنيين وفرض الأحكام العرفية على كل البلاد.

إلا أن ذلك أيضاً لم يؤد إلى حل، وفي هذه المرحلة كانت فرنسة قد بدأت تواجه الخطر النازي في أوروبة (سنعرض للدور الألماني في الشرق لاحقاً) ولم يعد بإمكانها إبقاء عدد كبير من الجنود في المشرق. وفي شباط /فبراير طلب الكونت دو مارتل من السياسي عطا الأيوبي ترؤس الحكومة السورية. وكان الأيوبي رجلاً معتدلاً مقبولاً من

الحركة الوطنية. كذلك رتب دو مارتل ـ الذي كان مفاوضاً قديراً ـ لتجديد المفاوضات حول المعاهدة السورية ـ الفرنسية ونظم رحلة إلى فرنسة شارك فيها أربعة من رجال الكتلة الوطنية.

إلا أن المفاوضات بدأت فاشلة من الأساس، إذ أصر الفرنسيون على إبقاء عدد كبير من قواتهم في البلاد، وعلى فصل جبل الدروز عن سورية، وهي شروط رفضها الوفد السوري المفاوض بلا حساب مهدداً بقطع الحوار، فما كان من دو مارتل إلا أن طار إلى باريس بنفسه في محاولة لتهدئة الأجواء. وفي حزيران/يونيو 1936 وصلت إلى السلطة في فرنسة حكومة الجبهة الشعبية التي كان وزير خارجيتها إيف ديبلو، ونائبه بيار فينو، وكان كلاهما معروفاً بعدائه للفكرة الاستعمارية، فتجددت المفاوضات مع سورية، ونجحت هذه المرة ووقعت المعاهدة السورية ـ الفرنسية بالأحرف الأولى في أيلول/سبتمبر من ذلك العام.

نصت المعاهدة على قيام شراكة تعاقدية بين دولتين مستقلتين مكان النظام الانتدابي، وكانت المعاهدة تشبه إلى حد بعيد المعاهدة بين العراق وبريطانية، ومصر وبريطانية، وتنص على «التشاور» في الشؤون الخارجية والمالية وحالة الحرب، حيث تعهد الوفد السوري بوضع كل الإمكانات في تصرف فرنسة. كذلك أعطيت فرنسة بموجب المعاهدة الحق بقاعدتين جويتين وبإبقاء جيوش فرنسية على الأراضي السورية مدة ثماني سنوات أخرى. وتحولت المعاهدة التي أقرها البرلمان السوري في 27 كانون الأول/ديسمبر 1936 إلى أساس للتفاوض بين لبنان وفرنسة أيضاً. مع أن الاتفاق الفرنسي ـ اللبناني تضمن مفارقات كثيرة كمدته (25 عاما قابلة للتجديد تلقائياً 25 عاماً أخرى) عدم تحديد أمكنة لانتشار القوات الفرنسية.

أدى الاتفاقان بلا شك ـ لكن إلى حين ـ إلى استقرار النفوذ الفرنسي في المشرق، وارتاحت إلى ذلك أحزاب اليسار الوسط في باريس. وخلال توقيع الاتفاق السوري ـ الفرنسي تحدث بيار فينو عن مستقبل العلاقات مع سورية ولبنان قائلاً إن الاتفاقين ضمنا كرامة واستقلال البلدين كما ضمنا استمرار التعاون الفرنسي مع شعوب المشرق. إنه التوازن الذي سيضمن الوجود الفرنسي لكن فقط لسنوات قليلة مقبلة.

كيف يمكن العثور على التوازن الصعب بين سلطة انتدابية وقبول شعبي، في منطقة تغلي ـ منذ ذهاب العثمانيين، أو بالأحرى في المراحل الأخيرة من وجودهم ـ بالتيارات والحركات الاستقلالية والوطنية؟!. هذا السؤال كان يطرحه البريطانيون على أنفسهم كما كان يطرحه الفرنسيون، على أن البريطانيين حاولوا أن يطبقوا في العراق، قبل الفرنسيين في سورية ولبنان، ما اعتبروه التوازن المثالي. والعراق ـ مثل سورية ولبنان، أو حتى أكثر منهما بقليل ـ كان يضم مجموعة من الأقليات والانتماءات المختلفة من أكراد وأتراك ويهود وإيرانيين وآشوريين وكلدان وغيرهم. وكان البريطانيون قد استكملوا احتلال العراق في نهاية الحرب العالمية الأولى وجعلوا الحكم في بغداد تابعاً لإدارة التاج في نيودلهي على أساس أن العراق إقليم هندي.

إلا أن هذا الأسلوب الاستعماري المباشر كلف بريطانية الكثير. وفي العام 1920 قامت في أرجاء العراق ثورة عارمة فاقت الثورة السورية، الأمر الذي حمل لندن على إرسال تعزيزات قوامها 25 ألف رجل لتقمع التمرد الوطني. غير أن البريطانيين تعلموا في بغداد درساً سوف يطبقونه ما استطاعوا. وفي «مؤتمر القاهرة» الذي عقده في العام 1921 كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين، لإعادة تقييم السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، قرر خبراء الشؤون العربية أنه من الأفضل تجنب الدور القمعي الذي لجأ إليه الفرنسيون. وبدلاً من التسلح «بالحق الانتدابي» قرروا اتخاذ «مبادرة طيبة» بعرض الاتفاق أو المعاهدة على العراقيين. ولم تكن هذه «المغامرة» خطيرة كما بدا للإمبريالية بادئ الأمر. فالعراق لم يكن مهماً أو حيوياً بقدر ما كانت مصر بالنسبة إلى خط الدفاع البريطاني الإمبريالي. وفوق ذلك فإن تحميل النفقات العسكرية والإدارية للعراق نفسه، جاء في وقت كانت فيه لندن تعاني ضائقة اقتصادية داخل المملكة المتحدة. وهكذا وقعت المعاهدة في العام 1922. وأقرت بعد ذلك بعامين، وقد نصت على السماح بوجود عسكري أكثره جوي، وفي المقابل وافقت بغداد على العمل «بالنصيحة» البريطانية التي يقدمها المفوض السامي وإدارته في العلاقات الخارجية والشؤون المالية الداخلية وحماية الأقليات.

كانت التجربة حسنة بالنسبة لبريطانية. وقد قبلت عصبة الأمم علاقة المعاهدة على أنها موازية للانتداب. وما لبث أن تزايد عدد الخبراء البريطانيين في اضطراد، فانضموا إلى أولئك الذين بقوا هناك بعد انتهاء الحرب، وراحوا يقيمون شبكة واسعة من الطرق والمواصلات، كما أنشؤوا عدداً من المستشفيات، وأسسوا الشرطة، وعملوا على تطوير الزراعة. وكان الأسلوب البريطاني في التعاطي مع المواطنين أكثر ليونة من الأسلوب الفرنسي. ومقابل مدرسة لايوتيه الصارمة في المغرب تعلم البريطانيون أمثولاتهم في السودان ومصر، وعلى الرغم من أن الإنجازات الفرنسية في المشرق فاقت بكثير المشاريع الإعمارية البريطانية، فإن العلاقة بين لندن وبغداد كانت أكثر سهولة.

على أن الملك فيصل الذي انتقل من سورية إلى عرش العراق لم يكفَّ عن مطالبة الإنكليز بالاستقلال التام وإعادة النظر في المعاهدة، وبالفعل وعد البريطانيون في العام 1927 بدعم عضوية العراق في عصبة الأمم مع حلول العام 1932 «إذاً بقي معدل التقدم على ما هو عليه». إلا أن هذا الحافز لم يُغْرِ الشعب العراقي كثيراً، وازداد أيضاً التذمر من تحمل المسؤوليات المالية عن المنشآت العسكرية البريطانية، والالتزام بتكاليف أسراب السلاح الجوي البريطاني في الداخل، كما بدأ الجيل العراقي الصاعد يتذمر من وجود الخبراء البريطانيين وكثر تهم.

كانت التغيرات السياسية في باريس تنعكس على سياسة فرنسة في سورية ولبنان، وكانت التغيرات السياسية في لندن تنعكس على سياسات بريطانية في العراق، ومصر. وهكذا حين جاءت الحكومة العمالية برئاسة رمزي ماكدونالد في العام 1929، قطعت وعداً بدعم طلب العراق لعضوية عصبة الأمم في العام 1932، والوعد لم يكن هذه المرة مرتبطاً «بمعدل التقدم الحالي».

ومع أن الانتداب لم ينته بالسرعة المطلوبة إلا أن عملية انتقال السلطة إلى المواطنين سارت في نمط جيد، وبدا للمرة الأولى أن للحكومة الوطنية يداً شبه مطلقة في صرف المستشارين البريطانيين، إلا أن حركة التظاهرات والاعتراض على السلطة الانتدابية لم تتوقف في أي حال، الأمر الذي أقنع البريطانيين بضرورة عقد الاتفاق بعد مفاوضات صعبة انتهت في ربيع العام 1930، وكان الاتفاق ينص

على السماح للبريطانيين بالعمل العسكري على أرض العراق في «حال الحرب أو الحرب الوشيكة»، كما يسمح لهم ـ كما ذكرنا سابقاً ـ باستخدام الأرض العراقية للعبور الدفاعي، وببقاء الضباط البريطانيين لأغراض التدريب. إلا أن بغداد نفسها لم تعرف الكثير من الاستقرار السياسي في هذه المرحلة، إذ بين عامي 1932 و1948 شهدت الحكومات 45 تعديلاً وزارياً، في حين أن البريطانيين لم يخسروا شيئاً من المنافع الإستراتيجية. ومع توازن التجربة في العراق قررت لندن أن تنقل النموذج إلى مصر.

وإذا كانت مصر هبة النيل ـ كما قال هيرودوتس أول المؤرخين ـ فإنها كانت أيضاً الجوهرة الأخرى في التاج البريطاني بعد الهند، هنا أرض خصبة تمتد على مساحة 383 ألف ميل، ولا يفوقها مساحة سوى المملكة العربية السعودية من جهة، والسودان من جهة أخرى، لكن من حيث تعداد السكان فقد كانت مصر الدولة العربية الكبرى بلا منازع، إذ قارب سكانها 15 مليون نسمة في العام 1914. غير أن 13 ألف ميل مربع فقط كانت قابلة للزراعة في عرض مصر كلها، فيما ابتلعت الصحراء مساحات هائلة من هذه الدولة الواقعة بين المتوسط والبحر الأحمر على طرف إفريقية، وفي الحد بين مشرق العالم العربي ومغربه.

وكان التنوع الاجتماعي في مصر شبيهاً بالتنوع في سورية والعراق. غير أن أكثرية السكان كانت من الفلاحين في عالم من الباشاوات و«العزب» أو المزارع. وقد انتشر الفقر والأوبئة في الوسط الفلاحي، من البلهارسية إلى التراخومة خصوصاً في وادي النيل. وسوف ننقل هنا أيضاً من كتاب «أوروبة تغادر الشرق الأوسط» الذي يقول عن تلك المرحلة: إن «من بين جميع الشعوب المستغلة والمتخلفة في الشرق الأوسط، لم يكن هناك ما هو غارق في الأسى مثل المصريين».

اتخذت مصر هويتها وطبعها من ممرين مائيين لا مثيل لهما في العالم: النيل وقناة السويس! وكان النيل ـ الذي يبدأ مسيرة الأربعة آلاف ميل في وسط إفريقية ـ مصدر الحياة الاقتصادية في مصر منذ البداية. ومنذ القدم كان ثلثا سكان مصر يعيشون دائماً ضمن هذا المستطيل الطبيعي الذي يشكل النيل والقناة ـ فيما بعد

ـ البالغ طولها مئة ميل وميل واحد، وكما أدى النيل دوراً في حياة المصريين أدت القناة أيضاً دورها. وثمة نظريات تقول إن التكاليف الباهظة التي تكبدها الخديوي إسماعيل في أواخر القرن التاسع عشر في شق القناة، هي التي أسهمت إلى حد بعيد في إفلاس نظامه، وحمله على تسليم آلية الضرائب والجباية إلى المراقبين الإنكليز والفرنسيين.

وفي العام 1882 حين أقدم غلادستون على إرسال تعزيزات بريطانية لقمع الحركة الثورية التي قامت في الجيش المصري، «وجد القنصل البريطاني العام السيد افلين بيرينغ نفسه ـ بين ليلة وضحاها ـ الرجل الفرد الأكثر نفوذاً في كل مصر». وقد أعطي بيرينغ ـ الذي أصبح فيما بعد اللورد كرومر ـ كل الصلاحيات «الاستشارية» من أجل «توجيه» أعمال الحكومة المصرية! لقد كانت تلك العلاقة «الاستشارية» بداية الحكم البريطاني المباشر.

بين عامي 1883 و1907 ـ العام الذي ذهب فيه إلى التقاعد ـ استحدث كرومر، من خلال «النصائح»، بعض إصلاحات مصر الإدارية المدنية. والواقع أن الخزينة المصرية في أيامه عادت إلى وضعها الطبيعي، بسبب الضرائب التي فرضها، والخفض في المصروفات، وفي هذه المرحلة أيضاً تضاعفت مواسم السكر والقطن ثلاث مرات، وأقدمت مصر بإشراف كرومر على توسيع نظام الري الذي بدأه محمد علي، وتم في العام 1902 بناء أول سد في أسوان، فبدأ مالكو الأراضي المصريون الاستفادة من مياه النيل خلال الصيف لأول مرة، وطرأت تحسينات أخرى على مستوى المعيشة في مصر مع أن المستفيدين منها كانوا قلة.

على أن احتلال السودان، الذي أصبح جزءاً من مصر منذ عام 1822، تم بصورة مختلفة. فقد استخدم البريطانيون المواجهة المسلحة ضد ثورة المهدي، ثم عادوا فاستخدموا القوة في العام 1898 بقيادة الجنرال هوراشيو هيربرت كيتشنر. ومن أجل أن تمنع أي تسلل فرنسي في المستقبل إلى السودان ومصر، عقدت بريطانية اتفاقاً أصبح السودان بموجبه دولة ذات حكم ذاتي تعتمد على مصر وبريطانية معاً، لكن ذلك لم يكن سوى غطاء للحكم البريطاني المباشر.

في غضون ذلك استمرت لندن في توسيع حكمها ونفوذها في مصر. ومن خلال قناة السويس استطاع البريطانيون أن يخفضوا كلفة طرقهم البحرية إلى الشرق الأقصى بنحو الثلثين، وكذلك الوقت. وسرعان ما تحول هذا الممر المائي إلى شريان حيوي في ارتباط بريطانية بالهند التي كانت قد أصبحت في العام 1913 سوق بريطانية الأول، وفي النصف الأول من القرن العشرين كان نصف الجيش البريطاني يتمركز في الهند، كما أن معظم ضباط الجيش الهندي الكبار كانوا من البريطانيين... لقد أصبحت قناة السويس بلا شك بوابة شبه القارة الهندية.

إذاً، ما كانت بدايته محاولة احتلال لحماية الاستثمارات والمكاسب الأوروبية في مصر، تحول إلى احتلال استعماري هدفه ضمان أمن بريطانية البحري! بل إن مصر كانت خلال الحرب العالمية الأولى تشكل الفارق بين الخسارة والربح، فقد مر عبر القناة 750 ألف جندي من القوات الإمبراطورية (بريطانيون، هنود، أوستراليون، نيوزيلنديون) في طريقهم إلى الجبهات الأوروبية والعثمانية خلال أربع سنوات ونصف السنة من القتال، ولم تؤد الحملات التركية على القناة في عامي 1915 و1916 إلا إلى تأكيد أهميتها الإستراتيجية لدى البريطانيين. ولذا ما إن اندلعت الحرب حتى ألغت بريطانية كل غموض في علاقتها مع مصر وأعلنتها محمية لها.

كانت بريطانية تهدف من خلال ذلك إلى إنهاء العلاقة العثمانية بمصر، غير أنه في هذا الوقت كانت الحركة الوطنية تتململ داخل البلاد. ولم تكن هذه الحركة مقتصرة على الطبقة العاملة بل انتشرت خصوصاً في صفوف الصناعيين والأغنياء الذين رأوا ـ كما يقول جان لاكوتور ـ أن بريطانية لن تسمح لهم بالتوسع في أعمالهم التجارية بسبب مصالحها في هذا المجال.

قامت حركات استقلالية كثيرة قبل الحرب العالمية الأولى أيضاً، وقد واجهتها بريطانية ببعض «التنازلات» الإدارية، مثل الجمعية التشريعية التي قامت في ظل كيتشنر، لكنها أغلقت خلال الحرب، كما أغلقت الصحف، وسُجِن السياسيون أو أبعدوا إلى المنفى. «وبعدما انتهت الحرب عمت النقمة الشعبية الراكدة مصر، وأعرب الناس عن الثأر الكامن منذ وقت طويل، وكل ذلك في بلد معروف سابقاً بأن شعبه هو الأكثر لطفاً ووداً في الشرق الأوسط».

عثرت الحركة الوطنية على زعيمها خلال الحرب: سعد زغلول باشا!. كان سعد زغلول باشا محامياً عادياً من أبوين فلاحين، وسيماً، طويل القامة، وألمع خطيب في حياة مصر آنذاك، وكان قد تزوج من ابنة مصطفى فهمي باشا (رئيس الوزراء في ظل كرومر)، كما عمل فترة طويلة وزيراً للتربية أيام كرومر، وأصبح بعدها وزيراً للعدل ونائباً لرئيس المجلس، ولذلك نظر الكثيرون إلى سعد زغلول بادئ الأمر على أنه متعاون مع البريطانيين، لكنه ما لبث أن برز كزعيم وطني فريد تسير خلفه مصر الطامحة إلى الاستقلال. وأكثر ما أثار سعد زغلول ورفاقه أن تكون لفيصل الأول حكومته في سورية وأن تبقى مصر، التي انضمت إلى الحلفاء منذ اندلاع الحرب، مجرد محمية بريطانية.

حين انتهت الحرب طلب سعد زغلول من السيد ريجينالد وينغيت، المفوض السامي البريطاني، الحق بأن يذهب إلى لندن لطرح قضية مصر، فوافق وينغيت ورفضت لندن، فقامت في إثر ذلك حركة اعتراض واسعة النطاق، فنفى البريطانيون سعد زغلول ورفاقه إلى مالطة، لكن التظاهرات لم تتوقف في القاهرة والإسكندرية، الأمر الذي حمل البريطانيين على إرسال تعزيزات لقمعها. وفي العام 1919 أعدمت السلطات البريطانية بالرصاص نحو 30 وطنياً اتهموا بنسف المنشآت. ومع أن نفي سعد زغلول لم يطل إلا أن الاحتجاجات استمرت بعد الإفراج عنه وعن رفاقه، وفي نهاية الأمر أرسلت لندن إلى القاهرة «لجنة تحقيق» برئاسة اللورد ميلنر كان يعتقد أنها سترفع توصية بجعل مصر «دولة ذات حكم ذاتي تحت الحماية البريطانية» لكنها بدلاً من ذلك أوصت بالاستقلال الفوري.

لكن الاستقلال سيكون مربوطاً، أو مشروطاً ـ بالتأكيد ـ بمعاهدة تحالف تنص على أن «توجه» بريطانية سياسة مصر الخارجية وأن تحتفظ بوجود عسكري دائم لحماية الطرق ووسائل المواصلات الإمبراطورية، وأن يكون لها الحق في حماية بعض الأجانب القاطنين في البلاد!. هذه الصيغة التي تمت في العراق، عرضت أيضاً على الحكومات المصرية المتعاقبة بين عامي 1920 و1936.

إلا أن الاقتراح البريطاني لم يلقَ الترحيب المطلوب في القاهرة. وسافر سعد زغلول إلى لندن هذه المرة ليبلغ السلطات أن أقصى ما يمكن أن تقبل به الحركة الوطنية هو أن تبقى القوات البريطانية في منطقة القناة وحدها، كما أصر على أن جميع الأجانب يجب أن يكونوا خاضعين للقوانين المصرية، وطالب بأن تشارك الحكومة المصرية في إدارة شؤون السودان، غير أن لندن المزهوة بالانتصار في الحرب رفضت مطالب الزعيم المصري، خصوصاً في ما يتعلق بالسودان، لأن عقلها كان على النيل الذي لم تُرِدْ أن يقع تحت السلطة المصرية وحدها.

كانت قضية استخدام مياه النيل قد أثيرت أول مرة في العام 1913 عندما شرعت حكومة الخرطوم في بناء سد للمياه عبر النيل الأزرق، وقد أثار ذلك فزع مصر من أن تمنع السودان تدفق النهر العظيم وتتركه يخصب في أراضيها وحدها، لقد كان القطن، وكانت مواسم القطن هي كل شيء بالنسبة إلى مصر آنذاك. وعشية الحرب الأولى كان القطن يشكل 94 بالمئة من مجموع الصادرات المصرية كلها. ويبدو أن اللورد ميلنر (وزير المستعمرات) لم يغفل هموم مصر، إذ اقترح في الملحق الذي وضعه عن تحقيقاته، إنشاء لجنة مصرية ـ سودانية «تضمن حصول البلدين على الكميات الكافية والمضمونة من المياه»، لكن الإنذار المبطن كان واضحا أيضاً: لا بد من احترام كرامة السودان كدولة منفصلة.

ظل البريطانيون والمصريون منقسمين حول موضوع السودان بقدر انقسامهم حول استقلال مصر، وشعر ميلنر عن قرب بمدى تغير الأزمان حين اجتمع إلى الجنرال اللنبي، الذي أصبح مفوضاً سامياً في مصر، وأقرا معا بأن كلمة «محمية» أصبحت عبئاً ثقيلاً جداً في زمن «الانتداب» و«المعاهدات»، فإذا لم يكن سعد زغلول مستعداً للقبول بعد الآن بالشروط البريطانية، لا بد لميلنر واللنبي إذاً من إنهاء وضع «المحمية» من جانب واحد، وقد فعلت لندن ذلك حقاً في شباط/فبراير 1922. إذ أعلنت مصر دولة مستقلة، لكن البريطانيين احتفظوا لأنفسهم بـ1) المحافظة على سلامة الاتصالات الإمبراطورية و2) الدفاع عن مصر ضد كل عدوان خارجي و3) حماية المصالح الأجنبية والأقليات في مصر و4) الإبقاء على الوضع الخاص للسودان.

قبلت الحكومة المصرية الإعلان البريطاني على أساس النوايا الحسنة، وانصرفت على الفور إلى وضع دستور وطني، وفي آذار/مارس 1923 أعلن السلطان فؤاد ملكاً على مصر (والسودان)، وبعد أشهر صدر قرار ملكي بالدعوة إلى انتخابات عامة!. خلال الفترة الانتقالية هذه انتقد سعد زغلول التدخل البريطاني المباشر في شؤون مصر، لكنه قبل قضية الدعوة إلى انتخابات عامة متزعماً حزب الوفد في المعركة، وبالفعل فاز الوفديون في انتخابات 1924 بأكثرية ساحقة وأصبح سعد زغلول رئيساً للوزراء في كانون الثاني/يناير من ذلك العام، غير أنه لم يكفّ عن معارضة السلطة البريطانية في مصر والسودان معاً.

توفي سعد زغلول باشا في العام 1927. وترأس حزب الوفد مصطفى النحاس باشا، أقرب مساعديه. وفي أيامه (1929) وقع البريطانيون مع السودان ومصر أهم الاتفاقات حول اقتسام مياه النيل بين الدولتين، كذلك راح الملك فؤاد يطيح بالحكومات الوفدية، وانصرف المصريون إلى حين عن الصراع مع بريطانية التي راحت تتفرج على الصراع بين القصر والوفد.

لم يكن الساسة المصريون في تلك المرحلة يعتقدون أن بريطانية يمكن أن تجلو عن القناة، أما مصر نفسها فإن جميع السياسيين طالبوا بريطانية بالجلاء عنها، بشكل أو بآخر. وإذا كان النيل رئة مصر فإن القناة كانت رئة الكومنولث. وكانت أهمية القناة كشريان تجاري تزداد مع السنين وليس العكس، وفي العام 1935 بلغ معدل السفن التي تعبرها نحو ستة آلاف ناقلة حمولة 32 مليون طن، نصفها تماماً، أي نصف السفن ونصف البضائع - بريطاني. وبالإضافة إلى الأهمية التجارية، كانت القناة تؤمّن للبحرية الملكية سرعة الوصول إلى جميع المستعمرات، ومن ثَمَّ تربط فيما بينها وتضمن ولاءها، كما كانت القوات المتمركزة في القناة تدعم النفوذ البريطاني في حوض المتوسط برمته وتعززه.

وكانت بريطانية قد استثمرت حتى العام 1935 نحو 400 مليون جنيه، نصفها في مصر وحدها: في البنوك والقطن والشركات العقارية وغيرها. وكانت «الطريقة المثلى» لحماية هذه المصالح، الوجود البريطاني العسكري على ضفتي القناة وفي

الموانئ الأخرى، وهكذا شكلت القناة عنوانا دولياً هائلاً بالنسبة إلى بريطانية كدولة تجارية ودولة عسكرية معاً.

لقد علق في أذهاننا جميعا أن الدول «الأوسطية» في أوروبة كانت بريطانية وفرنسة، لكن الواقع أن الدول التي حاولت الوصول إلى الشرق والبقاء فيه لم تكن أقل أهمية، ولعل الخوف من مطامع موسوليني، الذي احتل أثيوبية وارتكب فيها فظاعات لا تنسى، هو الذي دفع حكومة الوفد في مصر أو أقنعها بالإبقاء على علاقات «عادية» مع بريطانية، فقد شعرت مصر بعد وصول الدوتشي وقواته إلى أديس أبابا أن طموحاته لن تتوقف هناك، كذلك كانت القاهرة تدرك أن ثلاثة من الأنهر الرئيسة التي تصب في النيل (النيل الأزرق، أتابارا، سوبات) تنبع أيضاً من أثيوبية.

كانت بريطانية تخشى بدورها أحلام موسوليني التوسعية ليس فقط في إفريقية، بل في كل مكان. إلا أن اتفاقها مع مصر كان يمنعها من نقل المزيد من الدفاعات والأسراب إلى الأراضي المصرية إلا في حالة الحرب، كما أنها أصبحت أكثر حرصاً الآن على ألا تحرك التململ في أوساط الشعب المصري... وهكذا بدأ البحث عن اتفاق أو معاهدة جديدة في مصلحة الفريقين. لكن قبل أن تبدأ المفاوضات المتفق عليها في العام 1936 توفي الملك فؤاد وخلفه ابنه، الملك فاروق، فأجريت انتخابات جديدة نال فيها الوفد أيضاً الأكثرية الساحقة، وكلف مصطفى النحاس باشا تشكيل الحكومة الجديدة.

من غرائب المصادفات التاريخية أنه حين بدأت المفاوضات مع حكومة النحاس في لندن كان وزير خارجية بريطانية آنذاك السيد أنطوني أيدن «الذي أظهر الكثير من التفهم والتآلف»، وبعد عشرين عاماً تماماً سوف يقود إيدن الحملة على مصر في حرب السويس، لكن هذه المرحلة لا تعني المقدمة ولا الكتاب في أي حال.

في 26 آب/ أغسطس 1936 وقّعت مصر وبريطانية معاهدة التحالف وكان أهم بند فيها ـ بالتأكيد ـ أن الاحتلال البريطاني لمصر انتهى. فقد اعترفت لندن رسمياً الآن بسيادة واستقلال مملكة مصر، كما تبنت طلب مصر للانضمام إلى عضوية

عصبة الأمم. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد بريطانية تمثّل في القاهرة بمفوض سام بل بسفير، واحتراماً لسيادة مصر وافق البريطانيون على سحب قواتهم من التجمعات السكانية، خصوصاً من القاهرة والإسكندرية.

مقابل هذه «التنازلات» حصلت لندن على مكاسب لا تقل أهمية على الإطلاق، منها السماح للسلاح الجوي البريطاني باستخدام الأجواء المصرية متى شاء في حالات الحرب والسلم، كذلك منحت أسراب وسفن السلاح الجوي الملكي في المتوسط حرية غير محدودة باستخدام ميناء الإسكندرية، وحتى في زمن السلم سمح لنحو عشرة آلاف عسكري باتخاذ مواقع على ضفتي القناة، كما سمح للطائرات البريطانية باستخدام مدرجات للهبوط في المنطقة. وتعد المعاهدة بالدعم المصري الكامل وحرية استخدام الأراضي والمياه المصرية وجميع الموانئ والطرق «في حال الحرب أو خطر الحرب». وتجنبت المعاهدة بصورة عامة الإشارة إلى موضوع السودان، إلا أن التنازل الذي أعطي لحساب مصر هو النص القائل بأنه يتعين على بريطانية تسمية موظفين مصريين أو بريطانيين في السودان، في حال عدم توافر الكفاية في موظفين سودانيين لمناصب إدارية معينة، كذلك رفعت قيود الهجرة المصرية إلى السودان.

كانت هناك مسألة أكثر أهمية بالنسبة إلى كرامة المصريين هي مسألة الامتيازات المعطاة للأجانب منذ أيام الحكم العثماني، وبموجب هذه الامتيازات كانت هناك حقوق قضائية ومالية خاصة للأوروبيين، وفي منتصف القرن التاسع عشر كان الألوف من اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين والبريطانيين يشكلون دولة ضمن الدولة في مصر، إذ سيطروا على التجارة والاقتصاد دون أن يكونوا مسؤولين تجاه المحاكم المصرية. وفي أواخر القرن الماضي أنشئت محاكم مشتركة من الأوروبيين والمصريين لكن السيطرة الأوروبية لم تتغير. وحتى حين ألغت تركية مصطفى كمال سياسة الامتيازات في مؤتمر السلام الذي عقد في لوزان في العام 1923 ظل معمولاً بها في مصر!. المعاهدة المصرية ـ البريطانية الجديدة وضعت الخاتمة لهذا الفصل من السياسة الاستعمارية، وبدأت الاستعدادات لإلغاء المحاكم المشتركة. أما مدة المعاهدة كانت 20 عاماً.

تم الاحتفال بتوقيع المعاهدة في 10 داوننغ ستريت بحضور مندوبين عن الأحزاب المصرية الثلاثة عشر. في دفاتر التاريخ أيضاً أن أنطوني أيدن ألقى يومها كلمة جاء فيها: «إن مناسبة توقيع هذه المعاهدة هي المرة الوحيدة التي ظهرت فيها صورتي على مجموعة من الطوابع البريدية وكانت هذه طوابع مصرية». وفي تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام أقر البرلمان في البلدين المعاهدة بأكثرية ساحقة، لقد انتهى بذلك 54 عاماً من الاحتلال البريطاني لكن استقلال مصر الكامل كان لا يزال مسألة مؤجلة.

• • •

ثمة دولة عربية ثالثة كانت مرتعاً للانتداب البريطاني، لكن هذه المرة لن تكون هناك معاهدات ولا حلول. هنا سوف يخرج الانتداب وتخرج معه، إلى زمن طويل، الدولة التي كانت في عهدته : فلسطين!

تكراراً، يعنينا في هذه المقدمة، من الموضوع الفلسطيني ـ كما من غيره ـ مرحلة ما بين الحربين، أي المرحلة التي أدت في نهاية المطاف إلى تكوين الشرق الأوسط بصورته الحديثة وشكله الحالي. من حيث المساحة أو الجغرافية كانت فلسطين أصغر دول الانتداب العربية، أما من حيث الحقيقة، فقد كانت أكثر مشاكل العالم تعقيداً خلال نصفي القرن العشرين، إنها القضية التي ستظل مطروحة بين العرب والغرب، بشكل أو بآخر، حتى نهايات القرن.

كان الالتزام «الأدبي» البريطاني الأساسي بعد الحرب العالمية الأولى مساعدة اليهود في إقامة «الوطن القومي»، وقد أعطي هذا الالتزام بالوعد الذي أطلقه وزير الخارجية بلفور للحركة الصهيونية في العام 1917، وهو بيان ضُمّن تقريباً بنصه الحرفي في الانتداب الذي أعطته الدول الكبرى لبريطانية في مؤتمر سان ريمو في العام 1920 والذي كررته عصبة الأمم في مؤتمر جنيف العام 1922.

نتيجة التوافق الدولي على الوقوف إلى جانب مشروع الحركة الصهيونية الأساسي، تعدلت أيضاً الاتفاقات التي كانت قائمة بين بريطانية وفرنسة خلال الحرب، واستطاعت الأولى أن تبسط نفوذها على رقعة أكثر اتساعاً، فقد نجحت حكومة لويد

جورج، ليس فقط في إبعاد الفرنسيين عن شبه جزيرة سيناء، بل أيضاً في تعبئة الدعم اليهودي داخل الولايات المتحدة من أجل إقامة محمية بريطانية في فلسطين.

لكن الخطأ الكبير الذي وقعت فيه بريطانية أنها حين وضعت «وعد بلفور» لم تقدِّر إلى أي مدى سيكون موقفها متناقضاً بين دعمها للحركة الصهيونية، ووجودها في الوقت نفسه في العالم العربي. في البداية أيد الأمير فيصل إعطاء اليهود وطناً قومياً في أقصى الطرف الغربي من العالم العربي، بل أظهر الحماس له، معرباً عن أمله بأن العرب واليهود سوف يقفون معاً في مواجهة «المشاريع الاستعمارية الفرنسية». على أن الدولة الانتدابية لم يكن حجمها يزيد في فلسطين الآن على عشرة آلاف كيلومتر مربع ـ أي حجم لبنان ـ لكن الفارق أن 65 بالمئة من التربة لم تكن صالحة للزراعة كما قال الجيولوجيون البريطانيون، كما أن مصادر المياه كانت شحيحة، وإمكانات الري قليلة جداً. والإهمال الذي لقيته فلسطين أيام العثمانيين كان جزءاً من انهيار الإمبراطورية، الذي بلغ ذروته حين هزمت أمام حملة الجنرال اللنبي (راجع الفصل الخاص) في العام 1917. وقد أقام البريطانيون بعد مجيئهم حكماً مركزياً وقسّموا البلد إلى مقاطعات على رأسها مسؤولون بريطانيون مدنيون، فيما أعطيت المسؤوليات الأقل أهمية إلى العرب أو اليهود. كذلك خطط الحكم الانتدابي لإقامة مجالس مشتركة تتعاون مع المفوض السامي لكن العرب رفضوا الفكرة حتى لو كان اليهود الأعضاء أقلية في المجلس، وهكذا بقي المفوض السامي خلال العشرينيات والثلاثينيات هو الحاكم المطلق في كل شيء، وهو نموذج من السلطة لم يمارسه البريطانيون إلا في إفريقية والمناطق النائية في الشرق الأقصى. غير أن الانتداب أقام ـ كما في معظم المستعمرات الأخرى ـ شبكة متطورة من الطرقات، وقوة شرطة محلية، وعدداً من الجسور، وغير ذلك من المنشآت. وفي غضون ذلك كان تدفق المهاجرين اليهود يرتفع بنسب كبيرة: إذ كان عددهم في العام 1919 نحو 55 ألفاً، لكنه تضاعف خلال عقد واحد حيث بلغ في العام 1929 نحو 160 ألفاً. وفي المقابل ارتفع عدد سكان فلسطين بنسبة عالية أيضاً إذ كان نحو 500 ألف في العام 1919. وأصبح 839 ألفاً في إحصاء عام 1931. ومنذ البداية سعى اليهود إلى العيش ضمن إطار من الحكم الذاتي عبر مؤسساتهم الخاصة،

كما اعترفت السلطة الانتدابية بـ«المنظمة الصهيونية» على أنها السلطة الرسمية ليس فقط للجالية اليهودية في الداخل، بل للحركة الصهيونية في العالم أجمع. وقد وسعت عضوية المنظمة، وأصبحت تعرف بـ«الوكالة اليهودية»، التي تولت التفاوض مع الحكومة البريطانية وعصبة الأمم حول «الوطن القومي»، وتصرفت الوكالة كحكومة مستقلة في الزراعة والهجرة والمستوطنات، وفي الدفاع والشؤون العسكرية.

وجمعت الحركة الصهيونية حول العالم مبالغ طائلة من المال من أجل شراء الأراضي العربية، خصوصاً من المهاجرين الغائبين آنذاك عن ديارهم. إلا أن أكثرية اليهود ظلت تسكن المدن فارتفع عدد سكان تل أبيب من ألف نسمة في العام 1919 إلى 160 ألفاً في العام 1939، وفي حيفا إلى 60 ألفاً في العام 1939 وفي القدس من 28 ألفاً إلى 90 ألفاً في المدة نفسها.

• • •

في الوقت الذي كانت الهجرة اليهودية تلقى كل الدعم المالي والتقني الممكن من الجاليات والدول في العالم، كان الفلسطينيون يتخبطون في الفقر والنزاعات السياسية. وفيما انتشرت المستوطنات الحديثة المزودة بالآلات ، كان معظم الفلسطينيين من الفلاحين الذين يعتمدون على الوسائل البدائية. وفيما اتكل اليهود على «الوكالة اليهودية» في الصراع على فلسطين، وجد الفلسطينيون أنفسهم في قلب الخلافات العربية والمحلية على السواء، ومن دون أي معين دولي، فيما كان العالم أجمع يتجه إلى الحرب العالمية الثانية التي لم تكن ـ خصوصاً في الشرق الأوسط ـ سوى امتدادٍ أو تصفية للحرب الكونية الأولى.

بمثل هذا الانقسام، وفي ظل الانتداب، واجه العرب أكبر وحدة من نوعها في التاريخ اليهودي. ولم يكن صوت النخبة العربية التي أدركت ما يحدث، مسموعاً في أي مكان، تماماً كما كان الحال من قبل ومن بعد، ولم يغب عن بال الزعماء القوميين في ذلك الحين أنه سيكون من الأسهل مقاومة القوى الفرنسية أو البريطانية. وكانت عائلات فلسطينية كثيرة تتنافس، بكل صدق، ولكن بكل تعثر، على مواجهة المد الجديد. وفي

الطليعة كانت عائلتا الحسيني والنشاشيبي. وغالباً ما كان ينتمي محافظ القدس أو حيفا إلى واحدة من العائلتين. وفي العام 1921 سمح البريطانيون بإنشاء المجلس الإسلامي الأعلى، من أجل إدارة شؤون المسلمين الدينية في فلسطين، وفي العام 1923 عيّن المفتي الحاج أمين الحسيني رئيساً للمجلس مدى الحياة.

اختار المندوب السامي هيربرت صامويل الحاج أمين بسبب «طباعه الهادئة وعينيه الزرقاوين (كالغربيين)، لكن الانطباع كان مخادعاً تماماً»، إذ تحول الحاج أمين إلى واحد من كبار محاربي السلطة الانتدابية، وانتهى به الأمر حليفاً للألمان، زعماء دول «المحور»، كما أنه قضى ردحاً من الزمن في قلب برلين. وفي العام 1928 حاول المقدسيون الآخرون، إنهاء زعامة الحاج أمين والمجيء براغب بك النشاشيبي، لكن المحاولة أخفقت، وفي ذلك الحين اندلعت أول أعمال المقاومة المسلحة ضد المستوطنات على نحو فاجأ المسؤولين البريطانيين الذين فاتهم أن يدركوا أن المد القومي القائم في سورية سوف ينتقل إلى فلسطين. وشُكّلت في لندن لجنتان للتحقيق في الأحداث، وبعد ذلك كثرت الأحداث وكثرت اللجان أيضاً وبرّأت إحدى اللجنتين، التي عرفت باسم رئيسها السير والتر شو، المفتي من مسؤولية إشعال اضطرابات، وأوصت بإعادة النظر في سياسة الهجرة القائمة. أما اللجنة الأخرى، برئاسة السير جون هوب سمبسون فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك واستنكرت كل مراحل النشاط الصهيوني في فلسطين، كما استنكرت سياسة «الصندوق القومي اليهودي»، ودعت إلى خفض جذري للهجرة اليهودية وتملك الأراضي من قبل المهاجرين اليهود على السواء.

وقد فاجأ تقريرا اللجنتين الحركة الصهيونية في العالم. ثم أصبح وزيراً للمستعمرات آنذاك الاشتراكي الشهير سيدني ويب (فيما بعد اللورد باسفيلد) فزاد على التقريرين اتهامه للصهيونية «بأنها حركة استغلالية تسعى إلى السيطرة». وفي العام 1930 أصدر كتاباً أبيض أعاد فيه تفسير وعد بلفور بشكل جذري، ودعا إلى وقف بيع الأراضي الزراعية للمهاجرين! وكان رد فعل حاييم وايزمان، رئيس الوكالة اليهودية، أنه استقال من منصبه. وأغرق اليهود وحلفاؤهم ضمن دول الكومنولث

الحكومة البريطانية بموجة من الاحتجاجات. ولم تستطع الحكومة العمالية التي كانت تعتمد إلى حد بعيد على دعم مؤيدي الصهيونية، أن تصمد طويلاً. وبعد عام وجد رئيسها رمزي ماكدونالد نفسه مرغماً على الكتابة إلى وايزمان، مؤكداً له أن الحكومة لا تنوي إدخال أي تعديل على موقفها الوارد في وعد بلفور، وأن الهجرة اليهودية المضطردة إلى فلسطين لن تتأثر بالاعتبارات «السياسية»، أي مواقف البريطانيين المؤيدين للعرب ضمن الدولة! وفي اختصار كانت رسالة ماكدونالد رفضاً واضحاً «للورقة البيضاء» التي عرفت فيما بعد بـ«ورقة باسفيلد»، واعتذاراً علنياً واضحاً من النفوذ اليهودي في بريطانية على النفوذ البريطاني في فلسطين.

إلا أن الجدل الذي قام نبه الوكالة اليهودية إلى سرعة العطب التي تحيط بالمشروع ككل. وحتى قبل وصول النازيين إلى الحكم في ألمانية، كان قادة الصهيونية قد أدركوا الحاجة إلى تعزيز مواقعهم في فلسطين والى زيادة أعدادهم في مواجهة الكثرة العربية. وهكذا جددت الوكالة اليهودية بين عامي 1932 و1936 ـ في ظل مفوض سام متعاطف يدعى آرثر وانشوب ـ المحاولات الرامية لرفع مستوى الهجرة وتحسين أوضاع المناطق اليهودية وتطويرها، وخلال هذه السنوات الست أيضاً زادت نسبة الهجرة اليهودية بنحو مائتي ألف نسمة.

في غضون ذلك انتقلت الحركة الوطنية العربية من نكسة إلى أخرى. وفي 14 كانون الأول/ديسمبر في العام 1931 دعا المفتي إلى «المؤتمر الإسلامي العام» في القدس، غير أن عدداً قليلاً جداً من الزعماء المسلمين حول العالم أبدوا اهتماماً حقيقياً بالأمر، وفي الوقت نفسه ازدادت حدة الصراع بين النشاشيبي والحسيني. وفي العام 1934 فقد الفلسطينيون موسى كاظم الحسيني، أحد دعائم الوحدة الوطنية، فتوسعت من بعده شقة الخلاف، ولما حان موعد المؤتمر العربي الثامن في صيف 1935 أخفق في الانعقاد. ووسط هذه الصورة من الخلافات والنزاعات شعر البريطانيون أنه أصبح بإمكانهم مواجهة الأزمة الاقتصادية التي يعانون منها في لندن عن طريق خفض قوتهم العسكرية في فلسطين والأردن، إلا أن ذلك الهدوء كان المقدمة لأعنف عاصفة سوف تضرب العالم العربي فيما بعد، وتظل تضرب، وتظل تضرب.

بشكل أو بآخر، ارتبط مصير الشرق العربي منذ قرون بالأحداث والمصائر الأوروبية. وليس الشرق سوى قطعة من المياه واليابسة ملاصقة للقارة الأوروبية في الحرب وفي السلام. وبعد نهاية المرحلة الاستعمارية في أوائل الستينيات ألقى شارل ديغول نظرة أخرى على هذا الشرق الذي تركه خلفه، فاقترح ـ عبر وزير إعلامه جورج غورس في أعقاب حرب 1967 ـ أن يقوم نوع من الوحدة أو الاتحاد مع العالم العربي، تتجمع فيه ثروات العرب وتقنيات الأوروبيين من أجل شعوب حوض المتوسط.

• • •

ها نحن، إذن، في منتصف الثلاثينيات. وفيما كان الانتداب البريطاني يبسط نفسه على دول العمق العربي، والانتداب الفرنسي يتعثر في المشرق، برز في أوروبة تطور جديد تماماً: لقد ظهرت النازية مع أدولف هتلر، الذي تجاهل عقود ومعاهدات مؤتمرات السلام، خصوصاً مؤتمر فرساي، ومع حلول العام 1936 كان الجيش النازي قد أعاد احتلال الراين، ثم ضم النمسا بعد ذلك بعامين، ثم إقليم السوديت ومعه كل تشيكوسلوفاكية. ومع تصاعد القوة الاقتصادية الألمانية بدأت دول البلقان تتطلع إلى برلين، وبدأت برلين تتطلع إلى مساحات السيطرة العسكرية التي حققها البريطانيون والفرنسيون خلال الحرب العالمية الأولى. وإذ تطلعت إيطالية حولها ورأت أن «مؤتمر السلام» لم يترك لها شيئاً، رأت في الأمر «خيانة» كبرى وبدأت الفاشية تنمو والطريق تمهد لمجيء الدوتشي، أما الدوتشي فما إن وصل إلى الحكم حتى بدأ يتطلع إلى الخارج من أجل أن يصحح الوضع الاقتصادي في إيطالية التي لها من السكان ما لفرنسة ولها من الأرض نصف المساحة الفرنسية. إلا أن البريطانيين والفرنسيين كانوا قد أخذوا كل شيء ووقفت أساطيلهم على أطراف المتوسط في وجه الإيطاليين. وعلى الرغم من كل المحاولات التوسعية التي بذلتها روما، فإنها لم تكن قد استعمرت مع نهاية القرن التاسع عشر سوى الأراضي القفر في الصومال وأريتيرية. وباءت بالفشل محاولة توسعية أخرى في إفريقية في العام 1896. ثم مرت 15 سنة أخرى قبل أن يقوم بتجربة ثانية، هذه المرة ضد الأتراك في ليبية! إلا أن المستعمرة الجديدة «لم تثبت أنها ينبوع فوري للثروة الاقتصادية» كما قال المؤرخ الإيطالي فرانشيسكو

كارمايا «مع أنها حل لاستمراريتنا في إفريقية... أرض ساحلية تجعلنا خلف مالطة التي، بسبب كونها في يد لندن أبقت على المتوسط بحيرة بريطانية».

إذن، من أجل «أن تتنفس إيطالية بحرية»، قامت إيطالية بالحملة على ليبية، ونقلت إليها 13 ألف مستوطن تكفلت بدفع كل مصاريفهم. ومعظم الأسماء التي برزت في «مجمع الخالدين» الفاشي مرّ أصحابها من ليبية (فولبي، بالبو، دي بونو). والواقع أن حلم الدوتشي الأساسي لم يكن البقاء ضمن حدود أثيوبية، بل الخروج منها إلى بناء إمبراطورية متوسطية تمتد إلى البحر الأحمر (الرجاء مراجعة كتاب «قافلة الحبر» والفصل المتعلق بالصراع الإيطالي ـ البريطاني حول عدن). وقد كانت تكاليف الحملة على أثيوبية في العام 1935 باهظة في كل شيء على روما: المال، والرجال، وصورتها أمام العالم وضمن إطار العلاقات الدولية! أما من حيث المناخ الإمبريالي السائد في المرحلة فقد جنت إيطالية فوائد كثيرة: إنها الآن قوة متوسطية يحسب لها حساب.

من قاعدته على الساحل الإفريقي أصبح بإمكان موسوليني أن يتطلع شرقاً نحو مصر والمشرق، حيث كانت بالأمس تبحر أساطيل البندقية وجنوى وتريستا قبل أن يوحدها غاريبالدي في ظل علم إيطالي واحد، وبالتالي فإن الدافع وراء الطموحات الإيطالية في شرق المتوسط لم يكن استراتيجياً فقط بل تجارياً بصورة خاصة، إذ من الشرق الأوسط كان يجيء أكثر من نصف النفط الذي تستهلكه إيطالية، وخمس القطن والحديد، وكانت تصدر في المقابل الأقمشة إلى مصر، لكن في كميات تؤمن التوازن بين صادراتها ووارداتها إلى المنطقة. ومن أجل تطوير هذه العلاقة نشرت إيطالية الملحقين التجاريين، وأقامت الغرف التجارية المشتركة، وكانت تعتز كل عام بإقامة «معرض المشرق» في مدينة باري، في كعب الحذاء الإيطالي. وكان المعرض أشبه بعرض للسياسات الفاشية، وزهو الدوتشي بنفسه، ذلك أن باري كانت مركز الجامعة التي درس فيها موسوليني، كما كانت مركز محطة الإذاعة الدعائية التي كانت تبث برامجها إلى العالم العربي وإفريقية.

وكان أسطول إيطالية التجاري والسياحي يملأ جميع موانئ المنطقة، مع خط مباشر من بريندزي إلى حيفا. وكانت السفن الإيطالية تفوق عدداً جميع السفن

الأخرى في كل موانئ المشرق. وفى العام 1935 كان 30 بالمئة من مجموع السفن في الموانئ التركية يرفع العلم الإيطالي المثلث الألوان. وكانت روما تطمح إلى زيادة هذا الدور على حساب المنافستين الكبريين: بريطانية وفرنسة.

إذن، كانت مطامح موسوليني تجارية وإستراتيجية؟ لا! لا. لقد كان الدوتشي سليل روما، وكان يشعر بحق شرعي في إعادة أمجاد الإمبراطورية وخطوطها. ومن أجل ذلك كان يريد الاعتماد ـ من بين عدة عناصر ـ على الجاليات الإيطالية المنتشرة على شواطئ المتوسط، وخصوصا نحو 100 ألف في تونس ونحو 60 ألفاً في إيطالية. وسرعان ما بدأ موسوليني في تعبئة الشعور القومي في أوساط هؤلاء، الذين كانت أكثريتهم من العمال والفقراء، لكنه راح يبني لهم المدارس الخاصة والمستشفيات والنوادي من تونس إلى بيروت «فكان أن تحول أطفاله المشردون إلى صبيان كشافة مرتبي الهندام»، كما تقول إليزابيث مونرو التي تضيف: إنه «كان يقدم العطلات المجانية للمهاجرين، في بلادهم الأم، ويعد لهم رحلات طلابية عبر السويس لكي يستطيع الأبناء رؤية البواخر الإيطالية المبحرة والاعتزاز بها». ومع أن التكاليف التي تكبدتها الموازنة الوطنية كانت باهظة، إلا أن مردودها الوطني في شرق المتوسط كان هائلاً.

لم تتوقف أحلام الدوتشي ولا طموحاته عند هذا الحد على الإطلاق، فقد حاول أن يساير المسلمين في ليبية، كما فعل نابوليون في مصر. وخلال زيارة قام بها في العام 1937 أعلن نفسه «حامياً للإسلام». وزاد في قلق بريطانية وفرنسة أن الدوتشي أعلن المتوسط (MARE NOSTRUM) أي: بحرنا، وأخذ يدعم الأسطول البحري الإيطالي بسفن صغيرة لكنها هائلة السرعة ، فاق عددها حجم الأسطول الفرنسي، فيما تفوق السلاح الجوي الفاشي على السلاح الجوي البريطاني.

بهذه القوة البحرية الضخمة استطاع موسوليني أن يتحدى سيطرة الحلفاء على حوض المتوسط . وإذ اشتم رائحة تأييد غير معلن بعد من برلين، فراح يعمل على احتكار بريطانية للقناة. ومن أجل أن يؤكد تذمره من النفوذ البريطاني في مصر، أوفد حاكم ليبية المارشال بالبو في مهمة «ودية» إلى الملك فاروق في أيار/ مايو من العام 1939. غير أن الهدف التحذيري من الزيارة لم يخفَ على البريطانيين والفرنسيين،

لقد أصبحت إيطالية في موقع يمكّنها من أن تؤدي دوراً حاسماً في المنطقة. فهي تحتل موقعاً إستراتيجياً على طريق المتوسط. وبإمكانها، من خلال قواعدها في البر الإيطالي أو في ألبانية وليبية أن تهدد خطوط الاتصال الحليفة في منطقة الإدرياتيكي، وعلى الخط التجاري من أوروبة إلى الشرق! وبعد أقل من عقدين من الصراع القاتل بين الحلفاء والعمانيين، وجد البريطانيون والفرنسيون أنفسهم فجأة أمام منافس جديد للسيطرة على الشرق الأوسط: إيطالية.

لم تكن إيطالية وحدها الآن . فالأحلام الألمانية الماضية في الاندفاع نحو «غرب آسية» بدأت تنبعث من جديد مع قيام «السياسة الواقعية» الجديدة، التي ستعرف في القاموس الدولي بـ (Real politik) ، وكان القيصر يحلم قبل اندلاع الحرب الكونية الأولى، بأن يمد النفوذ الألماني في أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلها، وصولاً إلى شواطئ الخليج العربي، حيث كان فيلهلم الثاني يعمل سراً بأن يحول تركية العثمانية إلى «سكندا ألمانية»، بحيث يطوق شريان بريطانية البحري عبر المتوسط. غير أن سياسة ألمانية في «البحث عن الشرق» (Drang nachosten) سقطت خلال الحرب العالمية الأولى على أرض أوروبة وآسية. على أن عدداً من المفكرين العسكريين والمدنيين ظلوا يطرحون، خلال جمهورية فايمار والمرحلة النازية، فكرة أن يكون الشرق الأوسط هو منطلق التوسع الألماني. ومع ذلك بقي الاهتمام الألماني بالمنطقة أقل حماساً من الاهتمام الإيطالي، ربما أيضاً، لشعور ألمانية أنه يجب ترك المنطقة دائرة نفوذ وطموحات لحليفتها الفاشية!

هكذا قررت ألمانية على ما يبدو أن تظل التجارة سلاحها الرئيس. وفي الأعوام 1934 و1935و1936 ارتفعت واردات ألمانية من المنطقة بنسبة 14 بالمئة. وفي العام 1934 كانت صادراتها تشكل 38.8 في المئة من تجارة تركية الخارجية فارتفعت في العام 1938 أي في المئة. وفي العام 1933 كانت تشكل 8 في المئة من حجم التجارة الخارجية الإيرانية فارتفعت إلى 60 في المئة في العام 1939. ولم يكن هذا الارتفاع النسبي مذهلاً فحسب من حيث الحجم، بل إن المهندسين والتقنيين والبنائين الألمان صاروا أيضاً يشكلون أكبر قوة نافذة في الاقتصاد الإيراني. وخلال الحرب الأولى تذمر

رئيس البعثة الألمانية إلى تركية الجنرال فون ساندرز، من النقص في خبراء الشرق الأوسط في مقره العسكري. ولم يشأ النازيون أن يكرروا الخطأ نفسه عشية الحرب العالمية الثانية، فأنشؤوا مع حلول العام 1935 سبع معاهدات مختصة في دراسات الشرق الأوسط، بالإضافة إلى سلسلة من المطبوعات والجمعيات المخصصة للقضايا الإسلامية، وطبعت أو أعيد طبع القواميس التركية والعربية عن اللغة الألمانية. وفي العام 1936 كانت الجامعات الألمانية تعطي 341 فصلاً مختلفاً في الشؤون المتعلقة بالشرق الأوسط. وكل هذه المعاهد والدروس والجمعيات كانت خاضعة للمكتب الدعائي النازي بإشراف ألفرد روزنبرغ. وقد تلقى المكتب في العام 1934 منحة حكومية مقدارها 20 مليون مارك، وهي موازنة كانت ترفع عاماً بعد آخر. كذلك خصصت موازنات أخرى لنشر الصحف باللغات الشرق أوسطية، ودعم الإذاعات التي تبث في المنطقة، ودعم الملحقات الثقافية في العالم الإسلامي. وحاول الألمان نشر أفلامهم في كل العواصم بعد دبلجتها إلى اللغة العربية، واستطاعوا استقطاب مجموعة من الصحافيين المناهضين للغرب. وفي العام 1939 أنشئت إذاعة كبرى في ضاحية سيسن على بعد 19 ميلاً من برلين تبث البرامج الخاصة بالعالم العربي وتركية وإيران، وكان من أبرز وجوهها المذيع العراقي يونس بحري الذي اشتهر بمقدمته «هنا برلين، حي العرب». وبين إذاعة برلين وإذاعة باري وإذاعة إشبيلية في إسبانية استقطبت دول المحور عدداً كبيراً من المستمعين في المنطقة.

أرفقت برلين ذلك كله بنشاط واسع عبر الإرساليات والبعثات الديبلوماسية. وقد أرسلت إلى أنقرة في العام 1939 المستشار السابق فرانزفون بابن وعينت في بيروت فرانز سيلر ـ أحد كبار خبرائها في شؤون المنطقة ـ قنصلاً عاماً، أما أكبر مبعوثيها وأشهرهم فكان الوزير المفوض في بغداد الدكتور فرانز كونراد فون كروبا. وكان الهر فون كروبا من النشاط والحركة والذكاء بحيث أثار غضب السفير البريطاني في العاصمة العراقية في العام 1939، الذي رفع تقريراً إلى حكومته يقول فيه: «لقد جعل الدكتور كروبا (وزوجته) شغله الشاغل أن يكون بريطانيةً أكثر من البريطانيين في كل النشاطات التي تقوم بها الجالية الأجنبية، وخلال احتفال بذكرى الحرب

العالمية الأولى لم يقبل إلا أن يجلس إلى جانبي. ولعل الأسوأ في رأيي من نشاطات الهر الدكتور، تلك النشاطات التي تقوم بها زوجته، لأنها لا تلاَحظ كثيراً. إن السيدة كروبا التي تعرج إلى كل بيت بريطاني، وتزور كل مريض بريطاني في المستشفيات، قد جعلت مهمتها الأولى جمع ونشر الإشاعات المتعلقة بالجالية البريطانية بعد أن تكون قد رشّت عليها ما يكفي من الملح والبهار بحيث تناسب الدوائر العراقية».

وقام ألمان بارزون كثيرون بزيارات متعددة إلى عواصم المنطقة. وفي العام 1938 كان جوزف غوبلز، أحد أشهر وزراء هتلر، قد استعد للقيام بزيارة إلى القاهرة، إلا أنه عاد فألغاها ليقوم بالزيارة في شباط/ فبراير 1939 حيث التقطت له صورة وهو يعتلي جملاً قرب الأهرام.

في آذار/ مارس 1939، رفع أحد مسؤولي الخارجية في برلين الهر أوتو إبنز تقريراً عن لقائه في باريس مع السناتور الفرنسي جورج هنري ـ هاي، قال فيه إن هاي قد اعترض على قيام نادٍ عربي في دمشق مُوالٍ للألمان ويهدف إلى تحريض السوريين ضد سلطات الانتداب. ويقول إبنز في تقريره إنه نفى التهمة، ومع ذلك طالب وزارة الخارجية بإجراء تحقيق في الأمر، خوفاً من أن تثير مثل هذه النشاطات العداء لألمانية في الأوساط البرلمانية الفرنسية! لقد أرادت ألمانية أن تبني لنفسها ما تستطيع من النفوذ، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تريد أن تزعزع وضعها أو حساباتها المقبلة في أوروبة. وكانت هذه الحيرة الألمانية أكثر وضوحاً في ساحة أخرى، إذ كانت برلين تؤيد وتدعم من جهة الحركة القومية في فلسطين، ومن جهة أخرى تدعم وتشجع وتساند الهجرة اليهودية الألمانية إليها. وقد عقدت برلين اتفاقاً خاصاً مع الوكالة اليهودية، يُسمح بموجبه لليهود الألمان بأن يحملوا معهم إلى فلسطين جزءاً من مدخراتهم على أنها منتوجات ألمانية، وأنشئت دائرة خاصة لهذا الغرض أطلق عليها الاسم العبري «هافارا» أو النقل، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع حجم الصادرات الألمانية إلى فلسطين من 11.4 مليون مارك في العام 1932. إلى 32.4 مليون مارك في العام 1935.

بالطبع كان الألمان يعدون مشروعهم المعادي لليهود لأغراض ألمانية وينفذونه، ولم يكونوا يتعمدون أن يزيدوا في زعزعة المنطقة. وغالباً ما اختلفت وزارة الخارجية، التي

كانت تدرك أبعاد الهجرة عربياً، مع الدوائر الحاكمة الأخرى، وخصوصاً مع قيادة الصاعقة والإيديولوجيين النازيين الذين كانوا يعملون لجعل ألمانية «خالية من اليهود» (Judenrein)، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. والواقع أن برلين لم تبدأ النظر بشكل عميق إلى ما يجري في فلسطين إلا بعد نشر «تقرير بيل» في لندن العام 1937، أي قرار «تقسيم الأرض المقدسة» إلى دولتين: عربية ويهودية. وفي أول حزيران/ يونيو 1937 بعث وزير الخارجية قسطنطين فون نويرات بمذكرة خاصة إلى المفوضيات الألمانية في الشرق الأوسط، وجميع السفراء الألمان في الخارج. جاء فيها:

«إن إقامة دولة يهودية، أو كيان سياسي بزعامة يهودية في ظل الانتداب البريطاني، ليس في مصلحة ألمانية، لأن مثل هذه الدولة في فلسطين لن تستوعب اليهودية العالمية، وسوف تقيم موقع قوة إضافياً لليهودية العالمية في ظل القانون الدولي يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة إلى الكثلكة، أو موسكو بالنسبة إلى الكومنترن ... إن اليهودية الدولية ستكون بالضرورة العدو الإيديولوجي والسياسي للجمهورية الألمانية الاشتراكية... ولذلك فإن لألمانية مصلحة في دعم العالم العربي كمركز ثقل ضد هذا التزايد المحتمل في القوة اليهودية العالمية».

وصدرت الأوامر إلى البعثات الألمانية باتخاذ مواقف أكثر تأييداً للعرب، ومع ذلك لم تتخذ برلين، حتى العام 1938، أي خطوة للحد من الهجرة أو من انتقال الرساميل اليهودية إلى فلسطين. وبعد نشر تقرير لجنة بيل ارتفعت في الأوساط القومية العربية أصوات كثيرة تدعو إلى التحالف مع الألمان. وأعربت الهيئة العربية العليا صراحة عن مشاعرها حين أصدرت بياناً امتدحت فيه الدكتور كروبا، كما هاجمت بشدة «مشروع بيل» (peel plan)، وفي تموز/ يوليو 1937 قام الحاج أمين الحسيني بنفسه بزيارة إلى القنصل الألماني المحلي في القدس، لكي يعلن تأييده للدولة الألمانية الجديدة، معرباً عن أمله بأن برلين ستقابل التأييد العربي بالدعم. وأكثر المفتي من حواراته المباشرة مع الألمان، وناشد حكومة برلين ذات مرة للتدخل مع النظام العسكري في بولونية لإقناعه بوقف التأييد لمشروع التقسيم (كانت حكومة سيمغلي ـ ريدز في فرصوفية تؤيد هي الأخرى أي مشروع يبعد عن أراضيها الجالية اليهودية). وفي بيروت، التقى

القنصل الألماني سيلر وفداً من القوميين العرب القادمين من سورية، الذين طالبوه بشحن الأسلحة إلى ثوار فلسطين. كما قام وفد دمشقي في صيف ذلك العام بزيارة إلى برلين ليطالبها بكل أنواع الدعم الممكن للحاج أمين.

لكن ألمانية كانت حتى ذلك الوقت لا تزال تواجه هذه المطالب بالتحفظ بسبب وضعها السياسي في أوروبة. ولا تريد الدخول في مواجهة مع القوى البحرية الأوروبية في المتوسط، وأكثر من ذلك فإن طموحات هتلر الأهم آنذاك كانت التوسع في قلب أوروبة، أو بالأحرى في شرقها. كما كانت برلين تشكك في أن تكون الحكومات العربية نفسها على استعداد حقاً للوقوف إلى جانب دول المحور. فالمصريون كانوا يخشون فعلاً المطامع الإيطالية. وحكومة لبنان كانت تؤيد فرنسة. والأردن كان يؤيد البريطانيين. ولم تتخل برلين عن سياسة «الانضباط» في الشرق الأوسط إلا في العام 1938 حين بدأت الحرب الكبرى تطل برأسها من النوافذ، فراحت الصحف الألمانية تعلن تأييدها للقضية الفلسطينية، وبدأ البريطانيون يتحدثون في مجلس العموم عن سلاح ألماني وإيطالي في أيدي العرب. وظهرت في صحف باريس أيضاً تلميحات إلى الدور الألماني. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1938 قال مفتي القدس لمراسل مجلة «ماريان» الفرنسية في القدس: إن الثوار العرب يتلقون بالفعل أسلحة ألمانية وإيطالية «لكن بكميات محدودة».

في ضوء هذا الواقع الجديد بدأت بريطانية تبحث عن السبل الكفيلة للمحافظة على المكاسب الإمبراطورية، واحتارت لندن مدة بين المواجهة والاسترخاء، أو بين الاثنين معاً. وبدا رئيس حكومة المحافظين نيفيل تشامبرلين مصمماً على عقد معاهدة تفاهم مع الإيطاليين بأي ثمن كان. ومن أجل ذلك قبل في شباط/ فبراير 1938 استقالة وزير خارجيته أنطوني أيدن (الذي كان بدوره يعارض أي مهادنة مع دول المحور بأي ثمن) وهي الاستقالة التي مهدت لعقد الاتفاق الإيطالي ـ البريطاني في 16 إبريل/ نيسان 1938. الذي ينص على أن يحترم البلدان «مصالح» كل منهما، وعلى تبادل المعلومات حول القوات المسلحة لدى كل منهما في البحر المتوسط والبحر الأحمر وخليج عدن ومصر والسودان.

وقد أغاظ البند الأخير مصر وأثارها بعد فترة من التفاهم التي أعقبت معاهدة 1936. وكانت مصر قبل أشهر من الاتفاق الإيطالي ـ البريطاني قد وافقت على فكرة «الاتحاد» مع بريطانية التي انضم إليها أيضاً حزب الوفد. لكن ها هي لندن «تضحي بمصالح مصر، وتعقد مع إيطالية صفقة من خلف ظهرها» كما قال النحاس باشا معترضاً. أو كما قال المؤرخ المصري أمين يوسف بكل مرارة: «من الصحيح طبعاً أنه لا يستطيع أي بلد أن يعتبر استقلاله مضموناً في حين يتمركز جيش أجنبي على أراضيه وعلى بعد أميال من عاصمته».

لم يكن الفرق الشاسع بين الضمانات التعاقدية وبين الوقائع السياسية واضحاً الآن في مصر وحدها، بل أيضاً في سورية ولبنان. إذ فيما سعى المسؤولون الإداريون إلى تطبيق بنود 1936 بإعطاء المزيد من الصلاحيات والمناصب لأهل البلاد، اعترضت باريس على هذه الخطوات واعتبرتها سابقة لأوانها. وإذا كانت فرنسة قد خسرت حقول النفط في الموصل فإنها كانت الآن تأمل بأن يكون الجيولوجيون على حق، ويتم العثور على النفط في شمال شرق سورية.

وكان الحكم في باريس قد تغير في أي حال، إذ جاءت مكان حكومة ليون بلوم، التي عقدت المعاهدتين مع سورية ولبنان، حكومة يمينية مليئة بالداعين إلى المحافظة على مكاسب فرنسة. ونظر الرأي العام الفرنسي إلى المعاهدتين على أنهما دليل ضعف، وأخذ يترحم على المبالغ الطائلة التي تكبدتها باريس في سنوات الانتداب. واعتبر معارضو الاستقلال أن الانسحاب سوف يشرع أبواب المشرق أمام أعداء فرنسة، أي الإيطاليين والأتراك، الذين راحوا يضغطون لضم لواء الإسكندرون، وطبعاً البريطانيين الذين لم تنس باريس لحظة واحدة أنهم يريدون إخراجها من المنطقة برمتها، والأسوأ من ذلك كله (بالنسبة إلى باريس) أن الخروج من المشرق سيشكل سابقة للخروج من المغرب، حيث كان الإيطاليون، وإلى حد بعيد الألمان أيضاً في الانتظار.

حين مضت سنة أو أكثر على المعاهدة من دون أن تبرم في الجمعية الوطنية، حمل رئيس وزراء سورية جميل مردم بك نفسه وطار إلى باريس في آب/ أغسطس 1938، وأمضى فترة طويلة يحاول إقناع البرلمانيين بحسنات الاتفاق، الذي أضيفت إليه حماية

الأقليات، وضمان المصالح الاقتصادية الفرنسية والثقافية. غير أن الاتفاق الجديد لقي اعتراضاً شعبياً في دمشق وباريس على السواء. وقامت في العاصمة السورية تظاهرات تتهم جميل مردم بك «بالخيانة». وفي باريس قررت اللجان البرلمانية في مجلسي الشيوخ والنواب تأجيل إقرار المعاهدتين مع لبنان وسورية. وبعدما كان وزير الخارجية بونيه قد أصدر «بيانا مشتركاً» مع جميل مردم بك قبل شهر عاد فتراجع عنه في 14 كانون الأول/ ديسمبر معلناً أن فرنسة لا تريد أن تغير وضعها في المشرق «في الوقت الراهن». طبعاً كان الرد عنيفاً في سورية ولبنان. لكن الأمور هدأت قليلاً مع وصول المفوض الفرنسي الجديد غابرييل بيو (Gabriel Puaux) الذي تسلم مهامه في كانون الثاني/يناير 1939. وكان بيو ديبلوماسياً محترفاً في أوائل العقد السادس، ومن عائلة بروتستانتية (أقلية في فرنسة) معروفة بتقشفها، وقد أعلن لدى وصوله أنه لن يكون متهاوناً في العمل الفرنسي، وحذر بأن سورية «تشكل الضمانة الفاعلة الوحيدة لسيادة سورية واستقلالها. إنني سأحكم على السوريين من خلال أفعالهم لا أقوالهم»! ومن أجل أن يثبت القول بالفعل، أو العكس، أصدر أوامره على الفور بإرسال تعزيزات من الجنود السنغاليين وأمر باعتقال عدد من الشخصيات السورية البارزة وفرض قوانين رقابة صارمة على الصحافة.

وعلى الرغم من هذه الإجراءات التعسفية ظل بيو يأمل في قرارة نفسه بإبرام معاهدة 1936. وفي نيسان/ إبريل 1939 سافر إلى باريس لإجراء مشاورات مع حكومة دالادييه ثم عاد بعد 3 أسابيع إلى بيروت ليعلن من الإذاعة أن «فرنسة لا تزال أمينة لالتزامها باستقلال سورية، كدولة صديقة ومرتبطة بفرنسة». لكن بيو (وحكومة دالادييه) كان أكثر تشدداً من غيره ضد استقلال سورية الفعلي ولم يسع إلى تطبيق شيء من بنود المعاهدة، وأكثر ما أثار غضب السوريين ومرارتهم موقف فرنسة من لواء الإسكندرون تحت ضغط تركية، فكان أن أوفدت عصبة الأمم لجنة خاصة للبحث في الأمر. وبعد مفاوضات مباشرة بين تركية وفرنسة توصل البلدان في العام 1937 إلى اتفاق يقضي بمنح لواء الإسكندرون حكماً ذاتياً كاملاً في الشؤون الداخلية، على أن تظل اللغة التركية إحدى اللغات الرسمية في اللواء في حين تكون علاقاته الخارجية في يد دمشق وحدها.

طبعاً هذه التركيبة المعقدة كانت محكومة بالفشل سلفاً. وبدأت تركية فوراً تحرّض الجالية التركية على الشغب. وفي هذه المرحلة كانت فرنسة قد بدأت تدرك أهمية الموقف التركي مع تزايد طموحات دول المحور في البلقان والمتوسط. وهكذا وافقت في حزيران/يونيو 1938 على دخول وحدات من القوات التركية إلى «سنجق الإسكندرون» للمحافظة «على الأمن» هناك، بالتنسيق مع السلطات الانتدابية في بيروت. وبدا واضحاً آنذاك أن تركية ربحت معركة ضم الاسكندرون بالقوة «وفرض الأمر الواقع». وفي «الانتخابات» التي جرت فازت أكثرية تركية فأطلقت الحكومة الجديدة على اللواء فوراً اسم «هاتاي». وفي ربيع 1939 اتخذت أنقرة الخطوة الثالثة والأخيرة، فضمت هاتاي رسمياً إلى تركية الدولة.

قبل الفرنسيون الأمر من دون اعتراض يذكر، فثمن الإسكندرون لم يكن باهظاً مقابل معاهدة المساعدة المشتركة التي وُقعت بين فرنسة وبريطانية وتركية. وقد وصف أحد مسؤولي الانتداب، أ. فابر ـ لوس (كتاب حداد في المشرق 1950) المسألة كلها بقوله إنه لم يترك لفرنسة في الإسكندرون سوى الحق «في أن تستمر في رفع العلم المثلث فوق مقبرة الإسكندرون حيث يمكن لموتانا أن يندموا على تضحياتهم التي ذهبت عبثاً». أما سورية، صاحبة الأرض، فلم يترك لها أي شيء.

• • •

لقد كان «الفجر» الذي أطل على الشرق الأوسط بين عامي 1932 و1936 فجراً مخادعاً، ولم تؤد محاولات الائتلاف بين الغرب والعرب إلى شيء، ولذا عادت دول الانتداب إلى التشدد، فعاد العرب إلى الثورة. والواقع أن الحلقة كانت مفرغة حقاً، فقد كانت الثورة العربية، إلى حد ما، مسؤولة عن إعادة النظرة الغربية في فكرة الانسحاب، في الوقت الذي كانت فيه دول المحور تحاول التسلل إلى المدار الانتدابي، وحتى في العراق، أول دولة عربية تحصل على سيادة «الأمر الواقع»، لم تكن الانتفاضة العربية أقل حماساً، فقد كان المد القومي العربي ينعكس في كل العواصم، في كل الأفكار. وقد ظن البريطانيون لوهلة أنهم عزلوا العراق عن بقية العالم العربي، لكنهم ما لبثوا أن رأوا العراقيين يتقدمون العرب الآخرين إلى مؤتمر بلودان (1937) في

شأن فلسطين. إلا أن الحركة القومية في العراق عانت من الانقسامات فيما بينها، أو بين القوى السياسية المتخاصمة ومن بينها الجيش الذي حاول غير مرة الاستيلاء على السلطة. والواقع أنه منذ العام 1933 ـ عام وفاة الملك فيصل ـ ظل العراق من دون قيادة سياسية قوية، الأمر الذي أغرق بغداد في حالة من التجاذبات وعدم الاستقرار. وقد خلفه ابنه الملك غازي الذي كانت اهتماماته خارج الحكم والسياسة أكثر بكثير من همومه في إطارهما. وقد قتل غازي بحادث سيارة في العام 1939 تاركاً خلفه طفلاً رضيعاً فكان أن عُينّ ابن عمه الأمير عبد الإله وصياً على العرش وهو بعد في السادسة والعشرين من العمر. وفيما كان عشرات الألوف من العراقيين يمشون في جنازة الملك الراحل، وقع أمر كانت له دلالة كبرى على مدى هشاشة الوضع البريطاني في العراق: فقد بثت إذاعة ألمانية خبراً يقول إن الجهاز السري البريطاني هو الذي «دبر» مقتل الملك الهاشمي، وما لبث النبأ أن انتشر، فقامت التظاهرات، وأقدمت الناس في مدينة الموصل على رجم القنصل البريطاني مونك ـ ماسون بالحجارة حتى الموت.

في مصر كان وضع بريطانية أكثر دقة وسرعة عطب. وقد فضل الانتداب التعامل مع طبقة معينة من الأجانب والمصريين كانت تمتلك معظم الأراضي والتجارة، فأبعده ذلك عن بقية الناس. وأغرقت الحكومة المصرية نفسها في بحر من البيروقراطية فكان لديها في نهاية الثلاثينيات نحو 180 ألف موظف، يستهلكون 30 بالمئة من موازنتها العامة على الأقل. وكانت الحكومات تستقيل قبل أوانها، والبرلمانات لا تكمل مدتها القانونية. وبعد توقيع المعاهدة مع بريطانية، حتى حزب الوفد خسر ذلك البريق الذي أتى به، فحاول النحاس باشا استرداد شيء منه عبر معارضة الملك، غير أن فاروق كان لا يزال يتمتع بشعبيته الواسعة، التي لم يستطع حزب الوفد اختراقها بادئ الأمر، خصوصاً أن الحزب، على الرغم من مواقفه الوطنية، كان يتجاهل الكثير من حاجات المصريين على صعيد القضايا الداخلية ومعاناتهم المعيشية. ولعل أعمق تصوير لتلك المرحلة جاء في رواية نجيب محفوظ الشهيرة «بين القصرين».

لم يكن الغضب المصري ضد سياسيين فحسب، بل كان هناك منه ما يكفي للتوزيع ضد الوجود البريطاني. خصوصاً الوجود العسكري حول المدن. ولم تكن حالة اليأس

في سورية أقل وضوحاً، ففي سورية على أي حال نشأ المد القومي الجديد. وتعددت الأحزاب والتجمعات، لكن شعاراتها كانت واحدة تقريباً. وكان زعماء «الكتلة الوطنية» مثل جميل مردم وهاشم الأتاسي، وفارس الخوري من القادة الذين عملوا لاستقلال سورية خلال المرحلة العثمانية. إلا أن الصوت الأكثر ارتفاعاً وربما الأكثر بلاغة كان صوت الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ـ الذي عمل وزيراً للخارجية في حكومة فيصل في العام 1920 ـ الذي أدّى دوراً مهماً في الثورة السورية في عامي 1925 ـ 1926. وقد حكم عليه الفرنسيون آنذاك بالإعدام، ففر إلى مصر، إلى أن صدر عفو عام عن المنفيين السياسيين في العام 1927. ومع عودته إلى دمشق راح يشن حملات شعواء على رجال الكتلة الوطنية، متهماً جميل مردم بك بإعطاء الفرنسيين تنازلات غير مقبولة، وبالإخفاق في الدفاع عن حق سورية في الإسكندرون. وتجمع عدد كبير من المؤيدين ضد الشهبندر فكان أن اعتقلته سلطة الانتداب مع رفاقه في العام 1938. غير أن جميل مردم صعّد هو أيضاً اعتراضه على الوجود الانتدابي. وفي شباط/ فبراير 1939 أبلغ المندوب الفرنسي غابرييل بيو أن الحكومة السورية قررت بسط سيادتها على كل البلاد، وأن جميع مراسيم الانتداب وقراراته لم تعد سارية المفعول في سورية. وفي الأزمة التي تلت، أرغم بيو حكومة جميل مردم على الاستقالة، ثم حل البرلمان، وعلق الدستور، وعين مجلساً إدارياً للحكم. ومع انهيار الحكم الذاتي في سورية لم تبق في المشرق (باستثناء لبنان) حكومة دستورية واحدة! لقد تحولت السلطات الانتدابية من «المشورة» التي نص عليها قرار عصبة الأمم، إلى الديكتاتورية المطلقة.

قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى بوقت طويل، كان البريطانيون والفرنسيون قد شعروا بثقة تامة بأن «رجل أوروبة المريض» (أي الإمبراطورية العثمانية التي أطلق عليها القيصر الروسي هذا اللقب في نهايات القرن الماضي)، قد دخل طور النزع الأخير. لذلك، كانت الحاجة ماسة إلى اتفاق مسبق على الإرث. وزاد في ثقة الأوروبيين بالانتصار أن إسطنبول كانت تتهاوى أمام الانتصارات الروسية من جهة وأمام المؤامرات الداخلية للاستيلاء على السلطة من جهة أخرى. وبين تلك المؤامرات أو بين أشهرها» تلك التي شجع فيها الروس الجنرال جمال باشا، الذي عرف في

سورية ولبنان بجمال باشا السفاح، على الانقلاب العسكري في إسطنبول وذلك عن طريق طبيب أرمني يدعى زخارييف. وقد وعد جمال باشا الحلفاء بأن يقود الثورة على السلطة، ويعلن نفسه سلطاناً على تركية إذا مدّه الحلفاء بالسلاح الكافي. وعرض جمال باشا على زفرييف أن يتخلى حتى عن السيادة على مضائق الدردنيل شرط أن يقبل الحلفاء بإقامة دول ذات حكم ذاتي في سورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وأرمينيا وكيليكية وكردستان. وقبل الروس العرض. وقبله الإيطاليون، لكنّ الفرنسيين والبريطانيين كانت لديهم خطط أخرى وأفكار أخرى حول الشرق الأوسط، ولذا أجهض رفضهم مفاوضات جمال باشا على الفور.

واقترحت لندن على باريس الشروع في محادثات - هي بكل بساطة - حول اقتسام الشرق الأوسط، ووافقت الحكومة الفرنسية على العرض من دون تردد، وأرسلت فوراً مندوبها إلى ضفاف التيمس: المسيو شارل فرنسوا جورج بيكو، القنصل الفرنسي العام السابق في بيروت والمستشار الحالي للكي دورسيه حول شؤون الشرق الأدنى.

وكان يفترض بادئ الأمر أن يكون المندوب البريطاني للمحادثات، وكيل وزارة الخارجية الدائم السير آرثر نيكولسون الذي عقد بالفعل جلستي عمل مع جورج ـ بيكو. لكن الرجلين اصطدما منذ اللحظة الأولى، فقررت الحكومة استبدال نيكولسون بالسير مارك سايكس، وهو خيار بدا مفاجئاً أول الأمر. إذ على الرغم من تحدره من عائلة كاثوليكية ذات سمعة اجتماعية في يوركشاير، فإن سايكس لم يكن ديبلوماسياً محترفاً، بل «هاوياً» ترك دراسته في كمبريدج لكي يقوم برحلات عدة إلى الشرق الأوسط، حيث وضع مجموعة انطباعات متقطعة عن المنطقة. وكان سايكس يتحدث العربية بطلاقة، وحين انتخب نائباً عن المحافظين في العام 1911، اعتبره الحزب خبيره في شؤون الإسلام والشرق الأوسط. ومن بين الوظائف التي شغلها: منصب مستشار للورد كتشنر في القاهرة، من هذا المنصب جيء به للتفاوض مع جورج ـ بيكو!

هل كانت الحكومة البريطانية تعرف أم كانت لا تعرف أن مارك سايكس، الكاثوليكي، المحب للحضارة الفرنسية، سوف يتجاوب مع مصالح فرنسة في المنطقة؟ على أي حال، كانت هناك خطوط عامة وإطار عام للمفاوضات في التقرير الذي

رفعته إلى «الوايت هول» اللجنة الخاصة المعروفة بلجنة «دوبنسن». وكان السياسيون في اللجنة قد اقترحوا تقسيم تركية نفسها، لكنّ العسكريين خافوا إثارة روسية واقترحوا الاكتفاء بتقسيم الإمبراطورية نفسها!. خلال أسبوع أو أقل كان سايكس وَنِدُّه الفرنسي قد توصلا إلى اتفاق شبه تام حول التقسيم الذي سيحمل اسمهما في كل تاريخ المنطقة. ومع أن سايكس كان متعاطفاً مع المشاعر الفرنسية، فقد رأى جورج ـ بيكو أن البريطانيين قد حددوا مصالحهم بطريقة غير قابلة للنقاش: تأخذ بريطانية «منطقة حمراء» تضم شمال الخليج ومنطقة الهلال الخصيب وصولاً إلى بغداد ومنطقة كركوك النفطية، كذلك تأخذ بريطانية (بالدرجة الثانية كمنطقة نفوذ غير مباشر) جنوب غرب العراق وأكثر شرق الأردن وجنوب فلسطين حتى سيناء بحيث تجمع المتوسط والبحر الأحمر، وفي هذه المنطقة تعطى لندن الأولوية في حق إعطاء «المشورة بناء على طلب الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية». وكانت منطقة السيطرة غير المباشرة هذه تشبه الاتفاق الذي عقدته بريطانية مع روسية حول إيران في العام 1907، مع الفارق الهائل في المدى الجغرافي الذي يضمن لبريطانية حماية الطريق إلى الهند بين المتوسط والخليج العربي.

المصالح الفرنسية، مثل المصالح البريطانية، كانت هي أيضاً محددة قبل اجتماعات سايكس ـ بيكو بزمن طويل. وبعض هذه «المصالح» كان يبحث عن جذوره في الحروب الصليبية، من فلسطين ولبنان وسورية إلى قبرص وأطراف تركية، وكانت آثار الوجود الفرنسي لا تزال واضحة في «الامتيازات» التي كان يتمتع بها المواطنون الفرنسيون في الإمبراطورية العثمانية، إذ كانوا معفيين من الضرائب والتعرفات ومن المثول أمام المحاكم العثمانية، وكان سفراء فرنسة وقناصلها يُعدون حماة الطوائف الكاثوليكية، كما كان للسفن والسفراء الفرنسيين تميز على غيرهم من سفراء أوروبة. باختصار كانت فرنسة تتميز على كل من عداها في الإمبراطورية التركية.

إلا أن هذا النفوذ انخفض بشكل واضح خلال القرن التاسع عشر حين تبنت باريس قضيتي محمد علي في مصر، والموارنة في لبنان. ومع ذلك ظلت الغرف التجارية

الفرنسية (ليون، مارسيليا) تحث حكومتها على ألا تقبل «بأقل من سورية ولبنان وفلسطين، وقالت غرفة تجارة ليون في رسالة إلى وزير الخارجية المسيو دوكلاسيه في العام 1915 أن «مرافئ حيفا ويافا وبيروت لا تكفي أبداً لتطوير تجارتنا البحرية. وفي ذلك الصيف حددت إحدى لجان مجلس الشيوخ في «تقرير فلوندان» حدود الوجود الفرنسي: في الشمال: مقاطعات حلب وأورفه وكيليكية، وفي الشرق: الصحراء، وفي الجنوب: خط يمتد من العقبة على البحر الأحمر إلى رفح على المتوسط، في الغرب: المنطقة الساحلية كلها.

كان الهاجس الأول في التحديد، عسكرياً بالطبع. إذ حين تسيطر البحرية الفرنسية على الساحل السوري، تسيطر على شرق المتوسط، أو كما قال فلوندان في تقريره: إن زيادة القوة الفرنسية في المشرق «سوف تكمل دفاعات طولون» التي تحمينا في الشمال، ودفاعات بنزرت (تونس) في الجنوب». وكان السياسي جورج ليغيس أكثر دقة حين قال أمام الجمعية الوطنية في 10 أيار/مايو 1915: «إن محور السياسة الفرنسية هو المتوسط: قطبه الأول في الغرب عبر الجزائر وتونس والمغرب، ومن الضروري أن يكون قطبه الثاني في العراق عبر سورية ولبنان وفلسطين». وقد أضيفت قبرص إلى اللائحة فيما بعد.

كانت أحلام فرنسة وبريطانية في المنطقة متضاربة طبعاً، ولذلك تصادمت مفاوضات سايكس وجورج بيكو. وكان البريطانيون يُعدُّون، مع الشريف حسين، لقيام «الدولة العربية المستقلة»، ولذا قبل جورج بيكو في النهاية أن «تضحي» فرنسة بحلب وحمص وحماة ودمشق لكي تبقى من الدولة العربية وفقاً للوعد. وظل لفرنسة بقية الساحل السوري بما في ذلك كيليكية والإسكندرون، بالإضافة إلى لبنان وشمال الجليل، وعرفت هذه «بالمنطقة الزرقاء». كما أنشئت دولة عربية خاضعة «لحماية» فرنسية أقل مباشرة في مساحة عرفت «بالمنطقة أ» وتضم الموصل، والجزء الأوسط من خط بغداد الحديدي، والداخل السوري حتى شمال اليرموك. ونص الاتفاق أيضاً على اتفاق جمركي بين المنطقتين الحمراء والزرقاء وبين المنطقتين ألف وباء، وبقيت جميع الامتيازات من دون تعديل، وتعهدت فرنسة وبريطانية بتسديد الديون المترتبة على تركية بمساهمة من الدول العربية.

لم تكن فرنسة الإمبراطورية تعتقد أن «حقوقها» في المشرق وقف على سورية ولبنان فقط. فإذا كانت ثمة حقوق «وقائية» في سورية، فلماذا ليس في فلسطين أيضاً؟ وقد طرح تقرير فلوندان السؤال ببلاغة فائقة: «لماذا فلسطين؟» وأجاب عنه بنفسه أيضاً: «لأنها تشكل، مع بقية المنطقة، وحدة لا تتجزأ... إن فلسطين في الحقيقة ليست سوى جنوب سورية... ولا يمكن فصل فلسطين عن سورية، لا من الناحية الجغرافية، ولا من الوجهة الإثنية». لكن ثمة عوائق وقفت في وجه التبسيط الفرنسي طبقاً للمفهوم الغربي. ففلسطين هي «الأراضي المقدسة»، أي مركز أكبر المنازعات في تاريخ المسيحية، ولهذا السبب بدأت روسية الأرثوذكسية في كانون الثاني/يناير 1915 تعيد النظر في مسألة التخلي عن موقع اليد الفوقية لفرنسة الكاثوليكية. وفي نهاية آذار/مارس حذر وزير خارجية روسية سازانوف باريس من أن سانت بطرسبرغ لن تقبل في أي ظرف من الظروف أن تكون الأماكن المقدسة في حماية فرنسة وحدها، معلناً أن ما في الأمر ليس مصير القدس وحدها، بل المصالح الأرثوذكسية في كل الأراضي المقدسة، وصولاً إلى الجليل وطبرية ونهر الأردن!. وما إن تحركت روسية حتى بدا أن بريطانية ليست أقل صلابة من سانت بطرسبرغ، مع أن دوافعها كانت عسكرية أكثر منها دينية. فقد رأت لندن أنه لا يمكن في أي حال التخلي عن منطقة قريبة إلى هذا الحد من السويس . لكن وزير الخارجية البريطانية غراي كان أذكى من أن يطالب بجعل فلسطين تحت سلطة الوايت هول وحدها، وبدلاً من ذلك طالب رفاقه في اجتماع حكومي في 14 آذار/ مارس 1915. بأن يساندوه في المطالبة بتدويل فلسطين. في تموز/ يوليو تبنت الحكومة الاقتراح. وإذ اكتشفت باريس أن حليفتيها الروسية والبريطانية تقفان ضدها، شعرت أنه لا بد من القبول بنوع من التدويل. وهكذا اتفق المستر سايكس والمسيو جورج بيكو على تسوية تقام بموجبها «منطقة بنية» تضم وسط فلسطين، وهي منطقة يلفها خط واحد من عكا إلى بحر الجليل، ومن نهر الأردن والبحر الميت إلى غزة.

وبموجب هذا الاتفاق لا تتخلى فرنسة أو بريطانية عن مصالحها الخاصة في فلسطين! بل بموجب التخطيط تسيطر بريطانية على خليج عكا وحيفا، مع الحق في

استخدام الأراضي السورية إذا اضطرها الأمر. وبالإضافة إلى ذلك فإن المنطقة البريطانية باتت تضم شرق الأردن وجنوب فلسطين. وبالتالي تضمن أفضلية النفوذ البريطاني في النقب والعقبة والبحر الأحمر! في المقابل أعطيت فرنسة الحق في استخدام الخط الحديدي البريطاني للاتصال بميناء حيفا، وضم شمال غرب فلسطين بما في ذلك الجليل الأعلى بسهوله وينابيعه إلى منطقة النفوذ الفرنسية.

بعد توقيع الاتفاق اعترض غراي قائلاً: إن «لمصالح البريطانية قد ضحي بها» ووافقه على ذلك مارك سايكس. وقال اللورد بيرتي: «مسكين مارك سايكس، لقد اعتبرته حكومة الحرب خبيراً لا ينازع في شؤون الشرق الأوسط، لكن ديبلوماسياً فرنسياً يدعى بيكو قد خدعه». إلا أن الفرنسيين لم يروا الأمر كذلك، إذ من وجهة نظرهم أن سورية قد جزئت، ووسط فلسطين قد أخذ منهم، مع أنهم أعطوا منطقة «النفوذ الألماني» بين الإسكندرون والموصل. أما بريطانية فقد «نالت» بغداد ومنطقة كركوك وأعالي العراق، كما سمح لها ببناء الخط الحديدي بين حيفا وبغداد الذي عارضه الفرنسيون والألمان العام 1912. والأهم من ذلك كله أن بريطانية أعطيت حصة الأسد في تقرير مصير فلسطين، كما أنه لم يطلب منها الآن، كما طلب منها في العام 1912 عدم التدخل في شؤون المشرق.

وقعت معاهدة سايكس ـ بيكو في 4 شباط/ فبراير 1916 في باريس، وفي لندن بعد ذلك بأربعة أيام.

• • •

قالت جدتي وهي تؤرخ ولادتي بأنها وقعت يوم ضربوا القنبلة على المفوض السامي»!

ولم يخطر لي مرة واحدة أن أعرف من هو ذلك «المفوض السامي» الذي ضرب قصره يوم ولدت، فقد عاشت جدتي في ظل الاستعمار التركي، ثم في ظل الانتداب الفرنسي، وكانت تؤرخ الأشياء بهما، أما نحن، فما أن أعطينا نعمة الحياة، حتى كان الاستقلال يطل هو أيضاً، نعمة دنيوية تخالطها عبوديات أخرى، بعضها من صنع الوطن، وبعضها الآخر استمرار لقرون طويلة من المؤامرات الأجنبية.

لم يخطر في بالي مرة واحدة من هو ذلك «المفوض السامي»، ولا أن أسأل من الذي قصف قصره بحيث أخاف الأمر جدتي خوفاً ظل يلاحقها طوال أعوامها التسعين، لكنني سأكتشف فيما بعد أن كل همها ـ رحمها الله ـ من قنبلة المفوض السامي كان أنها وقعت على مقربة من «المستشفى الفرنسي» حيث ولدت، فدب الرعب على المواليد الجدد.

بعد عشرين عاماً تماماً أصل إلى باريس، ومعي حقيبة جلدية عتيقة. ويطلع علي فجر المدينة ومعه ألف حلم وألف فجر، لم تكن باريس حلمي وحدي، كانت حلماً قديماً يتقاسمه الشبان في كل الأزمنة وفي كل مكان. وخلت نفسي وأنا أنطلق إلى رحابة الشانزليزيه ـ وقد ضاعت المدينة في أوائل الربيع بين الرمادي التاريخي وبين النفحات الآتية غامضة من الفصل ـ خلت نفسي أطأ الهواء لا الأرصفة.

هذه، إذاً، هي باريس!

وعدوت أقطف، نظراً، كل ما حولي، وأتسلق بأجفاني أعالي المباني، وأتطلع بعيداً في الأفق عبر الضفة اليسرى، فتبدو باريس أكثر جمالاً من الكتب، وأكثر حقيقة من رسائل بولدير، وأكثر حقاً بذلك اللقب الذي أعطاها إياه أرنست همنغواي: «مهرجان متحرك».

غير أنني ما لبثت أن شعرت بأن شيئاً من الخوف يلف المدينة. وعندما غابت غشاوة الانبهار، أخذت أتبين حافلات الجيش متوقفة على جانب الطريق والساحات. وكان الجنود لا يزالون يرخون فوق أكتافهم معاطف نصف كحلية، زجاج محطم من باب صالة «الستروين» العالية السقوف، واقتربت من أحد الجنود وسألته ببساطة، ماذا في الأمر، فرفع يده بالتحية قائلاً: الخوف من الجنرالات!

أي جنرالات؟

كان ذلك في العام 1961. الجنرالات المتقاعدون في الجزائر يقومون بالمحاولات اليائسة الأخيرة في وجه جنرال آخر يدعى شارل ديغول، وثمة من يلقي القنابل البلاستيكية في شوارع باريس لكي يدعم الحكم الإمبراطوري العتيق بأن «الجزائر فرنسية».

تخطر لي جدتي والقنبلة على المفوض السامي: ألم يلقها رجال ديغول أيضاً حين زحفوا في العام 1941 على قوات «فيشي»، لكي يرغموا «دنتز» على الاستسلام؟

ها هو ديغول يبدأ ما سوف يكون فيما بعد آخر صراع مع جنرالات الشرق! عشرات منهم حملوا أوسمتهم وخيولهم وتلك النجوم المرصعة، واتجهوا إلى الشرق. لم يكن هناك جنرال كامل من دون الشرق. هو الشرق، كان النجمة الخامسة على كتف أي منهم، والعسكري الذي لم يتدثر بها ولم يشعر بلمعانها تحت ذقنه، ظل ناقص التاج. منقبض الصدر.

كلهم لبوا نداء الشرق، أو نداء الصحراء: فرنسيون وألمان وإنكليز وإيطاليون وإسبان، وفي نهاية الأمر، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، جنرالات أميركيون أيضاً. وفي معاطف أيزنهاور وباتون شحنات كثيرة من غبار المغرب، لقد ترك الشرق على قادة الغرب، بين عامي 1914 و1945 آثاراً لا تنسى، وتركوا هم بصماتهم في الرمال والبساتين والجسور والساحات.

ديغول واللنبي ورومل وويفل ومود وساراي وكاترو وغورو. وبين الحربين تحول السادة العسكريون إلى سياسيين يتقاتلون ويتآمرون في لندن وباريس... ويحكمون في مصر وسورية ولبنان. وعندما سيبدأ العسكريون العرب بالوصول إلى الحكم في زمن الاستقلال، سوف تتحدث صحف أوروبة عن الحكم العسكري في المنطقة؟ إنها موضة أطلقها نابوليون بونابرت، الجندي الذي صار إمبراطوراً، أو لعله ذلك الألباني اليتيم الذي سيصير أسطورة تدعى محمد علي.

لكن على أي حال، كانت انتفاضة «جنرالات الجزائر» هي الفصل الأخير في التاريخ الفعلي الذي لعبه جنرالات الغرب في سياسة الشرق العربي.. والمغرب أيضاً، ومع استقلال الجزائر سوف تتغير ملامح كثيرة في الوجه العربي، وسوف يؤدي ذلك إلى استقلال عدن، وسيحمل بريطانية فيما بعد على إنهاء وجودها الاستعماري «شرق السويس».

أجل، هكذا كان العالم مقسماً ذات يوم: غرب السويس، وشرق السويس. أي حتى العام 1967 سوف يظل ذلك المنفذ البحري إلى الشرق هو البوصلة التي يقيس فيها الغرب انتشاره ومداه السياسي والإستراتيجي.

لكن، فلنعد قليلاً إلى باريس.

إلى الجنرالات..

جئت إلى باريس بحثاً عن باريس، لكن ها هي باريس تخشى الظهور، وتذكرت أن صاحب الفندق الصغير دقق طويلاً في جواز سفري قبل أن يمنحني «غرفة مع الفطور». ودقق أيضاً في ملامحي، ثم رفع قلنسوته الكحلية إلى الخلف، وقال وهو يمضغ لفافة «الجيتان» الصفراء: حسناً.

كان الرجل عصبياً، وكان ركاب «المترو» في حالة عصبية أيضاً. وكانت باريس تخاف، ولا تطيق أن يقول أحد لها أي شيء إلا همساً، وقد كادوا ينسفون فندق «اللوتيسيا» الضخم أمس لأن منديس فرانس تحدث هناك عن «ضرورة وقف الحرب».

طبعاً حرب المستوطنين!... بالتأكيد.. كان منديس فرانس يتحدث وتحت لسانه مرارة «الهند الصينية»، أي تلك التي ستصبح خلال سنوات قليلة فيتنام الأميركيين، فالرجل يعرف جيداً كيف تنتهي الدول الكبرى في معركة كبرى مثل «ديان ـ بيان دفو» هو الذي أعطى الأمر بالانسحاب مع الهزيمة، وسوف يظل ريتشارد نيكسون يبحث عبثاً في تلك الرمال المتحركة عن «الانسحاب المشرف»، غير أن العسكريين يعرفون أن ثمة نوعاً واحداً من الانسحابات.

لم تكن فرنسة خائفة فحسب، بل كانت تجرجر خلفها أيضاً ظلال الانشقاق الطويل وخيالات الهزيمة: السويس وديان بيان دفو في عقد واحد، ثم مراكش وتونس، ثم يمنح ديغول، طوعاً، صكوك الاستقلال لعدد من المستعمرات الإفريقية. فهذا العقد، في الستينيات، تميز منذ لحظاته الأولى برفع الأعلام الوطنية فوق مناجم الفضة والنحاس. والهولنديون والألمان والفرنسيون والبلجيكيون والإيطاليون يرفعون القبعات احتراماً في ردهات الأمم المتحدة، للقادمين الجدد إلى النادي الدولي الأول: مستعمريهم بالأمس.

لقد نزل الاستقلال مرة واحدة على القارة السمراء مثل ينابيع النيل، وبقيت العقلية الاستعمارية لدى الأوروبيين معلقة فقط على رفوف القدامى، الذين استحال إيقاظهم من غيبوبة التاريخ والعصور الغابرة: سالازار في البرتغال، فرانكو في إسبانية. وهذا الحلم الفرنسي العتيق بضم كروم عنابة إلى وادي اللوار وضفاف الدوردون.

لكن ها هي باريس تستفيق أولاً من غيبوبة الجزائر. وإذ تسمع جنون الجنرالات الأربعة وخطتهم للنزول فوق العاصمة بالمظلات ـ أي الهبوط بالحرب الأهلية من فوق ـ يوحد في ما بينها الخوف. وتنادى الباريسيون إلى الإضراب كحل وحيد، فتقف عجلة الحياة، وتغلق كل الأبواب... إلا - طبعاً - أبواب المقاهي حيث يزدحم الباريسيون، مسلحين بصحف الظهيرة وشمس الربيع... ويأخذون ـ كالعادة ـ في الجدال بلا نهاية فيصبحون أيد تتشابك في الهواء.

ماذا تقول المقاهي؟

المقاهي تجمع على أن الجنرالات الأربعة ليسوا مجانين فحسب. إنهم خونة! وهم لم يكتفوا بالعصيان الفاشل الذي أعلنوه في الجزائر نفسها، بل ها هم يهددون الآن بهذا الانقلاب الجديد. ماذا تعني كلمة انقلاب؟ حسناً. إنها إحدى المرات النادرة التي تلجأ فيها فرنسة طوعاً إلى تعبير إنكليزي يصف الحالة حقاً. ولذا فالجميع ـ صحفاً ومقاه ـ لا يستخدمون كلمة (Coup D'etat)، بل كلمة (Putsch). إن فرنسة تتأمرك ببطء في أي حال. والسندويتشات هنا أخذوا يسمونها (Les Quicks)، والمقابلات الصحافية تسمى (Interviews)، وحتى الفتيات، أجل الفتيات في بلاد العطر يسميهن موريس شفالييه الآن بطريقة فاضحة ضاحكة (Les Girls)، لكنه لا ينسى طبعاً أن يشكر السماء من أجلهن.

بدأ كل شيء ليلة الجمعة الماضية، فقد ذهب الجنرال ديغول إلى «الأوبرا» لحضور إحدى مسرحيات راسين، وكان معه طبعاً طابور كبير من الوزراء والرسميين، وبين هؤلاء رجل آخر أبيض الشعر وإنما مربوع القامة، هو المسيو لويس جوكس ـ أي وزير شؤون الجزائر ـ الذي كان يفترض أن يكون ساهراً في مكتبه وعلى رؤوس أصابعه وأعصابه...

عاد الجميع تلك الليلة وقد فرحوا بمشاهدة «بريتانيكومى»! لكن ما أن دقت الثانية ليلاً حتى جاء من يوقظ شارل ديغول من النوم: إن أربعة من رفاقه وأصدقائه السابقين هم الذين يقودون الآن حركة التمرد الثالثة في الجزائر من أجل إخضاع باريس. وكان التمرد الأول في 13 أيار/ مايو 1958 قد أدى إلى سقوط الجمهورية الرابعة، ومجيء ديغول بالذات، وكان الجنرال راوول سالان أول من رفع الصوت مطالباً بعودة ديغول، فكان أن كافأه بتعيينه قائداً أعلى للجيش في الجزائر. وهذا المنصب عاد فاحتله الجنرال موريس شال، وهو أيضاً من رفاق ديغول في المقاومة، لكنه ما لبث أن أبعد عن المنصب بعد حركة «تمرد الحواجز» في كانون الثاني/يناير 1960. كذلك كان الجنرال إدمون جوهر، وهو من مواليد الجزائر، بطلاً من أبطال المقاومة في الحرب ولذا أصبح رئيس أركان القوات الجوية الديغولية في الجزائر، لكنه ما لبث أن أعلن أنه سوف يقف ضد ديغول في الاستفتاء على استقلال الجزائر. أما الجنرال الرابع والأقل أهمية فكان أندريه زيللر، وهو ضابط صف من ضباط الحرب العالمية الأولى.

منذ أن أفاق ديغول في الثانية صباحاً، لم تعرف باريس النوم. أما الجزائر فكانت ساهرة في أي حال! وكان معروفاً أن الجنرال سوف يتحدث بين لحظة وأخرى. هذه طريقته، من قبل ومن بعد، في مواجهة اللحظات الحاسمة: أيتها الفرنسيات، أيها الفرنسيون!

وفي المساء انتشر القول بأن الجنرال ديغول سوف يخاطب الأمة، «وفرنسة عبر البحار». وهذا تعبير جديد تلغي فيه باريس الصفة الاستعمارية عن بعض سياستها الخارجية. ألم تخترع هي أيضاً لقب «الانتداب». لكن صحافياً فرنسياً سوف يقول في باريس للسفير الكاتب إميل خوري عندما يحتد النقاش بينهما: إياك أن تخدع نفسك أنت أيضاً. فنحن اخترعنا تعبير «الانتداب» لكي نرضي أنفسنا، لا لكي نرضي حضراتكم!

في الثامنة مساء فرغت باريس حتى بدت مدينة مهجورة. وما أن تلألأت أنوار الجسور على صفحة السين، وخف عدد المارة حتى صاروا أشباحاً في الظلام، لقد تسمر الجميع أمام شاشات التلفزيون، ثم أطل ديغول من دون مقدمات كأنه آت من صمت عميق: أيتها الفرنسيات، أيها الفرنسيون...

كان ذلك أعظم أداء خطابي في حياته، وكانت واضحة في صوته بحة الرجل الذي طعن في قلبه وفي كبريائه. ولم يكن، هذا العسكري الشاعر، يعدم التعابير اللازمة للمناسبة، فراح يدق بأطراف الصوت رؤوس أولئك «الاستقلاليين المتعصبين الذين لا حدود لأهوائهم. إنهم لا ينظرون إلى الأمة وإلى العالم إلا من خلال نشوة جنونهم».

ثم أين منه أبطال راسين، وأشخاص بريتانيكوس التي كان يحضرها قبل يومين، عندما توقف يهتف بيديه ونصفه الأعلى وقبعته المستطيلة ثلاث مرات: .HELAS,HELAS, HELAS

كان هذا، كما ستصفه جانيت فلانير فيما بعد: «صوت البطل في تراجيديا فرنسية لكنه صوت أكثر تأثيراً بسبب قربه من الحقيقة». وبالكثير من الحزن سوف يضيف هذا الصوت: إن «الدولة مهانة والأمة أمام التحدي» وفيما طلب من الفرنسيين مساعدته وهو ينهض، كان نشيد المارسيلييز يعزف خلفه نداء: «إلى السلاح أيها المواطنون».

كأنما لم يكف الرعب الذي زرعه ديغول بجمع الفرنسيين حوله، فجاء رئيس وزرائه، ميشال دوبريه، لكي يضيف إلى مأساوية الموقف مأساة أخرى، إذ قبيل منتصف الليل تحدث دوبريه، بلهجة مسرحية مفصلة، عن «شيء ما سوف يحدث»، خصوصاً في المنطقة الباريسية». وقال تكراراً: إن هناك «محاولة مجنونة» لإنزال المظليين في بعض المطارات، ومن ثم السعي إلى السيطرة على السلطة، اذهبوا وقاتلوهم.

وحبست باريس أنفاسها طويلاً. وعندما طلع الفجر من دون أن ينزل المظليون أخذ بعض الفرنسيين بميلهم الطبيعي إلى الشك، يقولون إنه لم يكن هناك مظليون (ولا من يحزنون) وأن المسألة كلها خدعة وضعها المسيو دوبريه لتجييش الفرنسيين وراء رئيسه.

لقد كان المسيو دوبريه حقاً في حاجة إلى مثل هذا الدعم، فالقوة الحقيقية، والقوة العسكرية، والفرقة الأجنبية ذات الرماح الشهيرة، ونصف المليون عسكري... كانوا جميعاً في الجزائر، لكن الجنرالات فقدوا عنصر المفاجأة منذ ليلة السبت وهكذا

أخذت حركتهم تنهار شيئاً فشيئاً، وهربوا الواحد بعد الآخر، إلى أن اعتقلوا وسيقوا إلى المحاكمة. وكان راوول سالان يبدو خائفاً «وكأن الحكم بالموت قد نفذ فيه فعلاً».

لم يعط ديغول الاستقلال للجزائر، الجزائر أخذت الاستقلال، وهو لم يعط لبنان من قبل الاستقلال كما أعلن، بل جملة قضايا محلية ودولية أدت إلى الاستقلال. بل إن ديغول كان ذات مرحلة بين أولئك الذين نادوا «بالجزائر فرنسية»، غير أن أهمية ديغول الحقيقية هي في أنه عرف دائماً كيف يقرأ في مستقبل التاريخ، وليس فقط في ماضيه. وقد اختلطت حياة ديغول السياسية والعسكرية بقدر الشرق العربي والمغرب العربي في ثلاث محطات تاريخية على الأقل: الحرب العالمية الثانية، وحرب الجزائر. ثم في حرب 1967 عندما حققت إسرائيل ربحاً عسكرياً بطائرات الميراج الفرنسية لكنها خسرت فرنسة.

لن تظل فرنسة هي فرنسة غي موليه، تذهب إلى الاعتداءات المشتركة مع إسرائيل، بل سوف يفرض ديغول حظراً على شحن الأسلحة إليها، وهكذا تدخل أميركة أول مرة مصدراً وحيداً للدعم العسكري الإسرائيلي، بينما يجد العرب في فرنسة مصدراً جديداً للسلاح وأحياناً للدعم السياسي.

لم يكن هناك جنرال لعب المشرق دوراً في حياته السياسية والعسكرية كالدور الذي لعبه في حياة ديغول... لكن قبل أن نبدأ في المراحل التي عاشها الرجل في المنطقة ـ أو معها ـ لا بد دائماً من تلك المحاولة التي جربها ألوف الكتاب والمؤرخين والسياسيين، لا بد من الإجابة عن ذلك السؤال الذي يحمل السحر والغموض وألف جواب: لماذا الشرق؟

لا أدري. ولو لم يكن هذا الكتاب محصوراً بالجنرالات لكان هناك إغرار حقيقي باللجوء إلى عنوان مثل «نداء الشرق» على طريقة «نداء الغابات» أو «نداء القطب» أو «نداء الصحراء»، أي ذلك الجاذب الغامض الذي يدعو الرجال من أقاصي الأرض إلى أماكن أخرى هي خليط من الواقع والأساطير! لقد عاملت أوروبة الشرق العربي كأنه قطعة منها. وفيما كانت تمنى بريطانية في الحرب العالمية بأفظع هزائمها في

دانكرك كان ونستون تشرشل يأمر بإرسال فرقتين إلى... السويس، تاركاً بريطانية كلها تحت رحمة فرقتين أخريين فقط. فالمنطقة التي كانت ذات يوم «شرق روما» أصبحت الآن «شرق السويس»، وأبطال «السوم» والألزاس و«المارن» يخوضون المعارك الآن بكل أوسمتهم فوق رمال الصحراء، وبريطانية التي لم تستطع الانتقام من هتلر في أجواء لندن المليئة برائحة الركام، تلاحقه إلى هنا، إلى «العلمين» حيث يتناطح ثعلبا القرن العشرين بالرمال والحديد: روما ومونتغمري. بل إن تشرشل يتذكر الآن جيداً أن نابوليون بونابرت وجه أكبر ضربة قاتلة إلى بريطانية بالإنزال العسكري في مصر في العام 1789 وليس في «كنت».

تكراراً، لا حصر ولا عد للجنرالات الغربيين الذين كانت لهم علاقة ما، بالشرق أو معه. وقد كان المتوسط، كانت هذه العلاقة المتناقضة علاقة الحب والكراهية بين المشرق وأوروبة، وحتى بعدما اكتشف فاسكو دي غاما (1469 ـ 1524) رأس الرجاء الصالح، وأخذ يحمل التوابل والبهارات والأفاويه عن تلك الطريق ظل التداخل الأوروبي ـ المشرقي قائماً، وكذلك الصراع على الشرق بين أهل أوروبة أنفسهم. وظلت كذلك الفتوحات والغزوات مثل المد والجزر، وفي حين ترى اليوم شارعاً أو جسراً في مدينة عربية يحمل اسماً أجنبياً، فإنك تمر في إسبانية وفرنسة وصقلية بمدن عربية كاملة، ويصعقك كم تداخلت الدماء بعضها ببعض عبر العصور، وكم تطلع مشرق الشمس إلى مغربها، وكم تطلعت مغاربها إلى مشارقها، فكان هذا ينتصر مرة وذاك أخرى، حتى كانت هذه الخريطة التي نعرفها الآن، أي منذ نهاية الحرب الكونية الثانية إلى الآن.

غير أن هذه المحاولة في دراسة جنرالات الشرق، تحصر نفسها بين الفترة التي تبدأ مع العام 1914 وتنتهي في العام 1945، أي بدايات الحرب الأولى ونهايات الثانية. وإلا صعب أو استحال على أي كان أن يحصر بين دفتي كتاب ــ أو أكثر ــ هذه الطوابير الضخمة من الجنرالات.

إذاً، أولاً خوفاً من الضياع في متاهات الرفوف التاريخية، وثانياً لأنه، على كثرة المفارق والمفترقات التاريخية فوق أرض الشرق، فإن العام 1914 كان عام التحولات

الأهم في تاريخ المنطقة.. يومها كانت الإمبراطورية التركية قد بدأت بالانهيار حقاً، أو بالأحرى كان انهيارها قد وصل إلى المنطقة، ويومها أيضاً كانت أوروبة تتسابق، - كما لم تفعل من قبل - إلى المياه الدافئة في المتوسط... وعبر مضائق الدردنيل التي هزلت دفاعاتها. وكان ثمة عنصر آخر قد أخذ في الظهور بوضوح في سماء المشرق: إذ من خلال الغبار الذي أثاره تسابق الألمان والإنكليز والفرنسيين، بدا فجأة أن الولايات المتحدة التي كانت إلى الآن قابعة خلف أمواج الأطلسي، إنما تحلم بأن تجعل كل هذا المحيط... خلفها.

اللنبي: أحب العصافير
واحتل القدس

«.... على الجنرال أن يكون مراقباً، ودؤوباً، ولماحاً، ولطيفاً، وقاسياً، وبسيطاً ومتحذلقاً، ولصاً، وفرحاً، وحزيناً، كريماً، وبخيلاً، ومندفعاً، ومحافظاً!».

هذه الكلمات ليست لرجل عسكري. إنها كلمات قديمة لسقراط «لكن الجنرال السير أرشيبالد ويفل اختار هذه التعابير لكي يقدم بها السيرة التي كتبها عن أدموند اللنبي، مارشال القوات الإنكليزية في مصر وفلسطين، والرجل الذي سيلعب واحدا من أهم الأدوار السياسية والعسكرية في تاريخ المنطقة. والجنرال ويفل أيضاً لعب أدواراً كثيرة وظل اسمه يعلو الشوارع والقواعد في ليبية حتى الثورة. لكن اللنبي لم يؤرخ نفسه ولم يترك خلفه مذكرات أو أي شيء من هذا القبيل. فكان أن تولى المهمة، - إلى جانب عدد كبير من الكتاب - أرشيبالد ويفل نفسه، الذي تولى فيما بعد رئاسة أركان الجيوش البريطانية في المنطقة.

إن تاريخ اللنبي هو تاريخ الصراع على المنطقة لا تاريخ العرب... فقد كان على العرب في تلك المرحلة أن يختاروا بين «الانتداب»، أي الشكل الجديد للاستعمار، وبين الاستعمار التركي. الحرية لم تكن خياراً، الحرية قدر سوف يحل فيما بعد. لكن لن يذهب الاستعمار المعلن إلا وقد ترك خلفه الكيان الصهيوني، الدولة العبرية التي كانت تهيأ في الأروقة.

لقد جاء أدموند اللنبي إلى المنطقة وهو يحمل أطناناً من الأوسمة. فقد كانت خلفه عشرات المعارك الكبرى التي أداها لصاحب الجلالة، خصوصاً في جنوب إفريقية وبلاد الزولو. وعندما اشتعلت الحرب الكونية الأولى كان الجنرال الذي ولد في العام 1866 قد أصبح المفتش العام لقوات الفرسان في جيش الإمبراطورية. وقد قاد هذه القوات إلى خطوط الدفاع في فرنسة ثم سجل لنفسه بطولة فريدة في معركة «أراس» الشهيرة.

غير أن أبرز ما في حياة اللنبي بالنسبة إلى العالم العربي، كونه عرف بقائد الحملة على القدس. الحملة طبعاً، ضد الأتراك. وقبل أن نعطي أي تفسيرات عن تلك الحملة، لابد أن نتذكر أن لويد جورج قال لقائد «الجيش الثالث» السابق وهو يوكل إليه المهمة الجديدة: إن «القدس يجب أن تكون هدية الميلاد للأمة البريطانية».

من أجل ذلك، أي من أجل القدس، قال لويد جورج للجنرال اللنبي: «اطلب التعزيزات التي تشاء، إننا نريدها بأي ثمن».

لم يكن هناك هاجس آخر أو مجد أكبر، عندما غادر قطار اللنبي محطة «تشيرنغ كروس» ذات الحجارة الحمراء الواقعة في قلب لندن، في 12 حزيران/يونيو 1917، في طريقه إلى الجبهة المصرية ـ الفلسطينية. وفي ذلك النهار بالذات كان الزعيم التركي أنور باشا يعقد في مدينة حلب اجتماعاً طارئاً لقادة الجبهات التركية في بلاد القفقاز وفلسطين وما بين النهرين، للبحث في الخطط المقبلة عن «المسرح الشرقي» حسب تعبير ويفل. وكانت الخطة التركية آنذاك تقضي بإعادة احتلال بغداد التي كان احتلها الجنرال مود في شهر آذار/مارس السابق. ودب الخلاف في لقاء حلب. وأصر المتصرف جمال باشا (الجزار) على تدعيم جبهة فلسطين قبل أي شيء.

أكمل اللنبي الطريق إلى مصر يرافقه مساعدان والميجور جنرال ج. اس. شيا. ولن يدخل شيا التاريخ، غير أن مجيئه إلى مصر كان يعطي فكرة ما عن طباع اللنبي. فالرجل كان من ضباطه في معركة «أراس». وكان يكثر من الأسئلة والاعتراض على الأوامر، الأمر الذي اضطر اللنبي إلى إبعاده إلى بريطانية. غير أنه عندما استعد للسفر إلى مصر سأله اللورد ديربي وزير الحربية، إن كان لا يمانع في أخذ شيا معه. ولم يتردد في الموافقة.

سافر الرجال أولاً إلى باريس، فروما، ومنها إلى برينديزي على الساحل الإيطالي ومن هناك ركبوا الطراد البريطاني «بريستول»، فوصلوا إلى الإسكندرية بعد يومين، في 22 حزيران/يونيو. وبعد ذلك بخمسة أيام تولى اللنبي قيادة «قوات الحملة المصرية» متخذاً لنفسه منزلاً في ضاحية «الجزيرة»، وكان أول ما فعله هو البحث عن طاهٍ فرنسي، وقد عثر عليه في شخص رجل كان هارباً من الخدمة العسكرية ويملك مقهىً في الإسكندرية.

وبعد أسبوع من الاستقرار في القاهرة كان شيء من القلق قد دب في الجبهة، وكثير من الرعب في ضباط اللنبي أنفسهم. لن تعود الحياة سهلة أو مسترخية بعد الآن: الياقات يجب أن تكون منشاة، والقبعات حادة، والأكتاف الحمراء حمراء حقاً! وترك الضباط خلفه، واتجه إلى الجبهة على نحو 300 ميل من القاهرة عند الحدود الجنوبية لفلسطين، حيث يرابط معظم القوة البريطانية قبالة غزة. المكان الذي هزمت فيه مرتين، كما رابطت قوات أخرى عند بئر السبع، المدخل الصحراوي إلى فلسطين.

لقد كانت المهمة الأساسية «لقوة الحملة المصرية» هي تأمين القناة، لكن كما يقول التعبير العسكري: من أجل أن يكون لهذه القوة حرية المناورة «مسافة كوع»، كانت القوة الأخرى المعروفة «بطابور الصحراء» ـ وهي تتألف من الخيالة والجمالة وكتيبتي مشاة ـ قد توسعت عبر سيناء في شتاء 1916 مبعدة الأتراك أمامها، وتاركة خلفها خطاً حديدياً وآخر للأنابيب، كانت، كما يقول ويفل: «حملة صغيرة حسنة التنظيم، انتهت بهزيمة مؤسفة في معركة غزة الأولى في العام 1917».

وقد أبرق ارشيبالد موراي، قائد الحملة إلى حكومته يقول: إن الانتصار سوف يكون في المرة المقبلة. غير أن الأتراك كانوا قد دعموا مواقعهم فكانت هزيمته التالية في غزة ثم القرار بنقله وتعيين اللنبي خلفاً له.

أطلق اللنبي اسم «قوة الشرق» على الفرق السبعة التي تقوم بحملة فلسطين (مشاة وخيالة وجمالة)، وراح يحاول بناء معنوياتها من جديد بعد الهزائم التي منيت بها، وقد نجح في ذلك فوراً كما تقول الوثائق الرسمية الأوسترالية:

«لقد مر عبر المعسكرات الحارة المليئة بالغبار مثل ريح منعشة قوية» وكتب أحد ضباط الفرقة يقول: «نادراً ما يحدث أن يكون لقائد عسكري مثل هذا التأثير في جنوده».

هنا أيضاً، كما في ثلاثة أرباع العالم تقريباً، كانت بريطانية تسيطر على البحر. والسيطرة على البحر كانت تعني تلقائياً التقدم بحراً في فلسطين: إنها الطريق الأكثر أماناً على أي حال، والأكثر استقامةً، وعليها يمكن تقبل الدعم من البوارج، كما كان الحصول على المياه قربها، سهلاً تقريباً.

غير أن غزة التي كانت تسد الطريق الساحلية، أصبحت قلعة حصينة لا بد أن يكون حصارها مكلفاً وبطيئاً. لذا لا بد من تعزيزات يطلبها اللنبي من لندن. لكن خلال تفقده الجبهة وعلى الرغم من انهماكه في استطلاعات لا حصر لها، لم ينس اللنبي حبه الذي يفوق عشقه للعسكرية: النبات والعصافير و... الناس في أرض جديدة. وقد كتب إلى الليدي اللنبي وهو في طريق عودته بالقطار: «من العصافير هناك القُبرَّة، والأبلق، والصرد، والنحل، والصقور، والكواسر، وتأتي طيور الألباتروس أيضاً إلى رؤوس الوديان. وتملأ المكان تغاريد العصافير الهازجة، وهي طيور ودية وأليفة تشبه شحروراً كبير الحجم ولها طباع أبي الحناء. وقد رأيت واحداً منها اليوم يهاجم جرادة في مثل حجمه. وهناك أيضاً ثعالبن وزواحف، وخنافس. والأرض جرداء الآن غير أنها في الربيع تمتلئ بالخضرة، وتكثر حقول الشعير والأعشاب والزهور من كل نوع. وفي الواحات وقرب القرى يعلو شجر النخيل والتين واللوز والمشمش. وهناك حقول شاسعة من البطيخ الصغير الحجم (...) وقد ذهلت اليوم وأنا أرى الإبل ترعى ورق الصبير، الشائك يستحيل على أي حيوان له حلق ولسان».

غير أن ذلك لا يخبر الليدي اللنبي بشيء. لا كلام عن خططه العسكرية. إن حبه الحقيقي هو للعصافير لا للجندية. ولم يكن يجيد كتابة الرسائل أو المحادثات الطويلة في المجتمعات. بل كان يعتبر أن أولئك المتحذلقين هم في النهاية أناس فارغون، يعرفون من كل واد عصا، من دون أن يعرفوا شيئاً بعمق، وهم يحترفون الحديث في المجالس، ويجتذبون الأسماع مرة أو مرتين، ثم تروح النفايات تكرر نفسها. هو، كان يقول فقط الكلمة الضرورية، كتابةً أو كلاماً، وغالباً ما كان كلامه عن الطيور أو عن اكتشاف جديد في الطبيعة.

وخلال عودته من تلك الرحلة سوف يلتقي اللنبي ذلك الشهير الآخر، أو ذلك «الآخر المضادّ» في حملات فلسطين، «لورانس العرب» ويكتشف هذا الرجل التحتي الأزرق العينين أن اللنبي «الجنرال الهائل العريض المنكبين» قد حار في أمره فيروي الواقعة في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» قائلاً:

«لم يستطع اللنبي أن يقرر لنفسه ما إذا كنت محتالاً أو صادقاً. وقد رأيت تلك الحيرة في عينيه وتركته غارقاً فيها».

من أجل أن يزيد في رفع معنويات جنوده قرر اللنبي أن ينقل القيادة العامة من القاهرة إلى الجبهة، في الإسماعيلية ثم إلى رفح، كما يروي، أحد أطباء العيون الذي استدعاه لاستشارته. ويضيف الطبيب في مذكراته: «دعاني الجنرال إلى العشاء، وأعطاني مقعداً إلى جانبه، ثم راح يمطرني بالأسئلة: هل أعرف شيئا عن الأوبئة التي أصابت العيون في الحملات السابقة على مصر؟ وأخبرته أنني منكبٌ على ترجمة أعمال الدكتور لاري، كبير أطباء العيون في حملة نابوليون، الذي يتحدث عن وباء كارثي حدث آنذاك، وأدى إلى إصابة الكثيرين جداً من رجال نابوليون بالعمى ما بين العامين 1798و1801. وطلب مني أن أرسل إليه نسخة عن تلك الترجمة».

ثم يلقي ذلك الطبيب الضوء على جوانب أكثر أهميةً في شخصية اللنبي عندما يتابع القول: «كان اهتمامه كبيراً بكل شيء يتعلق بمصر وسورية، قد يؤثر في القوات أو مسيرةالحملة، وقد استعار مني كتاب «فجر التاريخ» لمايرز، وكتاب «الشرق القديم» لهوغارك، ومجلدات من هيرودوتوس وتاريخ الحملات الصليبية، وكتباً أخرى حملها إلى الجبهة (...)، لقد كان مقتنعاً بأن التاريخ سوف يكرر نفسه في هذا الشرق غير المتغير، وقال منذ البداية: إن المعركة الحاسمة سوف تخاض عند ممر مغيديو». (تعبير توراتي)

في الأسبوع الأخير من تموز/يوليو قام اللنبي بجولة استطلاعية أخرى على جبهة فلسطين. وحين عاد إلى القاهرة في 31 تموز/ يوليو وجد في انتظاره برقية من الليدي اللنبي، تخبره فيها أن ابنه الوحيد، مايكل، قد قتل في فرنسة، لقد أصيب بشظية اخترقت خوذته الفولاذية فيما كان يتجه إلى أحد مواقع المدفعية، وقد عاش لخمس ساعات غير أنه لم يستعد وعيه. وكان مايكل اللنبي ملازماً في العشرين من العمر.

تلقى اللنبي الجنرال هذه الفاجعة برباطة جأش، وترك للذين حوله فقط أن يعرفوا مدى عمقها، لكنه بعد ذلك حصل على إذن بأن تنضم إليه زوجته في فيللا هيللر، في ضاحية الجزيرة.

في منتصف آب/أغسطس كان قد أعد معظم ترتيبات الحملة، وجعل مقره في «أم الكلاب» قرب رفح. وعلى الرغم من وعورة المقر وصعوبته كان اللنبي يتفقده باستمرار. وقامت في المنطقة ورشة هائلة، فمدت خطوط حديدية موازية، وشبكة أنابيب إضافية، ومخازن للذخيرة والمستشفيات والخنادق. وكان تفقده المستمر لكل شيء يثير الضباط الذين راحوا يوزعون فيما بينهم كلمة السر، وفحواها: «الثور فالت». غير أنه لم يكن يُمضي يوماً واحداً من دون أن يمتطي فرسه، ويذهب بعيداً في الصحراء بحثاً عن .. العصافير.

أعاد اللنبي تنظيم قواته في ثلاثة فيالق:

- فيلق خيالة الصحراء، بقيادة الجنرال هنري شوفيل، وهو أوسترالي.
- الفيلق العشرون، بقيادة الجنرال فيليب شتوود.
- والفيلق الحادي والعشرون بقيادة الجنرال إدوارد بافن!

أما الخطة نفسها فكانت بسيطة «كما هي جميع الخطط الناجحة في الحروب» كما يقول ويفل: تركيز قوة متفوقة ضد «العدو» من اليسار، وإيهامه بأن الهجوم سوف يتم من اليمين، وهكذا تقرر أن يقوم فيلق بإلهاء الأتراك وإبقاء اهتمامهم في غزة، فيما يقوم فيلقان آخران بضربهما من اليسار.

لكن المسألة لم تكن طبعاً بهذه البساطة.

وكانت الخطة تعاني من ثلاث مشكلات رئيسة: النقل والمياه والسرعة، بالإضافة إلى شبكة الأنابيب. وسوف يشترك 30 ألف جمل في نقل المياه خلال الحملة، لكن أيضاً كان لايزال من المهم احتلال الموقع التركي في بئر السبع قبل أي شيء، وكان ذلك صعباً ولذا لا بد من «الثعلبة» الإنكليزية الشهيرة. وهكذا رسمت خطة بأن يذهب ضابط إلى الخطوط الأمامية، ومعه أوراق زوّرت بمهارة، تثبت أن االهجوم سوف يتركز على غزة كالسابق. ثم يتظاهر الضابط بأنه أصيب بجروح فيلقي كيس الأوراق ويهرب، كذلك تثبت هذه الأوراق أن الهجوم على بئر السبع... مزيف

كان من الصعب تحديد موعد البدء في المعركة. فقد أراد اللنبي تحديده في أيلول/سبتمبر، غير أن التأخير في وصول بعض المواد، وفي تدريب القوات، أكد أن الاستعدادات لن تكتمل قبل تشرين الأول/أكتوبر. إلا أن التأجيل كانت له أخطاره أيضاً. فالأمطار الغزيرة التي تبدأ بالهبوط في تشرين الثاني/نوفمبر كانت تحول أراضي فلسطين الساحلية إلى بحر من الوحول والطين. وكانت في الأفق دلائل على أن الأتراك يحضرون التعزيزات من الشمال، ويعدون لهجوم مضاد. لكن على الرغم من ذلك قرر اللنبي الانتظار إلى حين انتهاء الاستعدادات.

وبدأت بالظهور أيضاً مشكلات غير متوقعة. إذ عندما وصلت الكتيبة الإيرلندية العاشرة من سالونيك في منتصف أيلول/سبتمبر، كان أكثر أفرادها يعانون من الملاريا، وقد نصح الأطباء اللنبي بأن هؤلاء بحاجة إلى ثلاثة أشهر من الراحة قبل الدخول في أي قتال. غير أن الجنرال البريطاني ذهب إلى قائد الفرقة الذي كان معه في فرنسة، وسأله عن مدى أهلية جنوده. وقال القائد: إنهم أقوياء بما فيه الكفاية، فأخذ اللنبي بكلامه.

لم يبنِ قراره على كلمة صديقه فحسب، بل لأنه كان يخشى على معنويات الفرقة إن هو أشعر رجالها أنهم غير صالحين.

في أوائل تشرين الأول/أكتوبر استجدت تطورات سياسية مهمة. إذ حتى الآن لم يكن اللنبي قد أعطي من قبل لندن أي هدف جغرافي، فقد كانت الأوامر لديه تقول فقط بوجوب إنزال الهزيمة بالقوات التركية أمامه، من «أجل دعم القوة الموجودة، ومعنويات هذا البلد»، ولزيادة التذمر التركي من حلفائهم الألمان، وإزالة الخطر عن بغداد التي تهددها التعزيزات التركية في حلب، لكن ها هي وزارة الحربية الآن تقول له إنها تريد إلغاء تركية من الحرب مرة واحدة، وإن هذا الهدف قد يتحقق باحتلال خط يافا ـ القدس. ومن ثم فإن له ما يريد من تعزيزات للوصول إلى المدينتين. وقد خطر لرئيس الوزراء البريطاني لويد جورج نقل بعض القوات المقاتلة في أوروبة خلال الشتاء، ثم إعادتها إلى هناك في الربيع. لكن هذه المخيلة الإستراتيجية لم تتطابق كثيراً مع إمكانات النقل والمواصلات وعامل الوقت. وقد حسم اللنبي الموضوع بأن

طلب 13 فرقة إضافية. واتهم لويد جورج السير وليم روبرتسون بأنه وراء المبالغة في تقدير عدد الحاميات التركية. والحقيقة ـ كما يقول ويفل فيما بعد ـ أن الاستخبارات البريطانية كانت قد أعطت اللنبي فكرة خاطئة عن حجم الأتراك، أو بالأحرى «معلومات غير كافية عن ضعفهم».

أخيراً تحدد بدء الهجوم على بئر السبع في 31 تشرين الأول/ أكتوبر، على أن يبدأ قصف غزة بعد ذلك بأيام. وخلال ذلك قام رجال اللنبي بحملات استطلاعية عدة عبر المنطقة المحايدة كان الهدف منها أولاً استكشاف الأرض قبل الوصول إلى خط الهجوم، وثانياً خداع الأتراك بحيث عندما يبدأ الهجوم فعلاً يخيل إليهم أنهم أمام حملة استطلاعية أخرى.

على الجانب التركي يقول لنا ويفل: كان هناك ضياع وانقسام، فقد كان الألمان يستعدون في ربيع 1917 لمساعدة أصدقائهم الأتراك في استعادة بغداد من احتلال الجنرال مود. وهكذا تم تجميع أفضل القوات التركية حول حلب، وشكلت لهذه الغاية أيضاً قوة ألمانية بقيادة فون فالكنهاين أحد أبرز الجنرالات الألمان. وقد اعتز الأتراك بتلك القوة لدرجة أنهم أطلقوا عليها اسم «يلديريم» أو «العاصفة». وقد عرض على مصطفى كمال، الذي سيصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية التركية، أن يقود الجزء التركي من تلك القوة غير أنه رفض الخدمة تحت إمرة ضابط ألماني.

ولم يكن تمركز القوات حول حلب بطيئاً فحسب، بل بدأت الشكوك أيضاً حول جدواه. كذلك كان خطراً على الأتراك المضي في مغامرة بغداد ما لم تكن جبهة فلسطين مضمونة، ذلك أن انهيارها يعني تعريض حلب وخطوط الاتصال إلى العراق للخطر.

وقام جدل حول هذه المسألة بين أنور باشا في الأستانة، وجمال باشا الجزار في سورية، والجنرال فون فالكنهاين في حلب. فقد كان أنور باشا يصر على تنفيذ مغامرة بغداد من دون تأخير، أما جمال باشا فكان يطلب تعزيزات للقوات التركية المرابطة في جبهة فلسطين، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يريد مساعدة الألمان وتدخلهم. وبعد زيارة

قام بها فون فالكنهاين إلى جبهة فلسطين في أيلول /سبتمبر، قرر أنه يجب إعطاء الأولوية لسلامة هذه الجبهة، وقد اقترح نقل جيش «يلديريم» كله إلى فلسطين، لدحر الإنكليز بضربة كبرى. غير أنه كان قد تأخر كثيراً في الوصول إلى هذه الفكرة ثم في إقناع الباشيين، أنور وجمال بجدواها. وهكذا لم يستطع جيش «العاصفة» الوصول إلى فلسطين في الوقت المناسب فقد سبقت الأتراك عاصفة أخرى إلى بئر السبع.

سوف يطلق الإنكليز رسمياً على تلك العملية، التي طردوا فيها الأتراك من مواقعهم عند حدود فلسطين الجنوبية: «معركة غزة الثالثة»، غير أن الاسم مضلِّل كما يقول «ويفل» .. وكان الأحرى تسميتها «المعركة من أجل غزة وبئر السبع». وقد أقدم اللنبي بادئ الأمر على قصف غزة من البحر والبر، فجعل الأتراك يركزون اهتمامهم في ميمنتهم. وبعد ذلك بأربعة أيام جرت الحملة على بئر السبع، أو الميسرة التركية. ثم بعد يومين آخرين قام الإنكليز بهجوم على غزة وأسقطوا الكثير من دفاعاتها، تاركين الأتراك في حيرة من أمرهم حول الضربة المقبلة، التي سوف تضعفهم تماماً إذ تأتيهم من الميسرة وتبعثر خططهم الدفاعية كلها.

وفي هذا الكر والفر عاد الإنكليز فنقلوا ثقل المعركة إلى غزة وشددوا حملتهم في السهول الساحلية. ولم تكن تلك معركة تقليدية، إذ كان يفصل بين جناحي الجيش الإنكليزي نحو 20 ميلاً، تربط بينهما فرقة واحدة فقط من الخيالة، وبالتالي تجعل الوسط سريع العطب. لكن اللنبي تحمل المغامرة. كان يريد بئر السبع قبل أي شيء من أجل آبار المياه فيها. ولذا حشد للمعركة قوات أكبر بكثير مما توقع الأتراك، كما استطاع هذا الثعلب الإنكليزي أن يخدع إلى حد بعيد الجنرال كريس فون كريسنستاين القائد الألماني للجيش التركي الثامن.

وفي ليل 30ــــ31 تشرين الأول/ أكتوبر تحركت قوة قوامها 40 ألف رجل من مختلف الأسلحة، لاتخاذ مواقع للهجوم على بئر السبع صباح اليوم التالي. أما الحامية التركية فكانت مؤلفة من 5 آلاف رجل. وبعد مسيرة ليلية طويلة، استطاع مشاة «الفيلق العشرين» أن يحتلوا معظم المواقع دون خسائر تذكر مع حلول الظهيرة. لكن النجاح لم يكن كافياً. وكان اللنبي لا يزال قلقاً حول قلب البلدة نفسها، والآبار التي

تبعد نحو 4 أميال. وفيما ينشغل الأتراك بالدفاعات الخارجية كانت الخطة تقضي بأن تهاجم قوة محمولة البلدة نفسها من الشرق. وأصدر اللنبي الأوامر إلى شوفيل بالهجوم على بئر السبع قبل حلول الظلام، لكن قبل أن يصله ذلك الأمر كان شوفيل قد أمر لواء الفرسان الأوسترالي بالتقدم نحو المدينة. وبالفعل، قبل حلول الظلام كانت بئر السبع تسقط ومعها... آبارها سالمة.

مر اليوم الأول من المعركة مثمراً: المياه مؤمنة، فرقة تركية كاملة دمرت والقوات البريطانية على مسافة قصيرة من موقع ضرب الميسرة التركية. وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر قامت الحملة الرئيسة الثانية على جبهة طولها ثلاثة أميال، غير أن خسائر الإنكليز هذه المرة كانت أكبر حجماً بكثير. وقد تبين للبريطانيين آنذاك مدى صعوبة الاختراق على الخطوط الساحلية. على أي حال مر الفصل الثاني بهدوء نسبي وبدأ الاستعداد للفصل الثالث المجهول العواقب.

فقد تبين أن المياه الموجودة في بئر السبع ليست كافية لإرواء القوة التي منع عنها حلاقة الذقون والاستحمام، وهاجت في هذا الوقت رياح الخماسين الحارة، فزادت من الطلب على المياه، كذلك دارت رحى معارك ضارية، فاشتدت الحاجة إلى المياه أكثر فأكثر. وفي هذه الأثناء وصلت إلى الأتراك التعزيزات الأولى من فرقة «العاصفة»، فظن الإنكليز أن الهدف هو استعادة بئر السبع، في حين أن الأتراك كانوا في موقف دفاعي، يريدون الآن أن يحولوا دون سقوط القدس.

حيال هذه التطورات قرر اللنبي تنفيذ الفصل الثالث، في الرابع من ذلك الشهر غير أن الجنرال تشيتوود نصحه بتأجيله حتى السادس منه. وفي ذلك الموعد بالفعل بدأ الهجوم وأرغم الأتراك على التراجع بعد تحطيم ميسرتهم. صباح السابع من تشرين الثاني/نوفمبر وصل الإنكليز إلى قلعة غزة فوجدوها مهجورة. لقد سقط الموقع الذي صد القوات البريطانية ثمانية أشهر، وأخذ الأتراك يتراجعون شمالاً على الساحل.

«لقد كانت هذه الفرصة الذهبية أمام الخيالة للقيام بمطاردة عاصفة». هكذا يقول «ويفل» في فرح.

للرجل العادي تبدو المطاردة أكثر أشكال الحرب سهولة! لكن الحقيقة غير ذلك إطلاقاً، يحذّرنا «ويفل» أيضاً: أن مطاردة عدو هارب وفاقد المعنويات يجب أن تكون سهلة من حيث المبدأ. غير أن المطاردات الناجحة كانت قليلة جداً عبر التاريخ، في حين أن عدد الهروب من المعارك كان كثيراً جداً. فالجندي البريطاني مدلل نسبياً، ومعدته أكبر أعدائه. في حين أن الجندي التركي كان قد اعتاد وعورة العيش، والنوم على الطوى. وباستطاعة الجندي الهارب عادة أن يتزود ما يشاء من مستودعاته، إلا إذا دمرت. كما أن القوات الهاربة تستطيع أن تربح الوقت، بأن تنسف خلفها الجسور والطرقات، وتقيم العوائق. وفوق ذلك كله فإن الجندي الفار أكثر سرعة من ذلك الذي يطارده. ومن هنا فإن العزم الذي أظهر اللنبي في الحملات العامين 1917و1918 كان فائقاً حقاً.

ويروى أنه رسم ذات يوم خطاً معيناً وسأل أحد ضباط الأركان إن كان من الممكن بلوغه؟ وقال الضابط: «إن ذلك محتمل ولكن ...». ولم يدعه اللنبي يكمل. «كلمة: لكن غير موجودة في قاموس الحروب. وفي المطاردة يجب استنزاف القدرة حتى نهايتها. إن القوات التي تلحق الهزيمة بالعدو يتملكها ميل إلى الاستراحة. ولذا يجب أن يكون هدفها بلوغ ما يجب أن تبلغه.. لا ما تستطيع».

لكن الهدف الصعب سيظل صعباً. وسوف يتعين على الرجل المنتصر في بئر السبع الانتظار إلى العام التالي لاستكمال حملته وحلمه «تعطيل الأتراك كلياً عن القتال». والآن سوف يستبدل العزم بالصبر.

لقد لعبت المياه دورها مرة أخرى في المشرق الصحراوي، فقد فرق العطش والتعب فيلق الخيالة الذي كان يلاحق الأتراك، وهؤلاء بدورهم حاربوا ببسالة وهم يتراجعون فما عاد في استطاعة الخيالة اختراق صفوفهم. ودارت معارك طاحنة في7 و8 تشرين الثاني/نوفمبر، ثم في التاسع منه، مثل العطش وحركة الخيول والفرمان معاً.

في غضون ذلك كان الفيلق الحادي والعشرون قد احتل غزة نفسها. أما في الجانب الآخر فقد وصل فون فالكنهاين، (وقد أصبح مارشالاً) مع أركانه الألمان إلى القدس،

وأخذوا يستعدون لاستعادة الزمام. وبدا له الوضع مناسباً للوهلة الأولى. فقد كانت هناك فرقة إنكليزية صغيرة نسبياً تلاحق الأتراك أملاً في الإجهاز على الجيش الثامن، في حين كان البريطانيون على مرمى من الجيش السابع. أما الأتراك أنفسهم - وقد وعوا أكثر من غيرهم مدى ضعفهم - فقد أمروا بالتراجع من دون قتال، إلى أن يضطر البريطانيون إلى التوقف بسبب الحاجة إلى المؤن، وعندها يعيدون تعزيز خطوطهم عند حيفا والقدس.

غير أن المارشال الألماني أمر بالقيام بهجوم مضاد. وفي 9 تشرين الثاني/نوفمبر ضبطت الاستخبارات البريطانية برقية تتحدث عن ذلك الهجوم، إلا أن اللنبي لم يُعِرها اهتماماً كبيراً. وفي 11 منه بدأت الحملة فعلاً لكنها ما لبثت أن تلاشت تحت وطأة ضعفها.

في السادس عشر من ذلك الشهر وصلت قوات اللنبي إلى حيفا، وبذلك انتهت عملية المطاردة في سهول فلسطين. وانسحب الجيش التركي الثامن إلى ما وراء نهر «العوجا» بينما التجأ الجيش السابع إلى جبال الخليل. وقد تقدمت القوة الإنكليزية الآن بعد 10 أيام من البدء في عملية المطاردة، مسافة 50 ميلاً وأسرت نحو 10 آلاف جندي واستولت على مئة مدفع.

لقد وصل اللنبي في الحملة إلى اللحظات الحاسمة. وهو يعرف، لكثرة ما قرأ في كتب التاريخ، أن هذه التلال أمامه عصت على الكثيرين من قبل، وأن تلك الممرات الغربية الوعرة، الضيقة إلى القدس، أدت إلى هزيمة الآشوريين والرومان والصليبيين. وبين الكتب التي كان يحملها أينما ذهب كتاب «الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة» وفيه كتب جورج آدم سميث عن تلك التلال الحصينة.

«كل شيء يتضافر لإعطاء سكان المنطقة وسائل دفاعية سهلة ضد الجيوش الكبرى. إنها أرض مليئة بالمكامن والعوائق والمفاجآت، حيث لا تستطيع الجيوش الغفيرة أن تتحرك جيداً لكي تقاتل وحيث يستطيع المدافعون الاختباء».

بالإضافة إلى ما رآه من صعوبة بنفسه، تلقى اللنبي برقية من وزارة الحربية تحذره من تعريض هذه الأعداد الوافرة من الجنود إلى الخطر. ومع ذلك أصدر في

18 تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد يوم واحد من الراحة ، الأمر بالتقدم عبر التلال. لكن كأنها تضيف تحذيراً إلى تحذير، بدأت أمطار الشتاء بالهطول، لكي تذكره بمخاطر ما يفعل.

كان الجيشان التركيان منقسمَين ومشتتَين على بعد 20 ميلاً الواحد من الآخر: واحدٌ على فلسطين، والآخر في سهولها. لكن ندرة الطرقات، ومشكلات التموين، لم تترك للجنرال البريطاني من القدرة على المناورة سوى أكثرها بساطة. وقد ترك اللنبي فرقة من الخيالة، وأخرى من المشاة فقط، من أجل مواجهة الجيش الثامن عبر نهر «العوجا»، ولحماية خط المواصلات في السهول. أما باقي قواته المتوافرة، وهي فرقة من الخيالة وفرقتان من المشاة فقد أطلقها عبر التلال. وكانت هناك طريق معبدة واحدة من حيفا إلى القدس: «طريق الرومان» التي قرأ عنها اللنبي على الخريطة التي يحملها، فلم تكن أكثر من «قادومية» للدواب. ومن حسن حظ الإنكليز أن أحد ضباط الأركان كان قد طلب من اللنبي في أيلول/سبتمبر الموافقة على إنشاء فرقة نقل من الحمير والبغال تحسباً للشتاء القاسي في التلال، غير أن هذه الفرقة لم تصبح جاهزة إلا في أوائل كانون الأول/ديسمبر. وفي غضون ذلك ظل الجمل، ذلك المخلوق العجيب، الآلة الرئيسة في الزحف على القدس.

كانت الخطة العامة تقضي بالوصول إلى طريق نابلس ـ القدس من الشمال، لقطع خط الإمدادات الرئيس على الأتراك، وحملهم على ترك المدينة. وكان اللنبي ينوي تجنب أي قتال داخل القدس نفسها ولذا أمر الفرقة الخامسة والسبعين التي أو كلت إليها طريق يافا ـ القدس أن تتوقف على بعد بضعة أميال من المدينة وأن تتجه شمالاً نحو «البيرة» فيما تتقدم فرقة أخرى عبر بيت عور التحتا، وبيت عور الفوقا، نحو رام الله على طريق نابلس على بعد نحو عشرة أميال من القدس. وكانت فرقة أخرى تتقدم في وادي عجلون نحو بيت لهيا لدعم الفرقتين.

واستطاعت الفرقة الخامسة والسبعون أن تتقدم عبر طريق باب الواد وفي مساء اليوم التالي اقتحمت قرية العناب على مرمى حجر من القدس. وبعد ذلك بيوم اتجهت شمالاً واحتلت منطقة «النبي صاموئيل»، وهي تلة تشرف على المدينة.

أما الفرقة التي تولت مهمة قطع طريق نابلس، فقد واجهت مقاومة تركية شرسة، واضطرت إلى التراجع أمام الأتراك نحو بيت عور، والتمركز هناك.

في 24 تشرين الثاني/نوفمبر كان قد تبين للبريطانيين أن العزم وحده لا يكفي، لا بد إذاً من التوقف إلى أن تصل التعزيزات. وفي هذا الوقت كان المارشال الألماني يترصد أملاً بهجوم مضاد جديد، فلما توقف الإنكليز قرر هو الاقتحام. غير أن محاولاته لم تنجح. وأخذت فرق إنكليزية جديدة في الوصول إلى التلال والسهل. وبدأ العد العكسي بمحاولة ثانية في اتجاه القدس.

ومن غريب الصدف أن الفيلق العشرين (البريطاني) كان من طليعة الهجوم، في حين أن الفيلق العشرين التركي كان يتولى الدفاع عن مدينة القدس. وتحدد موعد المحاولة الثانية في 8 كانوا الأول/ديسمبر. وهذه المرة قرر الجنرال تشيتوود، العقل المدبر للخطط، أن تتم الحملة على الطريق الرئيسة المتوافرة. وهكذا كان، وتوزعت الفرق الإنكليزية المهاجمة الأدوار: اثنتان تتجهان عبر المشارف الغربية للمدينة، وواحدة تتقدم عبر الخليل إلى بيت لحم، لحماية ميمنة الحملة، ثم تتجه شرق المدينة، وتقطع الطريق إلى أريحا.

فجر اليوم التالي كانت المواقع التركية قد بدأت بالسقوط. وأصبح الأتراك وكأنهم يقاتلون من دون حماستهم المعهودة. لكن المطر والضباب تدخلا إلى جانبهم ذلك النهار، فأوقفا الزحف البريطاني، غير أن معالم المعركة من أجل القدس كانت قد اتضحت. لقد ضرب اليأس صفوف الأتراك، وعندما حاول البريطانيون التقدم في اليوم الآتي وجدوا أمامهم مواقع خالية. لقد سقطت المدينة المقدسة أمام غازٍ آخر. وكانت «عادة تسقط في الخراب والدماء، أما سقوطها هذه المرة فكانت له لمسة من الكوميديا» كما يقول «ويفل» الذي يروي الدخول إلى المدينة قائلاً: «جاء رئيس البلدية رافعاً علماً أبيض، وسلم مفاتيح المدينة العظيمة للبريطانيين (...) لقد أعطاها لبعض الجنود الذين لم يجدوا أنفسهم في مستوى الحدث التاريخي، وأخيراً قبل الجنرال شيا قائد الفرقة الستين باسم اللنبي، استسلام المدينة. بعد ذلك بيومين وصل اللنبي رسمياً إلى القدس، فدخلها من بوابة حيفا على قدميه وإلى

جانبه مندوباً إيطالياً وفرنساً. وكان في موكبه أيضاً «لورانس العرب» الذي أصبح الآن برتبة مقدم. لقد استطاع اللنبي أن يكتب فيما بعد هذه العبارة التي حرم منها كثيرون: «لقد استسلمت القدس».

تخطى الدور الذي لعبه اللنبي دور أي جنرال آخر من جنرالات الشرق. ففي دوره المشرقي محطتان لا مثيل لهما: الدور العسكري في القدس، والدور العسكري والسياسي في مصر.. تلك «الجوهرة الأخرى» في التاج البريطاني المرصع بالهند وبقية المستعمرات.

ومن ثم فإن الإحاطة بدور اللنبي كله في الشرق مسألة تتطلب المجلدات، لذا اخترنا الحملة على القدس كفصل واحد يمكن أن يلقي الضوء على حياة الرجل وأبرز أدواره في الشرق.

لكن لا بد من التوقف قليلاً هنا، عند المعاني السياسية للحملة، بعدما تلهينا بالسرد العسكري، كما يراه اللورد «ويفل» الذي سيكون هو أيضاً واحداً من أبرز جنرالات الشرق فيما بعد، أي عشية الحرب العالمية الثانية.

إذاً كان اللنبي مهووساً بالتاريخ. وكان يقرأ في كل ليلة في كتابين، أحدهما الإنجيل. وبالتالي كان ينظر إلى أعماله كلها بشيء من الصليبية الحديثة. غير أنها كانت صليبية غير مغلفة بالستار الديني هذه المرة، وإنما بستارها السياسي والإستراتيجي والعسكري المعلن. ولم يكن في إمكان اللنبي أن يبعد صورة الماضي عن خياله.

إنها الطريق التي سلكها كثيرون. إنها المدينة التي تقاتل عليها الغزاة عبر التاريخ، وقبل اللنبي حاول نابوليون بونابرت نفسه الوصول إلى المدينة. ويقول الإنكليز، الذين كانوا يلاحقون إمبراطور فرنسة، إنه ما إن أبحر من الإسكندرية، حتى عرف البريطانيون أن وجهته سوف تكون ميناء عكا. وقطعت جيوش نابوليون براً الطريق نفسها التي سوف تعبرها جيوش اللنبي من العريش إلى خان يونس وغزة، بل إن هذه الأسماء ستعود إلى شهرتها في الحروب العربية ـ الإسرائيلية لكي، تدل على مدى

الارتباط بين مصر وفلسطين، وهو «امتداد وليس ترابطاً» فقط كما كان يردد الأستاذ محمد حسنين هيكل.

لقد أراد نابوليون الوصول إلى عكا لأنها «كانت المفتاح إلى الشرق»، ومنها كان يريد الوصول إلى سورية، ومن ثم التقدم إما إلى الأستانة أو إلى دلهي. وكان الإنكليز يومها يساعدون الأتراك، لكن ها هم بقيادة اللنبي يدحرونهم «ويخرجونهم من الحرب».

فالذي لم نتحدث عنه هنا هو الدور العربي نفسه أو بالأحرى تلك العلاقة بين اللنبي والأمير فيصل. غير أن جورج أنطونيوس يروي لنا كيفية وصول اللنبي في كتابه الشهير «يقظة العرب» بقوله:

«... وكان السير أرشيبالد مري قد قضى ما يقرب من عام وهو يدفع الترك ببطء إلى التراجع عبر شبه جزيرة سيناء، وكان قد وصل عند بداية سنة 1917 إلى حدود فلسطين، ثم قام في آذار/مارس ونيسان/إبريل بهجمتين على غزة، باءتا بالإخفاق المريع، ولذلك عزل من منصبه وأرسل السير أدموند اللنبي خلفاً له، فوصل القاهرة حوالي نهاية حزيران/يونيو ليتسلم شؤون القيادة. وكان أول نبأ عسكري مهم تلقاه هو نبأ سقوط العقبة، فكأنما كان ذلك النبأ تحية للقائد الجديد لدى وصوله.

وأدرك اللنبي بسرعة أهمية الاستيلاء على العقبة والفائدة التي قد يجنيها من وجود جناح عربي سيار في هجومه المقبل، فصرح أن فيصل يستطيع أن يتكل عليه في المعونة ووفى بهذا الوعد وفاءً جميلاً، وحضر فيصل إلى العقبة في آب/أغسطس فتحولت الضيعة الصغيرة حالاً إلى خلية عسكرية، كبيرة، متعددة المرافق، مزودة بمحطات اللاسلكي، وبمطار وأرصفة لإنزال المؤن. وتكونت فيها نواة جيش «نظامي» من الوحدات العربية التي تألفت في الوجه، وأضيف إليها من بعد ستمائة جندي، وهم «الفيلق العربي» الذي كون في مصر من المتطوعين في معسكرات أسرى الحرب. وبما أن العقبة خارج حدود الأراضي الإسلامية المقدسة فقد كان غير المسلمين قادرين على المجيء إليها دون تقييد، فحضر إليها عدد من الضباط البريطانيين والفرنسيين ليكونوا مستشارين لدى القيادة العربية، أو ليكونوا رؤساء حاميات خاصة من العربات

المصفحة أو الطيارات أو فرق الهجانة. أما في الحجاز نفسه فكان على إخوة فيصل أن يمضوا في عملياتهم إلى جوار المدينة، حتى نهاية الحرب، باستثناء ما قام به الأمير زيد، وذلك هو تحركه في العام اللاحق شمالاً إلى الميدان السوري.

وخلال ستة أشهر بعد سقوط العقبة ظل فيصل منهمكاً في إدارة مهمة مزدوجة، هي وضع قواته في تنظيم حربي، وتوسيع دائرة التحالف مع القبائل. وكان حينئذ على بعد 150 ميلاً من مراكز اللنبي الأمامية، وعلى صلة مكفولة جواً وبراً بمركز رئاسة القوات المصرية الغازية، وكانت أكبر حشود العدو المواجهة له تتمركز في معان، فأصبحت هذه المدينة هدفه العسكري الآتي. وعند نهاية العام كان قد أنجز تهدئة الخواطر بين القبائل، حتى تمكن من أن يضم إليه كل القبائل في منطقة معان. وتطور جيشه المدرب من نواة عددها أورطتان فأصبح قوة جيدة الأعداد تتألف من لواء من المشاة وأورطتين من الركبان (على الجمال والبغال).

وفيما كان فيصل مستغرقاً في الاستعدادات العسكرية والسياسية، كان الشريف ناصر وعودة ولورنس يخرجون في حملات متعددة، للإغارة على السكة الحديدية؛ وتخريب الطرق والجسور والقناطر، وإيقاع ضربات مريعة بالعدو ـ وإن كانت صغيرة ـ وتخلل هذه الغارات فصل الخريف من قبل أن يبدأ اللنبي سيره شمالاً نحو فلسطين في نهاية تشرين الأول/أكتوبر، وفي واحدة من تلك الغارات قرب المدورة، نحو نهاية أيلول/سبتمبر، نسفت جماعة يقودها لورنس قطاراً من الجنود الأتراك، وقتلت منهم سبعين جندياً. وبعد ثلاثة أسابيع استولت تلك الجماعة على كمية من المؤن كانت مرسلة هذه المرة أيضاً إلى ذلك الرجل التعيس الحظ ابن الرشيد. وقام الشريف ناصر في الأيام الأخيرة من كانون الأول/ديسمبر، بهجوم جريء على جرف الدراويش فأخذ ما يزيد على مائتي أسير، ثم احتل الطفيلة، وهي قرية مهمة في منطقة زراعة القمح، وعندما حاول طابور تركي مكون من 800 جندي استعادتها، ردوا على أعقابهم مضطربين، وخسروا 300 قتيل؛ و200 أسير.

فإذا نظرنا إلى المعاني العسكرية في احتلال العقبة، وجدنا أنه سبَّب حرجاً بالغاً للقيادة التركية ـ الألمانية بسورية في وقت كانوا يحتاجون فيه إلى كل رجل وكل

بندقية لمقاومة الزحف البريطاني نحو القدس. أما نتائجه السياسية فإنها كانت أشد إضراراً وإن خفيت عن الأنظار في البداية، فقد أصبحت العقبة تجسيداً ملموساً للثورة وقاعدة لتقويض السلطة التركية في سورية سياسياً مثلما كانت قاعدة لتفكيك كيانهم العسكري هنالك».

ويفسر لنا «يقظة العرب» السبب في نجاح الحملة الإنكليزية فيقول:

«في نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر شن الجنرال اللنبي هجوماً أدى إلى احتلال القدس في التاسع من كانون الأول/ديسمبر، وكانت قد سقطت قبل ذلك مدن غزة والخليل ويافا وبيت لحم في حملة تميزت بالعناية التي صاحبت وضع خطتها، مثلما تميزت بالجرأة والبسالة التي نفذت بها تلك الخطة. ثم أنجزت عمليات أخرى أصغر منها لتثبيت المكاسب، وفي نهاية سنة 1917 كانت القوات البريطانية قد احتلت احتلالاً عملياً راسخاً كل ذلك الجزء من سورية الذي يمثل ما يسمى «سنجق القدس».

ولصعوبة طبيعة الأرض وحلول خريف قاسٍ شاذٍ في ذلك العام كان تقدم الجيوش البريطانية شاقاً عسيراً، فلم يكن يجد عوناً إلا في الموقف الودي لدى الأهالي، إذ كانوا يحيون الجنود تحية الحلفاء المحررين، ويقدمون إليهم العون تلقائياً، وتحول الضباط والجند العرب في الجيش التركي إلى صفوف البريطانيين، وتطوعوا بنقل أخبار عن خطط الأعداء، ومدى تنظيماتهم الحربية، وكلها أثبتت أنها كانت قيِّمة. ولقي المنتصرون في القدس ترحيباً أصيلاً ـ وإن يكن مقهوراً ـ من شعب فعل فيه الجوع والنفي والتغريب حتى قضى على نصفه. ومع ذلك فحين أنشأت القيادة البريطانية مكتباً لتسجيل المتطوعين الذين يحبون العمل في جيش فيصل، أبدت قوة الحماسة المحلية قلة الرجال الأصحاء القادرين. وقام شاب من إحدى الأسر العربية الكبيرة (المفتي أمين الحسيني) يجوب البلاد المحتلة، وخلق حركة من التطوع ولعب دوراً فعالاً في تنظيم فريق المتطوعين، حقاً إن عدد المتطوعين كان صغيراً لم يتجاوز ألفين، ولكن المدهش أن يتقدم للتطوع مثل هذا العدد في بلاد مثقلة بالنكبات».

ويجب طبعاً ألا ننسى شيئاً مهماً: ففي الوقت الذي كان أدموند اللنبي يغير الخريطة الجغرافية أو العسكرية في العالم العربي، كان الغرب يضع اللمسات الأخيرة

على التغيير السياسي والقومي. فالعام 1917 عام سقوط الأتراك والألمان، هو أيضاً عام وعد بلفور، الرجل الذي سوف ينشئ فوق أنقاض فلسطين «وطناً قومياً لليهود».

كذلك لا بد من الإشارة إلى انتهاء دور اللنبي العسكري لكي يؤدي في مصر دوراً سياسياً أساساً. لقد كان بالنسبة إلى الإنكليز، العسكري الوحيد الذي لم يتعلم «السياسة» في الهند ومع ذلك عرف جيداً كيف يتحول إلى إداري في خدمة صاحب الجلالة. آنذاك، الملك جورج الخامس.

هنري غورو
الذراع المقطوعة على فرس أبيض

لكي نعرف من هم «جنرالات الشرق»، لا بد أن نعرف تلك الطريق التي سلكوها إلى الشرق أو إلى المشرق. والعسكريون يسلكون في زمن الحرب طريقاً واحدة على أي حال: طريق الحرب!

غير أن جنرالات الشرق لم يكونوا جنرالات الحرب وحدها، بل كانوا أيضاً جنرالات السلام الضائع، وكانوا جنرالات تقسيم المنطقة، واحتلالها، وإخضاعها زمناً والمساومة عليها، وتنويع الأنظمة فيها، بل إن الشرق لن يعرف، بين العام 1918 أي نهاية الإمبراطورية التركية، وبين جلاء الجيوش الأجنبية عن المنطقة بين منتصف الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات ـ لن يعرف إذاً سوى الجنرالات وحملة عصا الماريشالية، مع أن الصحراء ستكتشف لزمن طويل آثار خطى ضابط برتبة ملازم، كان يدعى لورانس.

عندما توقف القتال في نهاية الحرب الكونية الأولى، كانت ثماره تتساقط من شجرة السلام على رأس بريطانية بلا حساب. إذ مع حلول كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، كانت الراية البريطانية المضلعة ترتفع في فلسطين، وسورية، ولبنان، والعراق، فوق ساحة تشمل جميع الطرق البرية التاريخية بين المتوسط والمحيط الهندي.

لقد كان حلماً استعمارياً لا مثيل له. وها هي «المسألة الشرقية» تحل إذاً بقوة السلاح البريطاني. وقد أثبت هذا السلاح وجوده، أو حضوره، بأن بريطانية تخطت معاهدة سايكس ـ بيكو نفسها، فامتد الحكم البريطاني إلى الداخل العراقي، حيث كان يفترض أن يتمتع العرب باستقلال حقيقي. لكن ها هم الموظفون البريطانيون والهنود يملؤون الأرض، وها هي الروبية الهندية تحل مكان «الرشادية» و«المجيدية» والمتليك!

لقد استأثر البريطانيون بالعراق، كما استأثروا بمصر، جوهرة أخرى من جواهر التاج، وكاد أدموند اللنبي، الذي سيصبح أحد أبرز جنرالات الشرق، يعلن سورية وفلسطين ولبنان كلها محميات بريطانية أخرى، لكنه عاد فقبل مرغماً أن يقيم الفرنسيون إدارة مدنية على الساحل السوري (الأرض العدوة المحتلة شمالاً) كما كان يراها الإنكليز، وأدار الهاشميون شؤونهم السياسية في الداخل (الأرض العدوة المحتلة شرقاً)، وحصر الإنكليز منطقة احتلالهم الرئيسة في فلسطين (الأرض العدوة المحتلة جنوباً) مع بعض الاستثناءات:

غير أن ضباط اللنبي كانوا الأوصياء على كل مدينة رئيسة في المشرق، بما في ذلك بيروت، لقد كانت هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها في نهاية الحرب: 200 ألف جندي بريطاني يحتلون ـ بكل وضوح ـ كل نقطة إستراتيجية في العالم العربي. وفي المقابل كان هناك جيش فرنسي رث المظهر، نصفه من المجندين الأرمن، ولا يزيد عدد أفراده على ستة آلاف. إنه جيش لن يخيف الإنكليز و.. لا العرب، ولا كان يخيف لويد جورج في لندن: هو، كان يريد، أمام هذا المشهد العسكري المفحم، إعادة النظر في اتفاقات سايكس ـ بيكو! وقد كتب لويد جورج في مذكراته فيما بعد يقول: «عندما جاء كليمنصو إلى لندن في نهاية الحرب، ركبنا سيارة واحدة إلى السفارة الفرنسية، وسط هتاف الجماهير، وبعد وصولنا إلى السفارة سألني ماذا نريد من الفرنسيين بالتحديد، وأجبت على الفور إننا نريد ضم الموصل إلى العراق، وأن تكون فلسطين تحت السيطرة البريطانية من دان إلى بئر سبع. وقد وافق من دون تردد».

الحقيقة أنه لم يكن لدى الزعيم الفرنسي اختيارات كثيرة، وعندما دافع أندريه كارديو عن هذه التنازلات أمام الجمعية الوطنية الفرنسية، في صيف العام اللاحق، أعاد إلى أذهان السادة الزملاء «بأن المسألة كانت مسألة الوصول إلى اتفاق مع إنكلترة حول بعض النقاط. كان علينا أن نحصل منها على ما كانت تمانع من إعطائه بأي ثمن: احتلال الضفة اليسرى من الراين، كان علينا الحصول على الفحم الحجري من بلاد السار، وأشياء أخرى. وإنه في مثل هذه الظروف ذهب المسيو كليمنصو إلى لندن.

على أي حال، كان لباريس أيضاً «تعويضات» مشرقية! وقد تضمنت هذه التعويضات: المنطقة المعروفة بكيليكية الأكثر خصباً من فلسطين، وميناءها المثالي: الإسكندورن، التي ستكون أيضاً مصفاةً لنفط العوامل. وقد وافق لويد جورج أيضاً على أن يمنح فرنسة 25 في المئة من أسهم شركة النفط التركية، وهو القسم الذي كان مخصصاً في السابق لألمانية.

لكن فرنسة كانت تريد أكثر من ذلك، ولن تقبل بمجرد دور استشاري في الداخل السوري، بل كانت باريس تريد أن تمد سيطرتها من الساحل إلى سورية كلها، أي مسافة تبلغ ثلثي بريطانية وسبعة أضعاف سويسرا، وإذا كان البريطانيون يعاملون العراق بالطريقة التي اختاروها، فلماذا لا يكون للفرنسيين الحق نفسه في سورية؟ هكذا تساءل المسيو روبير دو كي من الخارجية الفرنسية.

في 20 آذار/مارس من العام 1919. يلتقي لويد جورج برئيس الوزراء الفرنسي في باريس، وفيما تسلح كليمنصو بالصمت وراح يتطلع من النافذة عبر شارع «نتيو»، كان وزير خارجيته المسيو بيشو يستفيض في شرح الروابط التاريخية بين سورية وفرنسة، مبرراً المطالبة بحق الانتداب. لكن لويد جورج ذكّر المسيو بيشو بأن ثمة عوائق كثيرة ليست فقط تلك الواردة في معاهدة سايكس ـ بيكو، بل أيضاً الوعود التي أعطيت للأمير فيصل والعرب، ثم أضاف في شيء من الخطابة أن مليون جندي بريطاني خاضوا الحرب ضد تركية وأن مساعدة العرب لهم كانت جليلة في هذا الحقل!. لا، إنها أكثر من جليلة. هكذا تدخل الجنرال اللنبي ليصحح معلومات رئيسه!

لم يتراجع المسيو كليمنصو، إنه يريد سورية. عقد اجتماع آخر في أيار/مايو. لقد خسرت بريطانية 125 ألف قتيل في الحملة على تركية، في حين أن المساهمة الفرنسية لا تذكر. هكذا أصر لويد جورج. «لكننا تخلينا لكم (!!) عن الموصل وفلسطين» هكذا أجاب كليمنصو، الذي يريد وجوداً كاملاً في دمشق وحلب، بصرف النظر عن أي شيء، بما في ذلك تلك المعاهدة الملعونة، سايكس ـ بيكو.

لا ، لا بد من سورية ولو طال السفر، أو الجدل. لقد كانت باريس تريد مستعمرات في المشرق العربي، كما هو الحال في مغربه، وكانت هناك جماعات كثيرة تضغط من

أجل ذلك. ثم إن المستعمرات كانت امتداداً هائلاً للإمبراطورية، وقد زودتها إلى الآن بـ1.918.000 جندي، بينهم 680 ألفاً حاربوا في قلب أوروبة، ومعظم هؤلاء الجنود مروا في البر الفرنسي خلال الحرب، تاركين تأثيراً مهماً في السكان المحليِّين. وقد كتب مراقب يدعى ستيفن روبرتس يومها:

... «عرب وبربر وتونسيون وزنوج ومغاربة وصوماليون وهوفاس وسلافيون وكريليون وناس من المحيط الهادي والمستعمرات القديمة كانوا هناك، لقد تحققت الإمبراطورية في ضربة واحدة. وتلك الأحلام والخيالات تحولت إلى حقائق من لحم ودم. لقد ارتعدت فرنسة طرباً بهذا الشعور».

الواقع أن فرنسة حصلت من المستعمرات على أشياء أخرى غير الجند: نحو مليار فرنك من المال، وما حجمه مليونان ونصف مليون طن من المنتجات، بما فيها الحبوب والحنطة والزيوت. ولم تكن سورية تعدم هذه المصادر، كما تعرف فرنسة عبر قرون من التبادل التجاري. إنها بستان تاريخي، وكروم شاسعة، وحقول قطن فسيحة.

أيضاً انقسم الإنكليز فيما بينهم - بعضهم -، وبينهم اللنبي، لا يريد لفرنسة شيئاً على الإطلاق، وبعضهم الآخر يريد التساهل. وراح اللنبي يحرض ضد الفرنسيين، في الوقت الذي وصل إلى بيروت المسيو جورج بيكو، كبير المستشارين السياسيين الفرنسيين، لكي يتفاوض مع الضباط الإنكليز. وقد كانت لدى المسيو بيكو ثلاث شكاوى رئيسة: أولاً الضباط الفرنسيون يوضعون دائماً في الصفوف الخلفية خلال الاستعراضات، ثانياً: البنوك الفرنسية لم تُعْط رخصاً للعمل في بيروت، ثالثاً: العملة الفرنسية ممنوعة من التداول، وتذهب صحيفة «لوتون» التي ستصبح فيما بعد «لوموند» اليوم إلى أبعد من ذلك لتقول في 19 تموز/يوليو 1919: «ثمة حقيقة فاضحة، إن عملاء بريطانية يتبعون في المشرق سياسة تهدف إلى. إبعاد فرنسة».

لم يكن ذلك بعيداً عن الصحة. وكان البريطانيون يشيعون باستمرار أن فرنسة هي حامية الأقليات المسيحية تاريخياً في المنطقة، وهم لم يكونوا يهدفون من وراء ذلك إلى إكبار فرنسة لدى المسيحيين بل بالطبع إلى إضعافها لدى المسلمين. وسوف يؤيد

هذه العلاقة الخاصة بين فرنسة والكاثوليك، الشيخ بشارة الخوري الرئيس اللبناني الداهية، الذي كان وزيراً لدى الفرنسيين وصار رئيساً ضدهم حين يقول في «حقائق لبنانية»: إن رجال الإكليروس كانوا يصلون علناً للسلام... وضمناً لفرنسة».

لقد كانت لدى العرب مخاوف حقيقية من فرنسة. وفي آيار/مايو 1919 صارح فيصل الأول كليمنصو نفسه بالقول: «إنك تعرف أن الكثيرين من الفرنسيين تداعبهم الآمال بأن يجعلوا من سورية فرنسة جديدة. وقد أبلغني رجال أعمال فرنسيون القول في باريس: «إننا لا نستطيع الاعتراف باستقلال سورية، لما لذلك من مضاعفات محتملة في الجزائر وتونس. إنك ترى في وضوح الهوة التي تفصل بيننا. ولذا فإنني أحبذ مساعدتك، لكني لن أقبل العبودية مطلقاً».

لقد كان فيصل بحاجة إلى حلفاء. والإنكليز مثل الفرنسيين بحاجة إلى أصدقاء، وفي هذه المرحلة يطل على الشرق للمرة الأولى بصورة جدية.. الأميركيون!

لم تكن للأميركيين عقد ذنب بعد في المنطقة. بل إن الرئيس ولسون أطل بمثالية رفيعة على «مؤتمر السلام» في باريس. لا معاهدات سرية تربطه ولا ضغوط. والبند الثاني عشر من البنود الأربعة عشر التي قدمها للمؤتمر في كانون الثاني/يناير 1918 يلمح بوضوح إلى أنه لن يلتزم باتفاقات سايكس ـ بيكو وعندما عقد «الأربعة الكبار» أول مؤتمر لهم حول «الشرق الأوسط» في باريس، في شباط/فبراير 1919. أصر ولسون على أن يعرف رأي «المواطنين» في سورية والعراق بالانتداب. لكنه في الحقيقة كان يعرف جيداً أن ثمة ثورة عربية تبدأ في سورية. وها هو اللنبي يؤكد له ذلك. والضباط الإنكليز الآخرون. وأيضاً - بل خصوصاً - المبشرون الأميركيون. البروتستانت الذين كانوا يعرفون أن السوريين يكرهون الفرنسيين، بقدر ما يريد لهم المبشرون أو أكثر.

من هنا طالب ولسون في ذلك الاجتماع الشهير في شارع «نيتو»، بإرسال لجنة تحقيق مشتركة إلى المنطقة. ولم يعجب الأمر لا الفرنسيين ولا الإنكليز بالطبع.

لكن فيصل الأول طار فرحاً. ويروى أنه مر بعربته أمام فندق الكريون والماجستيك وأمام الكي دورسيه، وراح يرمي المساند، وقال لأصدقائه فيما بعد: «لم أكن أملك قنابل لأرميها».

وفي غضون ذلك سمى ولسون العضوين الأميركيين في اللجنة، وهما: هنري كينغ، وهو قسٌّ بروتستانتي شهير، وتشارلز كرين، وهو صناعي من شيكاغو، ما لبث أن أعلن حبه للعرب وكرهه للصهيونية. أما المرافقون للاثنين... فقد كانوا جميعاً من جهاز الاستخبارات، وبينهم البروفسور وليم ليباير، وهو مستشرق معروف، والقس جورج مونتغمري، وهو أيضاً مبشر بررتستانتي عاش في المنطقة، والكابتن وليم ييل من شركة ستاندارد أويل.

كانت تلك بداية الطريق الأميركية... الطويلة! أما الخلاف البريطاني ـ الفرنسي فقد ازداد حدةً. وأخذ لويد جورج أخيراً يسير في طريق التسوية، ليس إكراماً لفرنسة، بل لأن متاعب بريطانية أخذت تزداد في أيرلندا ومصر والعراق. فقد أصبح ثمن المحافظة على 200 ألف جندي في الشرق الأوسط، أكبر من أن تتحمله بريطانية، وهكذا أوفد وزيره اللورد كورزون إلى باريس، ومعه «المسألة الشرقية برمتها». وهناك تقرر أن تنسحب بريطانية من سورية تاركةً الساحة للفرنسيين. وبقي أن يبلغ فيصل الأول بهذا القرار المرير.

اختار الإنكليز.. طريقة الإبراق. إنها الأقل حرجاً. سوف يبدأ إذاً الجنرالات الفرنسيون بالإطلالة على الشرق دون حساب. وكان أول الواصلين الكبار الجنرال غورو، جنرال الساعد المقطوع. لا بد أيضاً من اللجوء إلى مذكرات الشيخ بشارة الخوري، لكي يصف لنا بالكثير من التحفظ وصول الرجل:

«... وبقي الحال على هذا المنوال، إلى أن وصل إلى بيروت في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 1919. الجنرال غورو قائد حملة الدردنيل وجيش الأرغون أثناء الحرب الكبرى، والهدف من تعيينه مفوضاً سامياً، الاستفادة من خبرته العسكرية، التي قد تحتاجها حكومة باريس في معالجة وضع المنطقة الشرقية، التي بقيت حتى ذلك الحين في غير قبضة الفرنسيين، أضف إلى ذلك الهيبة التي ترافق الثوب العسكري عادة، خصوصاً إذا كان من يرتديه من قادة الحرب الكبرى ومنتصريها.

نزل الجنرال غورو من مدَّرعة فرنسية في مرفأ بيروت، وقد أعدت له السلطة استقبالاً رائعاً، فامتطى جواداً أبيض، ومرَّ في شوارع المدينة، والعساكر مصطفون على جانبي الطريق يؤدون التحية، والطائرات تحلق في السماء، حتى وصل موكبه إلى ساحة البرج (ساحة الشهداء)، فعرض القوى البرية والبحرية والمصفحات والفرسان «الصباحيين»، ثم ركب سيارة مكشوفة، يواكبه هؤلاء الفرسان إلى المقر الذي أعِدَّ له في الحي الشرقي.

وفي المساء أقيمت في قصر الصنوبر حفلة استقبال وتعارف، أطلقت أثناءها المدافع والأسهم النارية، ولفظ المركيز جان دي فريج أحد وجوه البيروتيين خطاباً ترحيبياً عدَّد فيه مناقب المفوض السامي الجديد: من بطولة في الدردنيل ذهبت بإحدى ذراعيه، ومن دراية في تسيير الأمور، فبدت على وجه الجنرال دلائل السرور والبهجة، ولاطف الأعيان الذين قدموا إليه، وخرج إلى الشرفة محيياً الوفود الغفيرة التي انتشرت في الساحات والحدائق.

أراد الجنرال أن يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرساً وطنياً، لمواكبته على الخيول العربية، في تنقله في أسواق المدينة...».

سوف يؤدي غورو دوراً مهماً في حياة الشرق. وهو الذي سيعلن أيضاً «لبنان الكبير». كذلك سوف يؤدي بشارة الخوري، أو بالأحرى سوف يستمر في أن يؤدي دوراً رئيساً، إلى أن يسقط على يد عسكري يدعى فؤاد شهاب. ألم يلاحظ بشارة الخوري وهو يافع بعد، أن ثمة هيبة ترافق الثوب العسكري»!

بعد وصول غورو بقليل، يلحق به إلى الشرق كاتبان فرنسيان شقيقان: جيروم وجان تارو. ثمة مهمة على عاتق الأخوين تارو: أن يصفا لنا «الطريق إلى دمشق» ثم يصدران ذلك في كتاب «عرض على وزارة الداخلية في العام 1923».

لطالما سحر الغربيون بالمشرق، والدكتور ألبرت حوراني يقول لنا: إن نابوليون بونابرت كان صادقاً عندما اعتنق الإسلام في البداية، ولم يكن يهادن أهل مصر.

فهو على أي حال كان على خلاف شديد مع الكنيسة في فرنسة. غير أن كُتّاباً آخرين، قدماء ومعاصرين، بينهم المفكر صادق النيهوم، لا يرون في إشهار نابوليون لإسلامه أكثر من مخادعة.

لكن أول ما يطالعنا عند الأخوين تارو هو الانبهار: «إننا نلحظ في سورية بصورة أولى، منطقتين: الأولى هي الساحل ولبنان، حيث سمح لنا (للفرنسيين) بإقامة الإدارة التي نرغب بها. والأخرى: هي الداخل السوري، بما في ذلك حلب ودمشق، التي وجب أن تشكل تحت حمايتنا دولة مستقلة نمدها بالمستشارين والموظفين. إن هذا الترتيب الغامض مع حلفائنا، لم يترك لنا سوى القليل من النفوذ في سورية، لكنه كان كافياً لأن يعطي فرنسة، المنشغلة آنذاك بأشياء أخرى، الشعور بأن حقوقها في المشرق لن تهضم.

إذاً هي مسألة «حقوق» لا مكاسب، كما تفرض الديبلوماسية على المسيو كليمنصو أن يقول. والأخوان تارو، اللذان لا تلزمهما السياسة بشيء، بل فقط يلزمهما حبهما للجنرال غورو، يعتبران أيضاً «أن الترتيب الغامض في معاهدة سايكس ـ بيكو، شيء تم على عجل، وفيه غبن شديد لفرنسة، لكن الأخوين تارو لا يكفان عن الانبهار: «هذا الساحل السوري هو طريق الآلهة. من هنا انطلق إلى العالمين، الإغريقي، واللاتيني، بعل وملكارت وعشتروت وجميع القديسات الوثنية في سورية وبابل (....)، ويرتفع خلف بيبلوس، تدريجياً حتى الثلوج، بلد الصخور والغابات الذي شهد ولادة أدونيس». ويتوقف الأخوان تارو عند نواعير حماة الشجية، ثم عند زنوبيا ملكة تدمر، وفجأة يتوقفان في دمشق «ملتقى جميع التيارات الإسلامية»، حيث يأتي الحجاج من كل مكان، ويتبادلون الأفكار والتفسيرات والرؤى. ثم يتساءل جيروم وجان تارو: «هل هي هذه الثرثرة الخالدة؟ هل هي حدائقهم؟ هل هي جناتهم الفسيحة التي تخفي عن أعين الدمشقيين سحر مدينتهم».

لم يرافق غورو الكتّاب وحدهم، فالمفوض السامي الجديد هو أيضاً قائد... الجيش الرابع! الكتّاب مجرد شهود في الحملات العسكرية.

كان غورو يعرف، في قرارة نفسه، والآن يعرف ـ على الطبيعة ـ أن ثمة عائقاً أساسياً في وجه الفرنسيين، هو فيصل الأول. وإذا كان العرب قد ثاروا ضد المسلمين الأتراك، فكيف بهم ضد «الأوروبيين الكفار»، وهكذا بدأت الثورة ضد الفرنسيين في شكل مكامن هنا وهناك في الجبال الوعرة. لكن العداء وصل إلى ذروته في العام 1920. عندما أعلن الأمير فيصل فجأة أنه لا يحق للجيش الفرنسي استخدام خط السكة الحديدية بين الرياق وحلب. لقد كان هذا القرار بمثابة إعلان حالة حصار على الكتائب الفرنسية المتمركزة في كليكية وتعتمد في تموينها بصورة رئيسة على ذلك الخط. بالنسبة إلى غورو، كان ذلك الاستفزاز الأخير. أو الاستفزاز المطلوب!

وفي 14 تموز/يوليو 1920 أي في ذكرى سقوط الباستيل ، بعث المفوض السامي إلى دمشق بتحذير «شديد اللهجة»، يتهم فيه الحكومة بشن حملة من أعمال العنف، والإخلال بالاتفاقات المعقودة بين فيصل وكليمنصو في كانون الأول/ ديسمبر 1919 وهي في الحقيقة اتفاقات لم تبرم أبداً. ويشدد غورو في رسالته على حق فرنسة «بتأمين السلام والأمن في سورية» وفقاً لمقررات مؤتمر باريس، ويرافق ذلك بخمسة شروط مسكونية: حق فرنسة «المطلق» في استخدام خط حلب ـ رياق، واحتلال مدينة حلب «كضمانة»، وإلغاء الخدمة الإجبارية في «القطاع العربي»، واعتراف دمشق الكامل بالانتداب الفرنسي، وقبول الفرنك عملة رسمية في سورية.

لكن ما هو الانتداب حقاً؟

مرة أخرى لا بد من العودة إلى بشارة الخوري:

«إن الانتداب لمن المخلوقات العجيبة في حقل القانون الدولي. وخير دليل على عجبه ذلك اللَّبس الظاهر في نص البند 22 من ميثاق جمعية الأمم. فهو يعلن بصورة عامة: «إن رفاهية وتقدم الشعوب التي انسلخت عن الدول الحاكمة فيها سابقاً، والتي لا تقوى أن تتولى قيادة نفسها بنفسها بسبب مصاعب العالم الحديث، يستلزمان رسالة تمدين مقدسة، من الواجب إدخال ضمانات لها في هذا الميثاق».

هذا «التمدين» سوف يفسره سعيد فريحة في الأربعينيات في رسم كاريكاتوري شهير يمثل جندياً سنغالياً يقول بلهجة فرنسية مكسَّرة لأحد اللبنانيين: Moi Civilizer vous!.

عندما وصلت الرسالة إلى دمشق، عرف فيصل أن المواجهة مع فرنسة قد آن أوانها. وهز برأسه قليلاً عندما أبلغه رئيس الأركان ياسين الهاشمي أن قواته لا تملك من الذخيرة سوى القليل.

ووافق الأمير «مبدئياً» على شروط غورو، لكن إذا كان الإنكليز لم يحترموا وعودهم، فالفرنسيون لن يحترموا اتفاقاتهم. وصباح 21 تموز/يوليو بدأت القوات الفرنسية بالزحف إلى الداخل السوري!

وأوفد فيصل الأول مبعوثاً خاصاً إلى غورو، لكي يعترض عنده على خرق الاتفاق، ويذكره بالبرقية التي بعث بها الأمير، غير أن غورو كان بارداً كالثلج، وقد قال بكل برودة: إن البرقية تأخرت نصف ساعة في الوصول. واستشاط ساطع الحصري غضباً. وطلب من غورو أن يصدر الأوامر بالانسحاب الآن، وقد أبلغ نوايا الأخير الحقيقية. «لقد فات الأوان»! هكذا جاء الرد البارد مكرراً! ثم قرأ المفوض السامي ثمانية مطالب، «بضمانات» يريدها من فيصل، وعندما عاد الحصري ومعه هذه المطالب ثار الأمير كما ثارت سورية، ودعا إلى جلسة طارئة لحكومته، لكن كان واضحاً سلفاً أنه لم يكن من الممكن القبول بالشروط من دون إشعال حرب أهلية.

في الثاني والعشرين من تموز/يوليو، قرر غوابيه الاستمرار بالزحف، وقد عرف أنه مقبل على مكمن، لكنه كان يعرف في الوقت نفسه أنه ما لم يصل إلى منابع المياه فسوف تموت جنوده عطشاً. وفي المقابل كان يوسف العظمة قائد القوات العربية يرسم خططه. ولم يكن العظمة أقل حنكةً أو تدريباً من غوابيه. فهو من خريجي الكليات الحربية في ألمانية وفي فرنسة نفسها أيضاً، وكان قد نال أعلى الرتب في الجيش العثماني خلال الحرب. وبالتالي كان العظمة يعرف، أنه بما يملك من عتاد، لن يستطيع القضاء على الفرقة الثالثة في ذلك المخنق الإستراتيجي، وفيما أراد الفرنسيون إكمال طريقهم، فتح العظمة النار من مدافع «الهاوتزر» والرشاشات. وخطر لغوابيه آنذاك، وقد سقط المئات من جنوده، أن يتراجع قليلاً، ثم يأتي القوات العربية من خلف الجبال. وفي غضون ذلك، حلقت أسراب من المقاتلات الفرنسية، وراحت تقصف رجال الشهيد العظمة فأوقعت فيهم آلاف الضحايا، وكان بين المستشهدين قائد المدافعين نفسه.

تلك كانت ميسلون.

جنرال آخر يدخل المسرح المشرقي: لم يصل «غوابيه» إلى دمشق كمنتصر فحسب، بل كطاغية أيضاً. وكان أول ما فعله أن أمر بحل الجيش السوري، وتجريده من السلاح، ثم ساق الوطنيين إلى المحاكمة، الواحد بعد الآخر. ومنع غوابيه رفع العلم العربي، وأنشأ حكومة صورية، إلى أن وصل إلى دمشق غورو بنفسه، وأقام الحكم الفرنسي هناك بعدما كان الأمير فيصل قد تركها قبل ذلك بسبعة أيام، أي في أول آب/أغسطس.

تضايق الإنكليز، تضايقوا، على الورق طبعاً، أما في الساحة نفسها، لم يتغير شيء، وقد كتب تشرشل إلى لويد جورج يقول:

«لقد قام بمعظم العمليات التي جرت، جنود من الأفارقة السود، وقد شعر الرأي العام البريطاني والضباط البريطانيون بالأسى، خصوصاً أولئك الذين خدموا العرب، إذ رأوا أن أولئك الذين كانوا حلفاءنا ورفاقنا، والذين تطلعوا إلينا للحماية ولتصحيح المظالم التي لحقت بهم، يوطؤون ويسحقون، ويأخذ الفرنسيون مدنهم خارقين بذلك كل معاهدة مكتوبة... لكن ماذا نستطيع أن نفعل ونحن تربطنا بالفرنسيين تلك العلاقات القوية، ولم يكن بإمكاننا أن نفعل، أي شيء لمساعدة العرب. في هذه القضية...».

وفي غضون ذلك وصل الأمير فيصل إلى فلسطين، ثم إلى القنطرة في مصر، حيث استقل قطاراً آخر مثل أي مسافر عادي، وكان مشهداً مؤلماً وقد وقف الزعيم العربي إلى جانب حقائبه الملكية على رصيف المحطة.

لم تكن تلك نهاية الثورة العربية، ولا كانت نهاية الاستعمار أو الانتداب. إن هنري جوزيف أوجين غورو الباريسي، الذي ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1867 ـ 1946)، والقادم من حروب إفريقية والدردنيل، سوف يكون أيضاً أول جنرال «إعلامي» في غزوات الشرق. فالشقيقان تاربو لم يكونا الإعلاميين الوحيدين اللذين قدما إلى المنطقة من أجل التطبيل لصاحب الذراع المقطوعة. بل أخذ الفرنسيون، عبر رجالهم، يرسمون للرجل صورة ملونة لماعة. وإنك لتقرأ نصاً من نصوص تلك

الطبقة يقول... «وكان أبوه الدكتور غورو عضواً في الجمعية الطبية، وكان مشهوراً بدماثة أخلاقه، وعطفه على المرضى، وتفانيه في خدمتهم، وكان لفخامة الجنرال ثلاثة إخوة سقطوا كلهم في ساحات الشرف».

ولم يتوقف المديح على النثر بل تعداه إلى الشعر أيضاً:

أيـن العـروش وأيـن غـليـوم وأيـن
مـدافـع وذخـائـر ورجـال

مـا صـاح صائحكم «لتحيَ فرنسة»
إلا وطـاب بمـأزق تجـوال

كـم غـارة شـعـواء غـورو غـار في
عـمـراتـهـا وحـسـامـه نـصـال

وقال شاعر آخر (وكلاهما من دون هوية):

قـف بـالـوقـار وحـيِّ الـقـائـد البطلا
وانهض من اليأس واستقبل به الأملا

لا يهم، هناك دائماً شعر جاهز:

غـورو تحـيـيـك أطـفـال وأرمـلـة
وبـائـس كـاد يـدني بـؤسـه الأجـلا

وأمـه عـشـقـت والـعـشـق مـن قـدم
شـعـبـاً تـفـانـى لحـب الـغـير واشـتـعـلا

غير أن هذا الشعب «المتفاني في حب الغير» حتى الاشتعال، كان في الحقيقة واقفاً بين ثلاثة أنواع من الاستعمار، وكان يشتعل فقراً وحاجة، ليس إلى الحرية وحدها، بل إلى الخبز أيضاً.

كان هم غورو استقطاب الناس، شعراً أم نثراً، وفيما رفع السيف في دمشق، يبدو أنه لم يكتف بإعلان «لبنان الكبير» فحسب، بل ذهب إلى أبعد الحدود في مسايرة

اللبنانيين. ويروي الوزير اللبناني الراحل يوسف سالم في مذكراته، أنه حين تخرج مهندساً من فرنسة وعاد إلى لبنان، حاول أن يطلب وظيفة، فقيل له: إن الوظائف الرفيعة وقف على الفرنسيين: «لكنني لم أيأس، بل تابعت السعي، حتى استطعت الوصول إلى المفوض السامي نفسه، وكان يومذاك الجنرال غورو. ولم يكن من السهل على كبار أعيان البلاد الوصول إليه، فكيف بشاب مجهول مثلي. لذلك كانت فرحتي كبيرة عندما تلقيت دعوة لمقابلة المفوض السامي في مصيف عالية (...) كان الجنرال غورو يقضي الصيف في قصر بسترس الكبير، المختبئ بين الأشجار الملتفة في أعلى المصيف فوق الخط الحديدي. ولم يكن يخطر في بالي أنني سأقابل القائد الكبير، صاحب الذراع المقطوعة في معركة الدردنيل، ولكنه استقبلني وأصغى إلي (....)، لكن على الرغم من تدخل المفوض السامي بنفسه ظلت أبواب الشركات مغلقة في وجهي».

ويضيف يوسف سالم:

«كنت في عداد اللبنانيين الذين رحبوا بانتداب فرنسة على لبنان بعد حكم العثمانيين ومآسيه، واعتبرت الانتداب صيغة جميلة للتعاون بيننا وبين فرنسة فإذا بي أكتشف أنه قناع شفاف يختفي تحته وجه الاستعمار البشع».

غير أن كثيرين كانوا ـ آنذاك منهمكين في ممالأة هذا الاستعمار. وإننا نقرأ في كتاب «في سورية مع الجنرال غورو» لمؤلفه ا. فيرتيليه كيف وصل الكاتب إلى بيروت وأمضى يومه الأول في الإصغاء إلى خطابات الترحيب والتبجيل. ثم يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك مع فيريليه لأنه يرسم لنا صورة بالغة التفاصيل عن تلك الحقبة الدقيقة.

وما أشبه اليوم بالبارحة!

إنه تعبير كلاسيكي طبعاً، لكن هل يملك المرء نفسه وهو يقرأ أن عزيزنا فيرتيليه قد وصل إلى لبنان بحراً... عن طريق لارنكا؟ يقول : «أبحرنا اليوم عبر ساحل قبرص. وفي الرابعة توقفنا على شاطئ لارنكا، حيث أفرغت السفينة (بيارلوتي) بعض البضائع. ونزل بعض المسافرين إلى البر، لكنهم ما لبثوا أن عادوا، فهذه

المدينة الصغيرة لا شيء فيها يثير الاهتمام، والمشهد من بعيد أكثر سحراً. إن جزيرة إفروديت أقل جمالاً عن قرب مما هي عن بعد.

«غداً صباحاً، سوف نصل في النهاية إلى غاية رحلتنا، إلى سورية».

«إنه البلد الرائع، مهد الحضارات القديمة، أرض بعل وأدونيس وعشتروت... الأرض الحمراء التي تجتذب الغزاة، حيث رفع الحثيون علمهم، وبنى الفينيقيون السفن التي نقلت ثروات آسية إلى أثينة وروما ومرسيلية، حيث جاء الفرس والمصريون والآشوريون والمسلمون والصليبيون.... الإسكندر وتيتوس وهارون الرشيد وبونابرت، حيث أنشأ العباسيون والأمويون هذه الحضارة الرائعة، ونشروا هذا الأدب المذهل، الذي تخلد سحره عبر العصور».

في اليوم التالي يصل الأباتي فيريليه إلى صوفر، أو إلى «عين موفر» كما كانت معروفة آنذاك، ويكتب لنا في ذلك النهار من أيلول/سبتمبر: «لقد كان الحلم جميلاً، والمشهد لا يفتقد إلى العظمة المروعة. وجبال لبنان، بأوديتها وقممها المفاجئة وقراها الأنيقة التي تختبئ في الأودية وتشكل إطاراً رائعاً، غير أن بيروت، بسطوحها الناتئة ذات السقوف الحمراء، تبدو وكأنها مدينة غربية . فهل جئنا إلى الشرق بحثاً عن «كان» أخرى؟!!.

يقابل صاحبنا في اليوم الأول بين من يقابل: «السيد عمر الداعوق رئيس غرفة التجارة، والمسيو هو مغلو رئيس البورصة (...)، ويقول لي أحدهم: إن لبنان بلد فقير يملك الكثير من المال»، ثم يضيف كأنه يكتب اليوم بالضبط: «إنها لفكرة عميقة حقاً، ذلك أن المال هنا يستخدم في المضاربة لا في الإنتاج!». وروى لي آخر أنه قبل ثلاث سنوات لم تكن هناك سيارات في لبنان، أما الآن فهناك 2000». ثم يصعد الكاتب مثل يوسف سالم إلى مقر غورو في عالية، غير أنه فيما كان سالم يبحث عن وظيفة، كان فيرتيليه يسجل الانبهار الغربي التقليدي بلبنان: «وهناك اكتشفنا متعة الجبل كلها فيما كنا نطل مباشرة على البحر الأزرق».

هذا الجنرال غورو يقول فيرتيليه «سوف ينشئ قريباً لبنان الكبير بأن يعطي للدولة الجديدة الساحل من طرابلس إلى صور وسهول البقاع الغنية، غير أنه بعد

توسيع رقعة الأرض اختل توازن الأجناس المتنافسة، وربما ترتبت خطورة كبرى جداً على هذا التوزيع في مراكز القوى، إذا لم تسارع سلطة الانتداب إلى تهدئة النفس».

مع فيرتيليه إلى دمشق أيضاً... بطريق ميسلون وسوف نرى هنا كيف كان الفرنسيون ينظرون إلى هذا المفترق التاريخي في حياة العرب: «عبرت سيارتنا على عجل هذا الجزء من التلال ثم السفوح الصحراوية لجبال لبنان. توقفنا في خان ميسلون، ساحة المعركة المعذبة، حيث حققت قوات الجنرال غورو نصراً براقاً وحاسماً على قوات الأمير فيصل صديق الإنكليز، وقد وصف لنا الكولونيل غورو على الطبيعة تفاصيل هذه المعركة. وكانت الساحة لاتزال مليئة بفراغات الخرطوش (الرصاص)، وقد حملت بعضها معي للذكرى.

«وقد جاءت سيارتان لاستقبالنا قبل 20 كيلومتراً من دمشق في أرض قاحلة. وكان في إحداها الجنرال كاترو الحاكم الإداري للمنطقة. وبعد مراسم الاستقبال أكملت القافلة مسيرها. كانت الحرارة مرتفعة والطريق مليئة بالغبار، ثم فجأة، عند منحنى الطريق يتغير المشهد تماماً. خضرة وأزهار في كل مكان، وهواء نقي يطلع من بردى، النهر النابع من الصخور. وهكذا نقترب من المدينة التي قارنها الشعراء العرب عن حق «بجوهرة منحوتة في زمردة». ثم تبدت لنا دمشق بمنازلها ذات الشرفات، ومآذنها الـ 250، وكثافة سكانها (350 ألفاً)».

غير أن الإعجاب بدمشق يرافقه ذلك الحقد الفرنسي على الأمير فيصل، كما يرافقه دائما الحذر المبطن من الإنكليز، والكره المعلن لهم، هذه هي إذاً الرواية الفرنسية شبه الرسمية لوصول غورو ومعركته مع فيصل، كما يقدمها لنا فيرتيليه:

«عندما نزل الجنرال غورو على الساحل اللبناني في تشرين الثاني/نوفمبر 1919، قرر الإنكليز أن على قواتهم أن تجلو عن سورية، وإذ انسحبوا بسرعة شديدة (هل كان الأمر مدبراً) نسوا أن يفرغوا مخازنهم من الذخيرة والسلاح، وهكذا استولى صديقهم الأمير فيصل على هذه الكميات، واستطاع بذلك أن يسلح أنصاره. لقد حاولت إنكلترة في الواقع غداة توقيع الهدنة أن تحقق الحلم الجريء الذي وضعه أحد

أشهر استعمارييها الكولونيل لورانس: حيث عمل على إيجاد إمبراطورية عربية تضم الحجاز وسورية والعراق وشرق الأردن.

«وإذ تركت الفرق البريطانية الخمس المنطقة التي أرادت منها فرنسة أن تحرسها، وجد الجنرال غورو نفسه مضطراً للحلول محلها بقوته التي لا تتعدى 8 آلاف رجل، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يساعد قواتنا في كيليكية التي كانت تتعرض باستمرار لهجمات من الزمر التركية، وحتى من قبل جيش مصطفى كمال النظامي.

«وكان من الضروري بأي ثمن المحافظة على اتصالاتنا مع هذه المواقع الموزعة في الجبال، ومن أجل ذلك كان لا غنى عن استخدام السكة الحديدية بين رياق وحلب، غير أن فيصل احتل هذا الخط، ورفض وضعه تحت تصرف الجنرال غورو. وفوق ذلك فإن الأمير أعلن نفسه ملكاً على سورية، الأمر الذي كان يعني بصورة غير مباشرة انفصاله الكلي عن وصايتنا.

وهكذا بعث الجنرال غورو ـ الذي تلقى تعزيزات ضئيلة من فرنسة (9 فصائل مشاة وسرب طائرات ومدفعين 105) ـ بإنذار نهائي إلى فيصل، الذي تظاهر بقبوله أولا، ثم رفضه بعنف، وزحف بقواته غرباً. وفي خان ميسلون وقعت المعركة وانتهت بانتصار فرنسي صاعق...».

لكلٍ روايته. الإنكليز لهم روايتهم، الفرنسيون لهم روايتهم، الإنكليز يقولون في وثائقهم الرسمية: إن الفرنسيين طلبوا منهم إخلاء سورية ولبنان. والفرنسيون يقولون: غدرونا ومشوا. وبين الروايتين أو الحقيقتين كانت تعتصر بلاد بأكملها، ظنها بعض القادة والجنرالات ذات يوم مجرد حديقة من حدائقهم. بل إن الشرق كان لأوروبة «الحديقة الخلفية» كما يقول التعبير المعاصر في الحديث عن الأميركيتين.

جورج كاترو:
الحلم بتاج دمشق

هو الآخر جاء إلى الشرق مرتين، وهو أيضاً عبر المشرق والمغرب معاً، وهو أيضاً كان من جنرالات الحربين، عسكري في الأولى، وعسكري في الثانية، وسياسي بين المرحلتين.

بل مع بداية هذا القرن تماماً، في العام 1900 بالضبط كان هذا العسكري يتذوق أول مرة طعم الصحراء. لقد أمضى الجنرال كاترو حياته العسكرية كلها تقريباً متنقلاً بين المشرق والمغرب، في الصحراء، في الجزائر، في مراكش، في الأناضول، ثم بين العام 1919 و1922 رئيساً للبعثة الفرنسية في الجزيرة العربية ودول المشرق. ومن معارك المشرق إلى معارك الهند الصينية، حيث كانت فرنسة غارقة في القتال حتى أذنيها. لكنه في العام 1940 انضم إلى قوات الجنرال ديغول لكي يؤدي في المشرق دوراً سياسياً وعسكرياً بارزاً مرة أخرى.

وقد ترك الجنرال كاترو الكثير من الآثار والمذكرات التي تغطي تلك المراحل كلها، لكننا اخترنا العودة معه إلى العام 1919، حين يقول لنا إن هذه المشكلات التي كلف التعاطي معها «مشكلة معقدة بصورة مقلقة، أطلق عليها اسم الشرق الأوسط».

وفي العام 1954 حين يعود الجنرال كاترو 38 عاماً إلى الوراء، إلى العام 1922، ليضع كتابه الشهير «مهمتان في الشرق الأوسط»، يتطلع إلى الخلف متسائلاً: «هل تغير شيءٌ ما؟ لا شك في أن عناصر جديدة وكبيرة الأهمية قد دخلت على الساحة، لكن الحقيقة أن المشكلة واحدة منذ 38 عاماً وصلبها واحد. والتساؤل الذي تطرحه لم يتغير: إلى من تؤول السيطرة على هذا المفترق القاري وهذا الفيض من نفط الشرق الأوسط»؟

لقد كان كاترو عسكرياً ممتازاً وكانت له أحياناً مواقف سياسية لينة كما حدث عشية استقلال لبنان، لكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن الرجل يطرح المسائل دائماً

من وجهة نظر استعمارية، ومن ثم، فهو يلقي أضواء كثيرة على النظرة الغربية إلى المنطقة، حين يمضي قائلاً: «تلك هي الحقيقة الجوهرية، إستراتيجياً واقتصادياً التي تسيطر على تاريخ المنطقة».

ثم ينتقل كاترو فوراً وبصورة عفوية إلى وضع نفسه داخل النزاع الفرنسي ـ البريطاني فيقول: إن «أحدا لا يستطيع أن يتجاهل أنه خلال تفكيك الإمبراطورية العثمانية كان هاجس حكومة لندن الدائم هو أن تحفظ لبريطانية وحدها النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية في جميع المقاطعات العربية المحررة. وهي سياسة جعلتها في صراع دائم، خفي أحياناً، ومعلن أحياناً أخرى، مع فرنسة، وقد انتهى، الصراع أخيراً بإبعاد فرنسة عن الشرق الأوسط في العام 1945.

غير أن أبعاد هذا الصراع تخطت النفوذ البريطاني والنفوذ الفرنسي. ألم يكن هو ـ أي هذا الصراع ـ السبب الأساسي في دخول النفوذ الأميركي؟ بلى، بل إنه أدى أيضاً إلى ظهور النفوذ السوفياتي من جديد كما يلاحظ الجنرال كاترو «.. الكل يعرف أنه بعد هزيمة ألمانية في العام 1945 انقسم حلفاء الأمس إلى معسكرين متقاتلين، فأخذ المعسكر الغربي يحاول بكل قواه أن يمنع الاتحاد السوفياتي من الوصول إلى الشرق الأوسط، وأن يحصر السيطرة في نفسه، وهنا أيضاً نشأ نزاع جديد، الأمر الذي يعني أن المشكلة لم تتغير في جوهرها، ولكنها تغيرت في أبعادها».

لقد خابت أحلام بريطانية في احتكار الشرق الأوسط، يقول لنا الجنرال كاترو. وهو لا يخفي غبطته، حتى لو أن منافسها أصبح الاتحاد السوفياتي، وذلك «لأن الغرب يفتقر إلى سياسة موحدة ومتجانسة».

هناك مرارة كبرى في نفس الجنرال، بعضها من أيام النزاع البريطاني ـ الفرنسي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبعضها الآخر من النزاع الذي قام بين «فرنسة الحرة» والإنكليز في الحرب العالمية الثانية. وفي كل ما كتب نشعر أن كاترو يتمتع دائماً بدور الرجل الثاني. إذ هناك الدور الذي أداه إلى جانب ديغول بصفته مساعداً أيمن، وهناك دوره مع الجنرال لايوتيه في المغرب، وهناك دوره مع الجنرال غورو في بداية الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

لذلك يبدأ كاترو كتابه «مهمتان في الشرق الأوسط»، بالدفاع عن الجنرال غورو، بل هو يفتح الصفحة الأولى على جنازة غورو في العام 1946: «بدا وكأن ستارة النسيان قد أسدلت على الذكرى المجيدة لهذا القائد العظيم، الذي كان تفانيه في خدمة فرنسة أشبه بسيرة ملحمية. لقد ظلت ساحة الإنفاليد شبه مهجورة، وجماهير العاصمة لم تكن تتدافع، تلك الجماهير نفسها التي كانت تصفق بحماس لغورو وأسطورة غورو حين كان حاكماً عسكرياً لباريس، يوم كان في احتفالات 14 تموز/يوليو يتقدم قواته وهو يحمل بيده الواحدة التي تركها له العدو سيفه المنتصر».

«لم يأت الباريسيون لإلقاء التحية على غورو» يقول لنا كاترو مجدداً وفي حزن، ذلك أن الزمن قد تغير، ومنذ العام 1940 تحول الباريسيون عن الجنرالات لكي يكرموا زعماء آخرين. ثم راح يعدد لنا معارك غورو مبتدئاً بالتشاد، حيث يبدو أن الفرنسيين لم ينقطعوا عن القتال حتى الآن «ثم موريتانية، وبعدها ارتفاع العلم الوطني في الصحراء (...)، وبعدها العام 1912 في فاس» حيث قمع غورو – طبعاً – حركة وطنية أخرى، ثم الدردنيل، ثم معركة شمبانيا في العام 1918 «هذا الزعيم الجنرال غورو، كان خادماً كبيراً للوطن».

لكن ما هي الأفكار التي كانت تدور في رأس غورو، وبالتالي في عقل فرنسة، في المراحل الأولى من الانتداب؟

يقول لنا كاترو إنه بعد احتلال دمشق «وبعد احتلال المدن الرئيسة الأخرى في سورية، أصبح لزاماً علينا أن ننظم إدارة البلاد، وأن ننشئ النظام الانتدابي. وكان هناك تساؤل أولي يفرض نفسه: هل يتعين علينا أن نحترم الوحدة السورية كما جبلت زمن العثمانيين ضمن إطار الولايات السورية، على أن نقتطع منها القسم الساحلي في فلسطين الذي كان تحت الوصاية البريطانية؟، هل نعمد على العكس من ذلك، إلى تقسيمها وفقاً للمعطيات السكانية الإقليمية؟، أم هل من الأفضل أن نتبنى صيغة وسطية تقضي بأن نقسم سورية إلى كيانات إدارية متميزة، يراعى فيها احترام الإطار التاريخي، ثم نوحدها بموجب رابط فدرالي؟

لو كان الجنرال كاترو في سورية آنذاك لكان وقف مع الحل الأخير، هكذا يبلغنا.. لكن للأسف فإن الجنرال غورو وأعوانه اختاروا الحل الثاني، وراحوا يقسمون سورية إلى دويلات، كما اقتطعت من نظام الولاية صور وطرابلس و... معها سهل البقاع «من أجل إقامة لبنان الكبير».

لقد كانت مضاعفات هذا القرار «ثقيلة جداً، لكنه كان يعكس ردة فعل أوساط المفوضية السامية ضد فكرة الوحدة السورية، والفكرة القومية التي طرحها الملك فيصل». وكان أهل المفوضية - كما يقول كاترو - يعملون من منطلق «فرق تسد»، لاعتقادهم «أن تفكيك مملكة الأمير فيصل الزائلة، سوف تدمر التضامن القومي وفكرة الاستقلال التي يجسدها هذا الأمير».

لكن النتيجة كانت عكس ذلك في رأي كاترو، «فالواقع أن تقطيع سورية الذي ازداد خطورة بضم بعض المناطق المسلمة والسورية إلى لبنان الكبير ذي الأكثرية المسيحية، أدى إلى تسمم علاقتنا مع سورية. لقد أثارت هذه الأعمال المشاعر القومية والحساسيات الدينية في وقت واحد، وأعطت للمواطنين الانطباع بأنه تحت ستار الانتداب سوف تسعى فرنسة إلى إعطاء الأفضلية للأسرة المسيحية، التي كانت حاميتها التقليدية خلال الحكم العثماني، وذلك على حساب المسلمين. لقد كانت الثقة مفقودة أصلاً في روح المساواة الفرنسية، وهكذا ساد جو من الخيبة، شعرت به فور تسلّمي مهام مندوب المفوض السامي لدولة دمشق».

يقول لنا الجنرال كاترو: إنه حاول بشدة أن يقنع رئيسه وصديقه غورو بإعادة توحيد سورية، وأن غورو أراد ذلك حقاً، لكنه ما لبث أن اكتشف صعوبة الأمر.

هل كان غورو متعصباً للمسيحيين في الشرق، وخصوصاً في لبنان؟ لا. يقول كاترو في الدفاع عن صديقه: «لقد كان متديناً لا متعصباً»، وكان يعتقد أنه يخدم مصلحة فرنسة في اتباع السياسات التي اتبعها، والتي أدت فيما أدت إلى ضياع سنجق الإسكندرون فيما بعد.

في ضوء هذه الأجواء في آب/أغسطس 1920 يصل كاترو إلى دمشق قاطعاً إجازة قصيرة في جبال الألب، بعد قليل من عودته من مهمة إلى الحجاز. فقد وصلته برقية عاجلة من غورو يدعوه فيها للذهاب إلى بيروت على عجل، لكي يتجه منها إلى دمشق مندوباً للمفوض السامي. وهكذا سارع إلى مرسيلية ليستقل أول باخرة إلى لبنان، وقبل أن ترسو «كان هناك زورق يحملني إلى سيارة على المرفأ، والسيارة تطير بي إلى عالية مقر الجنرال غورو. وقد حذرني مرافقي من أنه بعد انتهاء مقابلتي للجنرال لابد أن أتجه فوراً إلى دمشق حيث الأمور تسير بشكل سيء. وهذا ما أكده لي غورو بعد حين بكلمات قليلة.

«لقد روى لي الجنرال أن الأمير فيصل قد حرَّض على الثورة في حوران. وهي مقاطعة تقع على أبواب دمشق وجنوبها. وقد انفجرت هذه الثورة بمناسبة رحلة كان يقوم بها ثلاثة من وزراء الحكومة السورية الجديدة الموالية للانتداب، وقد ذهب هؤلاء إلى حوران لاجتذاب الناس إلى جانب السلطة، لكن اثنين منهما قتلا، واختفى الثالث، وكان جبل الدروز هو أيضاً على أهبة الانضمام إلى الثورة، في حين أن دمشق ـ حيث كان السلاح متوافراً بكثرة ـ كانت تغلي، وكان وجود جيش فيصل فيها يبعث على القلق.

«هذه هي الحالة، قال لي غورو، إنك تعرف الآن ماذا ينتظرك. إن عليك الآن أن تتولى الشؤون الإدارية والسياسية، وإنك تتلقى أوامرك مباشرة مني، وليس من الجنرال غوابيه الذي يقود القوات هناك، اذهب واعمل بسرعة. وأعتقد أن الأمور ستحل».

بعد دقائق كان كاترو يتجه بالسيارة الفخمة «ليس إلى حدائق دمشق المعلقة» التي طالما سمع عنها، وإنما نحو «قدر يحمل في طيه الكثير من المغامرة». وهناك في دمشق، سوف يكتشف المندوب الجديد واقعاً سياسياً جديداً: إن الانتداب محاط بثورة عدائية في جبل الدروز من ناحية، ومن ناحية أخرى بشرق الأردن «الذي سوف يصبح قريباً معقل الأمير عبد الله شقيق الأمير فيصل، إنه البلد الذي يقال منذ الآن إنه سوف يكون ملجأ الوطنيين السوريين المعارضين للانتداب الفرنسي، ومركزاً لانطلاق عملياتهم العسكرية ضد نظام الوصاية الفرنسية».

لقد كان الفرنسيون يخشون، أكثر من أي شيء آخر «ذلك العرق المقاتل ـ الدروز» ويخافون من الجبل على نظام دمشق، «ولذا كان لا بد من التحرك بسرعة» بالتودد إلى زعامة الجبل. فقد كان كاترو منذ البداية مع «حل سياسي» يأخذ في الاعتبار أوضاع الشرق. وقبل أن ينتهي عمله بصفته مندوباً للجنرال غورو كان قد أصبح قادراً على المفاخرة بأنه استطاع أن يقيم الهدنة مع ثلاثة من أعداء فرنسة التقليديين: الدروز، والبدو، والروم الأرثوذكس الذين يأخذ عليهم كاترو انضواءهم في صفوف الأمير فيصل» وقد توصل إلى هذه المهادنة لأنه عرف كيف يفهم الشرق وكيف يقدم أحياناً مصلحة فرنسة، وأحيانا أخرى «الكرامة العربية» التي يحرص عليها المشرقيون كثيراً.

ويقر كاترو بأن «تطبيق الانتداب كان في حد ذاته مسألة دقيقة، أولاً لأنها كانت التجربة الأولى من نوعها، وثانياً لأن محتوى الانتداب لم يعط تحديداً قانونياً». وإذ يطلب منه غورو أن يضع دستوراً قانونياً للانتداب، يجد كاترو نفسه أمام المعضلة: من جهة إعطاء سورية الاستقلال، كما تنص توصيات هيئة الأمم ومن جهة أخرى إخضاعها لوصاية أجنبية.

ما هي الأفكار التي كانت تتنازع كاترو وهو يحاول الوصول إلى حلول يقدمها لغورو؟ إنه يستفيض في شرحها:

الشق الأول ـ يقول كاترو ـ كان يعني أنه «لا يحق للموظفين الفرنسيين أن يمارسوا، في صورة مباشرة، إدارة الشؤون السورية الداخلية، بل هو يقضي، على العكس من ذلك، بإقامة حكومة سورية وطنية، وإدارة حكومية سورية تتولى هذه المسؤولية. أما الشق الثاني فكان يفرض على مثل هذه الإدارة ألا تتصرف إلا بمشورة ممثلي فرنسة. ومن ثم يحد من حريتها».

من هنا أشار كاترو على رئيسه بأن يكون الانتداب أقل ظهوراً قدر المستطاع، وأقل ثقلاً على نفوس أهل سورية الجياشة بالمشاعر الوطنية. وقد كان يحتذي آنذاك «بذلك المثال البارز الذي أعطاه لنا اللورد كرومر، الذي بمساعدة جهاز من الموظفين الكبار وبلقب متواضع هو «وكيل صاحبة الجلالة»، استطاع بكل هدوء وفاعلية أن يدير

شؤون مصر». وهكذا أخذ كاترو يبتعد ما استطاع عن الواجهة السياسية حتى إنه لم يكن يوقع المراسيم أو القرارات الصادرة عن الحكومة. «في الاحتفالات الرسمية كنت أيضاً أعطي الكرسي الأول رئيس الحكومة، وكان بعض الناس يقول إن هذه المظاهر لا يمكن أن تخدع أحداً حول حقيقة السلطة، ربما.. ولكن ذلك الذي يصدق المظاهر لا يعرف الشرق حقاً».

ويذهب الجنرال كاترو إلى أبعد من ذلك في وصف الخطوات التي اتخذها للتخفيف من وطأة الانتداب: «وهكذا بالنسبة إلى قمة الحكم، لم تكن الآلة الانتدابية تضم أكثر من ثمانية أشخاص: هم مندوب المفوض السامي، وسبعة مستشارين فنيين، يأخذون رواتبهم من الخزينة الفرنسية لا السورية، أما في الأقاليم، وللأسباب نفسها فقد خفض إلى الحد الأدنى عدد المستشارين الفنيين..». لكن الجنرال لا يلبث أن يقرّ بأنه أقام في الوقت نفسه جهاز مباحث يطلعه على كل مجريات الأمور.

كان غورو يحب كثيراً المجيء إلى دمشق. كان يحب جوها التاريخي. وكانت الإيحاءات الطالعة من حجارتها العتيقة، توقظ فيه الرجل الرومانطيقي والعسكري معاً. إنها مدينة الأمويين، وتلك القلعة الحصينة التي تحدت هجمات الإفرنج، وعاصمة صلاح الدين، ذلك الفارس المنتصر في حطين. إنها المدينة التي تطلع فيها أصوات المؤذنين من 132 مئذنة، داعيةً إلى التوحيد.

بهذه الكلمات يصف كاترو بعض معالم دمشق، المدينة التي يبدو أنه أحبها أيضا مثل غورو: «... وتلك الشوارع التي تلتف مثل الأنهر في السوق القديمة، حيث يسير جنباً إلى جنب بألبستهم المختلفة، الدمشقيون والبدو والدروز والسقاة وباعة الحلوى والجمّالون ومعهم جمالهم. ومن الخانات والدكاكين تتصاعد رائحة الشرق ومياه الورد».

لقد كان غورو يتذوق «عطر الشباب الخالد، وعطر المخيلة الكبرى، والروح الإنسانية المهيمنة». في دمشق كما تذوقها من قبل في فاس، «والأيام التي كان يمضيها هناك كانت بالنسبة إليه استرخاءً للنفس، في جو عزيز عليه. كان يترك كل همومه

خلفه ويروح يتصرف في منزلي على سجيته». ويروي لنا كاترو: إن الرجل الذي دمر ميسلون هو أيضا ذلك الرجل الذي كان يقوم بدور الدليل السياحي لأقاربه وأصدقائه كلما جاؤوا إلى دمشق، وبين هؤلاء شقيقته ماري تيريز غورو.

غير أن إحدى هذه الجولات السياحية تحولت إلى مأساة ـ والرواية دائماً للجنرال كاترو ـ يوم حلت في دمشق شقيقة غورو وإحدى بنات عمه. وسأل غورو صديقه كاترو: إلى أين يذهبون؟. فاقترح عليه زيارة القنيطرة القريبة من دمشق. فأكثرية أهل القنيطرة من الشراكسة، والشراكسة كانوا من المعروفين بودهم لفرنسة، لا محبةً بها بل نكايةً بالآخرين، ومن ثم كان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرية «كما كنت آمل، وذلك لأسباب تتعلق بأمن المفوض السامي نفسه، فقد كانت حياته مهددة دون شك من قبل أولئك الذين لجؤوا إلى مناطق الانتداب البريطاني. وأقصد بذلك شرق الأردن . وقد كان الوطنيون السوريون بزعامة متطرف يدعى أحمد مريود، يلاحقون تحركات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله، والمعروف أن الطريق الواصلة بين دمشق والقنيطرة لم تكن بعيدة من مدينة إربد الأردنية حيث كان يقطن مريود أكثر من 60 كيلومتراً. وفي ضوء ذلك كان يجب الحيلولة دون مثل هذه المحاولة، بإقامة حراسة مشددة على تلك الطريق. وهكذا أصدرت الأمر بأن يتولى الحراسة على طول الطريق رجال درك سوريون على أحصنتهم، يكون كل واحد منهم على مرأى من الآخر». لكن جميع الاحتياطات التي اتخذها كاترو لم تكن كافية. وسوف يكون في إمكان رجال مريود التسلل إلى صفوف الدرك بشكل مذهل. كيف؟ وهل فعلوا ذلك بالتواطؤ مع الدرك؟، (لا).. يقول لنا الجنرال. لكنه يروي على أي حال أن غورو أراد أن يصطحب شقيقته وابنة عمه في سيارته، فنصحه بألا يفعل: «إنك يا سيدي الجنرال تقوم برحلة رسمية في بلد مسلم، حيث لا تعطي التقاليد للنساء أكثر من دور بعيد، ومطلوب منك أكثر من غيرك ألا تتحدى مشاعر المواطنين، ولذا من الأفضل أن تستقل السيدات سيارة أخرى من سيارات الموكب».

قبل غورو الاقتراح متردداً. وهكذا استقل سيارته المكشوفة ومعه فيها، إلى جانب السائق، مترجمه عن العربية الكولونيل «بارنيت»، وخلف السائق على كرسي صغير

الجنرال كاترو، وفي المقعد الخلفي جلس حقي بك العظم حاكم دولة دمشق، وإلى يمينه غورو.

وخلف سيارة غورو كانت هناك سيارة القائد العام للقوات العسكرية في دمشق ومساعد الأمين العام للمفوضية العليا، وفي نهاية الموكب كانت سيارة الآنسة غورو وقريبتها المدام لونغمار.

«انطلق الموكب في سرعة، تتقدمه سيارة الجنرال القوية. وكانت السماء مشعة. وفي الأفق بدا جبل الشيخ طاغياً. وكان رجال الدرك كل في مكانه» لكن هناك أيضاً كان الآخرون. وما أن تخطى الموكب الطريق السهلة وابتدأ يتخذ طريق الجبل، حتى بدا لكاترو أربعة من رجال الدرك «بثياب مهلهلة وهم يحملون بنادق الموزر وقد هرعوا إلى المكان الذي يفترض أنهم يحتلونه». أو هكذا خيل لكاترو الذي فكر أيضاً في معاقبتهم فيما بعد على نوعية أطقمهم. لكن ما أن تخطى الموكب المنعطف الجبلي «حتى فتح الفرسان الأربعة النار، يدعمهم شريك خامس كان مختبئاً وراء الصخور. وفي الطلقات الأولى أصيب الكولونيل بارنيت، الذي هب واقفاً، إصابة قاتلة وسقط على الطريق. وأصيب حقي بك العظم إصابة خفيفة، أما غورو نفسه فكانت حصته ثلاث رصاصات. وحين سمع الرصاص قال لي غورو بكل هدوء: إنهم يطلقون النار علينا من فوق فهل معنا رشاش؟ وكنت بردة فعل عفوية قد التقطت رشاشاً لكنني وجدته فارغاً وكانت جيوبه في مكان ما من السيارة التي لم آلفها كثيراً. وشعرت أن السرعة وحدها يمكن أن تنقذنا، فصرخت في أذن السائق: أسرع يابني أعطني الذخيرة، فدلني إليها بإشارة منه، لكننا كنا قد ابتعدنا عن مرمى الاغتياليين ووصلنا إلى مركز درك حقيقي، وهناك غيرنا عجلة السيارة وتفقدناها فوجدنا فيها آثار 14 رصاصة، فقال لي غورو: «إنني مدين لك لأنك أنقذت حياة شقيقتي التي كان لا بد أن تجلس هنا». فأجبت: سيدي الجنرال لقد أنقذت الآنسة غورو، لكننا لا نعرف مصير بقية الموكب. والكولونيل باريت قتل. وأنت نفسك نجوت بأعجوبة، إنني أتحمل المسؤولية لأنني مسؤول عن كل شيء على أراضي الانتداب، ولذا أرجو أن تقبل استقالتي»، لكن غورو أجاب: «إنني أرفض استقالتك. لقد كنت مثلنا ضحية لسلسة من الظروف المتلاحقة.

إنني أوليك كل ثقتي، وعلينا جميعاً بدءاً مني، أن نستخلص الأمثولة من هذه الواقعة. لقد كان علينا ألا نسبق السيارات الأخرى كل تلك المسافة بل أن نظل في الموكب».

يتوقف كاترو عند طباع صديقه غورو مرة أخرى: لقد حافظ على هدوئه تحت الرصاص، وبعد ذلك لم يتفوه بكلمة واحدة.

كل ذلك وبقية سيارات الموكب لم تصل بعد. وأخذنا نفكر بالخطوة اللاحقة، ثم «ما لبثنا أن قررنا أنه يجب أن نكمل الطريق إلى القنيطرة، لكي نرسل الفرسان الشركس في مطاردة الفاعلين، وهو أمر لم يحدث إلا بعد نصف ساعة من الحادث. وبالفعل ما لبث أن لحقت بنا السيارات الأخرى. باستثناء سيارة الآنسة غورو التي أعيدت إلى دمشق من قبيل الحذر». فقد رأى أعضاء الموكب جثة الكولونيل بارنيت على الطريق فعرفوا أن شيئاً ما قد حصل. أما كاترو فقد أصدر أوامره بالهاتف لإقامة الحواجز، والتفتيش عن الرجال، «لكنني علمت في اليوم التالي أنهم اختبؤوا في إحدى القرى، ثم تسللوا في الليل إلى شرق الأردن».

يعود غورو ذلك المساء من القنيطرة في موكب أكثر حراسة ليلقى استقبالاً «عفوياً» في دمشق. وفي اليوم اللاحق، في جنازة بارنيت يهدد بأن هذه الجريمة لن تظل «دون عقاب». غير أن «هذا الوعد لم يتحقق إلا جزئياً» كما يقول لنا كاترو الذي يرى ظل الإنكليز في كل شيء وكل مكان وكل حدث، «ولم نستطع الوصول إلا إلى شركائهم القرويين السوريين الذين منحوهم المأوى».

وبالنسبة إلى كاترو: ليس هناك شك في أن «الذي دبر الاعتداء هو أحمد مريود، هذا الوطني السوري المتطرف الذي لجأ إلى إربد. وأقام على الحدود نفسها، وقد عرف من عملائه موعد زيارة غورو للقنيطرة وقرر المحاولة. كان يعتقد أن الاغتيال سوف يعطي نتائج ممتازة بالنسبة إلى أهل الاستقلال في المشرق وفي العالم. ومن أجل هذا العمل جند أحمد مريود خمسة من الذين حصلوا على ثياب الدرك المستعملة، وحلوا محل أحد مراكز الحراسة، ثم أطلقوا النار (...)، لكن بعدما استطاعت سيارة غورو الفرار، نزلوا إلى الجثة الملقاة على الطريق، ظناً أو أملاً منهم بأن تكون جثة غورو. لكن عندما تبينوا خطأهم أخذوا معهم قبعة بارنيت، كدليل على أنهم أدوا مهمتهم.

«... وفيما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها، كان أحمد مريود في منزله في إربد، يتحدث ضد فرنسة، في حضور ضابط سياسي بريطاني سوف يعرف فيما بعد باسم اللورد رغلان. وكان أحمد مريود يتطلع في ساعته كل لحظة. وحين دقت الساعة التاسعة، نظر إلى الذين حوله وقال لهم : إنني أعلن لكم حدثاً مهماً، في هذه اللحظة الجنرال غورو قد مات. ثم أخذ يشرح لهم ما حدث أو ما اعتقد أنه حدث».

وقد تسلحت الحكومة الفرنسية بالكلام الذي قاله مريود، لكي تطلب اعتقاله بتهمة التحريض على قتل غورو، «ولم تكن تلك أول مذكرة احتجاج تقدم إلى السلطات البريطانية ضد اللاجئين السياسيين الذين يعملون ضد فرنسة. فقد سبقتها احتجاجات كثيرة، لكنها ظلت جميعاً من دون جدوى.... لكن هذه المرة لم يعد باستطاعة السلطات البريطانية الاستمرار في التجاهل، فأبعدت أحمد مريود عن أراضي الانتداب».

جرت محاولة اغتيال غورو في الوقت الذي قامت أيضاً التظاهرات الوطنية في دمشق بقيادة الدكتور شهبندر. وقد أظهر الحدثان «مدى عدم شعبية الانتداب الفرنسي» بالنسبة إلى عصبة الأمم المتحدة في جنيف. وهكذا أرسلت المنظمة الدولية من يحقق في أمور الانتداب. وفي ضوء هذه التطورات «تعمقت لدى الجنرال غورو قناعة سابقة بوجوب وضع حدٍ لتفتيت سورية، وإعادة تركيبها ضمن إطارها الوطني، في ظل نظام اتحادي يلتف حول دمشق، العاصمة التاريخية. وهكذا تسرعت الحركة الإصلاحية التي كان قد فكر فيها. وطُبِّقَ في دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر النظام الجديد الذي أعلن في حلب في 22 آب/أغسطس وعُيِّنَ أول رئيس للاتحاد السوري صبحي بك بركات. وهو شخصية من الشمال وأحد أبطال الحركة الوطنية الذين قاتلونا بالأيدي خلال أشهر طويلة».

ولا يخفي كاترو أن الغرض من تعيين صبحي بركات كان تهدئة الخواطر في الداخل و... عصبة الأمم في الخارج. وفي هذه الحقبة أيضاً ودع غورو دمشق، وبعدها سوف يودع المشرق كله. لقد قدم استقالته لخلاف مع حكومته حول الموازنة التي تخصصها لإدارة شؤون الانتداب.

لكن ما هي أهمية المنصب الذي كان يشغله غورو؟ ماذا كان يعني بالنسبة إلى الفرنسيين؟ لقد استقال غورو، يقول لنا كاترر، «بكل بساطة ومن دون مرارة، من منصب هو أحد أرفع المناصب في الجمهورية، ومن موقع كان فيه بمثابة نائب الملك!».

ونائب الملك هو اللقب الذي كان يعطيه الإنكليز لحاكم الهند «جوهرة التاج»، وبالتالي فإن سورية ولبنان كانتا بالنسبة إلى فرنسة، ما كانت الهند بالنسبة إلى بريطانية أيام الاستعمار.

لكن مع «الذي ذهب إلى الظل، قرر أيضاً أن يستقيل اللفتنانت كولونيل كاترو «أليس هذا أفضل تكريم نستطيع أن نقدمه له؟».

لكن قرار كاترو سوف يفاجئ الكثيرين «لأن شيئاً لا يدعوني للعودة إلى فرنسة، وواجبي العسكري لم يكن يحتم علي بعد التخلي عن مهامي السياسية. بل على العكس من ذلك، كان كل شيء يدعوني للبقاء في دمشق: أهمية المنصب الذي أحتله، مكانتي في الأوساط السورية، العمل الذي قمت به، وأهمية الأعمال التي تنتظرني. ولذلك تساءل الكثيرون عن الدافع الذي يجعلني أتخلى عن هذا المنصب المهم ـ منصب «ملك دمشق» كما وصفه الجنرال الإنكليزي كونغريف، الذي ألحق هذا اللقب بقوله: «لكنك لا تزال يافعاً على الملك» ـ إلى مركزٍ مُبْهَمٍ في إفريقية أو أوروبة.

«وعندما طرحت علي هذه الأسئلة، كنت أجيب إنني أتضامن مع الجنرال غورو وإنني جئت معه إلى دمشق، وأتركها معه. إنني مدين بكل شيء لثقته بي. لقد كان صديقاً وراعياً في الأيام الصعبة والأيام السهلة. لقد تبنى المبادرات التي اتخذتها، ودافع عن أفكاري، وسامح أخطائي، وأقر أسلوبي في العمل»... «ولقد اختلط قدر في سورية بقدري، ولذا لا يسعني إلا أن ألحق به وهو يتبعد.

... لقد تركنا في وقت عادت الأمور فيه إلى طبيعتها، واستطعنا تخطي الصعاب في علاقتنا مع السوريين. وإن إقامة الاتحاد حديثاً سوف تضع حداً للمشكلات، وتكون بداية علاقات سورية ـ فرنسية جديدة».

«هذه الأجوبة أعطيتها أيضا إلى الجنرال غورو، عندما طلب مني البقاء في دمشق من أجل. مصلحة فرنسة».

لكن بعد أيام كان غورو وكاترو يغادران على متن السفينة «الكسار»، وبقي غورو في أوروبة، أما كاترو فعاد في العام 1940 لكي يخوض ـ كأحد قواد الحلفاء ـ ما أسماه فيما بعد «معركة المتوسط» ويؤدي دوراً سياسياً مهماً في مسألة استقلال سورية ولبنان، لكنه لن يقطن «قصر الصنوبر» في بيروت، قصر الأحلام الذي تحدث عنه في حزن «عندما تركه الجنرال غورو لكي يسكن شقة متواضعة فى السان جرمان».

إدوارد سبيرس:
العباءة التي هرَّبت ديغول!

«تعتقلون راشد المقدم، نعتقل كميل شمعون». هكذا قال الفرنسيون للإنكليز! وهكذا قال الجنرال السير إدوارد سبيرس في مذكراته.

«إنها لعبة إنكليزية» هكذا كان يقول الجنرال ساراي! أما ديغول فيقول لنا من عليائه، إنه خلال «المساومات في يالطة استطاع تشرشل أخيراً، أن يقنع روزفلت وستالين بأن يطلقا يده في دمشق وبيروت»».

إنها حرب تاريخية لن تضع لنفسها نهاية أو حداً. ولا يزال الإنكليز والفرنسيون يخوضونها دامية هذه الأيام، ولكن بالأغاني أو بالصور الكاريكاتورية، وأكثرية الشعب البريطاني ظلت ترفض مد النفق عبر المانش، لكي لا تربط فرنسة ببريطانية براً، انتقاماً لموقف ديغول من دخول بريطانية إلى السوق في الستينيات. وفي الستينيات رفض ديغول دخول بريطانية انتقاماً من واترلو. إنه العداء الأبعد زمناً في تاريخ أوروبة. والذين يعتقدون أن العداء الألماني ـ الفرنسي هو الأكثر قدماً إنما عرفوا شيئا وغابت عنهم أشياء: من وليم الفاتح في إنكلترة وريتشارد قلب الأسد في فرنسة، من ملوك البلانتاجينه ومعركة إيانغور، من تلك المنافسة الشهيرة أيام الصليبيين، من دوق مالبورو وحملاته ضد لويس السابع عشر، من معارك وولف ضد مونتكالم في أعالي كيبك الباردة، من نابوليون وولنغتون ولسون، إلى الأمس القريب.

فالعداء الألماني. الفرنسي عداء عسكري حديث نسبياً، أما المسألة بين لندن وباريس فهي حكاية عداء وتنافس حول العالم وعبر التاريخ: من الشرق الأقصى إلى الشرق الأوسط مروراً طبعاً بأميركة وشبه القارة الهندية. لقد كان بالمرستون القائل إنه ليس لإنكلترة صداقات دائمة ولا عداءات دائمة. غير أن أكثر من عمل بهذا القول هم الفرنسيون.

ولقد عملوا به ضد أصدقائهم الألداء عبر القناة!

ولعل أبرز نتاج لهذا الصراع كان تلك العلاقة العصبية بين السير إدوارد سبيرس، وبين الجنرال ديغول! لقد عاش سبيرس في فرنسة، وهناك أجاد اللغة، وأحب الشعب والشمس وأشجار الجوز في الجنوب، بل إن شارل ديغول هرب إلى بريطانية تحت عباءة سبيرس، لكي يعلن من لندن «فرنسة الحرة»، لكن لم تلبث هذه العلاقة أن تحولت إلى علقم متبادل»، ولم يلبث سبيرس أن أصبح مثال الإنكليزي الذي يكره كل ما هو فرنسي، بما في ذلك زوجة الحاكم الفرنسي في لبنان، المسيو جان هللو!

تعاطى سبيرس مع زملائه الفرنسيين بالكثير من الأقنعة والكثير من القفازات: تعال متبادل، وكره متبادل، وانعدام ثقة حائل. وبين الاثنين، أي بين الإنكليز والفرنسيين، دار اللبنانيون دورتهم السياسية التي تتسارع حركتها مع تغير الدول. ويذهب بعض الناس إلى القول إن سبيرس هو الذي جاء إلى لبنان بهدية اسمها الاستقلال، نكاية في الفرنسيين، لكن شارل ديغول يقول لنا إنه هو الذي فعل ذلك. وينقسم اللبنانيون ـ كالعادة ـ حول تقييم حقيقة الدور الذي أداه الجنرال سبيرس: منهم من يمتدحه ومنهم من ينتقده. لكن كما أنه في إنكلترة ليست هناك عداوات ولا صداقات دائمة، فهكذا الأمر في لبنان، حيث نرى الشيخ بشارة الخوري وزيراً وسياسياً بارزاً في بدايات الانتداب، ثم رئيساً حين يشتد النفوذ البريطاني. ثم نرى الرئيس كميل شمعون مؤيداً للخوري رفيقه في الحزب الدستوري، وبعد ذلك نرى الاثنين على طرفي نقيض. لكن ليس من شك على أي حال في مدى انقسام اللبنانيين خلال الانتداب، بحيث يروي لنا سبيرس أنه بينما كان نائماً ذات ليلة خريفية، وقد فتح نافذته، سمع صوت جسم كبير يسقط في الحديقة فوق «الشبكة المضادة للبرغش»، ثم عرفت فوراً وجه الرجل الذي سقط في الشبكة. لقد كان خليل، الابن الأكبر للرئيس، شاب بدين، وكان وجهه مغطى بالدماء، وأبلغني قوله: لقد قال لي والدي اذهب إلى الجنرال سبيرس وأخبره، ثم روى لي أن الجنود اقتحموا منزلهم، ودخلوا إلى غرفة نوم والدته المريضة (...)، وسعى هو (خليل) لأن يطلب طبيباً، غير أن الجنود ارتموا فوقه، وضربوه بأعقاب البنادق، ثم دفعوه على الدرج وهم يصرخون يا بن ... يا بن الإنكليز...».

ثم يتابع سبيرس ليقول لنا، من كان في الجانب الآخر من الصراع: «لقد كانت الساعة نحو السابعة، وقد اتصلت بـ «دكايسي» في القاهرة، وأخبرته بما حدث فلم يصدق، وقال إن الفرنسيين مجانين، وإنه يجب أن نفعل شيئاً ما على الفور. وفيما كنا نتحدث على الهاتف، جاءنا صوت«هللو» في الراديو، يعلن بكل خشونة أنه علق الدستور، وحل الحكومة، وعين إميل إده رئيساً للحكومة الجديدة».

لا بد من ملاحقة: فالجنرال سبيرس الذي توفي في العام 1974 عن 87 عاماً، ظل رافضاً أن يضع مذكراته حتى الأشهر الأخيرة من حياته، «لأنها تضر بأشخاص كثيرين»، وكان يقصد بالطبع (ديغول) في الدرجة الأولى. فهو لم ينس أنه كان الرجل الذي أمسك ديغول من ذراعه في مطار «بوردو»، ودفعه إلى الطائرة التي أقلته بعيداً عن القوى المستسلمة في فرنسة، لكننا سنكتشف أن التعالي المتبادل بين أهل الجزيرة وأهل القارة يتخطى بكثير معاتبة الوفاء ونكران الجميل بين جنرالين أحدهما ظل في حجم محلي، والآخر اتخذ العالم أجمع حجماً له.

هذا لا يعني طبعاً أن سبيرس كان ضئيلاً. إنه «رفيق تشرشل» منذ العام 1915. وذات يوم يقدم إليه ديغول صورته وقد كتب عليها: إلى الجنرال سبيرس، شاهداً وصديقاً وحليفاً». غير أن أحد الصديقين سيظل مفوضاً سامياً، بينما يصل الآخر إلى حكم فرنسة. ربما أيضاً ليس هناك الكثير من الدقة في تعبير «المفوض السامي»، فالرجل الذي أدَّى أهم أدواره في الشرق بين العامين 1941 و1944. أصبح «رئيس البعثة البريطانية» في سورية ولبنان، بالإضافة إلى كونه «رئيس الفرنسيين الأحرار في المشرق سابقاً».

بعد وصول سبيرس إلى بيروت بأسابيع، يلقي ونستون تشرشل في مجلس العموم خطاباً حول سياسة لندن تجاه «دول المشرق» يقول فيه:

«ليست لدينا مطامع في سورية، إننا لا نسعى إلى الحلول مكان فرنسة، أو استبدال المصالح الفرنسية بمصالح بريطانية في أي جزء من سورية، إننا في سورية فقط لكي نكسب الحرب .. لكننا من جهة أخرى نعترف بأنه من بين جميع دول أوروبة، فإن

لفرنسة في سورية وضعاً مميزاً. وإذا كانت لأي دولة أوروبية أخرى مواقع مميزة في سورية، فيجب أن يظل موقع فرنسة هو المهيمن. إننا لم نذهب إلى هناك لكي نجرد فرنسة من موقعها التاريخي في سورية، إلا حيث يبدو ذلك ضرورياً للوفاء بالتزاماتنا وتعهداتنا تجاه السكان في سورية».

كان تشرشل يتحدث في أعقاب انتهاء «الحملة السورية»، أي سقوط قوات فيشي أمام الإنكليز و«الفرنسيين الأحرار»، ومن معهم من «قوات خاصة» أي مجندين سوريين ولبنانيين، كذلك كان يتحدث بعد لقاء مطول في القاهرة بين ديغول، زعيم «فرنسة الحرة» غير المقيم في فرنسة، وبين وزير الدولة البريطاني أوليفر ليتلتون، تم خلاله تنظيم العلاقة بين فرنسة وبريطانية في المشرق! إنها علاقة لن تنظم أبداً.

وسوف ينسب الجنرال سبيرس إلى نفسه وإلى بلده، بصورة غير مباشرة، تفكيك الانتداب: «عندما غادرت الشرق الأوسط العام 1944 في نهاية مهمتي، كانت سورية ولبنان قد أصبحتا بلدين مستقلين، يتمتعان باعتراف جميع الدول الكبرى وجميع الدول العربية المستقلة، وعدد كبير من الأمم الأخرى.

هناك وجهان للمستر سبيرس، مثله مثل جميع العسكريين الذين تركوا أرض القتال في الحرب الكونية لكي يغرقوا في ليالي السياسة وأوحالها. هناك العسكري الصارم، وهناك الليالي الملاح في بيروت، وفلانة قالت وفلانة لم تقل، ومن سهر عند من؟ كيف؟ ولماذا؟...

عندما فقدت الملكة فيكتورية زوجها قالت: لقد فقدت «الرجل الوحيد في العالم الذي كان يستطيع أن يناديني فيكتورية». وها هو إدوارد سبيرس الرجل الوحيد الذي يستطيع القول في معرض الحديث عن ديغول: «أنا الذي أحضرته إلى إنكلترة في حزيران/يونيو 1940».

لكن هذا الذي يقول «أنا أحضرت ديغول»، يدخل أيضاً في عالم من الأشياء الصغيرة، ويروي لنا في مذكراته حكاية ليلة دعا فيها المسيو هللو وزوجته إلى العشاء في بيروت على شرف ملك يوغوسلافية: «جلست المدام هللو إلى جانبي في عشاء الملك

اليوغوسلافي. وقد لاحظت كم هي وسيمة بعكس زوجها التعس. لكنني إذ تفحصتها أكثر عن قرب، شعرت أنني أنظر إلى مخلوق اصطناعي تماماً، جليد متجمد ووجه من الطلاء، مثل منحوتة من منحوتات «ليموج»، تشعر وكأن أي نسمة ستحولها إلى حطام متناثر. وبدا جلدها مثل محرمة ورقية تعوم فوق مياه صافية. ورحت أضرع ألا يتعثر أحد الخدم ويصطدم بكرسيها، فيحطم هذا العمل الفني الجميل».

هناك الكثير من الثرثرة البيروتية المسلية في حياة سبيرس

«كنا نحضر، زوجتي وأنا» حفل استقبال أقامه المسيو هللو وزوجته، وقد وقف كلاهما يستقبل المدعوين. ومن بعيد رأيت سيدتين فرنسيتين بالغتي الجمال تصلان إلى الحفل. وكنت أعرف أن كلتيهما أكثر شعبية لدى الرجال الفرنسيين، مما هما لدى بنات جنسهما. وبدا واضحاً على الفور أن المسيو هللو هو الذي دعاهما، وليس زوجته، وقد عرفت لحظتها أن مقصلة ستسقط. لم تقل السيدتان كلمة واحدة، لم تأتيا بحركة واحدة، فقط وقفتا هناك تحت سطرة نظرة المدام هللو التي تبعث على الشك ثم استدارتا وذهبتا على أعقابهما».

لم يسلم أحد من أسلوب سبيرس اللاذع حتى ضيفه، ملك يوغوسلافية «ليلة عودة هللو إلى بيروت أقمت للأسف، حفل عشاء لملك يوغوسلافية. وكان الملك صبياً، صبياً صغيراً في ذوقه وفي حجمه، تسحره الأشياء التي تتحرك بسرعة (...) وقد ظل الملك عندنا تلك الليلة أكثر مما كنت أحب».

غداة تلك الحفلة، أي صباح 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1943. سوف يعيش لبنان فصلاً مهماً من تاريخه، نسمع رواية الجنرال سبيرس بحرفيتها: «بعثت إلى وزارة الخارجية هذا الصباح بالبرقية الآتية:

«في الرابعة من فجر اليوم اعتقل رجال الأمن العام رئيس الجمهورية ووزراءه جميعاً، باستثناء ثلاثة لم يتم العثور عليهم، واقتيدوا جميعاً إلى السجن برفقة رجال البحرية والجنود السنغاليين.

«ولقد اعُتقل الرئيس بالكثير من الوحشية في حضور زوجته المريضة، وضُرب ابنه بأعقاب البنادق، وحُبس في القبو وسط صرخات: يا بن الـ.... يا بن الإنكليز.

«كذلك اقتُحِم منزل رئيس الوزراء المسلم، ونقل عنوة من فراشه الزوجي. إن هذا وحده كاف لإثارة جميع السكان المسلمين.

«لقد أقدم هللو على حل المجلس بموجب مرسوم لم تتسنَّ لي قراءته حتى الآن.

«إن المدينة طبعاً في حالة غليان، وثمة إضراب عام متوقع، مع أنني أسعى بالتأكيد إلى الهدوء، وأنني نصحت الحكومة السورية بعدم القيام بأي خطوة، بانتظار أن أسمع منكم. لقد أبلغت وزير الدولة البريطاني، ودعوته إلى أن يدرس فكرة فرض الأحكام العرفية البريطانية.

إن هذا في رأيي يشكل الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون تظاهرات خطرة في هذا المنعطف العسكري الدقيق. لقد أظهر الفرنسيون أنهم متهورون تماماً.

«اتصلت بعد ذلك بـ «كايسي» في القاهرة، وطلبت منه أن يجمع ما استطاع من الصحافيين، بحيث يملأ طائرة كاملة منهم تكون في بيروت ظهر ذلك اليوم. لقد كنت أعرف أن الفرنسيين سوف يتظاهرون بأن شيئاً لم يحدث، وأن كل ما في الأمر أنهم أعادوا الأمن إلى نصابه بفضل استخدامهم القوة.

«... وعندما سمعت أن الجنرال دو لافالاد موجود في القاهرة، عرفت أن المسألة معدة منذ زمن. وإلا كيف يمكن لضابط فرنسي رفيع الرتبة، كجنرال، أن يظهر فجأة في القاهرة، وأن يعلن بكل تلك السلطة التي يتمتع بها، أن ما حدث ليس بذي شأن، في حين أن رئيس لبنان وحكومته في السجن؟ كيف لا يكون الأمر خطيراً والبرلمان قد حل، والطائرات الفرنسية تحلق فوق بيروت ملامسة السطوح؟!.

«عندما دخلت إلى بهو منزلي وجدته مليئاً بالناس. جاء أولاً المطران مبارك راعي أبرشية بيروت المارونية. كان يرتجف حنقاً وغضباً. إنه لأمر عجيب حقاً؟ الموارنة يقفون الآن خلف رئيس الحكومة المسلم. إن البريطانيين هم الذين ضمنوا استقلال لبنان، فماذا تراهم فاعلين الآن؟ إنه تحد للإنكليز وإهانة للبنان».

«وما كاد ينتهي ـ بسبب ضيق أنفاسه، لا لأنه فرغ من الكلام ـ حتى كان مفتي الجمهورية يصل، وكان المفتي (صاحب السماحة محمد خالد) أكثر هدوءاً من

المطران، لكنه أعرب عن غضبه بالكلمات نفسها: من المستحيل الآن رد الناس التي ستهاجم الفرنسيين بلا شك، وأضاف: بل إنهم بدؤوا ذلك فعلاً، وهناك بضعة سيارات فرنسية أشعلت فيها النار، والناس ترفع الحواجز على الطرقات.

«وبعد ذلك دخلت بخطى رشيقة السيدة الحسناء (زلفاء) شمعون، حنطية مثل سنبلة قمح تلمع في الشمس، وقد توهجت عيناها الزرقاوان الجميلتان. لقد اعتقل زوجها الوزير (المزعوم مؤيداً للبريطانيين) خلال الليل على أيدي بعض السنغاليين، ونقل إلى مكان تجهله. ثم تدفق زوار آخرون، إلى أن تبين لي أن جميع أعضاء الحكومة، ـ باستثناء اثنين ـ اعتقلوا، كما اعتقل عدد من النواب.

«وفي غضون ذلك أخذت شاحنات ملأى بالسنغاليين تجوب الشوارع، وبدا أن هؤلاء يستمتعون بما يجري، إذ كانوا يضحكون ويطلقون النار عشوائياً على المارة. وقد وقعت إصابات، كما أن جندياً فرنسياً أطلق النار على صبي كان يمزق إحدى ملصقات ديغول فأرداه قتيلاً.

«وقد أخبرني أيضاً أن شوارع بيروت بدأت تمتلئ فجأة بملصقات لديغول. ورأيت هذه الملصقات بنفسي، وإلى جانبها ملصقات أخرى تحمل صور ستالين. وكان لنا أن نستنتج أن روسية السوفياتية تؤيد ديغول.

«... ثم وصلت أنباء تقول إن عبد الحميد كرامي، الرجل الواسع الشعبية، قد اعتقل في طرابلس، فأبلغت لندن والقاهرة فوراً أن هذا الأمر سوف يثير سورية الشمالية».

هنا ينتهي النص الحرفي من كلام سبيرس، لكن لا بد من وقفة أو أكثر، هل حقاً كانت «روسية السوفياتية» تدعم شارل ديغول؟ إننا بعد ثلاثين عاماً سوف نرى الإعلام الأميركي يلجأ إلى التهمة نفسها، لكي يطعن في استقلالية ديغول، وسوف تصوره الكتب الدعائية عميلاً في الكي. جي. بي من دون أي تردد. لقد أمضى ديغول حياته في مواجهة الحلفاء، كما سنجد في فصل آخر.

لكن نعود إلى صالون سبيرس، وإلى اللبنانيين الذين تدفقوا عليه لكي يطلبوا دعم الإنكليز! هؤلاء اللبنانيون ماذا قالوا لديغول؟ فلنعُدْ إلى النصوص بحرفيتها إذاً يقول لنا ديغول في مذكراته الآتي:

«خلال الوقت الذي أمضيته في بيروت، أجريت اتصالات عدة كما هي التقاليد في الشرق الأوسط، حيث يعتبر من القسوة وقلة اللياقة اتخاذ القرارات من غير طلب المشورة والقيام بالزيارات اللازمة. وفي قصر الصنوبر حيث كنت أقطن، استقبلت عدداً من الزائرين

وقد أبلغني عدد منهم رغبتهم في أن تتخلى الدولة عن التزاماتها في بلدهم. غير أن كلاً من هؤلاء عين نفسه راعياً لهذه أو تلك من المصالح الخاصة. وقد أكد لي الجميع قناعتي بأنه بعد بلوغهما الاستقلال، فإن لسورية ولبنان ما يربحانه من الوجود الفرنسي ولن يخسرا شيئاً من ذلك.

«... وفي المكاتب الكثيرة التي زرتها، وفي أحواض السفن، وورش البناء، أكد الجميع أنه لا بد من المحافظة عليها (العلاقات الخاصة) بصرف النظر عن النظام الذي قد يقوم في المستقبل لمعالجة العلاقة السياسية بين باريس ودمشق وبيروت».

أيضاً نظل في النصوص لنأخذ من ديغول، رواية مقابلة لرواية سبيرس حول حل المجلس النيابي واعتقال حكومة بشارة الخوري، يقول: «... لكن للأسباب نفسها وجدنا أنفسنا مرغمين على المحافظة على التزامات معينة في المشرق، نتيجة لحالة الحرب. ومن خلال نظرة شمولية إلى النزاع العالمي توصلنا إلى قرار بأنه بإمكان حكومتي بيروت ودمشق الانتظار قليلاً قبل تسوية الشكليات الأخيرة، التي لاتزال تحد من سيادة بلديهما. ولم يكن هناك شك بأنهما كانتا ستقبلان بذلك لو أن لندن لم تشجع مطالبهما وتعرض مساعدة القوات البريطانية في فرض هذه المطالب.

«وفيما كان هللو في الجزائر أقدم المجلس اللبناني على تعديل الدستور، حاذفاً منه جميع الفقرات التي تشير إلى الانتداب، وكأنه لم يكن موجوداً، وأثناء عودته في طريق القاهرة أبرق من هناك إلى حكومة بيروت يبلغها أنه يحمل تعليمات من حكومته بفتح باب المفاوضات، ويطلب تأجيل تعديل الدستور. غير أن اللبنانيين تجاهلوا رسالته. وحين عاد هللو إلى بيروت، وأمام هذا الاستفزاز استخدم الفيتو الرسمي في وجه القرار في 12 تشرين الثاني/نوفمبر، وعلق الدستور، وأمر بسجن رئيس الدولة اللبنانية ورئيس المجلس وعدد من الوزراء، فيما أصبح السيد إميل إده رئيساً موقتاً للجمهورية.

«... لذلك قررنا في اليوم الآتي، وبعدما أبلغنا بما حدث في بيروت، قررنا أن نرسل الجنرال كاترو إلى هناك، لكي يعيد الوضع الدستوري إلى طبيعته، ويكف يد هللو، وكان هذا يعني أن على كاترو ـ بعد إجراء المفاوضات ـ أن يطلق سراح الخوري والصلح ووزرائهما، ويعيد الخوري إلى منصبه. وبعدها يعاد تشكيل الحكومة والمجلس. وبما أنه لن يعود هناك مبرر لوجود مفوضنا في المشرق بعد وصول كاترو، فقد استدعيناه إلى الجزائر، ولكن متأخراً بضعة أيام.

«غير أن البريطانيين لم يستطيعوا القبول بالمصالحة. وقد أظهرت الأحداث التي لحقت فيما بعد أن لندن عازمة على صب الزيت على النار، بحيث يبدو ما اتخذناه من خطوات في لبنان وكأنه فرض علينا من قبل الإنكليز..».

نتوقف مرة أخرى...

لا لكي نقرأ في مذكرات سبيرس أو في مذكرات ديغول، بل في مذكرات الشيخ بشارة الخوري، وفي الجزء الثاني من «حقائق لبنانية» التي قدم لها ذلك الديبلوماسي العريق فيليب تقلا، يؤكد لنا الرئيس اللبناني الراحل ما رواه سبيرس عن ذلك العشاء مع المسيو هللو. ثم يؤكد لنا أن المطران مبارك ذهب إلى سبيرس لكي يعترض على اعتقال رجال الاستقلال، ولا يحدثنا عن ذهاب ابنه، الشيخ خليل، إلى الوزير المفوض البريطاني، لكنه يروي أن زوجة سبيرس اتصلت بزوجته تلك الليلة، ودعتها إلى المبيت في المفوضية البريطانية خوفاً من السنغاليين! وهكذا حصل.

سوف تكون تلك الليلة، أي ليلة 12/11 تشرين الثاني/نوفمبر 1943. فاصل المجد في حياة بشارة الخوري ورياض الصلح . إنها بالنسبة إلى الاثنين، ليست مجرد فصل في مذكرات، إنها الفصل الأساس في حياة كاملة. ولذلك كان عنوان ذلك الفصل في مذكرات بشارة الخوري بكل بساطة: راشيا!

إذاً يعتقل الرئيس وحكومته وبعض الوطنيين الآخرين، وينقلون إلى قلعة راشيا. وتوفد حكومة فرنسة الحرة الجنرال كاترو ـ الذي يكن له الخوري كل اعتبار ـ لتسوية المسألة، فيطلب كاترو على وجه السرعة مقابلة سجينه. وتحت عنوان «السجان والسجين» نترك الكلام للشيخ بشارة:

«... وبعد لحظات دخل الجنرال كاترو وحيّاني بكل لباقة واحترام، واعتذر عن إزعاجي بزيارته في بيروت وعن تأخره الوجيز، ودعاني إلى البهو الكبير، وأجلسني على «دشك» عالٍ، وجلس بجانبي، ثم قال:

«اسمح لي يا فخامة الرئيس قبل كل شيء أن أعبر لك عن أسفي لما جرى، وعن سوء المعاملة التي لقيتها من المسيو هللو، ويسرني أن أخبرك أن المسيو هللو قد أقيل من وظيفته، وسيعود إلى الجزائر في الوقت المناسب. والآن أطلب منك أن تقص علي سلسلة الحوادث التي مرت على لبنان منذ تركي إياه في الصيف الماضي.

«قلت: تعلم يا حضرة الجنرال أن المسيو هللو قد تدخل في الانتخاب، مخالفاً وعدك الذي قطعته لي في فندق الشقيف (بحمدون) في المقابلة الأخيرة التي جرت بيننا. وبدا تدخله سافراً، مفضوحاً، قاصداً إقصاء العناصر الوطنية ـ وأنا في رأسها ـ عن المجلس، ولكنه لم يفلح. وانتخبت للرئاسة كما تعرف، ودعوت رياض الصلح ليرأس الوزارة، وكلانا يسعى إلى خدمة بلاده لتحقيق أمانيها بالاستقلال التام الناجز، وفقاً للتعهدات التي قطعت لنا من جانب الحلفاء، ووفقاً للبيان الذي أذعتموه حضرتكم بلسان لجنة التحرر الفرنسية يوم رجعتم إلينا في صيف 1941 تقودون قوى فرنسة الحرة. وقد تضمن البيان الوزاري عهداً صريحاً بأن تتقدم الحكومة إلى المجلس النيابي في أقرب وقت، بمشروع تعديل للدستور يجعله منسجماً مع مقتضيات ذلك الاستقلال..

«فقاطعني الجنرال كاترو سائلاً: وما الذي جعلكم تستعجلون الأمور، وتستبقون رجوع المسيو هللو من الجزائر، وهو يحمل إليكم مقترحات جديرة بالقبول، وقد سبق له قبل سفره أن اجتمع إليكم وإلى رياض الصلح في شتورا، واستمهلكم إلى حين عودته فأمهلتموه على ما أعلم.

«قلت: جرى ما تفضلتم به، إنما أمران جعلانا نشك بحسن نية المسيو هللو: كتاب صدر منه، بعد سفره، ينكر علينا حق تعديل الدستور وحدنا بمعزل عن فرنسة، وقد أجبنا عليه في حينه ولم نحرك ساكناً. أما الأمر الثاني: فهو صدور بيان لجنة التحرر

الفرنسية في الجرائر في 5 من تشرين الثاني/نوفمبر، منكرةً علينا، هي أيضاً، حق التعديل إنكاراً باتاً لا يقبل الجدل، وزاد في الموقف حرجاً أن المندوبية الفرنسية أذاعت البيان على الصحف قبل أن تبعث به إلى الحكومة وإليَّ، خلافاً لكل عُرْف، الأمر الذي أثبت لنا أن غايتكم هي وضع الحكومة اللبنانية أمام الأمر الواقع، وقطع السبل عليها، وشل عملها الدستوري. وهذا هو السبب الذي استعجل. تقديم مشروع التعديل الدستوري. إن بيان لجنة التحرر قلب الأمور ظهراً على عقب، وحلنا من انتظار المسيو هللو.

«قال الجنرال كاترو: أما وقد جرى ما جرى، أفلا تظنون يا فخامة الرئيس أن سيطرة النفوذ البريطاني أوصلتنا إلى المأزق، فدفعتكم بريطانية إلى هذا الموقف واعتنقت وجهة نظركم، وهي تمطرنا كل يوم بإنذارات سياسية وعسكرية لإعادة الأوضاع اللبنانية إلى نصابها؟ وها هو المستر كايسي وزير الدولة البريطاني المكلف بشؤون الشرق، قد حضر من القاهرة إلى بيروت ليتولى تبليغي هذه الإنذارات.

«قلت : لم تتدخل بريطانية في طلب تعديل الدستور، ولا في إقرار هذا التعديل. فالعمل الذي قمنا به كان لبنانياً بحتاً، وضمن نطاق صلاحيتنا الدستورية، دون أي تشويق من الخارج. وإذا كنتم حضرتكم تلمحون إلى أن رئيس الجمهورية وحكومته والمجلس يهدفون من وراء هذا كله إلى إقصاء فرنسة واستبدال انتداب آخر بانتدابها. ـ وبكلمة أصرح: انتداب إنكليزي ـ فأنتم على خطأ، نحن طلاب استقلال كامل، ولا نرضى بديلاً عنه، ولا انتقاصاً منه، على يد أي دولة.

«سكت الجنرال كاترو دقيقة، ثم قال : لنبحث الآن أموراً عملية. إن المهمة التي أوكلها إليّ الجنرال ديغول ولجنة التحرر تخولني حل الحالة الحاضرة حلاً حاسماً. لا أنكر عليكم أن جميع اتصالاتي بالشخصيات التي اجتمعت إليها منذ وصولي إلى لبنان، أثبتت لي إجماع الناس على تقديركم واحترامكم، وعلى طلب، عودتكم إلى الرئاسة في أقرب ما يمكن، وهذا أمر مفروغ منه عندي. وقد أبلغت رأيي إلى حكومة الجزائر. غير أن لي مطلبين من فخامة الرئيس: الأول يتعلق بالوزارة فإن حكومتي ترى أنه من الضروري إقالتها تعويضاً من كرامتنا، والثاني يتعلق بالمجلس النيابي، ونرى أيضاً وجوب حله وانتخاب سواه، فهل لكم ما يقال في هذا الشأن؟

«قلت: يا حضرة الجنرال، أعلن بكل صراحة أنه لا يسعني إجابة أي مطلب من المطلبين، ذلك أنني رئيس دستوري. أضف إلى هذا أنني وافقت على كل سطر من سطور البيان الوزاري الذي نال رياض الصلح رئيس الوزارة ثقة المجلس النيابي على أساسه، والذي اقترحته على المجلس وفقاً لسلطتي الرئاسية المستمدة من بنود الدستور. والمجلس عينه أقر المشروع المقترح مني برضى الحكومة ومعرفتها، فكيف يكون بوسعي، والحالة ما ذكر، أن أقيل الوزارة أو أحل المجلس، وأنا متضامن معهما في جميع تلك التدابير؟ فخلاصة القول، ولن أزيد : إما أن نخرج جميعنا من قلعة راشيا كما أدخلناها، وإما أن أرجع إلى الاعتقال مع رفقائي إلى أن يمن الله علينا بالفرج!.

«أطرق الجنرال كاترو، وفكر ملياً قبل أن يستأنف الحديث، ثم قال:

«أليس بإمكان رياض الصلح رئيس الوزارة أن يوجه إليَّ كتاباً يبين فيه أن ما قام به من الأعمال لا يستهدف الإساءة إلى فرنسة، فيكون هذا الكتاب بمثابة تلطيف لنا. وهل يصعب أن تتخذ فخامتكم تدبيراً بإرجاء دورة المجلس النيابي أربعة أشهر، يخف أثناءها التوتر القائم في علاقة البلدين فتمكننا هذه الفترة من تدبير الأمور؟

«قلت: أما فيما يتعلق بالكتاب، فالرأي فيه لرئيس الوزارة نفسه. وفي نظري أنه عمل غير مناسب، لأنه يفترض إساءة لم تخطر على بال أحد منا. أما فيما يتعلق بإرجاء دورة المجلس فلا أكتمك أن الأمر مستحيل، فالدستور يمنح رئيس الجمهورية حق إرجاء افتتاح الدورة العادية للمجلس شهراً واحداً، والدورة مفتوحة اليوم، فلا يجوز لي دستورياً تأخيرها بصورة من الصور.

رجع الجنرال إلى التفكير والتأمل، ينظر إلي تارة وإلى الأرض طوراً، ثم قال:

«هل يزعجكم أن تعلموا رياض الصلح رغبتي بالاجتماع به هنا غداً مساء. لأبحث معه قضية الكتاب المذكور وغيرها من الشؤون. وسأتخذ التدابير اللازمة لانتقاله من راشيا إلى بيروت؟

«قلت: لا يسعني ذلك لأن «الاختلاط» ممنوع بيني وبين رياض الصلح وسائر المعتقلين، فأرجو أن توصل إليه الخبر بواسطة الضباط الذين رافقوني.

«فبدت على وجهه علامات التأثر وقال بحدة: ممنوع «الاختلاط»! ممنوع «الاختلاط»! ما معنى هذا التدبير الاعتباطي؟ هل أنتم مجرمون! أنا لا أقبل بذلك، وسأعطي الأوامر القاطعة بالسماح لكم بمقابلة بعضكم بعضاً، ابتداءً من صباح غدٍ، إلى أن يصدر الأمر بالإفراج عنكم جميعاً.

وسكت لحظة ثم أردف: أظن أن الإفراج سيقع حتماً يوم الأحد في 21 من تشرين الثاني/نوفمبر، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان، وسأقابل فخامتكم إثر خروجكم من راشيا. ولا شك عندي في أننا سنصل إلى تفاهم تام على جميع القضايا».

بالفعل تم التفاهم. لكنه تفاهم من النوع الإرغامي، يربح منه لبنان الاستقلال، ويخسر الفرنسيون انتداباً أساسياً بالنسبة إليهم في تلك الزرقة المتوسطية الرائعة، ويحقق الإنكليز فوزاً.. بالنقاط على جيرانهم الألداء.

كان كاترو عسكرياً وسياسياً، من النوع الممتاز، كما يقول لنا الشيخ بشارة، لكن سبيرس سوف يظل حائراً بين الجانب الصغير من السياسة والجانب الصغير من العسكريتاريا. ويبدو من مذكرات نقولا بسترس أن الرجل كان بين الذين عرفوا سبيرس عن قرب. ويروي لنا بسترس كيف أن الجنرال البريطاني جعله يجلس متخفياً وراء صخرة في منزله في عالية، لكي يتنصت إلى ما سيقوله سبيرس من كلام لزائريه البارزين:

«وصلت إلى منزل الشيخ بشارة الذي كان بانتظاري على أحر من الجمر، ما أن وصلت حتى بادرني قائلاً:

«لست أدري ماذا يحصل. الجنرال سبيرس يريدك بأقصى سرعة، لقد أعطى تعليماته وسيدعونك تدخل .. اقرع على نافذته وسيرد عليك.

وبالفعل هذا ما حدث، ففتح لي الجنرال سبيرس الباب، وهو في ثياب النوم .. وأخبرني بتفاصيل الحديث مع جان هللو، وقال لي إنه مصمم على استدعاء السيدين إميل إده وجورج تابت في اليوم التالي... ثم أضاف: «نقولا، اذهب وأخبر الشيخ بشارة الخوري بكل هذا.. ثم عد إلى هنا نهار غد حيث ستستمع إلى وقائع حواري مع السيدين

إده وتابت... الحديث بيننا سيدور على الشرفة، وأنت ستقبع خلف الصخرة. لا يمكن لأحد أن يراك، في حين أنك ستتمكن من التقاط الحديث كلمة كلمة.

«وفي الواقع هناك صخرة جبارة أمام شرفة فيللا مجيد أرسلان، وهي صخرة تحجب الرؤية، وتزعج في أوقات كثيرة، لكن هذه المرة، على الأقل، لن تزعجنا هذه الصخرة إنما ستكون مفيدة.

«وفي الساعة الثامنة صباحاً كنت أحتل الموقع الذي حدده سبيرس خلف الصخرة الشهيرة. الجنرال بضيافته المعهودة، طلب أن توضع أمامي طاولة ومقعد ومجموعة صحف وإبريق ليمونادة.. وجلست أنتظر، وما هي إلا لحظات، حتى وصل جورج تابت فقال له سبيرس:

«أنت لم ترشح نفسك للانتخابات النيابية، لن تصبح إذاً نائباً، ومن ثم لا يحق لك التطلع إلى رئاسة الجمهورية. انتهى الموضوع!

بعد دقائق أعلن عن وصول إميل إده. ومن دون أي تحفظ توجه إليه سفير بريطانية العظمى قائلاً:

«بالأمس جاءني السيد هللو وأخبرني بتفاصيل حديثك معه. فأجبته بأنني نظراً لكوني الشخص غير الصالح لتلقي هذه الأخبار، أنصح بأن ينقل كلامك إلى البطريرك الماروني. ما هي علاقتي بالموضوع؟ بالمقابل، وفي ما يخصني، أنا أؤكد لك بأنني سأكسر الانتخابات وألغيها إذا ما تم انتخابك رئيساً للجمهورية. هل هذا واضح؟ «وانتهت المقابلة بسرعة واستدعاني بعدها الجنرال سبيرس قائلاً:

«تعال يا نقولا سنجلس هنا لنتحدث قليلاً. «كنا جالسين قبالة البحر، والرؤية تمتد مرتاحة من عالية حتى بيروت. جلبوا لنا قهوة وليمونادة... نرتشف وننظر إلى البحر بصمت. كنا نشهد تحركات الموج مع البقع الزرقاء أو الخضراء التي تنتج منها على صفحة الماء... بقع ملونة تتشابه وتندفع لتحيط ببقعة بيضاء صغيرة ... قطع الجنرال سبيرس الصمت، وقال:

«... سنستعيد شريط الأحداث والمرشحين. انظر أمامك جيداً، تطلع إلى البحر لترى تلك البقعة البيضاء الصغيرة المحيطة ببقع زرقاء أو خضراء كبيرة .. هذا هو لبنان : البقعة الصغيرة أما البقع الأخرى فهي : فلسطين، الأردن، العراق، مصر، سورية... في هذه الأماكن سيصبح نفوذنا كبيراً للغاية. إنها البلدان الموضوعة تحت الرقابة البريطانية.. فإذا ما كنتم مصرِّين على البقاء تحت الوصاية الفرنسية مثل هذه البقعة الصغيرة.. فهذا شأنكم. ولا أستطيع أن أؤثر فيكم في هذا الاختيار. ولكن ما أجد من واجبي أن أقوله هو أنكم ستجدون أنفسكم معزولين تماماً إذا ما حصل أي نزاع عسكري بين إنكلترة وفرنسة.

«صمت سبيرس قليلاً ثم أضاف:

«حتى القمح لن تحصلوا عليه، لأن سورية ستتخذ موقفاً متناسباً مع سياستنا. ستصبحون وحدكم مقطوعين عن العالم.

«طبعاً إذا ما كنا نريد أن نتخذ من الأمواج مثالاً، فإن هذه العزلة كانت واضحة تماماً... لم يترك لي محدثي مجالاً للتفكير، بل سارع يقول:

«لهذه الأسباب يا نقولا أرى من مصلحة لبنان أن يقف إلى جانبنا، وأنا أعرف أن بشارة الخوري مهيأ أكثر من غيره لهذا الاتجاه.

«صمت جديد لا يطول، إذ يعاود سبيرس إطلاق أحكامه القاطعة، ويقول:

«لننظر الآن، يا نقولا في لائحة أسماء المرشحين للرئاسة. لقد سمعت ما قلته الآن لكل من جورج تابت وإميل إده، لا حاجة للرجوع إلى موضوعهما، فترشيحهما أصبح غير ممكن. أما بالنسبة إلى ألفرد نقاش فأنا أعتقد أنه رجل جيد، ولكنه واقع كثيراً تحت تأثير اليسوعيين. لذا ليس ألفرد نقاش الرئيس المطلوب.

«ووقفة جديدة، وجرعة ليمونادة، واستكمال للتقويم:

«لنأخذ مثلاً أيوب تابت، فعندما أذهب إلى السراي يقول لي: «أعط الأوامر للحراس ليصطفوا من أجل التحية لأنني «رجل ديموقراطي»، ولكن هذا التصرف

لا علاقة له بالديمقراطية. الحرس لا يؤدون التحية لشخصي، وإنما للنجوم التي أحملها على كتفي كجنرال. هذا واجب، وهو أمر معمول به في كل العالم. ثم عندما أتطرق مع أيوب تابت إلى المسائل المهمة التي تتعلق بشؤون الدولة، يسارع إلى وضع يده على جبينه ويقول: رأسي يؤلمني!

«وانتقل سبيرس إلى اسم آخر، وهو الذي يعرف مدى الصداقة القديمة التي تربطني بهذا المرشح، فقال:

«بترو طراد صديقك، ولكنني على الرغم من ذلك أصر على أن أفهمك بأنه ساذج! لا يعرف مثلاً أن عيوننا مبثوثة في كل مكان. أذهب أحياناً لزيارته لأعطيه بعض النصائح من أجل لبنان. وما أن أنهي الحديث، وأكون مازلت على الدرج، حتى يسارع إلى الاتصال بعملاء المكتب الثاني التابع للمندوب السامي، ويستدعيهم لزيارته من أجل أن يخبرهم بما قلت حرفياً. قبل أن أزوره في كل مرة، أعرف أن كلامي سيصل إلى الفرنسيين، ويؤكد لي عملائي ذلك. لهذه الأسباب لا أرى أن بترو طراد يستطيع أن يصبح رئيس دولة جاداً...

انتقال جديد إلى مرشح آخر وأخير.

«أعرف أيضاً يا نقولا أنك تأتي لتدافع عن قضية الشيخ بشارة الخوري، وتدعم ترشيحه، تتمنى أن تراه رئيساً للجمهورية، وأنا أشاطركم هذه الأمنية. لكن هل يستطيع بشارة الخوري الصمود في وجه الفرنسيين؟ أخشى ألا يتمكن من ذلك!

بالطبع أخذت أدافع عن الشيخ بشارة مؤكداً أن الفرنسيين لن يدعوه أبداً يقدم ما عنده، وأنه رجل فريد يتمتع بحيوية فائقة وبثبات نادر..

وقاطعني سبيرس ليقول:

ـ نعم إنه سياسي ممتاز، لكن عنده عائلة عديدة الأفراد..!

فهمت الإشارة، فأخذت أؤكد لسبيرس أن الشيخ بشارة لن يدع عائلته تؤثر فيه».

يقول لنا الشيخ بشارة في معرض التلميح إلى الآخرين ـ وبكل اعتزاز ـ إنه براء من الدعم الفرنسي، مالياً وغيرة»، لكن لا شك في أن الشيخ قد نال بعض التأييد من مندوب صاحب الجلالة، إذ يقول لنا نقولا بسترس ببساطته وعلى سجيته البسترسية البيروتية المعروفة:

«وذهبت وكان الشيخ بشارة ينتظرني على نار متأججة، فنقلت إليه كل الوقائع، مما أدخل إلى قلبه فرحاً عظيماً. وكان هذا الفرح يتأكد يوماً بعد يوم، لاسيما وأن الجنرال سبيرس كان يسخِّر كل قدراته من أجل الإيفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه بدعم الشيخ بشارة..

«أعرف الآن أن كثيرين ممن عايشوا تلك الحقبة قد يقولون إن سبيرس لم يكن مستقراً نهائياً على دعم الشيخ بشارة، ويستندون في هذا الاعتقاد إلى كلام قاله سبيرس لهللو جاء فيه: «إذا لم نتمكن من الاتفاق على إيصال بشارة الخوري إلى الرئاسة، فإن مرشحي سيكون كميل شمعون. في الحقيقة، أقول إن سبيرس لم يكن يفكر في شمعون أبداً. كان مئة بالمئة مع الشيخ بشارة، لكنه طرح اسم شمعون للمناورة من أجل الوصول إلى تأكيد وصول الشيخ بشارة، فسبيرس لا يجهل أبداً أن الفرنسيين لا يريدون أن يروا شمعون رئيساً للبلاد، لأنه ينتهج بوضوح سياسة قريبة من لندن، وعندما لوح سبيرس باسم كميل شمعون، إنما فعل ذلك من أجل دفع الفرنسيين إلى القبول بأهون المؤيدين لبريطانية!

قلة هم الذين أدركوا حقيقة المناورة يومها. حتى كبار الساسة، فإنهم انجرفوا مع التقديرات، ومنهم هللو نفسه وهنري فرعون ... الرئيس شمعون أيضاً، وأيضاً يجب أن يقول حتى الآن «في العام 1943 نمت ذات مساء وأنا رئيس للجمهورية» بالنسبة إليّ أستطيع أن أؤكد وبحزم، أن إدوار سبيرس لم يكن ينوي أبداً التخلي عن دعم الشيخ بشارة. والدليل على ذلك أن التهديد البريطاني قد نجح، فذهب الفرنسيون إلى الشيخ بشارة الذي استقبلهم برفقة موسى مبارك. وفي هذا اللقاء أكد له الفرنسيون أنه مرشحهم للرئاسة الأولى!

مصطفى كمال:
من حلب إلى الأناضول

كيف يمكن أن تكتب سيرة مصطفى كمال، أو كمال أتاتورك، أو الغازي كمال، أو بكل بساطة، «أتاتورك»، أب تركية؟ ثمة مداخل كثيرة إلى حياة الرجل الذي انقسم العرب حوله ولا يزالون، الرجل الذي انقسم حوله العالم ولايزال، والرجل الذي انقسمت حوله تركية ولا تزال.

لكن في الشرق، بلاد الأقدار الكبيرة، تبدأ سيرة مصطفى كمال الحقيقية، وفي الشرق أيضاً سوف يضع الرجل خاتمة الإمبراطورية التركية، ويقلص هذه المساحات العثمانية الشاسعة إلى دولة عادية، نصفها في أوروبة ونصفها في آسية. بل هي، تركية، سوف تفقد كل شيء، لكنها ستظل تملك ذلك النجاح التاريخي الذي لم يستطع أن يجردها منه أحد: إنها البوابة البحرية التي يمر تحت قناطرها الشرق والغرب معاً.

لقد دخل مصطفى كمال، الرجل الذي سوف يصبح الأكثر أهمية بين «جنرالات الشرق»، دخل الجيش ضابطاً صغيراً وهو يحلم بانتصار الإمبراطورية، لكن ها هي الإمبراطورية الهرمة تتكاثر عليها الحروب والثورات، ويدب فيها الوهن الاقتصادي، فتبدأ بالانهيار.

وإذ أخذت الحرب العالمية الأولى تسير نحو ذروتها، كانت تركية تعتمد أكثر فأكثر على العامود الفقري في الإمبراطورية، أي العالم العربي، من سواحل المتوسط السوري إلى سواحل البحر الأحمر. لكن هنا أيضاً، في قلب العالم العربي، سوف تكتب خاتمة الاستعمار التركي. وفيما الحرب العالمية تتأجج، تلَّفت الأتراك حولهم، فرأوا مكة المكرمة تشتعل، والخيول العربية تصهل من دون استراحة. وفي العام 1917 فقد الأتراك بغداد، فهب الزعيم التركي أنور باشا يطلب المساعدة من حليفه الألماني الأول المارشال «ليمان فون ساندرز». لكن فون ساندرز كان دقيق المعرفة بأحوال المنطقة

ووضع الجيش التركي، فحذر من القيام بهجوم معاكس لاستعادة بغداد. لكن القرار كان قد اتُّخذ. وسار الجنود الأتراك والألمان جنباً إلى جنب نحو عاصمة العراق، في كتائب عرفت «بجيش الصاعقة»، بقيادة الجنرال فالكنهايم. وفي تلك الفترة استدعي مصطفى كمال من جبهة القفقاز، وسُلِّم قيادة إحدى كتائب ذلك الجيش، وكانت متمركزة قرب حلب.

ويشاء سوء حظ الأتراك والألمان معاً أن تدب الفوضى بين الفريقين. فقد تذمر قائد البعثة الألمانية من المعاملة التي لقيها من الأتراك. أما مصطفى كمال الذي أنشأ علاقة ممتازة مع ليمان فون ساندرز، فإنه سرعان ما تشاجر مع فالكنهايم، وإذ زاد الخلاف بين القادة العسكريين، عرف أتاتورك أن الجيش مقبل على كارثة، كما عرف شيئاً آخر: إنه الرجل الوحيد القادر على التمرد على هذا الوضع، حتى لو أدى ذلك إلى إحالته إلى المحاكمة العسكرية! وهكذا استقال من قيادة حلب، ورفض المشاركة في «المغامرة»، غير أن القيادة العليا لم تلجأ إلى المحاكمة، بل أمرت بدلاً من ذلك بإعادته إلى جبهة القفقاز. وحاول ضباطه إقناعه بالعدول عن موقفه العنيد، لكن دون جدوى. وخشيت القيادة السياسية في إسطنبول أن تكون هناك مضاعفات كثيرة لما حدث، فقررت أن تغلق المسألة بإعطاء أتاتورك إجازة مرضية غير محدودة.

وهكذا وجد العسكري المتمرد نفسه في حلب من دون أي مال على الإطلاق. وصحيح أنه كان يملك مجموعة من الخيول العربية الرائعة، لكن من كانت لديه القدرة على شراء مثل هذه الخيول في تلك الأيام. وراح مصطفى كمال، الفارغ الجيوب، المليء باليأس.. و.. الأحلام يفكر في حل ما. وفجأة هب إلى مساعدته، لسبب ما، صديقه القديم جمال باشا فأعطاه مبلغ خمسة آلاف ليرة ثمناً لعشرة خيول! لقد أصبح باستطاعته الآن أن يعود إلى إسطنبول.

في المدينة القلقة لم يلق مصطفى كمال الاستقبال الذي كان يحلم به، بل الاستقبال الذي كان يخشاه. ولعل أكثر الناس غضباً عليه كانت زبيدة هانم، التي أساءها أن يتمرد ابنها على الجميع، وأن يحول كل رؤسائه إلى أعداء، وأن يدمر حياته العسكرية. واستغلت زينب هانم المناسبة لكي تؤنبه كما كانت تفعل يوم كان طفلاً. ولم يستطع

طبعاً أن يجيب، ولا أن يدافع عن نفسه، فقد تمرد بادئ الأمر على السلطان، وها هو الآن يتمرد على الهيئة الحربية العليا. لا، زبيدة هانم لا تتحمل هذا كله.

غير أن مصطفى كمال كان دائماً أكثر سعادة حين يكون وحيداً. فقد كانت محيطات وبحار تفصله عن أفكار أمه. وعندما حاولت بقية العائلة أن تفرض عليه إرادتها أيضاً، خطر له أنه لا بد من وضع حد لكل هذه الأمور، فالرجل كان قد اتخذ قراره الكبير ولن يعود عن الطريق التي رسمها لنفسه. وبما أنه لم يكن يريد أن يؤذي شعور أمه بمناقضتها، فقد قرر أن الحل الأفضل هو أن يترك البيت. وهكذا انتقل إلى غرفة في أحد الفنادق، وراح يتأمل في مصيره... وفي مصير تركية! وفي غضون ذلك حدث ما توقعه هو وليمان فون ساندرز، إذ أخفقت الحملة لاستعادة بغداد: المناخ الصحراوي الصعب، والإهمال الشديد لخطوط المواصلات، وصعوبة وصول المؤن... هدمت كل شيء. ومرة أخرى سقطت أرواح، كان في الإمكان تجنب سقوطها، ومرة أخرى تلقى الأتراك وحلفاؤهم هزيمة كانوا في غنى عنها.

وفي خريف 1917 استعاد الإنكليز المبادرة الهجومية في فلسطين. ودارت حول غزة معركة طاحنة، انتهت بهزيمة الإنكليز (راجع الفصل عن اللنبي)، غير أن الانهيار خلف الجبهة التركية كان يزداد سوءاً: لقد انضمت فلسطين وسورية إلى الثورة العربية.

حل ربيع 1918

وفي إسطنبول صدرت الأوامر إلى مصطفى كمال لكي ينضم إلى حاشية وريث العرش، الذي كان على وشك القيام بزيارة إلى المقر الألماني الإمبراطوري، وشعر مصطفى كمال بفرح داخلي شديد: إنها الفرصة المثلى لكي يتعرف عن قرب إلى السلطان المقبل! لكن اللقاء الأول بين الأمير محمد وحيد الدين ومصطفى كمال لم يكن ودياً تماماً. غير أنه ما إن قطع القطار مسافة قصيرة وأصبحت إسطنبول بعيدة خلفهما، حتى خلع الأمير قناعه، وتحول الرجل الناعس العابس إلى رجل مليء

بالحيوية. ولم تمض دقائق على المحادثة بين الرجلين، حتى كان مصطفى كمال يكتشف أنه أمام واحد من أكثر الناس ذكاء. أما الأمير نفسه فشعر أيضاً أنه أمام رجل مقبل على دور كبير، فراح يعامله بكل كياسة واحترام.

هل كان الاثنان يعرفان ـ وهما يجلسان في المقصورة وجهاً لوجه ـ أنهما سوف يصبحان ذات يوم من ألدّ الأعداء؟ هل كان الأمير وحيد الدين يعرف أن مصطفى كمال نفسه سوف يطرده من بلاده ذات يوم متهماً بالخيانة؟

كان مصطفى كمال في تلك المرحلة قد فقد كل أمل في النصر، وكان قد اقتنع أنه لم يعد بإمكان ألمانية أن تقدم لتركية أي مساعدة مجدية، لأنها سوف تنهمك في حل مشاكلها الخاصة. وعندما وصل الموكب إلى المقر الألماني في «سبا» كان الجو مكهرباً منذ البداية. فالقيصر الألماني تذمر بوضوح من كثرة الأسئلة والشكوك التي طرحها الجنرال التركي مصطفى كمال، وزاد من تضايقه شعوره بأن هذا الجنرال قد ترك تأثيراً كبيراً في ولي العهد، وزرع في نفسه الشكوك ذاتها.

كان على مصطفى كمال أن يختار بين أمرين: إما أن يواجه واقعاً مريراً وهو أن الإمبراطورية تحولت إلى خرائب، وإما... أن يتعامى عن الأمر، لكنه لم يكن من النوع الذي يستطيع أن يتجاهل ما يحدث حوله. وها هو يتيقن الآن أن طموحات أنور باشا السياسية قد أفقدت تركية كل شيء، بما في ذلك خيرة الرجال.

كان هناك أمل واحد الآن، وهو أن تحقق ألمانية انتصاراً كلياً مطلقاً على الجبهة الغربية. وكان أنور باشا واثقاً من إمكانية مثل هذا الانتصار، أما مصطفى كمال فلا. وهكذا راح يطرح على القيصر أسئلة دقيقة ومزعجة... لكنها بقيت دون جواب.. وشعر بالحاجة إلى رجل يوحي بالثقة، فوجد قربه المارشال هندنبورغ! وبعد العشاء في تلك الليلة نظر أتاتورك إلى الماريشال وقال له «إنك تستعد يا سيدي المارشال للقيام بهجوم جديد، فهل تستطيع أن تقول لي ما هو الهدف الذي يمكن أن تحققه منه؟».

ونظر المارشال إلى الجنرال الشاب نظرة قال فيها كل شيء، لكن في الحقيقة من دون أن يتفوه بكلمة، بل بدلاً من ذلك مد يده إلى الطاولة المجاورة وقال «هل لك بسيجار يا صاحب السعادة، أم أنك تفضل السيجارة»؟

ومد مصطفى كمال يده إلى علبة السجائر، ثم صمت. لقد عرف أنه لن يستطيع الحصول على المعلومات التي يريدها!

كان الارهاق العقلي قد بدأ يؤثر صحياً في مصطفى كمال، وقد أصيب بعارض في الكلى، دخل على إثره إلى المستشفى في فيينا، ثم ذهب لمزيد من المعالجة في كارلزباد.

كان ذلك في تموز/يوليو 1918

وفي هذه الفترة مات السلطان محمد الخامس، وأصبح وحيد الدين سيد الإمبراطورية، وعمد السلطان الجديد فوراً إلى تقليص صلاحيات أنور باشا. وسارع مصطفى كمال للعودة إلى إسطنبول، حيث قابل السلطان الجديد، وحثه بكل حماس على اتباع سياسة جديدة. لكن الفارق كان كبيراً بين هدوء السلطان ،وثورية مصطفى كمال. هذا يريد تحقيق الأشياء بالوسائل الديبلوماسية، وذاك يريد كل شيء أن يتحقق الآن. وراح مصطفى كمال يتدخل في شؤون الوزارات، كل بمفردها، حتى ضاق به الجميع، واتخذت إسطنبول قراراً جماعياً شبه سري بإبعاده عن المدينة بأي ثمن.

ورأى أنور باشا الفرصة سانحة مرة أخرى للتخلص من مصطفى كمال: إذاً، يرسله إلى جبهة فلسطين، حيث تبدلت الأمور هناك بصورة جذرية. فقد وصل إلى المنطقة أحد أشهر قادة الإنكليز في ذلك الوقت، الجنرال اللنبي، وأخذ يعد العدة للقيام بحملة ضخمة، بعدما وضع في تصرفه كل ما يريد من رجال وعتاد. أما الجبهة التركية فكانت هزيلة وقائمة على الورق فقط. فالحقيقة أنها كانت تتألف فقط من فرق ضربها المرض والمجاعة، ودب فيها اليأس والقنوط، لأن القوات التركية رمت بثقلها الحقيقي في بلاد القفقاز من أجل احتلال تركستان وإيران والهند، وتجاهلت أن الإنكليز كانوا يعدون العدة في جنوب فلسطين من أجل توجيه الضربة القاضية في الوقت المناسب.

وحتى في كانون الأول/ديسمبر من العام السابق، حين حصلت تلك اللحظة التاريخية، وسقطت القدس في يد اللنبي، لم يبدُ أن أنور باشا أعار المسألة الكثير مما تستحق من اهتمام أو حتى من حزن!

وكان حاكم سورية وفلسطين في ذلك الوقت صديق مصطفى كمال الأقرب، أي جمال باشا (الجزار)، الذي كان يعيش في دمشق في قصر من الرخام ويعقد المجالس حوله مثل ملك، وكان يتذمر كلما دعت الضرورة لأن يقوم برحلة إلى «الجبهة». والواقع أن الزيارات إلى الجبهة أخذت تصبح أكثر خطورة. وذات مرة توقف قطار جمال باشا فجأة في محطة صغيرة في قلب الصحراء، ونزل جنوده فوراً لكي يردوا الثوار العرب المهاجمين، لكن الجزار أيقن تماماً آنذاك مدى التدهور الحاصل على الأرض.

وأكثر من ذلك فإن جمال باشا كان يعرف أنه من المستحيل تحقيق أي انتصار بمثل هذا الجيش المريض، الذي أصيب أكثر أفراده بالسل. وهكذا ألغى زيارته إلى الجبهة، وعاد إلى دمشق، إلى بلاطه!

في تلك المرحلة، كان مصطفى كمال في فيينا، لكن طيفه كان يؤرق أنور باشا، نائب القائد العام. وأراد أنور باشا «التخلص» من غريمه الآخر ليمان فون ساندرز، فعرض عليه قيادة الجبهة فرفض الجنرال الألماني. وعندها أبرق أنور باشا إلى القيصر يطلعه على الأمر، فأرسل هذا بدوره أمراً عسكرياً إلى فون ساندرز بقبول القيادة. عندها لم يسع الجنرال إلا القبول وبدأ فوراً الإعداد، ما استطاع، لمواجهة إحدى أكبر الكوارث العسكرية في التاريخ.

كان العسكر الأتراك يفرون بالمئات. وكان من المستحيل أحياناً كثيرة العثور على عتاد أو مؤن. لكن على الرغم من كل شيء، استطاع ليمان فون ساندرز أن يصد هجمات الإنكليز الذين كانوا يفوقونه عدداً بعشرة أضعاف، بل وأن يرغمهم ذات مرة على الانسحاب حتى القدس. وهكذا اضطر اللنبي إلى أن يطلب من قيادته المزيد من الرجال والطائرات والدبابات والمصفحات، وبدأ في 19 أيلول/سبتمبر الهجوم التالي.

ورأى ليمان فون ساندرز نفسه مرغماً على الانتظار من دون حراك. وها هو أنور باشا يخلف وعده مرة أخرى فلا يرسل إليه مؤناً غذائية أو عتاداً أو جنوداً إضافيين أو أدوية أو أطباء. وقد عزلت القوات التركية في سورية تماماً عن بقية العالم، وتركت تدافع عن نفسها ما تستطيع ضد الجنود الإنكليز والثوار العرب.

كانت ظروف القتال مرعبة بالنسبة إلى الأتراك. إذ بالإضافة إلى كل ما ذكرنا، فقد كان مستحيلاً عليهم نقل الأوامر من فرقة إلى أخرى، بسبب معاداة المواطنين لهم، وكان حاملو الأوامر والعداؤون يختفون دون أثر في الكمائن التي ينصبها لهم العرب، وكانت خطوط الهاتف تقطع، والجسور تدمر، بعد ساعات من إصلاحها.

لذلك كان لا بد من قائد جديد للجيش السابع. وكان مصطفى كمال قد عاد آنذاك لتوه إلى إسطنبول، وبدأ يثير أعصاب الوزراء. ووجد أنور باشا الفرصة مناسبة، فأصدر مرسوماً بتعيين مصطفى كمال قائدا للجيش السابع، يتلقى أوامره من السلطان مباشرة. وعندما دخل مصطفى كمال إلى صالة الانتظار في مكتب السلطان رأى أنور باشا يبتسم بسخرية، فقال له «أهنئك يا صديقي. لقد رتبت كل شيء كما تشاء».

عندما وصل مصطفى كمال إلى سورية، ورأى حالة «الجيش» السابع، أصيب بأول انهيار عصبي في حياته! وراح، من فراشه، يصدر الأوامر إلى هذه البقايا الإنسانية التي كانت تشكل ذات يوم جيشاً شجاعاً. وساءت الأمور أكثر عندما وصلت «التعزيزات» التي أرسلها أنور من القفقاز، وكانت عبارة عن صبية في الخامسة عشرة من العمر، لا يفرقون بين الجندية واللهو.

وعشية الهجوم الكبير الذي كان اللنبي ينوي القيام به، نهض مصطفى كمال من فراشه. لكن أنور باشا سحب فوراً «فرقة البنادق» التي كانت آخر فرقة يعتمد عليها ليمان فون ساندرز، الذي كان آنذاك في الناصرة يفاخر بأنه لايزال يملك قواه العقلية.

في 19 أيلول/سبتمبر 1918 كان وادي الأردن مسرحاً لأكثر المعارك دموية وضحايا. فقد نزل الإنكليز بكل قواهم على بقايا الجيش التركي، فيما فرت فرق بكاملها دون أن يدري أحد متى وإلى أين. وانقطع الاتصال بين فون ساندرز وبين الآخرين ، وكان العداؤون الأتراك الذين يحملون الأوامر السرية يسقطون الواحد بعد الأخر بأيدي الثوار العرب.

حتى خطوط التراجع سدت كلها، ولم يبق هناك سوى طريق واحدة عبر وادي الإسكندرون، فراحت القوات التركية تتدافع عبر صخوره وطرقاته الوعرة، تدفعها فكرة واحدة: الخروج من الجحيم، والإعداد لمعركة دمشق.

غير أن اللنبي لم يكن يريد للجيش التركي في فلسطين أي شيء، حتى الفرار، وهكذا راح يقصف القوات المتعبة والمصابة من الجو. وسرعان ما تجمعت فوق الجنود المنسحبين أسراب من الطائرات التي راحت تئز وتقصف فتتكوم تحتها الدماء في الوادي الضيق. لم يكن هناك مفر من تلك المذبحة التي استمرت أربع ساعات. فقد كان كل سرب يفرغ حمولته من القنابل، ثم يعود ليتزود بحمولة أخرى، فيما سرب آخر يفرغ حمولته بدوره.

ويصف الكاتب الألماني هانز فيرومبغن ذلك المشهد بقوله: «... وشيئاً فشيئاً عاد الهدوء يسيطر في الجو وعلى الأرض، فقد اختفى الطيارون أخيراً، لتحل محلهم النسور التي أخذت تحوم فوق الممر ثم تنقض على الجثث. لقد أنجز رجال اللنبي مهمتهم! الانتقام الرهيب من مجزرة غاليبولي».

وفي غضون ذلك كان الكولونيل لورانس (لورانس العرب) ومن معه من الرجال يتفقد بقايا المعارك وهو يبتسم. لكنه لم يستطع إلا أن يتوقف باحترام أمام بقايا «فيلق آسية» الألماني. وقد كتب في مذكراته بعد ذلك «لقد كانوا هناك، على بعد ألفي ميل من وطنهم، ومن دون أمل في أرض غريبة بعيدة، وفي حالة تحطم أكثر الأعصاب قوة. وعلى الرغم من ذلك بقيت وحداتهم صامدة ثابتة، تشق طريقها بهدوء وصمت عبر بحار من العرب والأتراك، والجنود يرفعون رؤوسهم إلى أعلى. وكانوا إذا ما هوجموا توقفوا واتخذوا مواقع لأنفسهم وردوا على النار. لم يكن هناك استعجال. ولا صراخ، ولا تردد. كانوا رائعين».

عند حدود سورية الشمالية، أوقف مصطفى كمال تراجع الزمر العسكرية المشتتة، وأعاد تشكيلها في مواقع قرب حلب. واستطاع الرجل بقوته وحيويته أن يعيد الحياة والنظام إلى الجيش المهزوم ويركزه في موضع الدفاع عن المدينة.

لكن حلب نفسها كانت في حالة من الثورة والغليان ضد الأتراك، ولذا كان عليه أن يسحب خطوط الجبهة أكثر إلى الوراء، فحددها عند سلسلة الجبال على حدود الأناضول. وأصدر أمراً يومياً قال فيه: إن العدو لن يتخطى هذا الخط.

غير أنه في غضون ذلك وصلت أوامر عليا من إسطنبول تقول: ارموا السلاح! ذلك أن بلغارية كانت قد استسلمت للحلفاء الغربيين. وكان الفرنسيون يتقدمون من مقدونية نحو إسطنبول وقد أصبحوا على مسيرة أيام منها!

لكن هذا الأمر لم يَرُقْ للبريطانيين كما يقول لنا فروميغن: هل من الممكن للإنكليز أن يتصوروا الفرنسيين وقد سيطروا على مضائق الدردنيل؟ وأصدر الإنكليز الأوامر إلى أسطولهم قرب الجزر اليونانية بالاستعداد للإبحار. أما أنور باشا فقرر أن يضع كل أوراقه في سلة واحدة، وهكذا جمع ما تبقى من وحدات، ووضعها في مقاومة الزحف الفرنسي. «لكنه فعل ذلك متأخراً فقد كانت الأصوات تتعالى من كل مكان في إسطنبول مطالبة بالاستسلام، وبصورة مفاجئة أيضاً خرج السلطان وحيد الدين عن تحفظه لكي يتسلم بنفسه زمام الأمور. وكان أول ما فعله هو المباشرة في اعتقال كل من وقعت عليه يداه من رجال «تركية الفتاة». وكان أول الهاربين أنور باشا الذي نهبت سيارته الحمراء المكشوفة شوارع إسطنبول نهبا، في الطريق إلى... ألمانية! وأقام السلطان محمد السادس وحيد الدين حكماً ديكتاتورياً حديدياً في البلاد.

وذات يوم تلقى السلطان برقية مطولة من الجنرال مصطفى كمال باشا، وفي البرقية اقتراحات كثيرة، بينها اقتراح بتأليف حكومة جديدة يكون هو ـ مصطفى كمال باشا ـ وزيراً للحربية! وشعر وحيد الدين في قرارة نفسه أنه ليس هناك من هو أفضل من مصطفى كمال لمثل هذا المنصب، لكن في الوقت نفسه كان يعرف أن مثل هذا القرار، في مثل هذا الوقت، لن يكون قراراً حكيماً، فهو من ناحية يطلب من الإنكليز المهادنة والسلام، ومن ناحية أخرى يعرف أنهم يكرهون مصطفى كمال مثل السم، خصوصاً أن اسمه مرتبط بهزيمتهم في غاليبولي.

لا. لن يعينه وزيراً للحربية، لكن في الوقت نفسه لن يقول له ذلك دفعة واحدة، بل سوف يستخدم السلطان كالعادة، حنكته في معالجة الموضوع، إذاً، لا وزارة، لكن أيضاً

لن يخرج مصطفى كمال خالي اليدين من لدن السلطان، ولذا سوف يعينه قائداً لجيش سورية كله، خلفاً للمارشال ليمان فون ساندرز.

بعد أيام تمت عملية التسلم والتسليم في اخنة، في قلب الأناضول، وقال فون ساندرز وهو يؤدي التحية العسكرية «إنني أجد عزاءً واحداً في سوء حظي، وهو أنك الرجل الذي سيخلفني». ومضى القطار بطيئاً بالقائد الألماني، فيما ظل مصطفى كمال وحيداً مع نفسه يتساءل: ما هي الخطوة الآتية؟

• • •

ذلك النهار سمعت أصوات الأبواق الفرنسية والجنود يعبرون «القرن الذهبي» على ذلك الجسر الضيق بين إسطنبول «وغالاتا» و«بيرا». وكاد جسر «غالاتا» الشهير ينوء تحت حمل الكتائب الفرنسية الثقيلة. والحقيقة أن الإنكليز تدبروا الأمر بحيث لا يدخل الفرنسيون إلى المدينة «كفاتحين»، لكنهم دخلوها كمنتصرين في أي حال، وقد خلع الفرنسيون بزاتهم الرثة خلفهم في مقدونية، وها هم يصلون إلى مدينة العجائب في بزات زرقاء فاهية، يشعرون بالزهو فوق هذا الجسر، الذي عبرت عليه ألوف الناس والخلائق منذ زمن طويل. وكانت منطقة الجسر هي الوجه الشعبي للمدينة: هناك يتجمع التجار الصغار من أرمن وأكراد وأتراك ويونانيين، وتزدحم العباءات النسائية السوداء، وتعلو الطرابيش الرفيعة، ويكثر قارئو البخت والحواة والدراويش!

لكن خلال الحرب كان لجسر غالاتا صورة أخرى، صورة السيارات المسرعة تحمل ضباط الحرب والمسؤولين، أما الآن فالصورة القديمة أخذت تعود، مضافاً إليها الضيوف الجدد: الجنود الفرنسيون! ولم ينس التجار أن هؤلاء أمضوا أربع سنوات في القتال، بعيدين عن كل شيء.

واتجهت طوابير الفرنسيين نحو غالاتا وبيرا. وفجأة انتصبت أمامها أقواس النصر، وعلت الزينة جميع الشرفات، وارتفعت هتافات تقول: فيف لافرانس. فلتحيَ فرنسة.

وعند كل زاوية استقبل الفرنسيون بحماس وعطف. ولم يكن قائد الحملة الجنرال فرنشيه داسبراي يحلم بمثل هذا الاستقبال، ربما حتى في باريس. لكن على الجانب

الآخر من جسر غالاتا، كانت الشوارع فارغة والمخازن مغلقة. حتى النوافير في ساحات المساجد انضمت إلى الصمت، فجفت إسطنبول من المياه.

واختفى من أمام المنازل الشرقية القديمة أولئك الحرفيون الماهرون، ولم يبق أثر لصانعي الفخار، وحائكي السجاد، والخياطين الذين جعلوا من الشوارع طوال مئات السنين مخازن لهم. لم يكن هناك أحد. لم يكونوا أمام الجدران وورائها. حتى «البازار» ذلك السوق الكبير كان صامتاً بمخازنه التي تزيد على ثلاثة آلاف، وشوارعه التي تزيد على الثلاثين، وحيث تموج في الأيام العادية بمئات البشر، ودخان النراجيل يغطي الأجواء.

كان كل شيء صامتاً.

وفي صمت أيضاً كان جامع أيا صوفيا يرتفع فوق رؤوس المنازل الممتدة حتى المياه، وفيما كانت «بيرا» تشع بالضوء سقطت إسطنبول في الظلمة، ومن وراء نوافذ القصور الفخمة كان يمكن رؤية ظلال الراقصين والراقصات احتفالاً «بالمحررين» الجدد، وكانت تسمع آخر الأنغام الآتية من باريس. أما الميناء نفسها فكانت هادئة تعج بالسفن الإنكليزية الراسية في البوسفور.

كان الجو جو مفاوضات. وعلى جسر «غالاتا» وقف جنديان تركيان يتحدثان وهما ينظران إلى المياه تحتهما. قال الأول: «هل سمعت شيئاً حتى الآن عن المفاوضات؟ عن السلام؟».

أجاب الآخر «إن لدى المنتصر الكثير من الوقت يا صديقي. وقبل أي شيء يجب أن يخنقوا ألمانية وبعدها يأتي دورنا».

ـ ماذا حدث «لفيلق آسية الألماني؟ أين هو ليمان فون ساندرز؟»

ـ *«إنهم يطلبون استسلام الألمان»

ـ تلك سوف تكون القشة الأخيرة».

ـ *«فليفعلوا بنا ما يشاؤون لكن ليرفعوا أيديهم عن ضيوفنا ورفاقنا في السلاح. نحن لسنا أوغاداً. لقد قيل لي إن المارشال ليمان في كاديكوي، وإن الوحدات الألمانية تتشكل هناك».

ـ «ترى هل ذهب كل شيء سدى؟ هل هكذا ذهبت كل هذه الدماء التي أهرقت»؟

ـ *«ماذا حدث للرجال الذين أوصلونا إلى هذه الحالة. الرجال الذين كنا نظن أنهم عظماء».

ـ «لقد هربوا جميعاً. وقد فر أنور ورفعت إلى ألمانية، وحوكما هناك، وحكما عليهما بالإعدام إرضاء للإنكليز».

ـ *«وأين هو مصطفى كمال؟»

ـ إنك إذا ذهبت إلى بلدة شيشلي تجد هناك بيتاً ريفياً صغيراً. وتلقى في استقبالك جنرالاً غير عامل، إنساناً عادياً، فرداً عادياً لا يريده أحد. إن مصطفى كمال من أولئك الرجال الذين نفضل أن نخبئهم لأنهم هزموا الإنكليز. لا يا صديقي إسطنبول ليست أفضل مكان للجندي».

ـ* إنهم بحاجة إلى عسكر في جنوب روسية. إن رانغلر ينوي القيام بحملة ضد البلاشفة!

ـ هل تعني أن نبيع أنفسنا كمرتزقة؟

ـ *«طبعاً لا. لكن لم يعد لنا مكان هنا. إن البلاد كلها مليئة بالأعداء».

«هس. إن رغبة صاحب الجلالة هي أن نسمي الإنكليز أصدقاءنا».

ـ *«لم يعد هناك ما نستطيع أن نفعله. لقد انتهت الإمبراطورية العثمانية ودمرت، وقريباً سوف ينقرض العنصر العثماني من الجوع في جبال الأناضول».

على مسافة غير بعيدة من الجسر وفي إحدى القاعات الفخمة من قصر «سيراغليو»، كان رجل طويل نحيل القامة يعتمر طربوشاً داكناً، هو الداماد فريد

صهر السلطان. وكان الداماد يتحدث والسلطان يتظاهر بأنه لا يسمع. وأخيراً قال له فريد باشا: «وفي النهاية أحب أن أبلغك أن جميع المرافئ في آسية الصغرى وعلى البحر الأسود وفي المتوسط قد حاصرها الحلفاء واستولوا عليها. وبالإضافة إلى ذلك فإن محطات السكك الحديدية في الأناضول قد احتلت، وإن صاحب السمو الوزير الكبير عزت باشا يرى في ذلك خرقاً لشروط الهدنة».

ورشق السلطان الداماد بنظرة سامة وقال «دان عزت باشا سوف يستقيل. إنه لم يعد يتمتع بثقتنا، وإنني آمل في تعيين صهري العزيز مكانه في وقت قريب».

وانحنى الداماد فريد طائعا ثم أكمل: «لكن هناك أيضاً مسألة استسلام القوات الألمانية يا صاحب الجلالة».

وقفز السلطان من مقعده: «ليس هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تفرض علينا أن نخرق أصول الضيافة».

وقال الداماد: «لكن المفوضين السامين يصرون على ذلك».

فعاد السلطان يقول: «إياك أن تتفوه بكلمة واحدة حول هذا الموضوع بعد الآن».

ونظر وحيد الدين إلى النقوش الذهبية حوله، وفي المساند الدمشقية التي يتكئ عليها ثم قال للداماد: «إن العالم كله يتكسر، والتيجان تتدحرج. وها نحن نفقد شبه الجزيرة العربية وسورية، وهما أكبر من نصف الإمبراطورية. الخزائن فارغة، والديون تتراكم، ونحن نواجه مستقبلاً مجهولاً. إن ثمة شيئاً واحداً يمكن أن ينقذ تاج بني عثمان، هو نوايا الإنكليز الحسنة.

وبدا أن الداماد فريد قد شعر بالانتعاش لدى سماعه هذا الكلام.

«إن إنكلترة ذات المقام السامي دولة ذات قلب كبير. وإذا ما أظهرنا نوايا حسنةً من جانبنا فإن الإنكليز سوف يحسنون معاملتنا. وهم يعرفون في لندن أن اللوم لا يقع علينا في المآسي الأخيرة». لكن السلطان كان أكثر حزماً: «لن تعلو إرادة فوق إرادتنا. وإذا قدر لإسطنبول أن تصبح غابة من المشانق فليكن ذلك، لأن أصدقاءنا الإنكليز سيعرفون آنذاك أننا جديون، وسوف يكون من المستحسن أن ينضم خدمنا

(ري يانا) إلى جمعية أصدقاء إنكلترة. إننا واقعون في أيدي المنتصرين. وان أي مواطن يستفزهم هو خائن ومتمرد وعدو للخليفة ـ السلطان.

ومضى السلطان يقول وهو يعد حبات سبحته «حافظوا على العرش. حافظوا على العرش».

• • •

... لكن كان هناك من بدأ يستعد للاستيلاء على ذلك العرش. وكان ثمة رجال يحيطون بمصطفى كمال مثل ظله: «الأول عقيد مرهوب الجانب يدعى عارف، والثاني العقيد «عزت» وكان معه في سورية، والثالث هو فوزي باشا رئيس الأركان وأحد أشهر ضباط الجيش.

وكان هؤلاء يجتمعون كل ليلة تقريباً في منزل مصطفى كمال في «شيشلي»، حيث يتحدثون في شيء... ولا يسلم من ألسنتهم أحد. وذات ليلة فيما هم يخرجون من منزل مصطفى كمال إلى شوارع المدينة الخالية قال العقيد عارف ـ وهو ظل أتاتورك ـ للجنرال الذي كان يسير صامتاً: «إنك تخبئ في نفسك شيئاً ما، وإنك تضع متعمداً قناعاً من اللامبالاة، لكننا جميعاً نعرف ذلك ونحاول، أن نحزر عما يدور في خلدك.

إن أصدقاء السلطان يقولون إنك منهم، وأعداؤه يقولون إنك لهم. وأولئك الذين يريدون الأمن والسلام ينتظرون منك أن تتحرك لكي تستولي على السلطة، والآخرون الذين لم يعودوا يضيقون ذرعاً من دون انقلاب، يحلفون هم أيضاً باسم مصطفى كمال. وأنا أقول: إنهم جميعاً أغبياء، لأن الحقيقة هي أنك لا تنتمي إلى أحد منهم، وليس هناك من يعرف حقيقة نواياك. لكنَّ ثمة شيئاً واضحاً بالنسبة إلي، وهو أنك لن تترك الأمور على الحال التي هي فيها اليوم».

ورد مصطفى كمال قائلاً: كيف هي عائشة هذه الأيام؟

وتظاهر العقيد عارف بأنه لم يسمع، ومضى يقول في صوت هادئ: «إلى متى ستستمر الأمور على ما هي عليه، إن علينا القيام بعمل ما، إن لم يكن ضد الحكومة فضد الأجانب وثمة كثيرون سوف يروق لهم أن يقطعوا حناجر جيش الاحتلال كله وأن يشنقوا بعض

أصدقائهم في قصر يلدز على أن يرموا خدم هؤلاء، وفقاً للتقاليد، في غياهب البوسفور. ويجب أن نفعل شيئاً ما. دعنا نشعر مرة أخرى أنا عسكريون. إننا يجب أن نستولي على السلطة ذات يوم، فهل يطيب لك أن يقال إننا تركنا الفرصة تمر».

قطع الاثنان مسافة قصيرة، ثم عادا إلى فيللا الجنرال. وفتح مصطفى كمال الباب وقال لعارف: «ادخل».. وما أن أصبحا في الردهة، حتى راح مصطفى كمال يقول: «إن إقامة إمبراطورية تضم عدة دول لعمل عظيم، لكن لا يمكن لدولة أن تكون قوية حين تكون مؤلفة من عدة شعوب متضاربة المصالح».

بعدها سوف يكمل مصطفى كمال جدياً تلك الطريق الطويلة إلى ذروة السلطة: ليس فقط للقيام «بانقلاب» كما نصحه العقيد عارف، بل من أجل تغيير وجه تركية كله، ولعل قدر تركية، أو قدر الشرق، أن يأتي التغيير من الرياح التي حملها مصطفى كمال معه من سورية ومن سهول «رياق» في البقاع اللبناني.

كان مصطفى كمال، مثل الإسكندر الكبير، مقدونياً، لكنه بعكس الإسكندر يتحدر من عائلة متوسطة الحال، إذ كان والده موظفاً في الجمارك التركية هناك. وقد ذهب الفتى الوسيم إلى المدرسة العسكرية باكراً وهو في الثانية عشرة من العمر قائلاً لأمه، التي سيكون لها تأثير كبير في تكوينه: «لقد ولدت جندياً، وسوف أموت جندياً»، مع أنه مات رجل دولة.

ومنذ أيام سالونيكا في الحقيقة، بدأت مسيرة الرجل إلى السلطة، حين شكل هو ومجموعة من الضباط (بينهم أنور باشا) لجنة عسكرية أرغمت السلطان عبد الحميد على إعادة العمل بالدستور الذي ظل معلقاً نحو ثلاثين عاماً.

- ها هو الآن يؤلف، مع مجموعة أخرى من الضباط، الهيئة التي ستقاوم شروط الهدنة، والخطط التي وضعها الحلفاء لإذلال تركية وتقسيمها، ولم يكن هناك أفضل من بلاد الأناضول مسرحاً لهذه النواة، حيث اختمرت بدايات ريح التمرد.

لكن كيف يمكن لمصطفى كمال الوصول إلى الأناضول؟

الحظ يلعب دوره مرة أخرى! فقد قرر الحلفاء المنتصرون أنه من أجل إخماد شعلة التمرد في الأناضول، لا بد من الاستعانة بضابط تركي. ولا بد لمثل هذا الضابط أن يكون شابا. ولا بد إذاً أن يكون مصطفى كمال نفسه. وغادر مصطفى كمال إسطنبول إلى الأناضول وهو يشعر «مثل عصفور فتحت أبواب قفصه». وقبل أن يبحر بقليل، أبلغ أن قوة يونانية قد احتلت منطقة «سميرنا»، بناء على إلحاح المجلس الأعلى المنبثق عن مؤتمر السلام الدولي في باريس. ساعد ذلك أكثر على إثارة حمية الأتراك. وأخيراً رست سفينته في مدينة «سمسون» على ساحل البحر الأسود في 19 أيار/مايو 1919، وما أن وطئت قدماه الأرض حتى كانت الثورة «الكمالية» تنطلق.

فقد وقع الكماليون «إعلان الاستقلال» في جبال أماسيا. وعقد مؤتمر وطني آخر في «أريزوم» عاصمة شرق تركية، حيث تم وضع ميثاق وطني يصر على الحفاظ على «حدود تركية الأمنية» الحالية ولو بالقوة. وأعقب ذلك أيضاً تأليف «لجنة تمثيلية» أصبحت في الواقع أول حكومة ثورية. إذ باسم هذه اللجنة أعلن مصطفى كمال قطع العلاقات مع حكومة السلطان، التي ما لبثت أن استقالت بعد تردد وجيز. وأدى ذلك إلى انتخابات جديدة فاز خلالها الكماليون بأكثرية المجلس، لكن هذا البرلمان لم يعش أكثر من شهرين حيث اقتحمته قوات الحلفاء وأمرت بحله. حينذاك أقام مصطفى كمال برلمانه الخاص فوراً في أنقرة، وأسماه: الجمعية الوطنية العليا، التي أصبحت برئاسته مصدر السلطة السياسية العليا في تحرير تركية.

ومرة أخرى لعبت «العسكرية» دورها في حياة تركية، فقد شن السلطان بمعاونة جيش من اللانظاميين حرباً أهلية ضد القوى الوطنية. ولكي لا يرغم الجيش على مقاتلة مواطنيه، عمد مصطفى كمال وضباطه إلى جمع عدد كبير من المقاتلين اللانظاميين أيضاً، لمواجهة قوات السلطان، كما كانوا حريصين على أن تتحول هذه المجموعات إلى قوة أكبر من الجيش.

لكن في غضون ذلك برزت مشكلة جديدة أمام القوى الوطنية، فقد قرر المجلس الأعلى للقوى الحليفة ما سمي ببنود معاهدة «سيفر»، التي تنص في الواقع على تفكيك الإمبراطورية العثمانية، على أن تتحول تركية إلى مجرد دولة صغيرة تحيط بها مجموعة من الدول الصغيرة ومناطق النفوذ، وعندما أمر الحلفاء القوات اليونانية بالدخول إلى «سميرنا»، بدأت «حرب التحرير» التركية حقاً. وكان اليونانيون أكثر عدداً وأفضل عدة من شراذم الأتراك، ولذا كانوا يأملون بتحقيق انتصار سريع، لكن مصطفى كمال كان من حيث المقدرة الإستراتيجية بمكان. وقد وصف ونستون تشرشل تلك الحملة بقوله «تقدمت الطوابير اليونانية عبر الطرقات الجبلية بأمان، فيما كان الأتراك يفرون بكل ذكاء إلى المناطق الداخلية من الأناضول». وفي تراجع إستراتيجي واقعي وشجاع، ضحى مصطفى كمال بادئ الأمر بعاصمة بني عثمان السابقة، بورما، واستمرت قواته في التراجع حتى منطقة أسكيشهر، حيث استعدت للقيام بحملة معاكسة في الخريف، وفي هذا الوقت خشي الفرنسيون والإيطاليون أيضاً من مغبات السيطرة اليونانية الكاملة على الأناضول، فطلبوا من المجلس الأعلى إظهار بعض «ضبط النفس»، وبالتالي صدرت الأوامر إلى اليونانيين بعدم التقدم أي خطوة أخرى.

واستفاد مصطفى كمال من تراجعه السريع ومن توقف اليونانيين لكي يضع حداً نهائياً لحركات التمرد التي كانت لا تزال قائمة ضده. وفي الوقت نفسه استغل تجمد اليونانيين في منطقة واسعة، فالتقط أنفاسه لكي يعيد تنظيم جيشه، ويقوم بهجوم يحمل فيه اليونانيين على التراجع نحو الساحل. ومن أجل الحصول على ذخيرة وعتاد ومؤن، استخدم مقدرته الديبلوماسية هذه المرة، وأوفد بعثة خاصة إلى روسية السوفياتية. غير أن الروس طلبوا، لقاء هذه المساعدات ، تنازلات مهمة على الحدود في مناطقهم الأرمنية. إلا أن مصطفى كمال رفض الطلب، وأمر قائد قواته في المنطقة الشرقية بالزحف على أرمينية. وفي معركة خاطفة استطاع أن يستعيد «فارس» و«أردهان» إلى حدود تركية الشرقية السابقة. وقد فتح هذا الانتصار الطريق أمام معاهدة موسكو للعام 1921، والتي بموجبها اتفق ستالين ومصطفى كمال على

تسوية المسائل الحدودية بينهما. ونتيجة ذلك بدأ الذهب والمؤن السوفياتية بالتدفق على تركية لمساعدة مصطفى كمال ورفيقه عصمت إينونو في تشكيل جيش حديث.

في هذا الوقت كان اليونانيون قد ضاقوا ذرعاً بدعوة الحلفاء إلى ضبط النفس، وأخذت قواتهم تستعد لتحقيق تقدم جديد عبر سهول الأناضول. وحاولوا بادئ الأمر التقدم تحت شعار الاستطلاع عبر وادي «إينونو»، انطلاقاً من مدينة «بورسة» لكنهم فوجئوا بمقاومة شديدة في الوادي، يقودها عصمت (الذي حمل اسم المعركة فيما بعد). وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا أقل عدداً، فإنهم كانوا أكثر تنظيماً وبأساً واستطاعوا أن يردوا اليونانيين على أعقابهم: هنا سوف يتذوق اليونانيون طعم القوة التركية التي ستظل هاجسهم فيما بعد.

وفي الصيف استأنف اليونانيون بقيادة الملك قسطنطين ـ وهو أول ملك مسيحي يطأ أرض الأناضول منذ الصليبيين ـ الهجوم مجدداً على الأتراك. وهذه المرة خططوا للاستيلاء على أسكيشهر، ليس عبر هجوم مباشر من الغرب، بل بهجوم جانبي من الجنوب، بحيث يحاصرون المدينة ويقطعون اتصالاتها مع أنقرة. وجاء مصطفى كمال من أنقرة على عجل فأمر بإخلاء المدينة فوراً وبانسحاب عام. وقد اختصر تشرشل الوضع بقوله: «لقد حقق اليونانيون نجاحاً استراتيجياً وتكتيكياً. لقد استولوا على الخطوط الحديدية التي يمكن استخدامها في حملة جديدة، لكنهم لم يدمروا الجيش التركي، أو أي جزء منه». فالواقع أن ذلك الجيش ظل يتراجع حتى تجمع على بعد 50 ميلاً من أنقرة، في منطقة نهر «ساكريا»، حيث قرر مصطفى كمال التوقف.

واستصدر مصطفى كمال مرسوماً خاصاً من البرلمان، راح بموجبه يجمع كل ما استطاع من ذخيرة وعتاد من أهل الأناضول. وأمر الناس بأن يسلموا إلى الجيش كل ما هو صالح للاستعمال في الأهداف العسكرية. وفي غضون أيام جمع نحو 40 في المئة مما يحتاجه من الطعام والثياب والوقود، كذلك صادر 10 في المئة من عربات الخيول والثيران و20 في المئة من البغال والخيل والحمير. وأجرى إحصاءً فورياً لجميع مصانع الخناجر والسيوف والحراب، كما أقام مصانع جديدة لهذا الغرض، وأقام في الوقت

نفسه مراكز لإصلاح الأسلحة. بكلام آخر، لقد رأى أن الحرب الشاملة قادمة، ومن أجل ذلك عمد إلى تعبئة السكان جميعاً بمن فيهم النساء. وراحت شحنات الأسلحة والذخيرة تصل إليه من جميع أنحاء الأناضول، مخبأة تحت التبن والعشب، على عربات تجرها الثيران، قاطعة الجبال والوديان والسهول.

لقد كان أمام الأتراك ثلاثة أسابيع فقط للاستعداد من أجل المعركة الحاسمة في «ساكريا»، وهي معركة استمرت 22 ليلة ونهاراً أو هي الأطول في التاريخ بيوم واحد، حسب تعبير مصطفى كمال. ولقد اختار ساحة للمعركة موقعاً دفاعياً ممتازاً على بعد 40 ميلاً من أنقرة، على مقربة من نهر كبير، ويحيط به رافدان بحيث تغمر المياه كل الأراضي المحيطة. وتخلى اليونانيون عن خطتهم الأولية بالمهاجمة من الجنوب، فأقاموا جسورا سريعة وعادوا إلى الهجوم المباشر.. حيث كانت القوات التركية في انتظارهم! ويقال: إن الأتراك حاربوا آنذاك أفضل مما حاربوا في أي وقت مضى.

أمام هذا الواقع أمرت أثينا قواتها بالانسحاب الكامل، تاركة خلفها كما يقول تشرشل، للمرة الأخيرة ذلك الأمل الكبير بأن تقيم لنفسها إمبراطورية في آسية.

الجنرال ساراي:
استدعته باريس بسبب بكركي

لا يمكننا أن نقرأ في سيرة بول موريس عمانوئيل ساراي، من دون أن نقرأ في سيرة سالفيه: غورو وويغان، إنه «فصل» من فصول كثيرة. فصل من حكاية مسلسلة، بدأت يوم تجمع أولئك العسكريون، بكل نجومهم وأحلامهم، وبكل ما خلفهم في أوروبة من أمجاد عسكرية وسياسية في منطقة واحدة من العالم: الشرق!

يومها، كان الغرب لا يزال يخوض معاركه بنفسه على أرض الشرق. وكما تداخلت فصول جنرالات فرنسة أيضاً بعضها ببعض. ومن ثم فإن الجنرال ساراي، لم يكن خلفاً لغورو وويغان فحسب، بل كان نقيضاً لهما أيضاً. إنه الجنرال الذي أخل «بالعلاقة الخاصة» بين فرنسة والموارنة منذ العام 1840 بل منذ «القرن العاشر» كما قال له البطريرك يوسف الحويك في معرض التأنيب! إنه أيضاً الجنرال الذي سعى إلى إرضاء المسلمين في سورية ولبنان، وتعديل تلك الصورة الفرنسية التي رسمها ويغان، لكن ساراي الحريص على مشاعر المسلمين لن يلبث أن يرى زيارة اللورد بلفور إلى دمشق «وسط مشاهد الحزن والإضرابات العامة». وساراي أيضاً هو الذي سيحاول عبثاً قهر جبل الدروز.

وصل بول ساراي إلى ميناء بيروت في كانون الثاني/يناير 1925، وكان بطل معركة «المارن» قد أعيد إلى الخدمة العسكرية، في جلسة خاصة في الجمعية الوطنية، قبل أشهر قليلة. وقبل أن يستقل الباخرة من مرسيلية، وهي الطريق الرئيسة في تلك الأيام، استدعاه رئيس الوزراء المسيو هريو وقال له، كما روي فيما بعد، إن «سلفيكم غورو وويغان أعارا اهتماماً قليلاً جداً لأي كان، سوى الأقلية المسيحية اللاتينية. وقد حان الوقت ـ إذا كان للجمهورية أن تتجنب مفاجآت غير سارة ـ أن نعير بعض الاهتمام للأكثرية المسلمة الضخمة».

لقد أمضى ساراي فترة قلقة في المنطقة، فهو لم يكن يأمن جانب باريس التي بعثت به من جهة، ومن جهة أخرى نحج في الفوز بعداء الجميع في سورية ولبنان، وكانت الحملات ضده في فرنسة تشن بلا هوادة، بحيث إنه أصبح يمضي بقية العمر في الدفاع عن نفسه.

والحقيقة أن ساراي هو نتاج عهد يساري، جاء إلى منطقة غارقة يومها في اليمين. فالمسلمون كانوا في ذروة التدين المربوط أيضاً بالشعور القومي. والمسيحيون كانوا في ذروة التحفظ وقد لقوا في ساراي الماسوني الراديكالي، انفتاحاً على اليهودية واليسار معاً.

كذلك كان ساراي عدوا للأكليركيين، كما يقول لنا يوسف سالم. ومنذ وصوله بدأ في اتخاذ خطوات مثيرة للفرقاء الآخرين، من أكليروس ومدنيين معاً. وقد ناصب ساراي السياسيين السوريين واللبنانيين العداء بمن فيهم الرئيس إميل إده الذي كانت تربطه بفرنسة صداقات عميقة.

قال هريو لمندوبه السامي الجديد إن فرنسة متكلة عليه في «تطبيق روحية الانتداب» وفي تعديل أخطاء أسلافه. ولأن هريو ينتقد بالطبع أسلافه هو أيضاً، رجال «الكتلة الوطنية» الحاكمة في فرنسة. فالجنرال غورو لم يتحدث، حين وصوله إلى دمشق، إلا عن ذكريات الحملة الصليبية، أما الجنرال ويغان فقد خاطب البطريرك الماروني بقوله:

«لقد بدأت مهمتي في هذه اللحظة، عندما نلت البركة من غبطتك».

لكن ساراي كان أكثر حنقاً على غورو منه على ويغان، الذي اعترف له ببعض الحسنات التنظيمية والعدلية. وفي أي حال ها هو إدوارد هريو يوصيه أيضاً بخفض «الميزانيتين العسكرية والمدنية، لأننا ما لم نفعل ذلك، فإنه سيأتي يوم يرفض فيه اليسار أن يصوت إلى جانب أي اعتمادات على الإطلاق».

والمعروف أن الموازنة العسكرية لسورية ولبنان كانت في العام 1920 نحو 500 مليون فرنك، والمدنية 180 مليوناً، وفي العام 1922 أصبحتا 320و180 مليوناً، وفي العام 1925 خفضت إلى 170 مليوناً وسبعة ملايين!

وفي وداع ساراي، في محطة القطار الباريسية، يقول ابنه عمانوئيل لصديقه الكاتب بول غوبلنتز: «هل سيكتبون في باريس أشياء سيئة عن والدي أثناء غيابه»؟ ثم يعطينا غوبلنتز صورة أخرى عن الصراع السياسي الفرنسي آنذاك، إذ يقول: إن رجال التحري حذروا ساراي في محطة القطار من أن «ثمة شخصا خطيرا يلاحقك». وكان هذا يعني أنه تحت مراقبة الأمن العام.

قبل أن يصل ساراي إلى بيروت «قبل أن تطأ قدمه الأرض، كانت الحرب المقدسة التي شنها اليسوعيون ضده قد بدأت». يقول لنا غوبلنتز في مطالعة مطولة للدفاع عن صديقه. أما ساراي فيقول: «هم الذين بدؤوا. لقد أعلن الحداد دقيقة واحدة في جميع المدارس الكاثوليكية في لبنان، في اللحظة التي أعلن فيها نبأ تعييني. لقد هزني هذا الإطراء فعلاً. إذ قبل الآن لم يشبهني أحد بالجندي المجهول! ولقد لقيت اهتماماً جديا آخر من سلفي، إذ عندما فتحت أدراج مكتبي وجدتها فارغة إلا من نسخة من الإنجيل، تركت هناك قصداً لتثقيفي».

هذا الصراع نابع في الأساس - وهو أمر لا يشير إليه الجنرال - من كون ساراي عضو في «الماسونية» الدولية.

ذلك النهار، أي يوم وصول ساراي بالذات، يأتي إليه «الأب ريمي» راعي الأبرشية اللاتينية، وهو «أيضاً بقال ومصرفي وطباع ومخرب». وكان الأب ريمي على ما يبدو محظياً لدى غورو (الجنرال الإعلامي) ولدى ويغان. و«كان هذا المخلوق الحبري يعرف جيداً كيف يمزج بين الشؤون الروحية والزمنية»، وقد أعطاه غورو مطبعة ثمنها نحو مليون فرنك، حين لم يعد في إمكان مطبعة المفوضية السامية إصدار جميع المنشورات المطلوبة.

وفيما كان ساراي يبحر في المتوسط على ظهر «اللوتس»، أقدم أعداؤه على تعيين الأب ريمي كاهناً للجيش الفرنسي في بيروت، وها هو في اليوم الأول لوصول الجنرال يدعوه إلى «قداس» يقام على شرفه، وعرف ساراي أن ثمة فخا ينصب له، فقبل الدعوة، لكنه أناب عنه الوزير المفوض «ريفي» لحضور القداس. كان هذا خبيراً

في أصول هذه الأمور. ويعلق ساراي على ذلك في مذكراته: «لو قبلت تلك الدعوة لكان عليّ أن أقبل 22 دعوة من 22 طائفة مختلفة». إلا أنه بالنسبة إلى الأكليروس الماروني، كانت تلك ذريعة لشن حملة واسعة النطاق على المفوض السامي الجديد كما يروي لنا يوسف سالم.

كذلك أصدر الأب ريمي بياناً يقول فيه إن ساراي أهان الكنيسة برفضه حضور القداس. وهكذا اضطر ساراي فيما بعد إلى حضور القداديس الرسمية، أو المعروفة «بالقنصلية» في تلك الأيام.

هكذا بدأت مشاكل ساراي مع الأكليروس منذ اليوم الأول. وسوف يتهم «تلك الأنفس المسيحية الطاهرة نفسها بتسميم العلاقة بينه وبين البطريرك الماروني». لقد أقنعوا الحويك بأن «الجنرال ساراي ينوي شن حملة اضطهاد ضد الكنيسة، فاستثاروه، فطلب رؤية الجنرال الذي طمأنه وانتهت المسألة عكس ما يشتهي الآخرون».

لكن «الآخرين» عادوا فأقنعوا البطريرك الحويك بأن ساراي لم يقدم الاحترام الكافي له، إلا أن الجنرال «بدد من جديد حملة الأكاذيب»، كما أعلن البطريرك نفسه بعدما قام ساراي بزيارة بكركي «التي تطل على بلدة جونيه الصغيرة، التي يغلب عليها لون القرميد الزهري والحجر الأبيض».

غير أن ساراي سوف يكتشف في بكركي أن «هذا الرجل الجليل أقل حرية في بكركي مما كان البابا بيوس السابع في أفينيون». ويضع الجنرال اللوم كله على المطارنة الآخرين، وخصوصاً على المطران عبد الله الخوري، «الذي كانت عينه على الثوب القرمزي»، والذي اتهمه ساراي بأنه كان يشن الحملات عليه في صحيفة «إيكو دو باري».

مشكلة أخرى أثارها مجيء ساراي: فالجنرال غورو كان قد وضع تنظيماً سياسياً يشمل مجلساً تمثيلياً وحاكماً فرنسياً يعينه المفوض السامي، وهو أمر مناف للنصوص الرسمية، وفور وصوله أعلن ساراي في محاولة لإرضاء المواطنين، أن الحاكم الفرنسي سوف يستبدل بحاكم من أهل البلاد، أسوة بالوضع في سورية. أما هدفه الحقيقي

فلم يكن إرضاء المواطنين بل إبعاد الحاكم آنذاك فاندنبرغ. لكن ساراي عين المسيو ليون كايلا حاكماً مؤقتاً على لبنان الكبير، وقامت الاعتراضات عليه في الصحف. وقالت يومها صحيفة «الأرز»:

«لقد نجحت المؤامرة المرسومة ضد البلاد، وتم تعيين حاكم فرنسي جديد، لا هو يعرف البلاد ولا هي تعرفه، وقد أصبحت مقدرات لبنان الكبير الآن بين يديه... إننا نعترض على اللهجة الديكتاتورية الواردة في بيان التعيين».

وقالت صحيفة «المعرض» لسان حال «الشبيبة اللبنانية»: إن ثلاثة من أعضاء المجلس التمثيلي هم أيوب ثابت، وميشال بك التويني، ووديع بك طربية، أبلغوا إميل إده رئيس المجلس التمثيلي والمرشح لمنصب الحاكم أنه ما لم يسحب ترشيحه، وفي حال فوزه، فإن ساراي سوف يعمد إلى حل المجلس! أما جبران التويني فكتب في «الأحرار» مقالاً عنيفاً يستنكر فيه تعيين كايلا. وقد اختصرت «لسان الحال» المسألة كلها بقولها: «لقد قسم الجنرال ساراي البلاد إلى قسمين: واحد من الأكليروس، والثاني ضده».

أغلق ساراي صحيفة «الأوريان» بتهمة الإساءة إلى «العلاقات الدولية»، وأغلق كايلا صحيفتين أخريين. لكن ساراي سوف يكتب إلى أصدقائه في باريس مدافعاً عن القرار، ثم عن قراره بإلغاء 500 ألف فرنك، كانت الدولة الفرنسية تصرفها لتأمين فوز مرشحيها: «وقد عاتبني أحد النافذين الظرفاء قائلاً: «الآن لم نعد نعرف لمن يجب أن نصوت. أما مع أسلافك فإن أصدقاء فرنسة الحقيقيين كانوا يصوتون للمرشحين الذين تمولهم الحكومة».

كان ساراي يعتبر أن ما يقوم به خطوات «إصلاحية»، غير أن هذه الإصلاحات لم تلق موافقة المسيو روبير دوكيه مندوب فرنسة لشؤون سورية لدى «عصبة الأمم المتحدة» (كان سابقاً السكرتير العام لدى غورو)، ولا لقيت ترحيب السكرتير العام الجديد المسيو «دوريفي»، الذي «فرضته الكي دورسيه على ساراي». ويتهم ساراي المسيو دوكيه، بأنه نشر ـ بتحريض من الكي دورسيه ـ عدة مقالات انتقادية للمسيو ساراي. أما وجهة نظر «هذا الرجل الذي دمر الانتداب» أي دوكيه، فقد «كانت معروفة جيداً وهي أن سورية بلد متخلف، يجب أن يحكم بشدة ويعامل كمستعمرة».

كان واضحاً أن ساراي ليس على خلاف فقط مع الأكليروس الماروني في لبنان بل أيضاً مع وزارة الخارجية في باريس. وها هي تبلغه برقياً أنه يجب «أن يراعي الأنظمة السابقة بالنسبة إلى انتخابات المجلس التمثيلي»، أما بالنسبة إلى الخطوات المقبلة فسوف يبلغك بها المسيو دو ريفي».

كان ذلك كثيراً على ساراي، ورد ببرقية فورية يطلب من الوزارة الفصل بينه و«بين هذا الزميل». فالمسيو دو ريفي هو على أي حال الرجل الذي قال لويغان وهو يودعه: «لن يكون في وسعي أن أعمل مع مفوض سامٍ من بعدك».

وسوف يكتب ساراي فيما بعد، أن العذاب الذي لقيه من دوكيه ودو ريفي كان يفوق كل العذاب الذي لقيه من «اليسوعيين جميعاً».

على أي حال جرت الانتخابات كما اشتهى «الإصلاحي» ساراي، ولم تكلف الدولة «سوى 15 ألف فرنك دفعت بموافقة الكي دورسيه، لدعم مرشح فقير كان رسولاً حقيقياً للأفكار الفرنسية في المشرق»!

لكن ساراي لن يكشف لنا هوية الرجل. كذلك نقرأ في كتابات ساراي مديحاً لنائبه كايلا، الرجل الذي قال للبنانيين: «الكلاب تنبح والقافلة تسير»! عنه أيضاً يقول ساراي: «ليس في استطاعة المرء أن يتوقع من الآخرين أن يكونوا صادقين مع أنفسهم طوال الوقت. والحقيقة أن الذكرى الوحيدة التي أحترمها في علاقتي مع كايلا، هي صراعنا معا ضد التعصب والظلم في لبنان...؟»

بدلاً من الحديث عن سياسة ساراي خارج لبنان وسورية، أي في فلسطين، نقتطع حرفياً ما يلي، من كتاب «ساراي الصامت»:

«خلال إدارة ساراي سنحت لفرنسة الفرصة أكثر من مرة لأن تعطي برهاناً عملياً للإنكليز على أنها في الشرق، كما في أي مكان آخر في العالم. تنوي أن تبقى أمينة لذكرى الحرب والتحالف.

«وقد قدمنا الدليل للورد بلفور على ذلك، بمناسبة رحلته إلى فلسطين. لقد كان في طريق عودته من مهمة مظفرة إلى القدس، حيث مثل بلاده، «الحامية المجردة للإسرائيليين»، في حفل افتتاح الجامعة العبرية.

«وعلى الرغم من التحذيرات الرسمية التي تلقاها من السلطات الفرنسية، فإن اللورد بلفور كان تواقاً لأن يعود إلى أوروبة بتاريخ سورية، وقد كتب إليَّ (أي إلى غوبلنتز) الجنرال ساراي في هذا الشأن يقول: «لقد قوبلت هذه الرحلة بالاعتراضات من المسلمين الذين انضمت إليهم عناصر مسيحية، عن كونهم يحيون ماضياً مليئاً بالعصبيات والصراعات بشكل لا يلائم مصالحهم، ولا مصالح سورية. وقد وزعت مناشير عشية وصول اللورد بلفور تقول إن «فلسطين للعرب وبلاد العرب للعرب» وهذا يدل على النوايا القائمة خلف الحملة المعادية لليهود في سورية (....)، لقد أطلقت زيارة اللورد بلفور شرارة تظاهرات عدة غير ذات أهمية. الصحف صدرت مؤطرة بالسواد، وثارت اشتباكات بين الطلاب، لكن فقط بعد الزيارة إلى المسجد (الأموي) انتقلت المعارك إلى الشوارع. وعندها اتخذت خطوات فورية لقمع تلك الأعمال من دون صعوبة في ذلك. غير أن هذه الاضطرابات غير المألوفة كانت حسنة أيضاً، إذ أظهرت أن إنكلترة ستكون مخطئة جداً إذا خطر لها أن بإمكانها الحلول محل فرنسة، كما تدّعي بعض الصحف السورية. ولقد أظهرت أيضاً أننا لن نتسامح تجاه أي حملات معادية لليهود. وفوق ذلك فإنه رأى بعينه التفسيرات التي أراد الناس إعطاءها لوجوده في سورية، ولكي لا يعطي ذريعة للاضطرابات، توجه سراً إلى بيروت، حيث أبحر فوراً إلى أوروبة. لقد أيقن أن فرنسة وإنكلترة يمكن أن تربحا فقط بالتفاهم والتعاون في كل مجال».

ويروي السفير عادل إسماعيل في كتابه «السياسة الدولية في الشرق العربي» الجزء الخامس: أن «ساراي» كان ذا نزعة جمهورية متطرفة، فحاول منذ وصوله إلى بيروت في 2 كانون الثاني/يناير 1925 الظهور بمظهر التحرر، فأطلق حرية الصحافة، وأباح تشكيل الأحزاب، وكان علمانياً يكره الأكليريكيين، ولما شاء منعهم من التدخل في شؤون الدولة، تألبوا عليه مع أركان المفوضية العليا من مدنيين وعسكريين، فألزمته حكومة باريس عندئذ على تبديل موقفه منهم، والتقيد بسياسة فرنسة التقليدية في الشرق تجاه رجال الدين. وكتب له «هريو» في 11 أيار/مايو يسأله مُلِحّاً أن «يتنشق بخور القداس القنصلي»

يروي عز الدين الحلبي في مذكراته من العام 1925ـ1927 أن سياسة الانتداب الفرنسي ولدت حقداً تجاه الفرنسيين. فكثر التذمر، خصوصاً في جبل الدروز، من حاكمه الفرنسي المدعو «كاربيه»، وكان ساراي يدعم موقف مندوبه.

وفي 5 نيسان/إبريل 1925 ذهب وفد إلى دمشق لمقابلة المندوب السامي، ومطالبته بوجوب تطبيق بنود اتفاق 4 آذار/مارس 1921 بين زعماء جبل الدروز وسلطات الانتداب.

لم يحسن ساراي «معاملة الوفد، وأعلن عدم التزامه بالاتفاق، وأنذر أعضاء الوفد بالخروج من دمشق خلال ساعتين».

وبالفعل خرج وفد جبل الدروز غاضباً لسوء المعاملة، وألقت السلطات القبض على أحد أعضاء الوفد وهو «عقلة القطامي» أحد زعماء المسيحيين في جبل الدروز، وأرسلته ـ كما يروي لنا «محيي الدين السفر جلاني» في كتابه «تاريخ الثورة السورية» ـ إلى السجن في تدمر.

وبعد مرور شهر على الحدث، سافر «كاربيه» إلى فرنسة لتمضية إجازته، وخلفه الضابط «رينو» بالوكالة. وكانت عين الوكيل على حكم الجبل، فاعتمد سياسة لينة، وشجع سكان الجبل على المطالبة به بدلاً من «كاربيه»، ونجح «رينو» في تأليف وفد من ثلاثين عضواً يمثلون العائلات الدرزية، ذهب إلى دمشق للمطالبة بإبعاد «كاربيه»، وعند وصول الوفد إلى دمشق، حاول لقاء مندوب المفوض السامي، فرفض المندوب استقباله، فما كان منه إلا أن توجه أفراده إلى بيروت لمقابلة «ساراي» شخصياً. ولكن المندوب السامي رفض إعطاءهم موعداً في غياب «كاربيه»، وهددهم بضرورة مغادرة بيروت حالاً وإلا تعرضوا للنفي. ولم تفلح الوساطات لتسهيل اللقاء، فغادر زعماء الدروز إلى حوران معتبرين في الأمر إهانة معنوية.

وتكاتف زعماء المنطقة، وبدؤوا بإرسال العرائض ضد كاربيه، وعقدوا الاجتماعات، ثم انتقلوا إلى التظاهرات في 2 تموز/يوليو 1925 في السويداء. وعزل «رينو»، وعيّن مكانه القومندان «توما مارتان»، فعمل على تهدئة الخواطر، بانتظار تحقيق مكيدة

تقضي بإلقاء القبض على زعماء البلاد. وكان موعد المكيدة عيد فرنسة الوطني في 14 تموز/يوليو. فدعي الزعماء شخصياً للمشاركة فيه. وتريث كبير زعماء الجبل سلطان باشا الأطرش في الذهاب في الموعد المحدد، فأرسل أعوانه لاستطلاع الأمر وصدق، ظنه، إذ عمدت السلطات الفرنسية إلى إلقاء القبض على بعض من حضر إلى الاحتفال في السويداء، كما عملت بالمثل مع بعض من حضر إلى احتفال دمشق.

وبسرعة عمد سلطان باشا الأطرش إلى إعلان الثورة، فسار من قرية «رساس» إلى قرى جنوب جبل الدروز، فانضم إليه عدد من الثوار، ثم مشى إلى «صلخد»، فهاجم سراً الحكومة ومقر البعثة الفرنسية.

ويروي سلامة عبيد في كتابه «الثورة السورية الكبرى 1925ـ1927» على ضوء وثائق لم تنشر، أن الفرنسيين أرسلوا حملة بقيادة القومندان «نورمان» للقضاء على الثورة، فالتقى بقوات سلطان في 21 تموز/يوليو1925 في قرية «الكفر» بين صلخد والسويداء، وباءت الحملة بالفشل، قتل قائدها والعدد الكبير من رجاله.

وأرسل الفرنسيون حملة جديدة بقيادة الجنرال «ميشو» في مطلع شهر آب/ أغسطس، فتصدى لها الثوار في قرية «الدرو» و«نبع قراصة»، ولكنهم هزموا، فتراجعت معنويات الثوار، وارتد سلطان الأطرش إلى قرية سليم لوضع خطة جديدة، بينما ارتاح «ميشو إلى النصر السريع، معتبراً أن الأمر قد قضي. وإذ كان جنوده يروون عطشهم في موقع المزرعة الذي تكثر فيه المياه، هاجم الثوار مؤخرة الحملة وطوقوا الجنود أثناء الليل، وجرت معارك بالسلاح الأبيض، وفقد سلاح المدفعية والطيران فاعليته، وانكسر الفرنسيون شر كسرة، وأصيب الجنرال شخصياً.

وقد سطر الثوار ضروباً من البطولة النادرة بهجومهم على المدرعات بأجسادهم، وبعد مضي أسبوع على معركة المزرعة، بدأت مفاوضات بين الجانبين اتفقا فيها على تبادل الأسرى، وبشروط للصلح، وإرجاع الغنائم العسكرية.

ويروي كلٌّ من عبد الرحمن الشهبندر في كتابه عن «الثورة السورية الوطنية»، والسفرجلاني في المرجع المذكور آنفاً: أن الثقة بالفرنسيين كانت مفقودة، وكان

سلطان الأطرش يعلل النفس بتحويل الثورة إلى مظاهرة وطنية، تعم أرجاء سورية، وتتجاوز جبل الدروز، وتشاء الظروف أن يتصل به زعماء حزب الشعب في دمشق، مبدين استعدادهم لمساندة ثورته. فبادر سلطان باشا عندها إلى قطع المفاوضات مع الفرنسيين، ومتابعة الحرب، إلى أن تثور دمشق، وتكون القيادة لجبل حوران ويعملوا معاً على طرد الفرنسيين.

وينقل لنا السفرجلاني نص البلاغ الذي أعلنه سلطان الأطرش إيذاناً بالثورة العامة، وقد جاء في بعض مقتطفاته: «يا أحفاد العرب الأمجاد.. فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا... فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكت القلم، ولا يضيع حق وراءه مطالب...

أيها السوريون: لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطى، فلنأخذ حقنا بحد السيوف...».

وقد حدد الأطرش مطالبه بالآتي:

1ـ وحدة البلاد السورية دولة عربية مستقلة.

2ـ قيام حكومة شعبية.

3ـ سحب القوى المحتلة.

4 ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والإخاء.

وتجند شباب حوران للسير إلى دمشق في الوقت المحدد، على أمل أن يكون زعماء حزب الشعب قد هيؤوا الأجواء للثورة. ولكن عند وصولهم إلى أبواب المدينة أغار عليهم طيران الفرنسيين، في وقت لم تكن دمشق قد استعدت للثورة، بسبب ضيق الوقت من جهة، وإلقاء الفرنسيين القبض على زعماء حزب الشعب بعد تسرب أخبار اتفاقهم مع سلطان على الثورة من جهة أخرى.

وبدأ الفرنسيون بجمع قواهم في سهل «المسيفرة» للانقضاض على الثوار في شهر أيلول/سبتمبر، ولكن حماسة الثوار جعلتهم يقررون مهاجمة الفرنسيين قبل

اكتمال استعدادهم، فهاجموا السهل من دون أخذ المنطق العسكري بعين الاعتبار. وعلى الرغم من الاستبسال تراجع الثوار مخلفين وراءهم خسارة جسيمة. واستغل الجنرال ساراي نتائج المعركة للمضي في خطته الآيلة إلى إنقاذ الحامية الفرنسية في السويداء واحتلال جبل الدروز. وقد توصلت قوات الفرنسيين إلى رفع الحصار عن قلعة السويداء، وعلى الرغم من مقاومة الثوار. وما أن وصلت قوات الفرنسيين إلى السويداء، حتى اندلعت الثورة في حماة في تشرين الأول/أكتوبر 1925 بقيادة «فوزي القاوقجي» الذي يروي تفاصيل ذلك في مذكراته. وقد استطاع الفرنسيون إجهاض ثورة حماة بقصفهم المدينة بالطائرات، وانتقلت الثورة إلى الغوطة، فدمشق. ومجدداً عاد الفرنسيون لاستعمال الطائرات لإخماد ذلك.. وقد منيت دمشق بخسائر فادحة في تشرين الأول/أكتوبر من جراء قصف الطائرات، وقد جاء ذلك كردة فعل على محاولة الثوار خطف المندوب السامي الفرنسي الجنرال ساراي.

وكان لأوامر الجنرال «بقصف الأحياء المدنية في مدينة دمشق من غير إنذار» أثرها السيء في الجنرال في المحافل الدولية العالمية، لذلك اضطرت الحكومة الفرنسية إلى سحب ساراي لتعين مكانه مفوضاً سامياً مدنياً هو «دو جوفنيل».

وفي مذكراته «50 سنة مع الناس» يروي الوزير يوسف سالم عن الجنرال ساراي الأمور الآتية:

جرت الانتخابات النيابية في فرنسة العام 1924 وفازت كتلة اليسار المؤلفة من الراديكاليين الاشتراكيين ومن الحزب الاشتراكي (ليون بلوم)، فدعى إلى تأليف الوزارة الزعيم الراديكالي «إدوار هريو»، فاستعان بأشخاص معادين للأكليروس. وكان من بينهم الجنرال ساراي، المفوض السامي الجديد الذي جاء خليفة لويغان المتدين. وكان ساراي ذا نزعة يسارية.

فكان أول عمل قام به إثر وصوله إلى بيروت، أن دعا المجلس التمثيلي إلى انتخاب حاكم على لبنان. ولم يكن قصد المفوض السامي الجديد أن يمارس النواب حقهم الطبيعي في انتخاب حاكم للبلاد، بقدر انتقامه من الجنرال فاندنبرغ الذي شهد في الماضي ضده أمام مجلس عسكري.

وعين في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير 1925 موعدٌ لأن ينتخب المجلس التمثيلي حاكم لبنان. وفي الميدان مرشحان: أولهما معرف عن نفسه، هو إميل إده رئيس المجلس يومذاك، والآخر (سري) لم يُذَعْ اسمه ولا ترشيحه، وهو «ليون كايلا»، ويؤيده ويريده الجنرال ساراي. وكان ترشيح إميل إده نفسه ضد رغبة المفوض السامي، أكثر من جرأة، وقبيل افتتاح جلسة الانتخاب، اتفق موظفو الانتداب على تعطيل عملية الانتخاب بالشغب والبلبلة. فأصدر ساراي قراراً تلي في تلك الجلسة، يقضي بتعطيل المجلس، ودعوة اللبنانيين إلى انتخاب مجلس جديد بمهلة ستة أشهر أي في 12 تموز/ يوليو 1925. وأصدر قراراً آخر بتعيين ليون كايلا حاكماً على لبنان الكبير.

وكان المفوض السامي يتدخل في شؤون الانتخابات النيابية، فيؤيد لائحة على لائحة، وكان تحديه ضرباً من الجنون، لأنه كان يضغط على الناخبين لاختيار اللائحة المرضى عنها بأكملها. ومن يجاهر بترشيح نفسه ضد اللوائح النيابية التي يوافق عليها المندوب السامي، كان عمله يعتبر تحدياً لإرادة هذا المندوب.

ويتابع سالم كلامه قائلاً:

كان الجنرال ساراي عنيفاً في كلامه، فجّاً في تصرفاته، لا يخفي كراهيته لرجال الدين، فيهاجمهم في كل مناسبة. وانقسمت البلاد إلى علمانيين يشجعهم المفوض السامي، وأكليريكيين يحاربهم. ونشطت المحافل الماسونية، فتعددت اجتماعاتها وتوالى خطباؤها على المنابر. ومن طريف ما حدث في تلك الآونة أن مدارس الرهبان والآباء اليسوعيين، وكل معهد علمي أو تربوي يديره أو يشرف عليه أكليريكيون، كانت تبدأ دروسها في الصباح بدقيقة صمت حداداً على وجود الجنرال ساراي ممثلاً لفرنسة.

وقد يكون أطرف من ذلك كله الحوار العنيف، بل المبارزة الكلامية التي حدثت علناً بين الجنرال ساراي والخوري لويس الخازن.

كتبت جريدة الأرز في العدد 421، الأربعاء في 18 من آذار/مارس 1925 الآتي: قبيل ظهر الثلاثاء في 17 من آذار 1925 استقبل الجنرال ساراي في مكتبه بالسراي الكبيرة رجال الصحافة وقال لهم:

أحببت أن أجتمع بكم مرة في كل شهر، لأرى ما عندكم فتبدونه لي، وما تطلبون إيضاحه مني، فماذا عند كم؟»

وبدأ الصحافيون أسئلتهم، ووصل دور الأب أنطون عقل، صاحب «مجلة السلام» فسأله عن «صحة ما تتحدث به الناس عن عدم رد زيارة غبطة البطريرك الماروني» فقال الجنرال:

ـ أني أقول لك بصراحة أمام الجمهور: إني وعدت غبطته أن أرد له الزيارة، وكنت عجلت في الأمر لو لم تحدث في المجلس النيابي الفرنسي تلك الضوضاء المعروفة التي أثارها ذوو المآرب. وعرفت الآن أن العوائد لا تمسح برد الزيارة في أيام الصيام، فإذا كان غبطته يرغب في أن أرد له الزيارة الآن، ما عندي شرط إلا الانتظار ريثما تنتهي المناقشة في مجلس الشيوخ الفرنسي.

وسأله الأب لويس الخازن (مدير الأرز): هل لك يافخامة الجنرال أن تبين لنا ما هي علاقة رد زيارتك لغبطة البطريرك بالمناقشات التي أشرت إليها، سواء كان في مجلس النواب أم في مجلس الشيوخ؟

الجنرال ساراي: هناك مسائل لا أستطيع التصريح بها لأي كان.

الأب الخازن: ليس هذا مما نبحث عنه، وإنما نكرر الكلام، إننا كنا نود أن نعرف ما هي الرابطة السياسية بين زيارتكم للمقام البطريركي وبين السياسة والمناقشات، لأننا نرى أن الأمر هو مسألة لباقة لا مسألة سياسة.

الجنرال ساراي: إني حتى الآن لم أرد الزيارة لأحد، فلماذا تطلب مني أن أرد الزيارة لغبطة البطريرك الماروني قبل سواه؟ وعلى كلٍ فإني بانتظار نتيجة المناقشة في مجلس الشيوخ.

ويتابع يوسف سالم كلامه بأنه في اليوم الذي تلا هذا المؤتمر الصحفي الصاخب، أصدر المفوض السامي قراراً يخوله حق «تعطيل أي صحيفة أو مجلة تنشر مقالاً أو خبراً من شأنه المس بالسلطات، أو الإخلال بالأمن والنظام»، وكان القرار يشمل لبنان وسورية.

وعلى الرغم من راديكالية حكومتها، فإن فرنسة خشيت أن تفقد صداقة لبنان عندما وقعت على حقيقة ما يجري في بيروت، وعلى أخطار تصرفات المفوض السامي، وانعكاساتها على علاقاتها باللبنانيين، خصوصاً برجال الدين الذين كانت تعتمد عليهم في حكمها ووجودها فيه. لذلك أوعزت فوراً إلى الجنرال بأن يكبح جماح عواطفه، وأن يحضر القداس الاحتفالي كما جرت العادة.

الجنرال ويغان:
يربط الشرق بالبلقان

هناك خط عجيب في مسيرة «جنرالات الشرق».. أكثرهم جاء إلى المنطقة مرتين. أكثرهم خدم في المشرق وفي المغرب العربي أيضاً، أو بالأحرى في «إفريقية الشمالية» كما سماها الفرنسيون والإنكليز مدة طويلة.

وليس من شك في أن الجنرال ويغان كان من أبرز العسكريين الذين عرفتهم المنطقة، إذ قبل الحرب العالمية الثانية كان مفوضاً سامياً لفرنسة في سورية ولبنان.. ومع نشوب الحرب عاد إلى الشرق قائداً أعلى للقوات الفرنسية في الحوض الشرقي للمتوسط ومقره بيروت.

وحين عمل مفوضاً سامياً في لبنان، اشتهر إلى حد بعيد بالاعتدال بالنسبة إلى أسلافه. غير أن الدور الأكثر أهمية هو ذلك الذي لعبه خلال الحرب نفسها.. وهنا نترك الجنرال ويغان نفسه يروي لنا كيف جيء به من التقاعد إلى.. الشرق:

ـ بلغت سن التقاعد يوم 21 ـ كانون الثاني/يناير1935 وتوقفت عن المشاركة في أي اجتماعات عسكرية، على الرغم من أني ضمنت حق الاستمرار في العمل العسكري بصرف النظر عن السن، تقديراً لما حققته في الحرب الكونية الأولى.. غير أنني بسبب طباعي وتكويني، لم أعد أتدخل في شؤون الرجل الذي خلفني، ولم أكلف خلال خمس سنوات في الحياة المدنية بأي مهمة رسمية، باستثناء الوفد الذي مثل فرنسة في حفل زفاف ولي عهد إيران في نيسان/إبريل 1939، وخلال عودتي من هناك توقفت في تركية ورومانية في مهمتين ديبلوماسيتين، وفي آب/أغسطس 1939 كنت مع عائلتي في منزلنا في مقاطعة «بريتاني» نراقب بقلق التطورات في أوروبة، وفي الثاني والعشرين من ذلك الشهر تلقيت رسالة من الجنرال غاملان، يطلب مني أن أوافيه إلى باريس، وفي الساعة الرابعة في اليوم اللاحق، كنت في مكتب غاملان في شارع

الانفاليد في باريس، حيث أبلغني أنه ينوي أن يقترح على رئيس الوزراء، وزير الدفاع إدوار دالادييه، تسميتي «شخصية عسكرية رفيعة»، وإرسالي إلى الشرق الأدنى لكي أتولى تنسيق عمل القوات الفرنسية هناك، إذا دعت الحاجة إلى قيامها بأي تحرك.

وقال لي الجنرال غاملان: «لم أتقدم بهذا الاقتراح بعد، لأني أريد معرفة موقفك منه أولاً».

وافقت من دون تردد.

وقد أتى عرض الجنرال غاملان بعد سنة من الطلب الذي تقدمت به إلى وزير الحربية أيلول/سبتمبر 1938 للسماح بعودتي إلى الخدمة العسكرية إذا ما اندلعت الحرب.. فقد كنت أشعر على الرغم من أني بلغت الحادية والسبعين، أني مازلت أملك شيئاً أقدمه، وأن البقاء من دون عمل أمر لا يمكن لي التسليم به.

ولعل أفضل ما في هذا العرض الذي يقدمه غاملان الآن أنه سوف يضعني في منطقة أعرفها تماماً، ذلك أنني شغلت بين العامين 1923 و1924 منصب المفوض السامي الفرنسي في بيروت.. كذلك فإن التنسيق مع القيادة البريطانية لم يكن أمراً يشغلني، لأني تعودت عليه في الحرب العالمية الأولى، يضاف إلى ذلك أن مهمتي الديبلوماسية في أنقرة وبوخارست كونت لي من المعارف والاتصالات ما يكفي لتسهيل التعاطي مع دول البلقان.

عدت من باريس إلى منزلي في «بريتاني»، لكي أتم الاستعداد للقيام برحلة طويلة الأمد، وصباح يوم الجمعة تلقيت التعليمات لأكون في باريس في اليوم اللاحق، فبلغناها أنا وزوجتي بعد ظهر السبت 26 آب/أغسطس، ولكننا لم نصل في الوقت المناسب لتوديع ابننا جاك، الذي غادر بدوره مع قوافل القوات العسكرية المتجهة إلى القتال.

وعندما توجهت إلى مكاتب المجلس الأعلى للحزب في الانفاليد استقبلني الجنرال غاملان، وسلمني رسالة التعيين الصادرة عن دالادييه. تقول الرسالة: «تم تعيين الجنرال ويغان قائداً عاماً للقوات الفرنسية في شرق المتوسط في حال حصول تعبئة عامة.

وتوضع بلدان المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي ضمن نطاق العسكرية بموجب المادة 43 من القانون الصادر في 13 تموز/يوليو 1927.

ويكون الجنرال ويغان مسؤولاً عن تنسيق أعمال بعثاتنا العسكرية لدى الجيوش التركية واليونانية واليوغسلافية والرومانية. ويكون الجنرال ويغان على اتصال مباشر بالقائد العام في مصر، الذي يعطيه أي توجيهات بشأن التنسيق المحتمل مع القوات البريطانية الموجودة في بلاد المشرق».

حملت هذه الرسالة إلى جانب توقيع دالادييه، توقيع رئيس الجمهورية أيضاً..

بقيت بعيداً عن الجيش والحياة العسكرية أربع سنوات ونصف السنة، فلم أعد أملك المعلومات الكافية التي تخولني انتقاء خيرة الضباط لمساعدتي في مهمتي، لذلك طلبت المشورة، وتمنيت أن توضع تحت إمرتي مجموعة من الضباط قليلة العدد على أن يكون أفرادها من أصحاب الخبرة والمهارة.

تركت مطار لوبورجيه في الثامنة من صباح التاسع والعشرين من آب/أغسطس، بعدما تم إنجاز ترتيبات الرحلة إلى بيروت بسرعة، وبعد اجتماعي مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ومدير عام وزارة الخارجية، حطت بنا الطائرة في مرسيلية في الحادية عشرة، حيث كانت تنتظرنا طائرة من طراز «داوتني»، أعطيت الإذن بإبقائها في سورية، إلى أن توضع في تصرفي طائرة خاصة.

كانت محطتنا الأولى تونس، والثانية مالطة، حيث تعرضنا لبعض التأخير، فلم نغادر الجزيرة إلا في السابعة مساءً، ووصلنا إلى الإسكندرية في الواحدة فجراً في 30 آب/ أغسطس.. خلدنا إلى الراحة قليلاً في الإسكندرية، ثم تابعنا الرحلة وحطت الطائرة في بيروت في العاشرة صباحاً، أي بعد ست وعشرين ساعة من السفر.

فور وصولي إلى بيروت استدعيت المسؤولين المدنيين والعسكريين إلى اجتماع، شرحت فيه طبيعة مهمتي ومسؤولياتي في حال اندلاع الحرب ... وكان الجنرال غاملان قد أعطاني تعليمات سرية بشأن مهمتي قبل سفري إلى بيروت، هذا ملخصها:

«سوف يبذل الجنرال ويغان كل ما في وسعه لتنسيق عمليات الجيوش الحليفة في منطقة البلقان وشرق المتوسط، وعلى الجنرال ويغان أن يأخذ في الاعتبار أن قيادة القوات البحرية هي من صلاحية السلطات البريطانية في شرق المتوسط، على أن يكون الاتصال بين الجنرال ويغان والقوات البحرية الفرنسية عبر قائد هذه القوات.

تكون مصر مركزاً للعمليات في كل من مصر وجيبوتي وعدن وبلدان المشرق، ويكون القائد العام للقوات هناك إنكليزياً، الأمر الذي يوجب على الجنرال ويغان تلبية طلبات هذا القائد في ما يخص تنسيق عمليات القوات الفرنسية في بلدان المشرق، واستعمال أراضيها من قبل القوات البريطانية».

من ناحية أخرى كان بإمكاني الاسترشاد بمحتوى الضمانات التي أعطتها فرنسة وإنكلترة للحكومة اليونانية والرومانية، ومفادها: «أعطت الحكومتان الفرنسية والإنكليزية ضمانة لليونان ورومانية بمدهما بكل مساعدة متوافرة، في حال حصول ما يُعد أنه تهديدٌ لاستقلالهما يستوجب المقاومة بالقوة».

في 31 آب/أغسطس اجتمعت في الإسكندرية بترتيب من الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة المسيو دو ديتاس، بالقائم بالأعمال البريطاني، نظراً إلى غياب السير مايلز لامبسون، كما التقيت الجنرال السيد أرشيبالد ويفل قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، والأميرال السير أندرو كاننغهام، إضافة إلى قائد سلاح الجو الملكي في المنطقة.. وشرحت للضباط الثلاث طبيعة مهمتي في حال اندلاع الحرب، مركزاً على نقاط ثلاث:

1 ـ المشاركة الفرنسية في الدفاع عن مصر، وحجم القوات الفرنسية المتوافرة لهذه المشاركة، متمنياً على الجنرال ويفل إبقاء هذه القوات في تصرفي، إلا إذا كانت حاجته إليها ملحة جداً.

2 ـ الأهمية الواجب أن نعطيها لمدينة سالونيكا اليونانية، وهو أمر وافقني عليه الضباط البريطانيون.

3 ـ إمكانية استخدام قبرص من قبل القوات الجوية الفرنسية، على الرغم من اعتبار الجزيرة نقطة ضعف لكونها غير محمية كما يجب.

كان الجنرال ويفل أحد أبرع القادة العسكريين البريطانيين، وقد عمل خلال الحرب العالمية الأولى ضمن بعثة عسكرية بريطانية في القفقاز، كما شغل منصب رئيس الأركان للفيلد ـ مارشال اللنبي في الشرق الأدنى.. والجنرال ويفل رجل ذكي، مخلص ومجرب في أمور الحرب.. أما الأميرال أندرو كاننغهام فكان معروفاً عنه أنه عسكري ديناميكي ونشيط، وبعدما التقيته ثبت لي صحة ما يقال..

باختصار شعرت بالارتياح بعد اجتماعي إلى القادة العسكريين البريطانيين، لأني أدركت أنني أتعامل مع رجال جديرين بالثقة، وهكذا اتفقنا على أمور عدة، من بينها مسألة ضباط الارتباط في القاهرة وبيروت.. وبعد أسبوعين من ذلك وصل إلى بيروت الكولونيل سالزبوري جونز، الذي شغل مركز ضابط الارتباط فيها قبل خمسة عشر عاماً، عندما كان برتبة نقيب، وكنت يومها المفوض السامي، والحقيقة أنني سررت كثيراً بالاختيار الموفق للقيادة البريطانية.

قبل وصول الكولونيل جونز، وبعد عودتي إلى مصر، حصلت أشياء عدة، بعضها يستحق التسجيل.. ففي اليوم الأول من عودتي إلى بيروت أرسلت برقية إلى الجنرال غاملان أبلغه فيها بمضمون اجتماعي مع القادة البريطانيين، وبالنقاط الواجب الاتفاق عليها مع لندن. وعلمت أن الثلاثة أصدروا مذكرات بالمعنى نفسه، وأرسلوها إلى حكومتهم في لندن.

بعد ظهر اليوم نفسه بلغنا أن فرنسة أعلنت التعبئة العامة في مختلف أراضيها ومستعمراتها والبلدان المنتدبة عليها، إثر شنٍّ غارات جوية ألمانيَّة على بولندا.



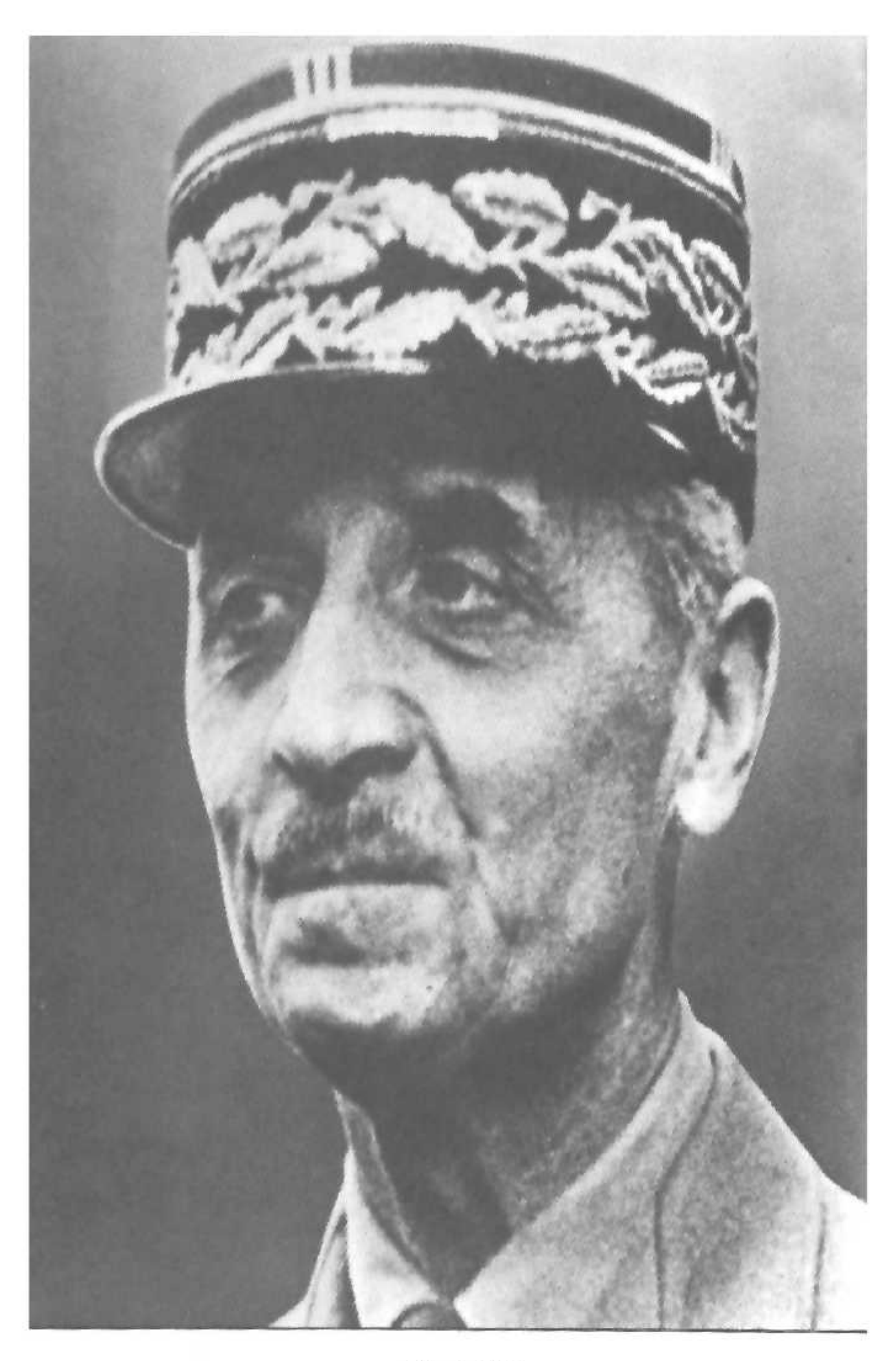
مصطفى كمال



المارشال إدموند اللنبي



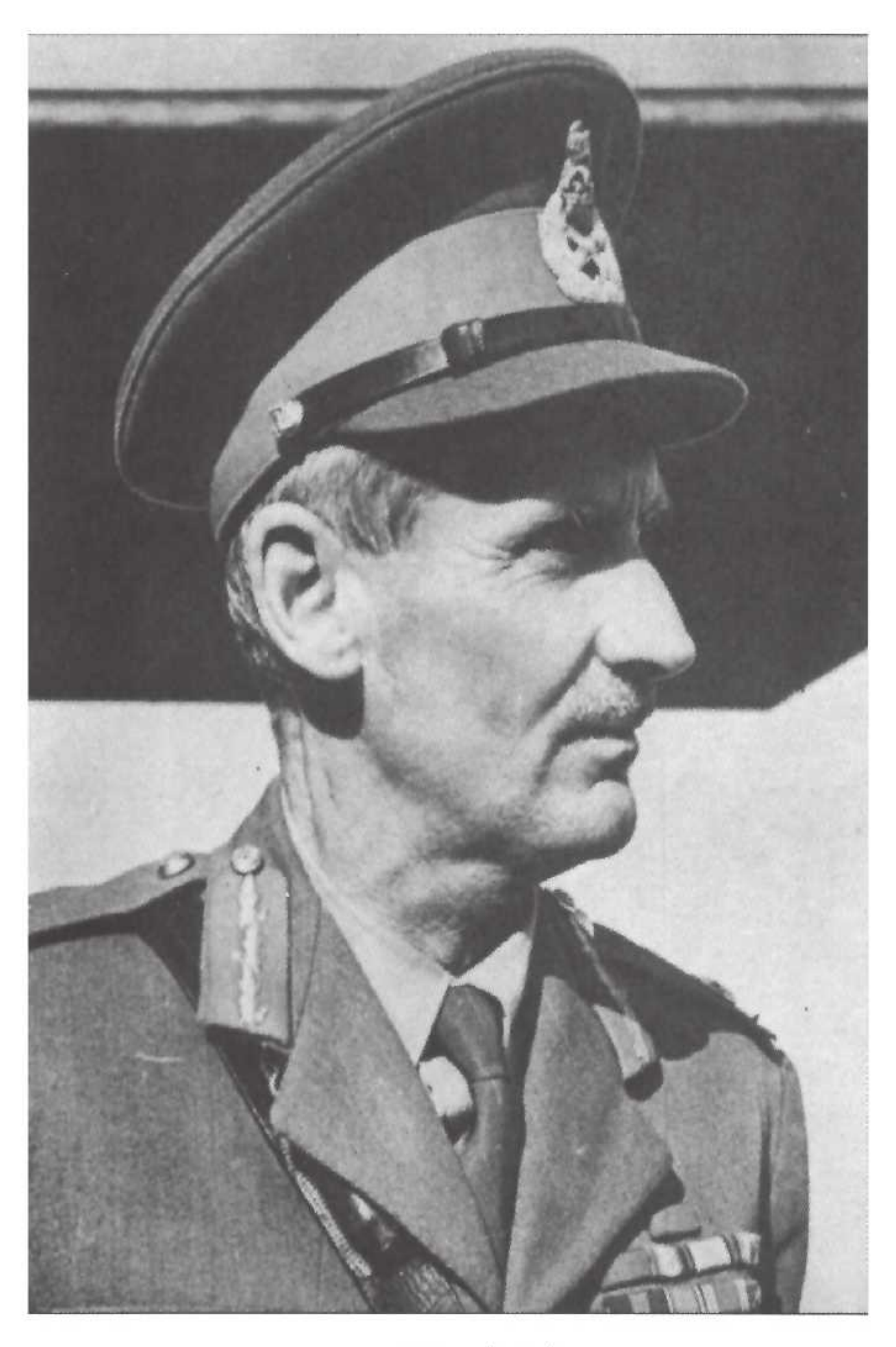
الجنرال ديغول



الجنرال جورج كاترو



الماريشال اروين رومل



الجنرال مونتغمري



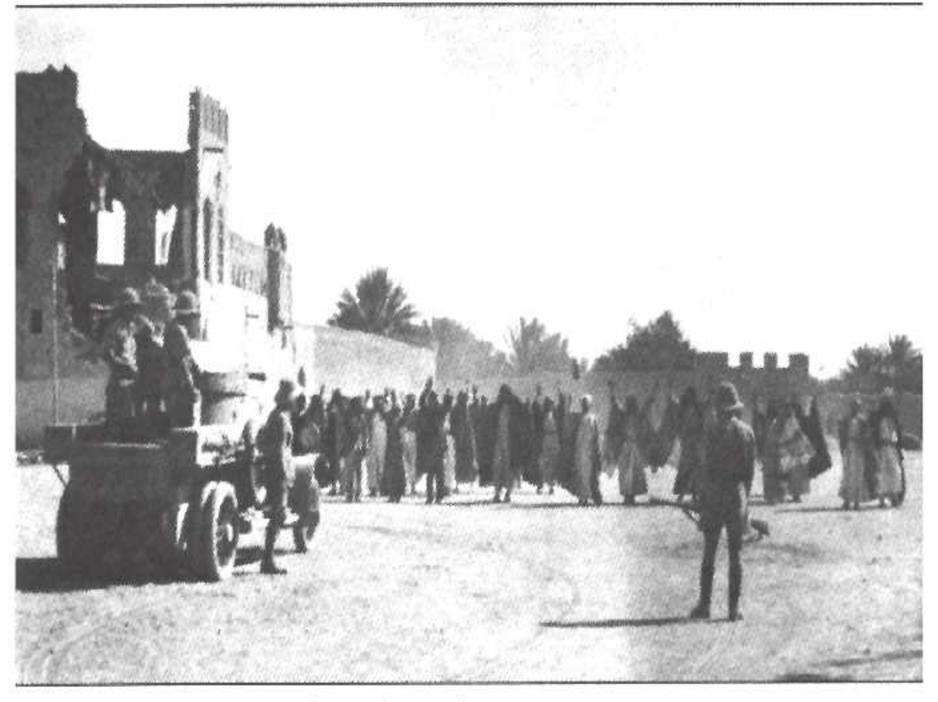
الفيلد مارشال هارولد ألكسندر



الماريشال كلود أركينلك



جنرال بول ساري



مدرعات بريطانية في الرمادية

في اليوم الآتي اجتمعت في السرايا الكبيرة، مع المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسورية غبريال بيو، والجنرال كابيو قائد القوات العسكرية هناك، والأميرال كاربانتييه قائد القوات البحرية في بلاد المشرق، واتفقنا خلال الاجتماع على النقاط التفصيلية لتوزيع الصلاحيات ولطبيعة مهمتي. وشدَّدتُ أمامهم على وجوب حماية الوضع الاقتصادي والمعيشي، لئلا تتكرر مآسي الحرب العالمية الأولى، مركِّزاً على ضرورة تأمين القمح للناس، ومنع أي محاولة للاحتكار.

في 3 أيلول/سبتمبر علمت أن وزارة الخارجية الفرنسية اتصلت بالحكومة اليونانية، للوقوف على مدى استعدادها للسماح للقوات البحرية الفرنسية باستعمال قاعدة سالونيكا.. وطلب مني الاتصال بالسلطات العسكرية التركية، بشأن استخدام قاعدة سميرنا أو غيرها.

توجهت إلى أنقرة جواً، واستقبلني في المطار السفير الفرنسي هناك المسيو ماسيفلي الذي عملت معه مدة من الزمن. وكان ماسفيلي خبيراً بشؤون تلك المنطقة ومؤيداً لقيام فرنسة بتحرك ما في البلقان في حال اندلاع الحرب.

مكثت في أنقرة أربعة أيام، قابلت خلالها رئيس الجمهورية عصمت إينونو، ووزير الخارجية سارادج أوغلو، والمارشال شاكماك. فوجدت لديهم تصميماً على إبقاء منطقة البلقان في منأىً عن السيطرة الألمانية، وشيئا من الأسف والعتب لتأخر العتاد الحربي الفرنسي في الوصول إلى تركية. وأوضح المارشال شاكماك أن الجيش التركي يعاني من نقص في المدفعية المضادة للدبابات والمضادة للطائرات، وفي الدبابات والعربات المدرعة والطائرات.

وأثناء وجودي في أنقرة، قابلت الكولونيل دوفاس رئيس شعبة العمليات في الجيش اليوناني، الذي أوفده رئيس أركانه الجنرال باباغوس خصيصاً، ليطلعني على التدابير التي اتخذتها اليونان للدفاع عن أراضيها. فأعربت له عن إعجابي بهذه التدابير، وعن ضرورة إنشاء جبهة موحدة في البلقان لمواجهة الألمان وربما الروس. مشيراً إلى أهمية قاعدة سالونيكا بالنسبة إلى قوات الحلفاء. وفي المقابل شدد دوفاس على وجوب تزويد الجيش اليوناني بالأسلحة التي طلبها من فرنسة وبريطانية.

وجدت لدى تركية واليونان، وكذلك لدى رومانية، تخوّفاً من مواجهة ألمانية، من غير أسلحة فعّالة، ولعل هذا التخوف خلق شيئاً من التحفظ والتردد في مواقف هذه الدول.

وكان للموقفين الروسي والإيطالي الغامضين، دور أساس في توجه دول البلقان. وإيطالية بوجه خاص حيرت الدول المعنية، حتى أن إنكلترة اعتبرت أنها ميالة إلى السلام، وأنها لن تشارك الألمان في أي حرب محتملة.

أما أنا فقد ذهبت إلى أنقرة، وفي ذهني تصور آخر للموقف الإيطالي، إذ كنت أعد أن روما تتصنع الحياد والمسالمة عمداً وبشكل منسق مع الألمان يمنحهم حرية الحركة في منطقة البلقان، وأن الإيطاليين سيدخلون الحرب متى وجدوا الوقت المناسب. ولم تغير زيارتي لأنقرة شيئاً في تصوري، بل على العكس بتُّ أكثر اعتقاداً بوجوب السيطرة على سالونيك فور حدوث ما ينبئ: باشتعال نار الحرب.

ومن المفيد التذكير بالموقف التركي إزاء روسية، إذ أعرب لي المسؤولون الأتراك عن اعتقادهم بأن هتلر ما كان ليجرؤ على اجتياح بولندا لو أنَّ هناك معاهدة بين روسية وفرنسة وبريطانية، مخافة الدخول في حرب على جبهتين. واللافت أن الرأي التركي جاء في وقت كانت روسية أكثر ميلاً للجانب الألماني، وكأن أنقرة تلقت معلومات من روسية تنبئ بأن الروس سوف يغيرون موقفهم.

من أنقرة أرسلت إلى باريس التقرير الآتي: «يبدو أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية، لم تتوصلا بعد إلى توافق بشأن قيادة الحرب في الشرق الأدنى، أو أن تعليماتهما بهذا الشأن لم تبلغ المسؤولين المعنيين».

من ناحية أخرى تُعد دول البلقان أنها لا تملك القدر الكافي من المعلومات، وأنها تعاني من نقص في العتاد العسكري، والتذمر من هذا النقص ولد لديها موقفاً خجولاً.

وبما أن أي تدخل مفاجئ لإيطالية في الحرب يعرضنا للخطر الشديد في منطقة البلقان، يغدو من واجبنا الاستفادة من الوقت المتوافر لإتمام الاستعدادات التي تكفل التدخل القوي والسريع من جانبنا.

إن المفاوضات البطيئة والسرية لن تحقق لنا نجاحاً في المشرق، بل إنها ستضعف موقفنا في البلقان، وتحرمنا القدرة على المناورة. من هنا يصبح لزاماً على فرنسة

وإنكلترة بعد اتفاقهما على تصور واحد للمعركة في الشرق الأدنى العمل الجاد على انتزاع الموافقة على التعاون الكامل في دول البلقان.

لكن ذلك لن يصبح ممكناً من دون تحقق شرطين، هما: إزالة خوف هذه الدول من تهديد المحور عبر مدها بالأسلحة الحديثة، والاستعداد الجدي لتدخل عسكري كبير لقوات الحلفاء في سالونيك».

لطالما اعتقدت بأن تفوقنا على ألمانية غير ممكن، الا إذا أرغمناها على القتال على جبهتين. وما حصل في الحرب العالمية الأولى هو أكبر دليل على ذلك، فماذا كان سيتحقق في «المارن» أو حتى «فردان» لولا اندفاع الجيش الروسي في الجبهة الأخرى. والكل يعلم أن هذه المعادلة أثبتت صحتها في الحرب العالمية الثانية، التي لعب الروس فيها دوراً حاسماً.

ولكن لنرجع قليلاً إلى الوراء حيث كنا نقول إنّ الاتفاقية التي وقعها الألمان والروس لم تكن في الحقيقة الا وسيلة لكسب الوقت استخدمها الطرفان.

ولكن سرعان ما تبين لألمانية أن عنصر الوقت ليس عائقا، إذ خلال أقل من شهر كانت الجيوش الألمانية قد احتلت فرصوفية وأزالت الجيش البولندي من الخريطة العسكرية، بينما لجأت الحكومة وقيادة الجيش إلى رومانية، وبقي الشعب البولندي وحده يواجه ذل الاحتلال.

بعد عودتي من تركية إلى بيروت أجريت بعض الحسابات العسكرية، فحذفت أولاً احتمال وقوف الروس إلى جانب الحلفاء الذين كانوا على وشك توقيع معاهدة سياسية وعسكرية مع تركية، كما أن فرنسة وبريطانية أعطتا رومانية واليونان ضمانة خطية، في حين أن المؤشرات السياسية كانت تنفي وقوف يوغوسلافية إلى جانب ألمانية

هكذا كان بوسعنا الاتكال على أكثر من 100 فرقة عسكرية تعضدنا في وقف أي زحف ألماني في اتجاه سالونيك. لكني كنت أشعر مع ذلك بوجوب إرساء القواعد الصلبة والسليمة لتعاون أوسع نطاقاً، يؤدي إلى إنشاء جبهة عسكرية موحدة في البلقان يكون للقوات الفرنسية والبريطانية فيها دور أساس ومباشر.

الجنرال دنتز:
فرنسة تنقسم في دمشق
وتساعد الكيلاني في العراق

بين 18 و20 نيسان/أبريل 1945 تجمعت باريس لحضور محاكمة هنري فرنان دنتز، المفوض السامي السابق في سورية ولبنان، والرجل الذي كان يمثل حكومة فيشي حين دخلت قوات «فرنسة الحرة» إلى المشرق! وليست هناك كتب كثيرة أو قليلة عن حياة دنتز، باستثناء الكتاب الذي روى وقائع محاكمته ومحاكمة الأميرال إستيفا! على أن وقائع المحاكمة ومطالعة دنتز أمام هيئة المحكمة العليا، تشكل واحدة من أهم القراءات والتحليلات السياسية لتلك المرحلة، وربما من أفضل ما قيل في كتب العلوم السياسية عن مرحلة الصراع الفرنسي ـ الألماني ـ البريطاني في المشرق.

يصف الكتاب بدء المحاكمة في 18 نيسان/أبريل بالقول إن دنتز الطويل القامة النحيل الجسم دخل القاعة متعباً شبه منهك. وحين طلب منه القاضي أن يقف، استأذنه بالبقاء جالساً فسمح القاضي بذلك. غير أن هذا الرجل المتعب (63 سنة)، ما لبث أن انتفض واقفاً ليعلن اسمه وهويته: «دنتز، 63 عاماً، جنرال في الجيش، حامل وشاح ضابط أكبر في جوقة الشرف، المفوض السامي السابق في سورية ولبنان والقائد الأعلى السابق لجيوش المشرق».

ثم بدأ المدعي العام في قراءة القرار ـ الرواية:

«تلقت الهيئة الاتهامية في محكمة العدل العليا في 4 نيسان/أبريل 1945 التقرير التالي:

«إن الهيئة الاتهامية التابعة لمحكمة العدل العليا، المنعقدة تحت اسم الغرفة الاتهامية، وبموجب الأمر الصادر في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1944، قد اجتمعت

في 4 نيسان/أبريل 1945 للتداول في المسألة الموجهة ضد دنتز (هنري ـ فرنان) وغيرار (جاك) الفار (...)، وبعد المداولة تبين أنه تجمعت ضد هذا المتهم دلائل كافية، إنه خلال عمله مفوضاً سامياً في سورية ولبنان، وقائداً أعلى للقوات المسلحة هناك، أقدم بالتعاون مع الموظفين «ران» و«غيرار» على تقديم المساعدة للعراق في ثورته ضد إنكلترة، وقدم التسهيلات للألمان من أجل استخدام المطارات السورية، وتقديم المؤن الضرورية لطيرانهم.

«وكذلك ساعد في ظروف مشابهة على نقل أسلحة مخزونة من سورية إلى العراق، وقاد وساهم في معركة دموية ضد قوات فرنسة الحرة، والقوات الإنكليزية الحليفة. واتفق أيضاً مع «ران» على منح القواعد الضرورية للقوات الألمانية، لكي يمكنها من قصف القوات البريطانية من الداخل، وكذلك قوات فرنسة الحرة، ولذلك فهو متهم بالتخابر مع العدو من أجل ترجيح قوته، وهي جريمة يعاقب عليها بموجب المادة 75 من قانون العقوبات».

بعد قراءة القرار الاتهامي يفتتح رئيس المحكمة، القاضي مونيبو، المحاكمة بالقول:

- رئيس المحكمة الأول: في تلك الساعات المظلمة من تاريخنا، كنت حاكماً عسكرياً على باريس، إذ كانت تلك لحظة انكسارنا، وقد وضعت لفترة قصيرة على ما أعتقد في السجن الألماني، وبعد إطلاق سراحك بعثت بك الحكومة حاكماً عسكرياً على مرسيلية تقديراً لك. ولأنك كنت معاوناً للجنرال ويغان في سورية فإن الحكومة جعلتك فيما بعد مفوضاً سامياً هناك. وقد توجهت إلى منصبك على ما أعتقد في نهاية العام 1940.

- نتز: ذهبت في 16 كانون الأول/ديسمبر 1940.

- رئيس المحكمة الأول: كانت تسود سورية حالة دقيقة جداً وصعبة جداً لم تكن تتطلب، في رأيي، الليونة بل السلطة، والحزم، والعزم على خدمة فرنسة لا أوروبة. ومن سوء حظك في هذه المرحلة أن ألمانية، التي بدأت السعي نحو هدفها بالسيطرة الكونية، وإلى تخريب الوضع في إنكلترة. يجب أن نتذكر

أن إنكلترة كانت تحارب وحيدة، وأنها كانت وحدها المدافعة عن الحريات في العالم، وإذا كان لا بد من إلحاق الأذى ببريطانية ومقدرتها على المقاومة، فالأفضل أن توجه لها الضربة في هذا الموقع، ومن سوء حظك أن الطريق إلى الهند وقناة السويس تمر في سورية.

لا تمر في سورية فقط طريق الهند وطريق السويس، بل تمر فيها أيضاً ما أسميه طريق النفط، وطريق النفط كانت في أهمية الطريق المؤدية إلى السويس أو إلى الهند.

هناك أيضاً، في مثلث صغير من آسية الصغرى، بلد يدعى العراق، هذا البلد وضعته عصبة الأمم تحت الوصاية الإنكليزية. هذا البلد بدأ بالتململ بسبب ما نسميه الطابور الخامس. المسنود إلى الدبلوماسية الألمانية القمعية، لكنها ليست من غير ذكاء. وقد بدأ هذا الطابور بالقيام بعمل يمكن أن يكون قاتلاً لمصالح بريطانية في العراق، ونتيجة ذلك قامت في العراق ثورة ضد الانتداب.

أريد أن أعرف منك عند هذه النقطة، ماذا كانت سياستك في العراق خلال الثورة؟ وما هي التعليمات التي كنت تتلقاها من حكومة فيشي؟ كيف فهمتها؟ وكيف نفذتها؟...

- الجنرال دنتز: كنت قد خدمت في سورية ولبنان في السابق كرئيس لجهاز الاستخبارات مع الجنرال ويغان، ثم بقيت عاملاً مع الجنرال ساراي، ومع المسيو دو جوفنيل. وبعد ذلك حلَّ مكاني في هذا الموضع الجنرال كاترو. حين وصلت إلى سورية أول مرة في العام 1923. قلت للجنرال ويغان إنني أعرف القليل عن السياسة الداخلية في سورية، فقد جئت إلى هناك من إسطنبول، حيث عملت مدة عامين أيضاً رئيساً للاستخبارات، وشهدت شيئاً من الصراعات الأوروبية، لكنني لم أكن أعرف شيئاً عن السياسات الداخلية في سورية . قلت يومها للجنرال ويغان بالحرف:

«إنك سوف تعيِّنني رئيساً لجهاز الاستخبارات، أي مديراً سياسياً للمفوضية السامية. إلا أنني لا أعرف جيداً المسألة الداخلية».

وردَّ عليَّ بالقول: «إن هذا لا يهمني. المسألة الداخلية سوف أتولاها بنفسي. لكن هناك شيء ألاحظه، وهذا ما هو مهم لدي، وهو أن جميع الخضات في سورية ليست نتيجة موجات تُولَد في سورية، بل في جميع الدول العربية وجميع الدول الإسلامية، وخصوصاً مصر. لذلك أنا بحاجة إلى رئيس استخبارات يعرف أطراف سورية، أما الداخل فأنا أتولاه، لأنني ألاحظ أنه من الخارج يأتي الخطر كله، وجميع التأثيرات التي تجعل عملنا صعباً في سورية».

لقد بقيت هذه الجملة محفورة في نفسي، خصوصاً أنها تفسر كذلك بعض النقاط التي كانت تعدل موقفي فيما بعد. لقد ذهبنا إلى سورية بموجب الانتداب الذي أعطتنا إياه عصبة الأمم في سان ريمو في العام 1920، حين أعطت أيضاً لبريطانية الانتداب على العراق وفلسطين.

إن إنكلترة التي تتبع سياسة خارجية أكثر ليونة من سياستنا بكثير، أنهت انتدابها على العراق فوراً. لقد قلتَ للتوِّ يا سيدي الرئيس في مطالعتك: إن العراق كان تحت الانتداب البريطاني، اسمح لي أن اعترض. إن الانتداب البريطاني على العراق منتهٍ، بل هو انتهى تقريباً قبل أن يبدأ. إذ ما أن دخل الإنكليز إلى العراق، حتى شعروا أنه يجب أن يفعلوا ذلك: لقد أقاموا حكومة، ووضعوا دستوراً حديثاً وأنشؤوا مجلس نواب ومجلس شيوخ، ثم أعطوا العراق الاستقلال، وأدخلوه عصبة الأمم.

إن الذي كان قائماً بين إنكلترة والعراق هو معاهدة! معاهدة يكون من خلالها لإنكلترة بعض الميزات، وتتعهد بموجبها بدعم العراق، على ألا تتجاوز قوتها العسكرية هناك، في أي وقت من الأوقات حجماً معيناً! إن عدم تطبيق هذا البند كان مبرراً ـ وليس بسبب ـ الثورة في العراق. على أي حال الانتداب على العراق انتهى، وبقي الانتداب على فلسطين: وهذا يوصلنا إلى الانتداب في سورية ولبنان. وهنا دعني أسجل ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: لقد وصلنا إلى سورية تحت (يافطة)، ليس من الضروري أن تكون هي الأمثل، ولطالما حاولنا أن نحول هذه (اليافطة) إلى راية. لقد جئنا كحماةٍ للمسيحيين.

هذه نقطة انطلاق خاطئة. إن جزءاً من لبنان مسيحي، لكن سورية في مجملها عربية محمدية. ومن ثم فإنه بمجرد أن دخلنا إلى سورية كحماة للمسيحيين، قد وضعنا سياستنا في مأزق، وكان ذلك سبباً لكثير من الصعوبات. وذلك كله لم يكن شيئاً. ولا بد لك أن تتذكر أنني بحكم مسؤوليتي كنت أتلقى البرقيات التي تبعث بها حكومة فيشي! أنا الذي كنت أراقب حكومة فيشي.

هذه إذاً كانت الصورة السياسية العامة. ودعني الآن أقول بضع كلمات، من وجهة نظر فرنسية، حول الوضع في سورية، كما وجدته حال وصولي. لقد وجدت البلد منقسماً تماماً: من جهة الجالية الفرنسية التي كانت تحتاج إلى كل عناية، ومن جهة أخرى السوريون واللبنانيون. وسوف أعرض أمامك إذاً واقعين مختلفين.

الجالية الفرنسية كانت منقسمة جداً. إذ بالنسبة إلى بعض أعضائها كان يتوجب على حكومة فيشي أن تطرد الجميع، وكان هؤلاء يتهمون المفوضين السامين السابقين.

إلا أنني طبعاً لم أوافق. وقد ألقيت كلمة من الإذاعة قلت فيها إنني أعتمد على الجميع، ولا أريد أن أخص أحداً بشيء. لقد أردت تقدمية لا رجعية. وكما قلت فإنهم كانوا يزعمون أن إدارة الانتداب خاضعة لحزب سياسي من الماضي، وأنا لم أرد أن أجعلها خاضعة لكنيسة، وقد برهنت على ذلك بالأعمال.

لقد حافظت على جميع الموظفين على الرغم من الحملات عليهم. وبين أكثر الموظفين تعرضاً للحملات، كان المسؤول عن الإرشاد العام: المسيو بونور، الذي كنت قد عرفته وقدرت مزاياه خلال إقامتي الأولى. كان المأخذ عليه هو ولاؤه للنظام الماضي، ومقاومته للحكم الجديد. وقد منحته ثقتي وطلبت منه تنظيم الشبيبة الفرنسية في المشرق ... إلخ.

- رئيس المحكمة: إنك تلاحظ أنني لم أقاطعك، لأنني أعتقد أن لك الحق في الإدلاء بجميع الإيضاحات. إن الدفاع هنا يجب أن يكون حراً.

- الجنرال دنتز: طالما تمنيت مجيء هذا النهار.

- الرئيس: أرجو أن نأتي إلى النقطة الرئيسة (الأسلحة والطائرات إلى العراق).

- الجنرال دنتز: سوف أصل إلى ذلك الآن، لكن مع استدارة قصيرة.

يجب أن أقر أن الوضع الداخلي في سورية لم يكن حسناً، ومن ثم فقد كان يتطلب كل عنايتي، وهذا يفسر كلمة كانت ترد دائماً في جميع البرقيات، ونجدها أيضاً في جميع المناشير التي كانت توزع ضدي، وهي كلمة «السر» الشهيرة! دعني أوضح: حين وصلت إلى سورية كانت الضمانة السرية قد ألغيت. ففي العام 1939 مع بداية الحرب تم إلغاء مجلس النواب، ومجلس الشيوخ، ورئاسة الجمهورية، واستبدلنا كل هذه المؤسسات بحكومات موظفين، وهذه الحكومات لم تكن تملك المقدرة ولا السمعة لتمثيل الرأي العام! لكن الشعوب السورية (التعبير لدنتز) قبلت بمثل هذه الحكومات، مادامت ظروف الحرب تفرض ذلك، لكن بعد الهدنة وانتهاء القتال قالوا لأنفسهم: الآن حان الوقت لأن نبحث عن شيء آخر.

رأيت نفسي آنذاك أمام وضع جديد. كانوا يقولون «خلصونا من حكومات الموظفين، وأُعيدونا إلى النظام البرلماني». حتى أن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك ليقول «هذا هو الوقت لإعلان الاستقلال الكلي للبلاد. الانتداب انتهى، فلنتجه بخفة نحو الاستقلال ونحو المصائر الجديدة».

لكن ثمة ظلاً كان خلف ذلك كله، والأفق لم يكن جلياً على الإطلاق. ففي داخل البلاد كانت هناك مؤامرات هائلة لا بد من تلافيها. كان لا بد من الحذر. فالرايخ كان يظهر الان في مظهر المنقذ المحرر! والرايخ هو الذي سيوحد البلاد العربية، ويحررها ويحيي الإمبراطورية العربية! ذلك الاستقلال وتلك الإمبراطورية لن تأتي بهما فرنسة، فهي الآن مهزومة، ضائعة النفوذ! أما بريطانية فكانت ـ في الذهن العربي ـ الدولة التي بشرت بفكرة الانتداب وهي العقبة الأساسية في وجه الحرية، في حين أن الرايخ المنتصر، المقترب، الذي أصبح في اليونان وعلى ضفاف البوسفور هو المحرر.

في الوقت نفسه بدأت في سورية حملة بالغة العنف، وقد زاد في تحريك هذه الحملة موظف لم أطلب مجيئه في أي وقت، أرسلته إليَّ حكومة فيشي - وزارة الخارجية في

هذه الحكومة – هو السيد م . فون هنتنغ. جاء السيد فون هنتنغ إلى سورية، وبقي فيها من 15 كانون الثاني/يناير إلى 15 شباط/فبراير. كان أحد الخبراء في شؤون الشرق الأدنى. وكنت أعرف تماماً ماذا يفعل. وقد اتهمتني بعض المناشير بأنه يفعل بعض الأشياء باسمي. كنت أعرف ذلك تماماً، كما يعرفه واضعو المناشير. لكن الحقيقة أنني كنت أحاول أن أضبط من أعماله، في حين أن كل ما فعله واضعو المناشير هو أنهم دونوا ذلك.

انصرف فون هنتنغ على الفور إلى التجول في طول البلاد وعرضها، وكان ذلك السبب في حدوث غليان شديد. وقد أجرت معظم الشخصيات الوطنية والسياسية اتصالاً به، إما مباشراً أو عن طريق آخرين. وبالإضافة إلى الأحزاب القائمة، شكلت حركة جديدة. وكان الطلاب التقدميون بصورة خاصة، يشكلون تجمعات تهدف إلى إقامة حزب يحل محل الأحزاب القديمة، ومحل السياسيين الذين وصفوهم بأنهم «سياسيو مآدب».

وهكذا انفجر في دمشق وحلب في الثامن من شباط/فبراير نزاع طلّابي: إضرابات في المدارس، إغلاق الأسواق، خطب عنيفة في المساجد ... إلخ. أما فرنسة فكما قلت كانت مسحوقة، وبريطانية كانت عقبة في وجه الاستقلال العربي. كل الأنظار كانت تتجه إلى ألمانية. وقد ظهرت صلبان معقوفة على جدران دمشق، وبدأت مغازل السوق تصنع أعلاماً هتلرية.

أبلغت السوريين أن إعلان الاستقلال لايزال سابقاً لأوانه، وأنه يجب عدم المراهنة على المستقبل، وأن الحرب لم تنته بعد، وأنني قررت – على أي حال – أن أمنحهم كل ما يرضي مطامحهم الشرعية! أقدمت إذاً على حل حكومة الموظفين، وشكلت حكومة من السياسيين والبرلمانيين في دمشق وبيروت، ودعمت ذلك بتشكيل مجلس استشاري. باختصار: مع بداية نيسان/أبريل كانت الحالة قد هدأت.

وباختصار تجنبت عملاً استقلالياً سابقاً لأوانه من طرف واحد، كذلك الذي وجدت فرنسة نفسها أمامه في كانون الأول/ديسمبر 1943، والذي كان يمكن أن ينفذ ضد فرنسة لحساب ألمانية.

الآن أصل إلى موضوع الطائرات الألمانية.

في 2 نيسان/أبريل قام رئيس المجلس العراقي السابق رشيد (عالي) الكيلاني بانقلاب، يدعمه الجيش، واتهم بريطانية بخرق معاهدة السلام، لكن من دون أن يعلن حالة الحرب ضدها، وعلى الفور قام غليان شديد في سورية، بعدما جاءت الشرارة من العراق. في هذا الوقت كانت ألمانية في ذروة قوتها، إنها سيدة كريت، تمتد قوتها عبر إيطالية وتحاذي الدردنيل، ومن ثم فهي في موقع القادر على التدخل في سورية.

هكذا ذهب عدو إنكلترة القديم، مفتي القدس الأكبر، إلى الحرب، يغلف الحملة على الاستعمار البريطاني بالدعوة إلى الانضواء تحت لواء دول «المحور» المحررة. هنا ندخل، سيدي الرئيس، في جوهر الموضوع. إن هذا التهديد لم يَفُتْ مندوب إنكلترة الذي كان المستر هافارد.

كنت، بعد وصولي إلى سورية في 29 كانون الأول/ديسمبر، قد استقبلت جميع أفراد السلك الديبلوماسي المعتمد لدى المفوضية السامية. وكان بين هؤلاء القناصل القادمون من جميع البلدان: تركية، البرازيل، الأرجنتين السويد، بل حتى اليونان، حتى بولونية. وكان هناك مندوب عن القنصلين البريطانيين العامين في حلب ودمشق، والقنصل العام الأميركي، والمستر فون هنتنغ الذي في بيروت.

في لقاء الوصول وجدت المستر هافارد الذي بدا محرجاً جداً، لكنني استقبلته بحرارة، قائلاً له بالحرف إنني أتمنى قيام أطيب العلاقة مع مندوبي بريطانية العظمى التي شاركت فرنسة في حربين ضد ألمانية. وذهب المستر هافارد مطمئناً كل الاطمئنان.

في بداية الحرب كان (هافارد) قد قال لسلفي، المسيو بيو، إن بريطانية لن تقدم أي مطالب ضد أن فرنسة في شأن بلدان المشرق خلال الحرب، لكن بعد الحرب يجب أن يفهم أنّ فرنسة لا تستطيع أن تحافظ على التميز الذي تحتله حتى الآن، وإننا سنلقى، في هذا الشأن، تعويضاً حسناً. لكن هذا الأمر لم يؤثر إطلاقاً في علاقتنا، وكنت أستقبل المستر هافارد دائماً في ود.

عندما جاء يزورني في 29 نيسان / أبريل كان الوضع شديد الخطورة، وكان للقلق البريطاني الذي عبر عنه ما يبرره. بل كنت أشاركه قلقه تماماً: إن سيطرة دول المحور على بحر إيجه تمتد إلى كريت ورودس. الحدود المصرية مهددة. العراق في ثورة عسكرية، وإن تكن غير مسلحة بعد. وفي مثل هذه الحال قد تفكر ألمانية في هجوم على قبرص، يجعلها تطوق حوض المتوسط الشرقي، وإذ تقيم رابطاً مع العراق ، تسيطر على القواعد العسكرية البريطانية هنا يكمن الأمر الذي يشكل كارثة لا حدود لها.

لقد كان الألمان على وشك أن يهاجموا قبرص. بل إن المستر هافارد قال لي إنه قد يغريهم البحث عن موطئ قدم، بمهاجمة المطارات السورية من أجل استخدامها في الهجوم على قبرص، إلا أنني طمأنته على الفور مؤكداً له أنني لن أسمح باستخدام المطارات السورية لأي كان، وأنني سأحرسها بكل ما أستطيع ضد أي هجوم مفاجئ. وعمدت على الفور إلى نشر قوات مدرعة حول مطارات دمشق وحلب وبيروت. وأبرقت إلى فيشي بقراري هذا في الثاني من أيار/مايو. وفي هذه الأثناء قام المستر هافارد بزيارتي من جديد معلناً امتنانه وشكر حكومته. وقلت للمستر هافارد الآتي:

«حضرة القنصل العام، دعني أعرض لك الإجراءات التي اتخذتها، وقد اتخذتها على مسؤوليتي الخاصة، لقناعتي بأنني في هذه القضية على حق. إذا جاء الألمان ونزلوا بالقوة في مطاراتي فعندئذٍ هم لا أنا يتحملون مسؤولية خرق اتفاقات الهدنة. وعندها يحق لي أن أقاومهم. ولا بد أن أخبرك أنني أحلت الأمر إلى حكومة فيشي، ولا أدري ما هي التعليمات التي قد تعطى لي، إذ في هذه الحال لا بد لي أن أنفذ ولو جزئياً».

وافقني المستر هافارد على ذلك، وأضاف هذه الجملة التي أعدها مهمة: «بالطبع لا نتوقع منك التمرد».

هذه الجملة بالغة الأهمية، لأنها توضح الأمر كله. لقد جاء القول من فم المندوب البريطاني نفسه، حول استحالة مثل هذا السلوك. والواقع أنه في 2 أيار/مايو، أي يوم جاء المستر هافارد لزيارتي وقال هذا الكلام، انفجرت المعارك بين إنكلترة والعراق، إذ هاجمت القوات العراقية، القوات البريطانية المتمركزة قرب بغداد. وقد دعا الزعماء

الدينيون في العراق شعوب الشرق الأدنى إلى الجهاد ضد إنكلترة، وقامت تظاهرات في كل المشرق، بل وعلى الأرض الإنكليزية نفسها، تأييداً للمتمردين العراقيين. وفي دمشق نفسها حطم زجاج القنصلية البريطانية.

إن الوقوف عكس التيار كان يعني دعوة الألمان فوراً، واستحضارهم إلى الشرق الأدنى! في حين أن المساعدة التي قدمناها للعراق ـ وسوف أثبت لكم ذلك ـ كانت وهمية ولا تساوي شيئاً، سواء بالنسبة إلى موضوع الطائرات أو موضوع الأسلحة! إن انفجار المحاولة البريطانية ـ العراقية أثار المشاعر إلى حدٍ بعيد في سورية، وحتى في لبنان، حيث انفجرت التظاهرات المعادية في كل مكان. وكان يتوجب عليَّ أن أضبط هذه الحركة، بحيث لا تلحق الضرر بالمصالح الفرنسية في المستقبل، تحت أي ذريعة من الذرائع، وأن أسعى إلى عدم استغلال هذه الأحداث من قبل الألمان، بحيث يصبح لهم موطئ قدم في سورية.

وإني آمل أن أبرهن لك على أن هذه الأهداف قد تحققت.

- الرئيس الأول: عند هذه النقطة من مطالعتك أحب أن أقدم اعتراضاً، لا شك يوافقني عليه حضرة المدعي العام: في هذه المرحلة التي تشير إليها، ألقى الماريشال بيتان خطاباً قال فيه إن فرنسة لا تنسى التزاماتها تجاه حلفائها السابقين، وأنها لن تقدم على أي عمل غير ودي تجاههم. لكن في إمكاننا القول ـ ويوافقني المدعي العام على ذلك ـ إن حكومة فيشي استغلت السرية التي نتحدث عنها من أجل اتباع سياسة مزدوجة. إذ في الوقت الذي كانت حكومة فيشي تعلن أنها لن تقدم على خطوة غير ودية تجاه انكلترة، فقد كانت في صدد صفقات تعقدها مع ألمانية، وهي صفقات ما لبثت أن انتهت إلى تعاون عسكري بين فرنسة وألمانية.

في ضوء هذه التفسيرات، يمكن القول إن تلك الاحتياطات لم تكن سوى غطاء لتدخل عدد من الشخصيات الألمانية في المشرق، والذي اتخذ حجماً مقلقاً خصوصاً فيما يتعلق بالمدعو «ران»، الذي نراه في هذه المحاكمة كما رأيناه في محاكمة الأميرال

إستيفا، حيث أدى الدور نفسه تماماً. ذلك أن فرنسة في تلك المرحلة كانت متوهمة بأن لها مفوضاً سامياً في المشرق، وكانت متوهمة بأن لها مقيماً عاماً في تونس! لكن تبين أن المستشار الألماني ران كان رديف المقيم العام . ثم إننا نعود فنجد هذا المستر ران عندك، في مرحلة يفترض فيها المحافظة على تلك السرية التامة، ولذلك أقول لك. بل المدعي العام هو الذي يقول لك: «السرية تجاه من؟ تجاه إنكلترة بالطبع».

في هذه الفترة كان يرافق «ران» عدد من الشخصيات الألمانية! وكانت البرقيات تحدد الشروط التي يجب أن يأتي فيها أولئك الألمان: أن يأتوا بثياب مدنية! أن يأتوا خفية بحيث لا يعرف أحد في المشرق بمجيئهم. أما ران نفسه فقضت التعليمات ألا يأتي تحت اسمه الحقيقي، بل تحت الاسم الفرنسي رينوار، اسم الفنان الكبير! ثم بعد مجيء الألمان السبعة أو الثمانية بقليل، وقعت ثلاث اتفاقيات فرنسية ـ ألمانية سوف أعود إليها لاحقاً. إذاً، إلى ماذا أدت الاحتياطات التي اتخذتها؟ لقد أدت، بالتأكيد، إلى شعور بريطانية بالقلق على مصالحها الحيوية. وقد تصرفت بريطانية كما يجب، وكانت النتيجة ما سمي آنذاك، وما سميته أنت أيضا على الأرجح، الاعتداء على المشرق. إن هذا العدوان على المشرق لم يكن سوى الدفاع الشرعي عن النفس. وهذا العدوان هو الذي أدى، كما تعرف ، إلى أن تطلق النار على الفرنسيين وعلى الإنكليز.

- الجنرال دنتز: هناك شيء يجب أن أقوله. لقد تحدثوا عن اتفاقيات وبروتوكولات، إن هذه اتفاقيات والبروتوكولات عرفت بها أول مرة خلال التحقيق.

- الرئيس الأول: لقد تلقيت برقيات تعكس هذه اتفاقيات. في هذه اتفاقيات يقولون: «لا نستطيع أن نعّد ألمانية عدواً بسبب اتفاق المهنة، فإننا مرغمون على إظهار الكثير من الاعتبار لها. أما بالنسبة إلى إنكلترة فيجب ألا نقوم بأي اعتداء عليها، ولكن إذا أقدمت هي على ما يسمونه عدواناً ـ وهو في الواقع دفاع شرعي عن النفس ـ فلك الحق آنذاك في اتخاذ كل الإجراءات الحربية الأكثر ضراوة ضدها.

- الجنرال دنتز: كنت أعارض بشدة جميع بنود الاتفاقيات
- الرئيس الأول: والبرقيات التي تلقيتها بخصوص تلك الاتفاقيات؟
- الجنرال دنتز: كانت مصاغة بغموض يترك لي حرية التصرف، في حين أن البروتوكولات...
- الرئيس الأول: أعتقد أن في إمكاني أن أقول لك شخصياً إنه يصعب علي جداً الأخذ بنظرية الخيانة بسبب الإهمال. ومن الصعب جداً علي أن أقر بأن مفوضاً سامياً ـ أي الرجل الذي يفترض أنه ذكي وحذر وذو مبادرات، والذي هو في الوقت نفسه عسكري من طراز رفيع ورجل سياسي وإداري كبير، مثل هذا الرجل ـ لا تثير تلك الاتفاقيات شكوكه، ولا يرد عليها على الفور.
- الجنرال دنتز: أجل، لقد أرسلوها. لكننا سوف نرى في البرقيات نفسها، بأي طريقة استطعت أن أتصرف. بالنسبة إلى قضية السر، لا يعني ذلك إطلاقاً سراً على بريطانية التي كانت دائماً على اطلاع على ما يجري. إليك ما فهمته دائماً على أنه «سر»: لم أرد أن يدري السوريون بتلك الحركة، لقد وجدت نفسي أمام ثورة سورية داخلية، والسرية كان تطبق فقط على الناس في الداخل. لقد كان الهدف أن نحول دون سقوط الناس في أحضان ألمانية.

أما السر فيما يتعلق ببريطانية، فقد كان الأمر محدداً بالنسبة إلي. لقد وصل «ران» و«غيرار» إلى حلب مساء التاسع من أيار/مايو، واستقبلتهما صباح العاشر منه. في ذلك اليوم أيضاً وصل الجنرال كاترو إلى القدس، وتسلم الجنرال الإنكليزي قيادة القوات البريطانية في القدس. إذاً، مسألة السر فيما يتعلق بالإنكليز قد سويت تماماً. وسوف ترون أن الإنكليز كانوا على اطلاع تام على ما يجري في مطاراتنا، وكانوا يستعدون لنسف الأماكن التي ليس فيها ألمان. وهذا يثبت أنه لم تكن هناك ضرورة للمحافظة على أي سر فيما يتعلق بالإنكليز.

أما قرار السماح للطائرات الألمانية العاملة في العراق بالمرور في سورية، فقد اتخذه الأميرال دارلان في باريس في 5 أيار/مايو.

في 8أيار/مايو وصلتني برقية من الأميرال دارلان، تبلغني بوصول ضابط ألماني في اليوم اللاحق، الميجور فون بلومبرغ المولج بمهمة استطلاع المدرجات الصالحة للطيران. استدعيت قائد القوات البرية في دمشق وأطلعته على المهمة، وطلبت إليه أن يرد على السؤال المطلوب بقدر الإمكان. ومن بعدها لم أعد أسمع شيئاً عن بلومبرغ. كل ما أعرفه أنه كان من أوائل الواصلين إلى سورية، وأنه ذهب من هناك إلى بغداد، حيث قتله جنود عراقيون.

في 9 أيار/مايو كنت لا أزال في دمشق، حين تلقيت اتصالاً هاتفياً من المدعو غيرار، الذي وصل إلى حلب، وطلب رؤيتي صباح اليوم اللاحق. لم يخطر لي أبداً ما هي مهمة هذا المسيو غيرار. فقد ظننت أنه في الطريق إلى جيبوتي. استقبلته بترحاب، لكنني قلت له إنني على موعد في بيروت، ولن يكون في استطاعتي الاجتماع به سوى في الغد.

على أنه قال لي «عفواً، لكنني قادم من باريس، وقد جئت بطريق الجو. إن المسألة ملحّةٌ جداً ولا بد أن تستقبلني غداً في بيروت. وأنا لست وحدي على أي حال». تساءلت من ترى يرافقه؟ وأخيراً تحت إلحاحه قبلت، وتوجهت صباح الغد إلى بيروت.

كان ذلك في العاشر من أيار/مايو. وفي الحادية عشرة استقبلت المسيو غيرار في قصر الصنوبر في بيروت. كان غيرار وحده، وقد أطلعني على أوامر الأميرال دارلان وقال: «إنني منخرط في مفاوضات بالغة الأهمية مع الألمان، قد تنتج منها فوائد كبرى في الإفراج عن أسرانا. وإنني آمل في الحصول على تسهيلات تعطى للألمان في سورية، لمساعدتهم في العراق، على أمل أن نحصل منهم على فوائد ضخمة».

في رأيي، كان ما يجب أن نفعله هو إنقاذ مصالح فرنسة الدائمة، وذلك بإعطاء تسهيلات للرايخ في سورية، مع السعي إلى حد المضاعفات الداخلية. لذلك كان لا بد من ضبط المطالب الألمانية من جهة، ومن جهة أخرى تلبية المطالب الضرورية للحيلولة دون احتلال دائم. تلك كانت خطتي، تلك كانت سياستي التي لم تتغير أبداً.

بعد ذلك قال لي المسيو غيرار إنه في رفقة الدبلوماسي الألماني ران، المكلف بتنفيذ هذه المهمة في العراق، ثم قدمه إلي.

عرفت منذ تلك اللحظة أن غيرار نفسه قد خالف مهمته الأساسية. فقد كانت مهمته أن يحول دون أي اتصال بيني وبين الألمان. لقد حدد الأميرال دارلان مهمته بطريقة تجعلني في إعفاء عن أي اتصال مع الألمان، في حين أن أول ما فعله بعد القليل من المقدمات والشروح أنه جعلني على صلة مع ران. إذاً لست أنا الذي طلب الاتصال «بران».

كان المسيو ران مكلفاً بتدبير المساعدة للعراق. وقد أبلغني أن الأمر يتعلق بنقل طائرات ألمانية إلى هناك، ترفع الألوان العراقية وتتجه إلى الموصل وبغداد، لكنه لا يعرف عددها، ويريد لها التزود بالوقود.

عرفت أيضاً أن هذه الطائرات لن تبقى أكثر من 12 ساعة، وأنها ستصل في المساء وتسافر صباح اليوم الآتي. طبعاً سيدفعون لنا ثمن الوقود، وطواقم الطائرات لن تغادر المطارات. ثم أبلغني المسيو ران أنه سيقطن في سورية تحت اسم رينوار، وأنه من الأفضل ألا يتنقل باسمه الألماني. انتهى اللقاء عند هذا الحد فيما يتعلق بمسألة الطائرات، وتوجه المسيو ران إلى دمشق.

كانت ردة فعلي عنيفة، وقد قلت لغيرار بعنف «إن هذا الذي تفعلونه عمل عبثي من الوجهة العسكرية والتقنية. إن هذا الدعم للعراق لن يؤدي إلى شيء. كيف نقيم قاعدة حين لا يكون لدينا خط تموين ولا أي مساندة»؟

لكنني قلت في نفسي سوف أقدم لهم تسهيلات الترانزيت، لكي لا يقيموا منشآت ثابتة. بعد العاشر من أيار/مايو وصلت برقية من الأميرال دارلان، تنبئ بوصول طائرة ألمانية عليها مهندس. ثم وصلت ثلاث طائرات تحمل الألوان العراقية، وأكملت إلى بغداد، وصلت هذه الطائرات في 11 أيار/مايو قبل أن نستطيع إصدار أي تعليمات حول استقبالها! هبطت الطائرات في قاعدة رياق، وقال طياروها إنهم في الطريق إلى دمشق. وفيما كنت أقوم بزيارة لرئيس المجلس السوري، حلقت هذه الطائرات فوق رأسي.

طلبت أن تهبط أي طائرات أخرى في تدمر، بعيداً عن الأعين، كما طلبت الحد من عدد الطائرات العابرة، ورفضت أن يترك الألمان أي قطع غيار! لكن الشيء الآتي الذي طلبته مني حكومة فيشي، هو أن أخلي مدرجات حلب وأتركها في يد الألمان.

لقد وجدت نفسي أمام المعضلة الآتية:

أن أخلي حلب واترك دفاعاتها في يد الألمان، يعني أن نتخلى عن قاعدة للألمان في شمال سورية. إنني لا أريد ذلك، وأفضل الإبقاء على احتلالنا ومنعهم من التمركز، ولو اضطرني الأمر إلى استخدام المدافع المضادة للطائرات. وبهذه الطريقة تجنبت تنفيذ أوامر فيشي بالتخلي للألمان عن قاعدة جوية في شمال سورية.

120 طائرة ألمانية مرت في حلب. لكن كما توقعت، لم يكن لتدخل هذه الطائرات أي فاعلية. وما أن بدأ التدخل الألماني في 15 أيار/مايو، حتى بدأت الخلافات بين الألمان أنفسهم. فقد طالب العسكريون الألمان بقاعدة في سورية. وطالب ران بقنصلية في بيروت يتولى شؤونها بنفسه، غير أنني عارضت ذلك رسمياً، ونجحت في إجهاض هذه الفكرة. إن إقامة قنصلية ألمانية في بيروت، كانت تعني خلع المفوض السامي الفرنسي، لحساب مفوض سام للرايخ. كان لا بد من تجنب هذا التخلي. وأمام رفضي تخلى ران عن فكرته.

للأسف، في هذا الوقت، حقق المسيو غيرار رغبته الجامحة في إنهاء مهمته، تاركاً إياي وجهاً لوجه مع ران. وعلى الرغم من كل اعتراضاتي، سافر في 31 أيار/مايو. وعشية سفره أبرقت إلى دارلان الآتي:

«لقد انتهت المقاومة في العراق. ومن المهم أن نتجنب في سورية الوقوع في خطأ مماثل. إن وجود العناصر الألمانية يشكل ذريعة للهجوم. إنني أطلب إنهاء المهمات القائمة، وجميع الرحلات الألمانية من أي نوع». في اليوم المقبل رد الأميرال دارلان بأنه ليس هناك أي اتفاق بالتعاون العسكري ضد بريطانية وأنه طلب سحب الألمان الذين جاؤوا إلى سورية.

غير أنه في ذلك اليوم وقعت مفاجأة أخرى. فقد وصل الكولونيل الألماني يانغ إلى حلب بزيه العسكري، مدعياً أن هناك اتفاقاً ألمانيةً ـ فرنسياً بالتعاون العسكري ضد الإنكليز. رفضت تماماً أن يأتي إلى بيروت، وطلبت من قائد قوات جانيكين أن يصفي هذه المسألة!

نجح جانيكين في إبعاد يانغ. وفي 6حزيران/يونيو لم تعد في سورية أي طائرة ألمانية، وقد أبلغت القائم بالأعمال الأميركي الذي كان يرعى المصالح البريطانية بهذا الأمر.

هذه، بصورة عامة، سيدي الرئيس، قصة مرور الطائرات الألمانية

يثير الرئيس الأول للمحكمة، مسألة السلاح الذي أرسل إلى العراق، ويقول دنتز إن غيرار وران قدما الطلبات في شأن الأسلحة، وإنه نجح في خفض اللائحة من 30 ألف بندقية إلى 20 ألفا، ومن 800 رشاش إلى 200. ومن 24 مدفعا عيار 75 إلى أربعة.

- الجنرال دنتز: كنت مقتنعاً بصورة تامة، بأن هذه الأسلحة لن تؤدي أي غرض، والواقع أنها ظلت من دون استخدام. وقلت يومها لرئيس أركاني: إن هذه الأسلحة لن تفعل شيئاً سوى أنها ستقع في أيدي الديغوليين والإنكليز. لقد كان إرسال تلك الأسلحة عملاً وهمياً كما ثبت فيما بعد! انطلق القطار الأول في 13 أيار/مايو. وفي 21 منه أصرت القيادة الألمانية على مجموع المدافع من عيار 75و155. وكانت تعليمات حكومة فيشي إنه «من الأفضل أن نرضي الألمان ولو جزئياً، من دون تعريض الأمن في سورية للضعف».

كان مجموع الأسلحة المطلوبة الآن 3 بطاريات مدافع، 155 قصيرة المدى، و354 بندقية رشاشة، و633 شاحنة خفيفة، و54 شاحنة ثقيلة! من كل ذلك نجحت في أن أرسل في 26 و27 أيار/مايو 8 مدافع ،155 قصيرة المدى و354 بندقية رشاشة قديمة جدا! كانت لا تساوي شيئا سواء بالنسبة إلى قوات حسنة التدريب، أو غير مدربة. أما بالنسبة إلى الشاحنات التي أرسلناها فكان مجموعها 32 شاحنة. هذا كل شيء. وقد طلب مني ران أن أرسل مدربين فرنسيين إلى العراق، غير أنني رفضت ذلك بصورة مطلقة، ثم طلب مني أن أدرب جنوداً عراقيين، فرفضت أيضاً.

- الرئيس الأول: هل لك أن تقول لنا لماذا طلبت بديلاً لهذه الأسلحة؟ خوفاً من أي اعتداء؟

- الجنرال دنتز: ما أن أرسلت الشحنة الأولى، حتى طلبت بديلاً لها. وقلت في برقيتي إن الأسلحة مطلوبة تحسباً لهجوم بريطاني. وقد طلبت بصورة خاصة مدافع مضادة للطائرات وأسلحة مدرعة، لقد كان طبيعياً، سيدي الرئيس الأول ـ وقد فعلنا ذلك في إفريقية الشمالية ـ أن نحاول إخراج كل الأسلحة الحديثة من فرنسة. لقد أنقذناها من أيدي الاحتلال الألماني.

- الرئيس الأول: أفهم من كلامك أنك أنقذت السلاح من أجل استخدامه ضد حلفائنا البريطانيين! ثمة ازدواجية هنا. ثمة شيء غير واضح.

- الجنرال دنتز: كان الهدف على أي حال إنقاذ العتاد.

- الرئيس الأول: أيها المتهم، هل لك أن تشرح لنا ظروف «الاعتداء الإنكليزي» وماذا أعددت لمقاومته؟

- الجنرال دنتز: كما قلت سابقاً، وصلت بعثة غيرار إلى حلب في 9 أيار/مايو، وبدءاً من اليوم الآتي تسلم الجنرال ولسون قيادة الجيش البريطاني في القدس، التي وصل إليها أيضاً الجنرال كاترو. في 14 أيار/مايو. أعلن المستر (أنطوني) إيدن في مجلس العموم أن الحكومة البريطانية منحت جميع السلطات إلى قواتها المسلحة، لكي تقف في وجه أي محاولة ألمانية لاستخدام الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. وأضاف أن حكومته تؤيد تحقيق مطالب الشعبين السوري واللبناني. وفي 8حزيران/يونيو أعلن الجنرال كاترو استقلال سورية ولبنان، وإلى جانبه سفير بريطانية العظمى في القاهرة. صباح ذلك اليوم عبرت القوات الحليفة الحدود الجنوبية لدول المشرق. والأوامر التي كانت لدي تقضي بأن أواجه بالقوة أي هجوم بريطاني.

ماذا يكون موقفي؟ أطيع أم أتمرد؟ إذا لم أطع يعني ذلك إلغاء الهدنة، في وقت كان كل شيء إلى جانب دول المحور (صيف 1941). التمرد يعني تعريض فرنسة لكل

المطامح والشهوات الألمانية، وخصوصاً وضع يدها على إفريقية الشمالية! فالواقع أنه في إمكان دول المحور أن تتمركز في سورية، وأن تقيم مسرحاً جديداً للعمليات. وكان بإمكانها، بكل سهولة، أن تعبر من صقلية إلى تونس، فتحتل بنزرت، وتؤمن بذلك لقواتها في منطقة طرابلس قاعدة وخط مواصلات! وفي العام 1943 تطلب إخراج قوات المحور من تونس، ستة أشهر، و9 كتائب أنغلو ـ سكسونية، و3 كتائب فرنسية!

في خطابه أمام مجلس العموم في 10 حزيران/يونيو عن الهجوم البريطاني على سورية، أعلن تشرشل أن رد الفعل الألماني لا يزال المجهول الأكبر! لكن فرنسة وإفريقية الشمالية هي التي دفعت ثمن ردة الفعل هذه.

لم يكن هناك إذاً سوى حل واحد: الطاعة! إن هذه الأسباب لم تعد قائمة الآن، لكن قواتي كانت تعرفها، وأنتم شهود على ذلك، وقد شرحتها للضباط البريطانيين الذين التقيتهم بعد المعارك. لكن كيف كان يمكن يومها أن نشرح الأمر للشعب الفرنسي المشتعل. إليكم الأسباب:

لقد قيل إنني دافعت عن سورية من أجل هتلر. وهذا ليس صحيحاً. لقد دافعت عن سورية، عن فرنسة، وإفريقية الشمالية ضد احتلال ألماني، وهذا هو سبب تصرفي كما تصرفت.

- الرئيس الأول: اشرح لنا ظروف الهجوم والرد، وتحليق الطائرات، وطلبك في 16 حزيران/يونيو بتدخل الشتوكا.

- الجنرال دنتز: منذ العاشر من حزيران/يونيو، بدأ الخصم بممارسة ضغطه على سواحل بيروت، العاصمة السياسية في المشرق. وكان الأسطول البريطاني يقصف مؤسساتنا الساحلية، ويمنع الحركة على طول الكورنيش الذي يشكل خط المواصلات الوحيد بالنسبة إلينا. وكانت بحريتنا عاجزة في وجهه، وكذلك سلاحنا الجوي. في 11 حزيران/يونيو، أي بعد ثلاثة أيام من بدء الهجوم، كنا قد خسرنا ثلاث كتائب. وقد هوجمت صيدا في 12 حزيران/يونيو، ولم نستطع فك الحصار عنها إلا في 13 منه. ومن أجل الدفاع عن الساحل، كان

لا بد من تفريغ دمشق بصورة خطرة، ومن ثم فإن الدفاع عن سورية سينهار خلال أيام. إن مثل هذا الانهيار السريع يعرضنا لخسارة كل شيء، سياسياً وعسكرياً! وهكذا فكر قادتنا العسكريون الأكثر تعرضاً للقصف البريطاني، أن يطلبوا تدخل الطيران الألماني! كيف حصل ذلك؟

في التاسع من حزيران/يونيو جاءني الجنرال غيورغيس، الجنرال الإيطالي الذي كان على رأس لجنة المراقبة الإيطالية، وعرض عليَّ بصورة تلقائية تدخل طيران المحور، إليكم البرقية التي بعثت بها إلى حكومة فيشي حول هذا الأمر:

«استقبلت هذا الصباح الجنرال غيورغيس، الذي أعلن أنه اقترح على روما تدخل الطيران الإيطالي في فلسطين والأراضي الداخلية البريطانية. وقد أجبته بأن الإيطاليين أحرار في أن يضربوا بريطانية حيثما شاؤوا، بشرط واحد هو عدم استخدام أي أراض في سورية».

إلا أن حكومة فيشي كانت تتعرض لضغط هائل من لجنة الهدنة في فيسبادن والقيادة الألمانية العليا، ولذلك نسبت طلب التدخل الإيطالي إليَّ! لكن أنا لست الرجل الذي يقبل بأن تقاتل القوات الفرنسية وفوق رؤوسها الطيران الألماني، على أنني أدركت أن فيشي تعرض لضغط فيسبادن، بقدر ما كنت أتعرض لضغط ممثلي ألمانية. لقد فهمتها تماماً.

في الحادي عشر من الشهر جاء لمقابلتي الأميرال غوهون، قائد القوات البحرية في المشرق، وقد قرأ عليَّ برقية أرسلها إلى فيشي تقول: «لقد أصررت أمس على القائد العام، بأن يخول فرق الشتوكا استخدام أراضي المشرق، بهدف خفض ضغط قصف السرب البريطاني، الذي يربح يوماً بعد آخر في الشمال، وسوف يكون ذلك الحل الوحيد الناجع في الوضع الحالي. إنني واثق بأن هذا الأجراء الذي كان مرفوضاً قبل الهجوم البريطاني سيلقى قبولاً حسناً من جميع المقاتلين».

زارني الأميرال كروتون في الحادي عشر. وظهر اليوم الآتي بلغت برقيته حكومة فيشي! قاومت إرسال تلك البرقية حتى الظهر، لكنني في الواحدة بعد الظهر أحلت

الأمر إلى فيشي، وأرسلت بدوري برقية في المساء أقول فيها: «إن القصف المستمر من قبل الأسطول واستنزاف القوات السريع جعلاني أغير وجهة نظري.

جاءني من فيشي الرد الآتي:

«سوف نرسل إليك:

أولا: أسراباً مؤهلة لمقاتلة الأسطول.

ثانياً إن مساعدة الشتوكا يجب ألا تطلب ما لم تكن، ليس فقط سريعة ومستمرة، بل أيضاً ضخمة جداً». لكنني في اليوم اللاحق أبرقت مجدداً أرحب بإرسال الأسراب، وأقول إن الاستعانة بالألمان تعني احتلال سورية!

إن تصرفي هو الذي حال دون التدخل الألماني، على الرغم من ضغوطهم الشديدة في بيروت وفيسبادن. وفي غضون ذلك وصلت إلى قوات المشرق برقية تقول: «قاوموا أطول مدة ممكنة، لأسباب تتعلق بالسياسة العامة. وحين تضطرون إلى وقف مقاومتكم دمروا كل العتاد».

بين 13 و16 حزيران/يونيو ساء الوضع كثيراً، سقطت صيدا وأدى سقوطها إلى كشف بيروت. وسقطت جزين ومرجعيون. وأصبحت مداخل بيروت ولبنان مكشوفة كذلك. ومن الجهة الأخرى صارت دمشق مهددة أيضاً، إذ ظهرت على أطرافها وأطراف حلب طوابير مدرعة قادمة من طريق الصحراء.

أبرقت إلى الأميرال دارلان الآتي:

«إنني الآن في وضع غير متوازن، خصوصاً في دمشق، حيث وجدت القوات هذا الصباح متعبة جداً... والخطر الأتي من الصحراء يتأكد... في هذه الحال سوف يكون تدخل الشتوكا حاسماً. إن ران يؤكد أن الزوار سوف يغادرون بالسرعة التي يأتون بها».

رد دارلان بالقول إنه لا بد للحكومة أن تدرس مثل هذا الطلب، وإنه سوف يبعث إلي بالجنرال بريغيه. وبالفعل وصل بريغيه في السابع عشر. وبعد اجتماع بيننا أبرقنا نقول: إن الوضع قد تحسن. فقد قمت بهجمات معاكسة، واستعدت جزين ومرجعيون.

لكن في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو تأكد لي أننا نخوض معركة خاسرة. وكنت في العشرين قد طلبت من المدير السياسي في المفوضية أن يجري اتصالات مع القنصل الأميركي المستر فان انغرت، وسألته: بأي طريقة نستطيع أن نضع حدا لهذه المعركة؟ وفي 21 حزيران/يونيو بعث إلي المستر فان انغرت بمذكرة شروط الحلفاء جاء فيها:

«إن حكومة صاحبة الجلالة، التي لا تريد أن تفرض بأي شكل من الأشكال شروطاً مهينة على الجنرال دنتز، مستعدة تماماً لأن تمنحه كل شرف الحرب، وكذلك للضباط والإداريين الذين لم ينفذوا سوى ما اعتبروه أوامر حكومتهم. ومن ثم فإنه لن يصدر على الجنرال دنتز أو رفاقه أي حكم بالإعدام أو أي حكم آخر».

في 26 حزيران/يونيو أرسلت إلى فيشي القومندان تزه، يرافقه القومندان غودليير، ليعرضا الوضع كما هو بعد سقوط دمشق واستحالة الاستمرار في المعركة! في 29 منه قصف قصر الصنوبر في بيروت، ودمر جزء منه. واقترح بعض الضباط أن أرد بقصف مقر المفوض السامي البريطاني في القدس، فقلت إن القدس لا تقصف. إنها المدينة المقدسة لثلاث ديانات.

في 3 تموز/ يوليو سقطت تدمر بعد حصار دام ستة أيام، فأصبح الفرات مهدداً، والطريق إلى حلب مكشوفة. وأخيراً في 8 تموز/يوليو تلقيت الإذن بالتعاطي مع الحلفاء، فأبلغت القنصل الأميركي فوراً الرغبة في وقف النار، وفي اليوم الآتي حمل إلي المذكرة البريطانية، التي كانت بمثابة عفو شامل ودعوة للقوات الفرنسية للانضمام إلى قوات الجنرال ديغول.

ويفل:
من العلمين إلى سورية إلى النفي

يميل الجنرالات عادة إلى بناء أمجادهم فوق ركام الآخرين! هكذا يقول لنا رونالد لوين! لكن ألفيلد، مارشال اللورد ويفل القائد الأعلى ونائب الملك، بنى شهرته الأساسية على كونه... كاتباً.

طبعاً أدى الرجل دوراً كبيراً في الشرق، لكن بالنسبة إلى مواطنيه، كان ذلك الكاتب الذي وضع «أزهار الآخرين»، بالإضافة إلى «دراسة في العظمة»، وهو أهم المراجع عن حياة معلمه، اللنبي. وحين يقول لنا «ويفل» في معرض الدفاع عن اللنبي: إن الجنرالات يخطئون كثيراً، فعلينا أن نعرف أنه يدافع بصورة غير مباشرة عن نفسه.

لقد ارتكب ويفل أخطاء عسكرية كثيرة.

لكنه، في الوقت نفسه خاض معارك كثيرة. ولعله القائد «الطيف» الوحيد الذي كان باستطاعته أن يكتب:

«خلال الحرب الحالية، وفي أقل من أربع سنوات، من أيلول/سبتمر 1939 إلى حزيران/يونيو 1943. توليت قيادة أربع عشرة حملة في الصحراء الغربية، وفي شمال إفريقية، وفي الصومال البريطاني، وفي أريترية، وفي الصومال الإيطالي، وفي اليونان، وفي كريت، وفي العراق، وفي سورية، وفي إيران، وفي الملايو، وفي جزر الأنديز الهولندية، وفي بورما وفي أراكان».

وكما كان الجنرال غورو ذا ذراع واحدة، فقد تميز ويفل بأنه ذو عين واحدة. ويروي هارولد نيلسون في مذكرات كتبها في أول حزيران/يونيو 1943 قصة لقائه الأول مع ويفل:

«التقيت فجأة برجل ذي عين واحدة. وقد تذكرت فوراً ذلك النهار عندما كنت في الكي دروسية ودخل علينا رجل ضئيل، بدا وكأن له هالة عظيمة. وقلت في نفسي: لا بد أنه عريف في دائرة المراسلين، وقد جاء إلى رئيسه بكمية جديدة من الإحصاءات. لكنني تنبهت فجأة إلى حقيقة الأمر، ووقفت صائحاً: يا إلهي، إنه الماريشال فوش»!

لم يكن ويفل يوحي بهيبة المارشالية لأول وهلة. وكان رجلاً غامضاً منطوياً على الذات في أي حال. وقد تذمر من ذلك المؤرخون العسكريون الذين أرادوا الغور في حياته. ولعل ذلك كان أمراً عفوياً بالنسبة إليه، لم يلحظه، لأنه وهو يدوّن سيرة اللنبي فيما بعد، سوف يتذمر من أن الرجل لم يترك أي أوراق أو مذكرات يمكن أن يعود إليها المؤرخون.

لكن على أي حال هناك أشياء كثيرة يمكن للمرء أن يقرأها في تاريخ الرجل. خصوصاً - طبعاً - في الشرق، وفي الغرب ظل اسم ويفل مرفوعاً في شوارع ليبية حتى مجيء العقيد معمر القذافي، وإلغاء كل المعالم الأجنبية.

الرجل، إذاً مزيج من الفيلسوف والعسكري، ومزيج من الفشل والنجاح. بل الغرابة أنه نجح في جميع المعارك التي خاضها ضد قوات فيشي والإيطاليين وأخفق في معاركه ضد اليابانيين والألمان. لكن الظروف تتحكم في المعارك وليس الأبطال، كما سيقول في تعليق كتبه «للتايمس» عن معركة «العلمين» ثم يتساءل: ماذا كان حدث لو أن هنيبعل كان لديه 50 فيلاً إضافياً؟ أما كان غير وجه التاريخ؟:

كان ويفل دائماً بحاجة إلى المزيد من الفِيَلَة عندما يتعلق الأمر بالألمان واليابانيين! كذلك كان دائماً بحاجة إلى المزيد من الكتب «التي كانت ذخيرته الأخرى». فقد نظر إلى كل أمر من زاوية تاريخية ما، وإلى كل معركة من خلال القادة الذين سبقوه إليها. هكذا فعل اللنبي من قبل، غير أن ويفل كان مثيراً للجدل في الأميرالية، في حين أن اللنبي حقق للإنكليز من الانتصارات ما جعله معفى من تحاليل النقاد العسكريين في لندن.

وعندما انطلق ويفل في مهمته بصفته قائداً أعلى للقوات البريطانية في الشرق الأوسط ـ تموز/يوليو 1939، كتب جون كونيل، الرجل الذي سوف يؤرخ حياته بكل حماسة فيما بعد:

«وهكذا صعد السلم المجرد، العظيم، سلم الواجب، من دون تحية، ولكن أيضاً من دون غمّ».

وبين الذين لم يقفوا لأداء التحية له، كان ونستون تشرشل بالذات، السياسي الذي لن يمنح ويفل ثقته، والذي سوف ينقله بعد ذلك من مصر إلى الهند.

غير أن العصر كان قد تغير بالنسبة إلى ويفل، وليس الظروف وحدها. وهو لن يستطيع أن يكون اللنبي الآخر أمام الأميرالية، لأن 1941 ليست 1914 على أي حال، لقد كان هو نتاج ما بين الحربين. وكان، بصفته عسكرياً وسياسياً معاً يعرف أن الحرب الأولى تركت أشياء كثيرة من دون حسم بالنسبة إلى أوروبة. وقد كتب غير مرة أن الثلاثينيات كانت فترة خنوع شديد بالنسبة إلى إنكلترة، وقال بعد رحلة تشامبرلين الشهيرة إلى ميونيخ: «كيف نستطيع أن نرفع رؤوسنا ثانية بعد اليوم».

غير أن الرجل الذي كان يرتاح إلى الورقة والقلم، كان يتعثر في حياته العسكرية. ولطالما لجأ إلى القلم لا إلى القتال للدفاع عن النفس، وعندما انتقد تشرشل انسحابه من الصومال بعدد قليل من الضحايا، كتب إليه يقول: «إن فاتورة الجزّارين إذا كانت كبيرة لا تشكل دليلاً على الحنكة». ويقال إن هذه البرقية أغضبت تشرشل أكثر من مرة في حياته العامة.

كان تشرشل بحاجة إلى جنرالات يستطيعون «أداء المهمة». وكما فعل أبراهام لنكولن في الحرب الأهلية الأميركية، عندما راح يطرح الجنرال بعد الآخر، هكذا أبعد ويفل ثم أوكينلك إلى أن أعطاه مونتغمري النصر الذي يريد. ففي غياب أو استحالة الانتصار على ألمانية في قلب المعركة، كانت لندن بحاجة إلى انتصار في «الضواحي». لكن ويفل أخفق في قراءة ما يدور في غرفة العمليات، أو في ذهن تشرشل، ولذا لم يكن هناك حوار حقيقي بين الرجلين.

أيضاً ما يهمنا في سيرة ويفل هو دوره في الشرق الأوسط، أو أبرز أدواره في المنطقة، وهو دور سوف يمتد، من ليبية في المغرب إلى مصر وسورية ولبنان. لقد جاء الرجل إلى العالم العربي، في الوقت الذي كان الثعلب الألماني أروين رومل يصل إلى

طرابلس مع الطلائع الأولى من «الفيلق الإفريقي» أو (KORPS AFRIKA) كما سماه الألمان.

وكانت أوروبة، سواء من «الحلفاء» أو من «المحور»، عين على أرضها، وعين على الشرق. أو بالأحرى، «الشرق الأوسط»، الآن ومع حلول الحرب الكونية الثانية. وكانت لندن تخشى أن يدفع هتلر الإيطاليين في حملة على مصر، قبل أن يتم حسم «المعركة من أجل بريطانية».

وبدأ الأعداء الأوروبيون في عمليات التمويه. وفي حين ظن ويفل أن الألمان سيفجرون الحملة عبر البلقان، كانت الدوائر الحربية في لندن تأخذ على محمل الجدّ الإشاعات القائلة إن هتلر ينوي اقتحام تونس. وعلى الرغم من كل التنقلات الإيطالية والألمانية إلى ليبية، وانتقال فيالق كاملة من نابولي إلى طرابلس، ظل الإنكليز يعتقدون أن المسألة غير جدية. لكن هذه القناعة تغيرت تماماً في 17 شباط/فبراير 1941. عندما بدأ رومل بالتحرك شرقاً من طرابلس. عندها أيقنت لندن أن هتلر يريد الوصول إلى مصر، من «طرابلس الغرب لا من مصر». وقبل أن ينتهي ذلك الشهر وقع اصطدام بالمدرعات في منطقة «العجيلة»، فلم يبق مكان لأي شكوك.

في الشهر الآتي سوف يتأكد البريطانيون أيضاً، من أن رومل هو الذي سيتولى قيادة الحملة. لكن القيادة البريطانية في القاهرة ولندن معاً، كانت لا تزال مأخوذة بالانفجار الوشيك في البلقان، وبالتزامها تجاه الحكومة اليونانية، ومن ثم فإن أي خطر في ليبية بدا ثانوياً، خصوصاً أن تشرشل كان يحمل تطمينات من ويفل بأن جبهة الصحراء بألف خير!

غير أنه في الوقت الذي بدأ رومل بالتقدم، متخطياً خليج سرت والعجيلة، أثار المخاوف في لندن، وحمل ويفل على الاعتراف في 23 آذار/مارس بقوله:

«يجب أن أعترف بأنني ارتكبت مخاطرة كبرى في برقة بعد احتلال بنغازي، من أجل أن أوفر الحد الأقصى من الدعم لليونان، وكان تقديري آنذلك أن الإيطاليين في طرابلس ليسوا بذي بال، وأن الألمان لن يخاطروا على الأرجح بإرسال عدد كبير

من القوات المدرعة إلى إفريقية بسبب عدم كفاية البحرية الإيطالية. ومن هنا فإنني وضعت الترتيبات لترك قوة مدرعة صغيرة، وفرقة أوسترالية مدربة جزئياً، في برقة».

غير أن الاعتراف بالخطأ، على نبله، لم يكن ليلغيه. إذ بين كل التقديرات التي ذكرها، كان هناك واحد صحيح فقط، وهو أنه يمكن تجاهل الجيش الإيطالي في شمال إفريقية. أما بالنسبة إلى البحرية الإيطالية، فقد أظهرت السجلات أنه بين شباط/فبراير وآذار/مارس 1941 نقلت من إيطالية إلى ليبية نحو 220 ألف طن من بضائع «المحور» لم يعترض منها في البحر سوى 20 ألفاً. وقد أغرق الإنكليز سفينة هنا، وأعطبوا أخرى هناك، لكن بناء «الفيلق الإفريقي» استمر قائماً، لذلك كان تقليل ويفل من أهمية الإيطاليين، عملاً آخر لصالح الثعلب الألماني، الذي سبقته شهرته إلى كل مكان. كما أن ويفل نفسه كان من دون ضباط أكفاء وقد استدعى يومها من فلسطين فيليب نيامي، الذي وصفه العسكريون بأنه «جنرال عادي جيد». أما الألمان فإنهم كانوا كلما فقدوا أحد ضباط الأركان، استبدلوه بمن هو أكفأ منه.

أكثر من ذلك فإن ويفل لم يتفقد أرض الجبهة المحتملة » جنوب بنغازي. وعندما ذهب أخيراً لتفقد النواقص في الجبهة في منتصف آذار/مارس، عاد منها «قلقاً وحزيناً» كما كتب فيما بعد، إذ اكتشف أن 25 دبابة من أصل 52 كانت قيد الإصلاح، أما الباقي منها فكان يتساقط فوق الرمال، وبدلاً من أن يعاقب ويفل ضباطه على الحالة المزرية، تركهم في مناصبهم. وبعد ذلك بأسابيع سوف يعطيه رومل درساً في معاقبة المهملين، بالطريقة التي عاقب بها كبير ضباطه، الجنرال شرايك.

كانت مخاوف القيادة البريطانية في لندن تزداد على جبهتين: الثقة الضعيفة بويفل، وتزايد أعداد الوحدات الألمانية. وفي 28 شباط/فبراير استطاع مركز «بليتشلي» أن يحل رمز شيفرة سلاح الطيران الألماني في المتوسط، وراح يتابعها باستمرار. وهكذا فقد تأكدت لندن في أوائل آذار/مارس من عدد العناصر الألمانية، الجوية والبرية، في منطقة طرابلس، ومن مدى الحضور «الروملي» هناك.

عادت وزارة الحرب تسأل ويفل: هل جبهة الصحراء آمنة حقاً؟

وقد بعث الرجل في 2 آذار/مارس بالرد المطمئن الآتي:

«من طرابلس إلى العجيلة هناك 471 ميلاً، ومن بنغازي نحو 646 ميلاً. وهناك طريق واحدة، والماء غير كاف على مسافة 419 ميلاً من أصل المسافة كلها. إن هذه العوامل، بالإضافة إلى الافتقار إلى وسائل النقل، تحد من خطر العدد حالياً. إن باستطاعته على الأرجح أن يحافظ على فرقة مشاة وفصيل مدرع على الطريق الساحلية مدة ثلاثة أسابيع، وربما استطاع في الوقت نفسه استخدام فصيل مدرع آخر في الصحراء، عبر هون ومردة، ضد قواتنا».

كان ويفل مقتنعاً بأن الجنرالات الألمان يفكرون بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الجنرالات الإنكليز، ومن هنا جاءت قناعته الأخرى بأن عدوه لن يقوم بأي هجوم مهم قبل حلول أيار/مايو. لكن بعدها كانت رحلته التفقدية المأساوية. وقد ثبت أن أوضاع قوات الجنرال نيامي «كانت مجنونة». والحقيقة أن رومل لم يفاجئ ويفل وحده، بل فاجأ برلين أيضاً، وعندما طلب من قيادته 15 دبابة «بانزر» إضافية، رفض طلبه، وقيل له أن يؤجل الحملة حتى منتصف أيار/مايو، لكن في 4 نيسان/إبريل كان رومل قد أصبح في بنغازي، وفي 6 منه في درنه، وفي 10 في طبرق، وفي نهاية ذلك الشهر كان جالساً على الحدود المصرية.

وحده هتلر، في هذه المرحلة، كان يفهم ديناميكية رومل، «لقد اخترق رومل لأنه يعرف كيف يتخاطب روحياً مع قواته. وإن هذا لأمر ضروري بالنسبة إلى قوة يتعين عليها القتال في ظروف صعبة، مثل القطب الشمالي أو شمال إفريقية».

في الوقت الذي كان «الفيلق الإفريقي» يهدد بنغازي، كان ويفل قد طار مرة أخرى إلى الجبهة. وإذ تأكد مجدداً من رداءة نيامي ناشده جون هاردينغ (جنرال آخر من جنرالات الشرق) أن يعزله، وبالفعل استدعى الجنرال أوكونور للعمل معه، غير أن أوكونور نصح ويفل بالإبقاء على نيامي في هيئة الأركان، وهو قرار سوف يندم عليه كثيراً فيما بعد.

ذلك أن مضاعفات مأساوية قد ترتبت عليه. ففي السادس من نيسان/إبريل كانت تلك الوحدات التي لم تدمر، أو تلك التي لم تقع في الأسر، تهيم على وجهها هاربة في سهول «الجبل الأخضر» كالثيران الفالتة، وكانت بنغازي قد سقطت. وليلة 6 نيسان/إبريل كان الجنرالات نيامي وأوكونور وكومب يتجهون في سيارة واحدة إلى درنه. وكان أوكونور ملاحاً قديراً من ملاحي الصحراء، غير أن السيارة كانت سيارة نيامي الذي كان يقودها أيضاً. وراح أوكونور يحذر السائق الجاهل من أنهم ضلوا الطريق. ولم تمض مدة قصيرة حتى وجد الثلاثة أنفسهم أمام جنود ألمان يطلبون منهم أن يضعوا أيديهم فوق رؤوسهم. لقد قدم نيامي إلى رومل على طبق من ذهب، اثنين من أفضل جنرالات «الصحراء الغربية». ومنذ تلك اللحظة بدأ أوكونور في محاولاته المتكررة للفرار، إلى أن نجح في ذلك بعد سنوات.

في هذه الأثناء تحرك البريغادير جون هاردينغ. لقد كان أول من شعر بأن الجنرالات قد وقعوا في الأسر. وعمد فوراً إلى تدعيم دفاعات طبرق، ثم أرسل إلى ويفل يطالبه بالذهاب إلى هناك، ووصل ويفل إلى طبرق في 8 نيسان/إبريل، وقد كتب جون كونيل يصف ذلك الموقف:

«... وكان في استقباله في المطار الجنرال مورشد، والكولونيل لويد وآخرون، كانوا متعبين، منهكين، غير حليقي الذقون، وكانوا يعرفون أن رائحة الصحراء والتراجع والهزيمة تفوح منهم. وقد أعاد إليهم حضور ويفل الثقة بالنفس، كما أعاد الثقة إلى نفسه أيضاً. ولقد أبلغهم قبل أي شيء أنه يجب المحافظة على طبرق».

من أجل ذلك، أي من أجل المحافظة على طبرق، كان لا بد لويفل أن يستنفر في ذاته كل موهبة ومقدرة يملكها. لكن قبل أي شيء كان لا بد من أن يقرر الصمود. الصمود حتى الرجل الأخير! ذلك هو الحل الوحيد أمام تلك الصورة المحزنة: الجيش في تراجع، القادة مفقودون، الآليات القليلة متروكة في الرمال.

كانت طبرق بالغة الأهمية بالنسبة إلى الأوروبيين المتقاتلين في الصحراء، وكان البريطانيون والألمان يعرفون ذلك تمام المعرفة. لكن الذي لم يكن يعرفه ويفل هو ما إذا كان ممكناً الدفاع عن هذه الجبهة العريضة، بمثل هذه الحامية الصغيرة،

ولم يكن أيضاً يعرف ما إذا كانت مقدرة «الفيلق الإفريقي» في حرب المحاصرة، مثل مقدرته في المعارك المتحركة، غير أنه في مثل هذه الحالات، التجربة وحدها تعطي الجواب الأكيد.

وسوف تثبت التجربة، إذاً، أن حامية طبرق حققت على الأقل النجاح في إلهاء رومل. وكان لدى تشرشل من أسباب الفرح أنه أبرق إلى ويفل في العاشر من نيسان/إبريل قائلاً: «إننا جميعاً نتبنى بكل قلب، قرارك بالتمسك بطبرق، وسوف نفعل كل ما في وسعنا لأن نوصل إليك المساعدة». أما رومل فقد نظر إلى المسألة من زاوية مختلفة: «لقد كان ويفل ينوي بوضوح المحافظة على طبرق، وتزويد دفاعاتها بحراً، معتقداً أن هجماتنا الأولى على الحامية لن تنجح». وسوف يقول رومل فيما بعد إنه من بين جميع القواد البريطانيين الذين قاتلهم، «كان ويفل الوحيد الذي أظهر شيئاً من العبقرية».

بالفعل كان ويفل على حق، إذ لا الهجوم الأول على طبرق نجح، ولا الهجمات التالية، لطالما كان ويفل في مركز القيادة البريطانية، وحاول رومل طوال شهر نيسان/إبريل اقتحام البلدة يوماً بعد آخر، مستخدماً كل سلاح متوافر لديه، لكن من دون جدوى. وقد دوّن في مذكراته بكل يأس أنه في مثل هذه الحالات من القتال، كان الإنكليز والأوستراليون أكثر مقدرة من رجاله.

لقد حقق ويفل النجاح الذي أراد، واستطاع بذلك أن يحمي تلك «القاعدة» البريطانية المهمة، أي قناة السويس، وأن يصد الخطر الداهم أيضاً عن الإسكندرية، التي كانت الميناء الأول للأسطول البريطاني.

بعد ذلك سوف يلحق ويفل الكارثة بالبريطانيين في معركة كريت، تلك الجزيرة التي كان يقول تشرشل إنه يجب «أن نصل إليها أولاً، يجب ألا يأخذها الإيطاليون». كان كل شيء متداخلاً بعضه ببعض. اليونان كانت تعني مصر. ومصر كانت تعني سورية ولبنان، وسورية كانت تعني المشرق، والمشرق كان يعني ذلك السؤال الكبير: أين سيضرب هتلر؟ في سورية؟ في اليونان؟ في البلقان؟

هتلر كان - بالطبع - يستعد للجبهة الروسية!

كتب تشرشل في مذكراته فيما بعد، عن «الحالة الرهيبة الطارئة التي حاصرت الجنرال ويفل من كل جانب مرة واحدة». والحقيقة أنه خلال نيسان/إبريل، وأيار/مايو 1941 ـ وهي الحقبة الأكثر حرجاً من الحرب على مسرح الشرق الأوسط كله ـ كان تشرشل يظهر صلابة وقساوة، موازنة لصلابة هتلر أو تتخطاه، وفي الأسابيع الثمانية التي سقطت خلالها اليونان ويوغوسلافية وكريت، أرغم ويفل أيضاً على القيام بعمليات إلهائية في سورية والعراق. ويقول الكاتب رونالد لوين: إن ويفل قام بهذه العمليات ضد إرادته غير أن الجنرال إدوارد سبيرس أشهر المفوضين السامين في لبنان، كتب في مذكراته عن تلك المرحلة الآتي:

«لم تكن الصعوبات التي يواجهها القائد الأعلى (ويفل) لتتضاءل. لكن في الوقت نفسه كانت الأحداث تثبت أن موقفه من الفرنسيين في المشرق كان موقفاً خاطئاً من الأساس».

«في الرابع من ذلك الشهر التقينا ـ الجنرال كاترو وأنا ـ بالقائد الأعلى. كان لقاءً مغماً حقاً، وقد ألقينا جانباً على الفور خطة ديغول، لأن الزمن تخطاها. غير أنني شعرت بالأسى أيضاً، وأنا أسمع ويفل يقول إنه لم يرد في أي وقت التدخل في العراق، وإن التدخل في سورية يعني التشتت ومن ثم الهزيمة. لكن في اليوم الآتي (5 أيار/مايو) عرضنا المسألة في اجتماع. وقال إنه إذا هاجمنا الألمان براً أو جواً، فإنه سيرد عليهم بكل القوات الموجودة تحت تصرفه».

منذ اللحظة الأولى اعتبر ويفل أن مجيئه إلى سورية والعراق، سوف يكون وبالاً عليه. وها هي ثورة رشيد عالي الكيلاني تقوم في العراق، فيبرق تشرشل إلى ويفل على عجل: أعدّ فرقة عسكرية خاصة للتدخل. غير أن ويفل يرد في خوف: الأمر مستحيل، حاولوا البحث عن حل سياسي! إلا أن مستشاري تشرشل انضموا إليه الآن في الاقتناع بأن سورية، بسبب وضعها الاستراتيجي، سوف تكون نقطة انفجار. لكن على الرغم من ذلك كان ويفل مقتنعاً بأن «قوات فرنسة الحرة» التي يطالبه تشرشل بدفعها إلى المعركة، سوف تستقبل في سورية على أنها عدو وليس صديقا. وكان على حق.

وقد أبرق إلى حكومته في 17 أيار/مايو 1941 يقول: «إني أومن بقوة أن قوات فرنسة الحرة، سوف تكون ضعيفة جداً من دون دعم بريطاني، بل إنها ربما زادت في تعقيد الأمور. إنني أقترح أن نقوم نحن بالهجوم على أن يتبعنا الفرنسيون الأحرار، إذا كان الهجوم ناجحاً».

وطار صواب تشرشل عندما أشار ويفل في تلك البرقية ـ عن غير قصد إطلاقاً ـ إلى إحدى الهزائم في حرب البوير، واستدعى وزير الحربية على الفور، وقال له إنه قرر أن ينقل ويفل إلى الهند، وأن يضع في مقر القيادة في القاهرة الجنرال أوكينلك. وأضاف تشرشل - بالخبث الذي عرف عنه -: «إنه سوف يستمتع هناك في فيء المعابد البوذية»! وعلى أي حال فهو لم يكن يريده أن يأتي إلى لندن «كي يمضي الوقت في غرفته في النادي». وبالفعل أبرق ويفل إلى وزير الحربية، يتوسل إليه للسماح له بالذهاب إلى لندن لرؤية ابنته، غير أن تشرشل الذي كان لؤمه يغطي عظمته، أراد أن يتجنب أي أسئلة يمكن أن تطرح، أو أي إشاعات يمكن أن يثيرها مجيء ويفل إلى لندن، فأرسله مباشرة إلى الهند.

لكن عملية النقل كان لا بد أن تتأخر، أيضاً بسبب تلاحق الأحداث، فقد أبرقت غرفة الحرب في لندن إلى ويفل على وجه السرعة: «ليس من حل أمامنا سوى أن تبتدع أكبر قوة ممكنة ـ من دون أن يؤثر ذلك في أمن الصحراء الغربية ـ وأن تكون مستعداً للانتقال إلى سورية في أقرب فرصة ممكنة». ودار نقاش حاد آخر حول دور القوات الفرنسية. وأخيراً أبرق ويفل إلى رؤسائه باستسلام في 21 أيار/مايو قائلاً: «إما أن تثقوا بتقديري لهذه المسألة، أو أن تأمروا بإعفائي من القيادة».

غير أن تشرشل لم يغتنم الفرصة ويمد يده لالتقاط رأس ويفل من الطبق الفضي. لقد كان يعرف بحدسه أن ذلك سوف يثير ضجة سياسية هائلة كان هو في غنى عنها. غير أنه رد على ويفل في اليوم نفسه ببرقية تقطر لؤماً وسخرية:

«إننا نرى أنه إذا كان باستطاعة الألمان أن يأخذوا سورية والعراق بقوات لا تذكر، وعن الطريق السياح والثورات المحلية، فيجب ألا نتوانى عن ركوب مخاطر عسكرية صغيرة نحن أيضاً».

وفي الوقت نفسه كان وزير الحربية يكتب إلى الجنرال أوكينلك مذكرة سرية يقول فيها: «أريد أن أخبرك أن رئيس الوزراء قد فقد الثقة بويفل، هذا إذا كانت له أي ثقة به على الإطلاق. وإنني مقتنع بأنه في الحرب إما أن تكون لك ثقة في جنرالك، أو أن تطرده. وبما أن الأمر كذلك فإننا قد نواجه قريباً بنقل ويفل من الشرق الأوسط، وربما حصل ذلك قبل أن تصلك هذه الرسالة، وعندما يتم الأمر، عليك أن تكون مستعداً لخلافته».

على أي حال مضى ويفل في تنفيذ الأوامر المعطاة إليه، وأخذ في جمع قوة ضاربة من هنا وهناك، إضافة إلى مقاتلي «فرنسة الحرة». وعندما بدأ في التقدم نحو سورية في 8 حزيران/يونيو، بدا أن كل ما توقعه قد حدث، وأن ما توقعته لندن كان خاطئاً، ذلك أن قوات «فيشي» لم تسقط بسرعة، بل أخذت تحارب القوات الديغولية (الحرة) بضراوة، ولم يوقع الجنرال دنز، قائد قوات فيشي الهدنة، إلا في 14 تموز/يوليو.

لكن، في تلك الأثناء. كان ويفل في طريقه إلى ظلال المعابد البوذية في الهند.

الماريشال كلود أوكينلك

الهزائم انتصارات

لا يمكن الكتابة عن دور أرشيبالد ويفل في الشرق الأوسط والمغرب العربي، من دون الحديث عن رفيقه وصديقه الجنرال أوكينلك. فالرجل لم يخلفه قائداً أعلى للقوات البريطانية فحسب، بل كان إلى جانبه في مرحلة كبرى من مراحل ويفل العصيبة، عسكرياً وسياسياً، بل إن تلك المرحلة قد تبدو أقل تعقيداً من خلال سيرة أوكينلك، الذي كان بدوره أقل تعقيداً من ويفل، مع أنه سوف يلقى المصير نفسه على يد ونستون تشرشل فيما بعد، وسوف يكون بدوره مثيراً للجدل: هل كان بطلاً أم فاشلاً؟

غير أن أنصار أوكينلك اختصروا الجواب: إنه الرجل الذي ربح المعركة الأولى في «العلمين»، ولولا تلك «المعركة الأولى لما كانت هناك معركة ثانية».

ولأنه حرم من لقب «بطل العلمين» الذي سوف يعطى لمونتغمري فيما بعد، فقد أعطاه أحد مؤرخيه، روجر باركنسون، لقب «قاهر العلمين»، فهو في نهاية الأمر قائد «الجيش الثامن»، الذي أوقف انهزام القوات الإنكليزية وتراجعها في وجه رومل، وحوّل التراجع إلى هجوم كاد يهزم ثعلب الصحراء وفيلقه الإفريقي.

في وائل صيف 1942 كان شبح الهزيمة يخيم فوق بريطانية أكثر من أي وقت مضى. وتهديد الجزيرة هذه المرة لم يكن آتياً عبر المانش، وإنما عبر الصحراء «في شمال إفريقية». ففي تموز/يوليو 1942 كانت قوات رومل قد وصلت إلى مسافة 115 ميلاً من قناة السويس و70 ميلاً من الإسكندرية. وبدا وكأن شيئاً لن يقف دون دول «المحور» واحتلال مصر. فإذا سقطت القناة فإن ذلك سيعني تلقائياً وصول الألمان إلى العراق وسورية وإيران. وعندها «يستطيع العدو أن يندفع شمالاً نحو روميا، وشرقاً نحو الهند. وسوف يخسر الحلفاء حقول النفط، وتصبح الهند معزولة. وعندها يخسر الحلفاء كل شيء، ويمتد الساعد الألماني لمصافحة اليد اليابانية».

الصراع حول الشرق، حول المشرق، حول العراق وسورية ومصر ولبنان. حول ليبية وتونس والمغرب. حول الجزائر، إنما هو صراع حول العالم أجمع. صراع حتى الصين وربما على الصين أيضاً. وفي الحروب بدا واضحاً كم هو الشرق نقطة ارتكازية في قلب الكرة: تلك الكرة التي تتصدر صورها جدران المدارس، وقد أصبح بعض حلفاء الأمس أعداء اليوم والعكس.

لقد جاء أوكينلك إلى الشرق في الحرب الأولى، وهو بعد برتبة «كابتن». وعرف يومها من قائده ومعلمه اللنبي مدى أهمية المنطقة التي تركها وهو برتبة «ميجور». غير أنه الآن دخل على إستراتيجيات الصراع عنصر جديد: النفط!

كذلك كان هناك مقاتلون جدد أمام الجنرال أوكينلك: ها هم الأميركيون قادمون، وهم حتى الآن يلقون بثقلهم في دفاعات الحلفاء. وفي لندن كان وضع تشرشل السياسي شديد الاهتزاز: هزيمة أخرى ويذهب إلى بيته مكللاً بالعار، بدلاً من الغار: هل لاحظت فرق النقطة الواحدة فوق حرف «العين»؟!

كل شيء كان متوقفاً آنذاك على رجل واحد: كلود أوكينلك. وفي صباح 25 حزيران/ يونيو 1942 يغادر القائد الأعلى (الجديد) للقوات البريطانية مقره في القاهرة إلى الجبهة لكي يتولى بنفسه قيادة الجيش الثامن المتراجع في الصحراء. وفي قاموس العسكر ليس من مهمة أكثر صعوبة من السيطرة على جيش متراجع.

وقد نجح. ليس فقط في وقف التراجع، بل في تجريد رومل من المبادرة، وفي إرغامه على العودة إلى مواقع لن يخرج منها فيما بعد. لكن بعد شهرين من ذلك الانتصار كان أوكينلك عاطلاً عن العمل، وبعد سبعة أشهر كانت اللعنة تحل عليه، وتشرشل يقول: «لقد فقدنا الثقة في أوكينلك في الميدان».

وسوف تكشف الوثائق الرسمية فيما بعد أن تشرشل بنى قراره هذا على تقارير وضعها ضابط أقل رتبة يدعى برنارد مونتغمري، وهو الذي سوف يسرق ثمار الانتصارات الحقيقية في العلمين. وكانت تلك التقارير كاذبة طبعاً.

لقد كانت هناك اختلافات كبيرة في الشخصية بين الاثنين: كان أوكينلك ودوداً لطيفاً، وكان متواضعاً. مونتغمري كان العكس.

وصل كلود أوكينلك إلى القاهرة في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير 1941. قادماً من بريطانية بطريق متعرجة أخذته إلى إفريقية الغربية، وكانت في استقباله في «القيادة العامة للشرق الأوسط» مشاعر مختلفة، هي خليط من التعب والارتياح والقلق على المستقبل. وكان سلفه الجنرال ويفل، قد امتص الحملة الإيطالية في الخريف السابق، وتراجع إلى مواقع معدة في مرسى مطروح. وبدأت الاستعدادات لهجوم بريطاني مضاد، كان تشرشل يلح على التعجيل به. وقد واجه «قائد الشرق الأوسط» ضغوطاً من جانب آخر أيضاً. ففي 28 تشرين الأول/أكتوبر أقدمت إيطالية على اقتحام ألبانية بعدما رفضت اليونان التحذير النهائي الذي وُجّه إليها. وهكذا فإن التعزيزات التي كان مقرراً أن تصل إلى قوات ويفل، أخذت تتحول إلى الحليف اليوناني الخاسر.

وفي هذا الوقت شن ويفل حملته المعروفة باسم «البوصلة» في 9 كانون الأول/ديسمبر. وخلال ثلاثة أيام كان الإنكليز وحلفاؤهم قد أسروا 40 ألفاً من الإيطاليين الشجعان!! واستولوا على 237 مدفعاً، و 73 دبابة. وفي نهاية ذلك الشهر حاصر الإنكليز ميناء «بردية» الإستراتيجي وأخذ ويفل وجنراله ريتشارد أوكونور يستعدان للتقدم نحو ليبية. غير أنه في هذا الوقت وصلت إلى لندن تقارير أن الألمان يستعدون لدعم الحملة الإيطالية المتراجعة في ألبانية.

وبحث أوكينلك الوضع مع ويفل. وقال الثاني إنه يعتقد أن الحشود الألمانية على حدود يوغوسلافية واليونان قد تكون خدمة هدفها استدراج القوات البريطانية من شمال إفريقية. وهكذا قرر أوكينلك أن يتفقد الصحراء مرة أخرى. وفي 8 كانون الثاني/يناير توجه إلى الإسكندرية، ومنها إلى مطار «العامرية»، حيث التقى قائد القاعدة آرثر تيدر، الذي سوف يصبح بعد ذلك من أقرب معاونيه، وقد وصف تيدر ذلك اللقاء:

«كانت الريح تعصف قوية من الجنوب الغربي، والرمال تتكاثف بسرعة. وقد وجدت هناك عسكريين اثنين: الأول يعتمر خوذة نحاسية، والثاني برتبة كولونيل... وبعد قليل عرفت أن الخوذة النحاسية هي خوذة أوكينلك: لحية أنيقة، وطبع جيد، وتواضع».

يومها كان أوكينلك في طريقه إلى نيودلهي، التي وصلها في الأسبوع الثاني من كانون الثاني/يناير. لكن الوضع في الشرق الأوسط كان يزداد سوءاً. وفي 13 كانون الثاني اضطر ويفل أن يطير إلى أثينة، لكي يرى أي نوع من المساعدات تريد اليونان، لكنه اكتشف أن أثينا لا تقبل المساعدة. وفي لندن كانت اللجنة الدفاعية العليا تعود فتعطي الأولوية لجبهة الصحراء. وقد سقطت طبرق في 22 كانون الثاني/يناير، وبنغازي في 6 شباط/فبراير، «وهكذا اكتمل سقوط برقة». وهكذا أصبح الطريق معبداً مرة أخرى «أمام طرد الإيطاليين» من شمال إفريقية، لكن فكرة مساعدة اليونان عادت إلى الأولوية مجدداً، وطار أنطوني أيدن، الذي أصبح الآن وزيراً للخارجية، إلى الشرق الأوسط مع الجنرال جون ديل للبحث في إرسال قوة من مصر إلى اليونان. وفي اليوم الثاني وصل أروين رومل إلى طرابلس، وأمر الإيطاليين باستئناف الهجوم.

سوف تكون الهند مصدراً مهماً للقوى البشرية إلى الشرق الأوسط. وعلى أوكينلك أن يتولى الأمر، وبالإضافة إلى ذلك كانت مهمته حماية الهند نفسها، التي سوف تزود البريطانيين بنحو 100 ألف جندي. وفي هذا الوقت كان إيدن قد قرر خلال محادثاته في أثينا إرسال 10 آلاف جندي إلى اليونان، وهو أمر اعتبره أوكينلك مضعفاً لجبهة الصحراء. كذلك كان قلقاً على الوضع في العراق، مؤمناً أن «سلامة الهند من سلامة العراق. وأن سقوط العراق في أيدي المحور يعني سقوط حقول النفط».

وكان رشيد عالي الكيلاني يتطلع إلى الألمان في دعم ثورته العربية تجاه البريطانيين، الذين كانت لهم قاعدة جوية في الحبانية، لكن لم تكن لهم قوات ميدانية في العراق.

واستقال رشيد عالي الكيلاني في نهاية كانون الثاني/يناير، ليخلفه طه باشا الهاشمي، وكان هو أيضاً معادياً للإنكليز. وفي حين نظرت لندن إلى الأمر ببساطة، رأى فيه أوكينلك «مسألة خطيرة» ضد مصالح بريطانية. وعاد إلى درس خطط

سابقة لاحتلال البصرة من «أجل حماية آبار النفط». كما كتب إلى ويفل يقول «إن الوقت يدهمنا، والوضع في العراق لا يبدو مريحاً على الإطلاق».

وكان أوكينلك يتذكر جيداً من الحرب الأولى تلك الفوضى التي نشأت في حملة العراق من جراء تضارب الأوامر بين الهند ولندن والبصرة. ولذا كتب في 21 شباط /فبراير إلى الجنرال «ويفل» معاً في محاولة لتوضيح مسألة القيادة: «أعتقد أنه من الأضمن لنا أن يوكل أمر احتلال البصرة، بأي ثمن، لهذه القيادة (أي الهند)، وإذا تبين لاحقاً أنه من الضروري وضع تلك القوة تحت قيادة الشرق الأوسط، فلا مانع لدي، شرط أن يكون بإمكاني إعطاء رأيي في الخطط الموضوعة»... ووافق ويفل على الأمر.

لكن ويفل كان أيضاً عرضة لكل أنواع الضغوط. ففي اليوم الأخير من شباط/ فبراير، تقدمت تشكيلات ألمانية صغيرة نحو بلغاريا من رومانية. وبعد ذلك بيومين تدفقت العناصر الرئيسة في الجيش الألماني الثاني عشر على بلغاريا، وتمركزت حول الحدود اليونانية واليوغوسلافية. وفي الأسبوع الأول من آذار/مارس نزلت الفرقة البريطانية المدرعة الأولى في اليونان، وتحركت شمالاً لدعم الحلفاء.

وفجأة انفجرت البراكين التي كانت تتحرك في العراق واليونان والصحراء. وفي 31 آذار/مارس اندفع رومل نحو «العجيلية». وفي اليوم نفسه فرَّ الوصي على العرش في العراق إلى قاعدة الحبانية. وفي 3 نيسان/أبريل كان رومل يتقدم نحو بنغازي، فيما تتراجع القوات البريطانية مشتتة. وفي بغداد استولى رشيد عالي على السلطة. وبعد ذلك بثلاثة أيام تم أسر الجنرالين نيامي وأوكونور، وفي ذلك اليوم أيضاً (6 نيسان/أبريل) دخل الألمان إلى اليونان ويوغوسلافية.

بُلّغت حكومة تشرشل بالوضع الكارثي في اليونان في 7 نيسان/أبريل، كذلك بُلّغت أن «الوضع في العراق قد تدهور» وأن «معركة كبرى قد تكون ضرورية قبل اتضاح الأمور».

وكان أوكينلك مستعداً لإرسال قواته من الهند. وقد التقت أفكاره مع تفكير تشرشل الذي طرب للأمر، وقرر مكافأته في المستقبل القريب. وفي 10 نيسان/أبريل

قبلت الحكومة البريطانية عرض أوكينلك «مع الشكر». لكن ويفل كان لا يزال يصر على حل ديبلوماسي مدعومٍ «بعرض قوة جوي». وأبرق باقتراح مماثل أيضاً السفير البريطاني لدى العراق السير كيناهان كورنويلس.

كان رد فعل أوكينلك قاسياً. وقد بعث برسالة إلى سكرتير نائب الملك في الثاني عشر من ذلك الشهر: «إن القبول بنصيحة السفير، وتأجيل الحل (العسكري) لتأمين سلامة البصرة، قد يؤدي إلى عدم رؤية البصرة بعد اليوم. إن زمن المحاولات الديبلوماسية قد مضى. وإني أعتقد بأن رشيد قد يستغل هذه الفرصة لكي يدعم مواقعه، أو لكي يطلب المساعدة الألمانية!».

وكان مقرراً للقافلة البريطانية التي تنقل القوات إلى البصرة أن تغادر كراتشي ذلك الجمعة، وقد رفض أوكينلك تأخير سفرها.

في 17 نيسان/إبريل وصلت الدفعة الأولى من القوات البريطانية إلى البصرة من دون أي معارضة. ويبدو أن البريطانيين خدعوا رشيد عالي بأن أبلغوه أن قواتهم إنما تنوي إكمال مسيرتها إلى فلسطين، وهو أمر كان مسموحاً لهم بموجب المعاهدة الموقعة بين البلدين. وكان بين الذين أعجبوا «بعزم» أوكينلك، تشرشل بالذات، فقرر أن يدفع به إلى القتال، وبعث برسالة فورية إلى الجنرال ديل، يقترح فيها تعيينه نائباً لويفل. غير أن الوزير تردد، مبدياً الأسباب الآتية:

«أولاً: لأن أعمال أوكينلك في الهند ذات قيمة عظيمة بالنسبة إلى المجهود الحربي الذي تبذله الإمبراطورية. وثانياً: أن منصب أوكينلك في الهند رفيع جداً، ولن يفهم أحد معنى تعيينه في منصب الرجل الثاني، ثالثاً: إنني أبلغت ويفل بأنه إذا حدث له شيء ما فإنني خلفٌ له. فإذا أرسلنا أوكينلك إلى مصر اليوم فإن ويفل سوف يعتقد على الأرجح أننا ننوي إزاحته. رابعاً: الحقيقة إن القائد لا يستطيع أن يشارك أحداً في مسؤوليته، لأنه لن تلبث أن تعقب ذلك التسويات، وتغيب الأفكار والخطط الواضحة».

ثم يعقب ديل هذه الرسالة بقوله: «إذا كان لا بد لأوكينلك أن يذهب إلى مصر، فإنني أفضل أن أراه مكان ويفل على أن يكون نائباً له. وعلى أي حال لا بد لي من

القول: إن أوكينلك جنرال جيد، ذو شخصية قوية، لكنه ليس سوبرمان. إن ويفل يتمتع بعقل أفضل منه وهو أكثر علماً منه في تسيير العمليات العسكرية في الظروف الحديثة... وباختصار فإني لا أوصي بأن يصبح نائباً لويفل، بل أن يخلفه إذا فقدتم الثقة بويفل، أو حدث له أمر ما».

وسوف يسرّ أوكينلك لأصدقائه بعد الحرب، بأنه لو سمح له تشرشل بأن يذهب إلى جانب ويفل، لكانت أمور كثيرة قد تغيرت بالنسبة إلى الاثنين!

أسرع ويفل إلى أثينا في 21 نيسان/إبريل، في محاولة يائسة لتفقد الجبهة اليونانية المنهارة، وقد أبرق السفير البريطاني إلى لندن يصف اللقاء بين ويفل وعاهل اليونان: «لقد أقر صاحب الجلالة بأن عامل الوقت يجعل من المستحيل تنظيم أي قوة يونانية لدعم الجناح الأيسر من القوة البريطانية... وعندها قال ويفل إن من واجبه في هذه الحال أن يسحب ما استطاع من القوات البريطانية، فوافق الملك تماماً».. وبعد برهة كانت الحكومة في لندن توافق بدورها على قرار الانسحاب. وانتهت المقاومة اليونانية في 24 نيسان /إبريل. وبدأ إجلاء القوات البريطانية تلك الليلة، واستمر نحو أسبوع، وترك ويفل خلفه نحو 12 ألف جندي بين قتيل ومفقود، بالإضافة إلى الكثير من العتاد، وتوجه نحو 15 ألف جندي من القوة المنسحبة إلى إفريقية الشمالية، حيث كان رومل قد أجبر القوات البريطانية على التراجع من «برقة» إلى مصر، باستثناء تلك المتمركزة في طبرق. أما سائر القوات التي أنقذت من اليونان فقد نقلت إلى كريت، الهدف الآتي لدول المحور.

بالإضافة إلى الأنباء المقلقة في المتوسط تلقت لندن أنباءً عن «انهيار مفاجىء» في العراق. إذ بعد 24 ساعة من بدء الجلاء عن اليونان وقّع رشيد عالي الكيلاني معاهدة مع ممثلي دول المحور. وهكذا حرك أوكينلك قوات جديدة باتجاه العراق، كان مقرراً أن تصل إلى البصرة في التاسع والعشرين من نيسان/أبريل، غير أن رشيد عالي الكيلاني الذي أبلغ قبل يوم بوصول هذه القوات رفض أن يمنحها الإذن بالنزول، وأرسل قواته جنوباً لمقاومتها، وفي ذلك النهار أيضاً أبلغت لندن أن قوات رومل تجس النبض على حدود مصر، وأن الهجوم على كريت أصبح وشيكاً.

وطار صواب تشرشل. وأبلغ لجنة الحرب الوزارية أنه لا يعتقد أن بإمكان بريطانية الصمود طويلاً في كريت. وانتقد الدور العسكري في الشرق الأوسط وصاح: يجب أن ندافع عن كل بوصة في مصر!

في أول أيار/مايو تسلم أوكينلك مسؤولية «الشؤون العسكرية في العراق»، وفي اليوم التالي بدأت القوات الموجودة في الحبانية بالرد على قوات رشيد عالي. وكان ويفل أكثر الناس خوفاً. وقد أبرق، يائساً، في 3 أيار/مايو إلى لندن: «لقد حذرتكم مراراً أنه من المستحيل أن نبعث بتعزيزات إلى العراق من فلسطين في الظروف الراهنة، ونصحتكم مراراً بعدم التورط في العراق... إن قواتي متعبة في كل مكان ... إنني أستطيع فقط أن أنصحكم بالتفاوض».

لكن لندن ردت على الفور، أولاً: أنها ترفض الوساطة التركية في الموضوع، ثانياً: يجب تدعيم دفاعات الحبانية بانتظار التعزيزات! صباح اليوم الثاني كان ويفل يرد بالمزيد من الغضب: «أنكم لا تعيرون الحقائق أي اهتمام. ويجب أن تواجهوا الواقع».

كان ذلك في الخامس من أيار/مايو، وقد قال ويفل في برقيته إنه غير قادر إلا على تأمين قوة صغيرة وأن هذه القوة لن تصل إلى الحبانية إلا في 12 أيار/مايو على أقرب تقدير، «وإني لا أدري ما إذا كانت القوة المذكورة تستطيع إنقاذ الحبانية، أو ما إذا كانت القاعدة نفسها قادرة على الصمود حتى ذلك الوقت». وحث مرة أخرى على التفاوض: «إنني أعدّ أن إطالة القتال في العراق سوف تعرض دفاعات فلسطين ومصر للخطر».

وكان موقف أوكينلك معاكساً تماماً: التورط في العراق لن يهدد موقع مصر، بل إن التخلي عن المواقع البريطانية في العراق سوف يزعزع القبضة البريطانية على الشرق الأوسط كله. إن ضعف بريطانية سوف ينكشف، وسوف تعمد «عناصر أخرى» في المنطقة إلى مساعدة دول المحور.

وصلت برقية ويفل القلقة إلى «لجنة الدفاع» ظهر السادس من ذلك الشهر. ويبدو أنه خّيل إلى وزير الحربية أن ويفل كان مبالغاً في التشاؤم. وكان الوزير مقتنعاً بأنه

ليس من المخاطرة إرسال قوة نجدة من البصرة إلى الحبانية. وقد كتب تشرشل عن تلك الجلسة بعد الحرب: إن «ويفل استمر في إطاعة الأوامر بعد الاعتراض، أما أوكينلك فاستمر في عرض التعزيزات». وهكذا أبرقت لندن إلى ويفل تعتذر عن قبول اقتراحه، وإلى أوكينلك تشكر وتشجع.

هنا أيضاً قام خلاف بين القيادات البريطانية الثلاث: في لندن والقاهرة ودلهي: هل تظل القوة الموجودة في العراق تابعة لقيادة الشرق الأوسط، أم تلحق بالهند من جديد؟ أوكينلك مع الهند. أما ويفل فقال: «إن بعضنا ينظر إلى الوضع الآسيوي الإستراتيجي من زاوية ضيقة، ويرى أن شمال إفريقية والمشرق قلعة واحدة، وأن الهند قلعة أخرى، والملايو ـ بورما ـ هونغ كونغ قلعة ثالثة. إنني أفضل أن ننظر إلى هذا الوضع على أنه جبهة واحدة مستمرة، مقسمة إلى ثلاثة أقسام».

في العاشر من أيار/مايو بحث تشرشل المسألة مع عدد من رفاقه: إيدن، واتلي، بيفربروك، وديفيد مارغسون، الذي أصبح في هذا الوقت وزيراً للحربية. وروى إيدن فيما بعد أن «تشرشل اقترح استبدال أوكينلك بويفل وهذا بذاك». ووافق بروك، بينما تردد الثلاثة الآخرون. «لم يكن لدي شك في أن ويفل كان أفضل، لكنني لا أعرف كيف كان يتحمل تلك الأعباء».

بدأت القوات البريطانية بالوصول إلى الإسكندرية في 12 أيار/مايو، وكان معها نحو 300 دبابة لدعم قوات ويفل في الصحراء. وكانت الأوضاع تتدهور في أمكنة أخرى، ومنذ 28 نيسان /إبريل كانت لجنة الحرب قد أبلغت ويفل أن مهمة أخرى قد توكل إليه: الزحف إلى سورية التي تسيطر عليها قوات فيشي بقيادة الجنرال دنتز. والآن في منتصف أيار/مايو أغارت الطائرات الألمانية، مستخدمة مطارات سورية، على القوة البريطانية المتجهة من البصرة إلى الحبانية. وأعلن الجنرال دنتز أنه سوف يطيع أوامر حكومة فيشي بالسماح للألمان باحتلال سورية. وطلبت لندن إلى ويفل أن يهيئ بأي شكل قوة طارئة لمساعدة «الفرنسيين الأحرار»، لكن الرجل اعترض مجدداً.

كان تشرشل قد اقتنع نهائياً بأن ويفل يجب أن يقال. وأصدر الأمر الشهير بنقله إلى الهند وتعيين أوكينلك. لكن عملية الاستلام والتسليم تأخرت قليلاً بسبب مستجدات الساعة، إذ فجر 20 أيار/مايو شن الألمان حملتهم المدمرة ضد كريت. وقد قتل في الجزيرة من الألمان أكثر مما سقط خلال 20 شهراً من الحرب. لكن التضحية أعطت ثمارها. وسوف تستمر أعباء ويفل في المنطقة بعض الوقت. وقد بدأت الحملة البريطانية ـ المشتركة في سورية في 8 حزيران/يونيو، بموجب خطة وضعها ويفل سميت «المصِّدر» (بالتشديد)، لكن الرجل كان مقتنعاً بأن قواته غير كافية، وأن القوات الفرنسية الحرة غير كافية للقيام بالحملة. وكان ذلك صحيحاً. إذ إن القوة كانت تأمل في الوصول إلى دمشق في يوم واحد، لكنها لم تصل دمشق إلا في 22 حزيران/يونيو ولم يوقع دنتز الهدنة إلا في 11 تموز/يوليو.

قبل ذلك، أي في 15 حزيران/يونيو من ذلك الصيف الحار جداً، كان ويفل قد شن حملته المتوقعة في الصحراء. وكان تشرشل يعلق آمالاً كثيرة على ذلك الهجوم الذي سمي سراً «فأس المعركة». وفي الصحراء كان الثعلب الألماني قد قرأ سلفاً الخطوة البريطانية المقبلة في الرمال، فهيأ قواته سلفاً. وهكذا، في الساعات الأولى من ذلك النهار، صد الإيطاليون والألمان الهجوم البريطاني. وقد استخدم رومل في المعركة أسلوبه التقليدي: دع العدو ينهك نفسه أولاً، ثم انقض عليه. ومع ظهر اليوم التالي كان الإنكليز قد فقدوا الكثير من الدبابات. وانقض رومل على فريسته: «لقد خططت أن أجمع فرقتي المدرعات على شكل قوس، ثم أوجه إلى العدو ضربة قاضية في النقطة الحساسة».

وتقدمت الفرقتان الألمانيتان طوال الليل، ومع الفجر كانتا تطبقان على الإنكليز، وتقطعان عليهم خطوط الاتصال. وانتشرت الفوضى في صفوف البريطانيين، فيما طار ويفل إلى الخطوط الأمامية على الجبهة. لكن في 17 حزيران /يونيو كان الأمر بالانسحاب قد صدر.

في لندن كان تشرشل ينتظر النتائج على أعصابه. لكنه كان متوتراً لدرجة لم يعد معها قادراً على البقاء في 10 داوننغ ستريت، فحمل نفسه ومضى إلى منزله الريفي

في «تشيكرز». وهناك تلقى رسالة ويفل: «آسف أن أبلغك بفشل فأس المعركة». وقام تشرشل إلى الوادي يهيم على وجهه ساعات طويلة، كما كتب فيما بعد.

وبعد ذلك بثلاثة أيام كان يكتب إلى ويفل: «آسف. لقد أعجبت كثيراً بسجلك الحافل، ولكن...»!

كذلك بعث برسالة أخرى إلى أوكينلك الذي غادر «سيملا» بالطائرة في 27 حزيران/ يونيو ووصل إلى القاهرة في 30 منه: إنه «شرف عظيم» أن يكون المرء «قائداً أعلى في الشرق الأوسط». هكذا قالت غرفة الحرب للجنرال الجديد، الذي ظل تشرشل إلى ما بعد الحرب يشعر بالامتنان له، لأنه أدى دوراً أساساً في انهيار ثورة رشيد عالي في العراق!! لقد أيد الإنكليز الثورة العربية في الحرب الأولى لأنها كانت ضد الأتراك، أما أن تصبح هذه الثورة ضدهم أيضاً فهذه مسألة أخرى.

هبطت طائرة أوكينلك في مطار «هليوبوليس»، فلم يجد أحداً في استقباله. كانت عملية الانتقال لا تزال محاطة بالسرية الشديدة. غير أن ويفل كان في انتظاره في منزله المطل على نادي الجزيرة الساحر، وفي اليوم الآتي رافقه إلى مقر القيادة، حيث قدمه إلى الضباط الذين كانوا يجهلون كل شيء عن عملية الاستلام والتسليم الوشيكة. وفي 7 تموز/يوليو غادر ويفل القاهرة إلى الهند من طريق فلسطين، لينصرف أوكينلك إلى مهمات الجبهة الأكثر أهمية وتعقيداً في الحرب: «لقد امتدت السيطرة البريطانية الآن من كينيا إلى الحدود التركية. ومن إيران إلى الحدود المصرية ـ الليبية». وعلى الرغم من فشل هجوم «فأس المعركة»، فإن الانتصارات السابقة التي حققها ويفل في شمال إفريقية سوف تؤثر في مدى فاعلية الإيطاليين طوال الحرب.

كان ظل رومل الطويل يخيم على حدود مصر. لكن ثعلب الصحراء بدأ يتعب. وقوته أخذت تنزف. إن الفوهرر بحاجة إلى تعزيزات على الجبهة الروسية، وها هم الجنود الألمان ينزحون من حرّ الصحراء إلى برودة الجبهة الروسية العميقة الثلوج. وفي المقابل كانت التعزيزات البريطانية تصل تباعاً، بعدما فقد الإنكليز نحو 30 ألف رجل في اليونان وكريت.

في أول تموز/يوليو تذوّق أوكينلك الملعقة الأولى من مرّ التعاطي مع تشرشل: «بعدما وضعت أمامك الحقائق كلها، عليك أن تقرر الآن ما إذا كنت تنوي أن تجدد الحملة في الصحراء الغربية، ومتى. ويجب أن تعطي اهتماماً خاصاً لطبرق، وللتعزيزات التي يقوم بها العدو في ليبية، وللاستفزازات في سورية». وبعد ذلك بيومين ألحق تشرشل برقيته برسالة أخرى: «عندما تستقر الأمور في سورية، نأمل بأن تدرس إمكان تعيين (الجنرال) ولسون قائداً لجبهة الصحراء الغربية، لكن بالطبع القرار في النهاية قرارك».

ما إن عرض أوكينلك وجهة نظره على رئيس وزرائه، حتى دب الخلاف بين الاثنين. فهو يرى أنّه يجب عدم القيام بأي حملة قبل تأمين «القاعدة». وتأمين «القاعدة» كان يعني «استكمال احتلال سورية وتدعيم مواقعنا هناك» بالإضافة إلى قبرص. وكان أوكينلك يعتقد أن أي تهديد لأي فجوة في الجبهة، هو تهديد للجبهة كلها. أما الهدف النهائي «أي تدمير العدو في شمال إفريقية» فهو غير ممكن في «حملة واحدة، وإنما في سلسلة هجمات مركزة». ثم ماذا عن العتاد سأل أوكينلك رئيسه، «إن مثل هذه الحملة في الصحراء ليست مناسبة للمشاة، بل علينا دعم الجيش بسلاح جوي قوي».

وظلت هذه شعارات أوكينلك طوال مدة بقائه في المنطقة: الحاجة إلى قوة مدرعة فاعلة، إلى تفوق جوّي، وربط حسابات الجبهة الشمالية بالصحراء! وسوف يزيد من مخاوف تشرشل عندما يتناول وضع طبرق: «لست واثقاً من أنه في الإمكان المحافظة على طبرق بعد أيلول/سبتمبر. إننا نفعل كل ما نستطيع، لكن غارات العدو الجوي ضد السفن والبواخر في عرض البحر بدأت تفعل فعلها. وفوق ذلك إذا استطاع العدو تأمين «سيدي براني» ـ وهو قادر على ذلك في أي وقت ـ فإنه لن يعود من الممكن حماية السفن بالمستوى الحالي». وتحدث أوكينلك أيضاً عن مخاطر قيام الألمان بحملة على الجزء الشمالي من الجبهة في سورية أو العراق، الأمر الذي سيعقد الأمور تجاه الحملة في الصحراء الغربية!. ومن الهند انضم ويفل ـ الذي كان في السابق يقول «بالتفاوض»، والحل السياسي في العراق ـ إلى أوكينلك : «يجب إبعاد الألمان من العراق الآن، أكرر: الآن، من أجل سلامة الهند».

بحث الوزراء الذين يشكلون «لجنة الحرب» آراء أوكينلك مساء تموز/يوليو، ولم يكن بينهم من يؤيده. بل إن ألبرت ألكسندر، لورد الأميرالية الأول قال: «يجب أن نوجه ضربتنا القاضية في برقة خلال أربعة أسابيع على الأكثر. لا نستطيع أن نؤجل الحملة حتى تصبح قواتنا كاملة التدريب والعتاد». وقد وافق على ذلك الزعيم العمالي إتلي الذي تحدث عن ضرورة «إعادة احتلال برقة، فيما الألمان منشغلون على الجبهة الروسية».

وأمسك تشرشل بذريعة من ذرائع أوكينلك نفسه: «إنك تقول إنه قد لا يكون في الإمكان المحافظة على طبرق بعد أيلول /سبتمبر. ولذلك نعتقد أن أي محاولة لاستعادة برقة لا يمكن أن تؤجل بعد ذلك الشهر... فهل باستطاعتك القيام بالهجوم إذا أرسلنا إليك 150 دبابة إضافية على الفور». وفي اليوم نفسه ألحق تشرشل الرسالة ببرقية أخرى: إذا لم نستغل انشغال الألمان على الجبهة الروسية الآن، فإن الفرصة قد لا تكرر!

تدارس أوكينلك الوضع مع ضباطه: الجميع يقرون أن الحملة غير ممكنة الآن. متفقون، خصوصاً في العتاد. ومن أجل إعادة احتلال برقة لا بد من فرقتين مدرعتين على الأقل، لكن مثل هاتين الفرقتين لا يمكن إعدادهما قبل أوائل العام 1942 على أقرب تقدير.

تكاثرت الرسائل بين تشرشل وقائده في الشرق الأوسط. وسوف يكتب رئيس الوزراء البريطاني في مذكراته أنه شعر بأن ضباط ويفل قد أثروا في خلفه بالتعاطي مع لندن، واختصاراً للوقت والمزيد من العناد، طلب تشرشل إلى جنراله أن يأتي إلى لندن للبحث في الأمر.

كان أوكينلك يكن الاحترام لرئيسه، لكنه يعتقد أيضاً أنه يبالغ في تدخله في التفاصيل «ليته لم يكن جندياً في يوم من الأيام. لقد كان ذا عقل عظيم، لكنه كان أيضاً مهووساً بالانتصار». وفي 31 تموز/يوليو حاول أوكينلك أن يشرح لحكومة الحرب المشكلات التي تواجهه. وقد أصر أمام أعضائها على أنه حتى الحملة من أجل تخفيف

الضغط على طبرق، لن تكون ممكنة قبل شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وأن الهجوم الكامل يمكن أن يتم قبيل ربيع العام المقبل، وقال إن الوضع في ليبية «مجمد» حالياً، لا قواته قادرة على التقدم، ولا الألمان ينوون القيام بهجوم مبكر.

لم يعلق تشرشل بشيء، تاركاً الكلام حتى اليوم المقبل، الذي وصفه أوكينلك في رسالة إلى زوجته بأنه كان يوماً «رهيباً»، قال تشرشل لقائده:

«إن الألمان لاهون كلياً بالجبهة الروسية، وهم يجدون صعوبة شديدة في تموين مواقعهم في برقة، لدرجة أنهم قد ينسحبون من هناك، لكنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا أرغموا على قتال شديد يستنفد قواهم... ولقد بذلنا جهوداً كبيرة من أجل إرسال قوات إلى الشرق الأوسط، ومع ذلك ها نحن نبلّغ أنه ليس بالإمكان فعل أي شيء قبل أول تشرين الثاني/نوفمبر. إن هذا سوف يترك انطباعاً سيئاً عنا، كوننا في هذه المرحلة الحيوية، فيما يتحمل الروس لوعة الهجوم، وفيما الظروف مواتية جداً، لا نقوم بأي عمل».

رد أوكينلك من جديد: «ضرورة الهجوم واضحة جداً، لكن الوسائل غير سهلة». وقال للوزراء إن الفريقين يملكان عدداً متساوياً من الدبابات، «في حين أن التجربة أظهرت أنه لكي نربح المعركة لا بد من تفوق بنسبة دبابتين إلى دبابة واحدة».

تحدث أنطوني إيدن - إنه وزير الخارجية - ودوره هو أن يعرض المضاعفات السياسية: «إذا صد الروس الألمان، فإنهم سوف يكونون في موقف يمكنهم من القول إنهم ربحوا الحرب لنا... أما إذا فشل الروس فإننا لن نفقد فقط الفرصة بالهجوم، بل سوف نتهم بأننا لم نبذل أي مجهود لإنقاذهم».

نحو الواحدة والنصف اعتذر أوكينلك من السادة في 10 داوننغ ستريت. إنه على موعد لتناول الغداء مع الملك جورج، على بعد أميال قليلة في قصر باكنغهام. كان الملك منشرحاً، والغداء بسيطاً: عبارة عن حساء ودجاج وشراب التفاح! في الثالثة عاد إلى 10 دواننغ ستريت، ليصغي إلى تشرشل أكثر إصراراً وعناداً. ومعه، من المؤيدين، كليمنت إتلي: «معنا شهران فقط. الانتظار حتى تشرين الثاني/نوفمبر يعني أن الألمان سوف يستردون أنفاسهم، وأن فرصتنا سوف تضيع».

رد أوكينلك بقسوة : «الحملة الأخيرة أخفقت لأنها شنت قبل أن يكون الجيش مستعداً، وإذا تكرر ذلك فإننا لن نعرض القوة المدرعة فقط للخطر بل مصر كلها. لن يقف شيء أمام مسيرة العدو إلى الدلتا».

تدخل إتلي: لقد أخفقت الحملة الأخيرة لأننا لم نرمِ بكل شيء في المعركة. وعلى أي حال، كيف يمكن أن ننقذ مصر إذا انتظرنا حتى نعطي الألمان فرصة لتدعيم قواهم؟

غير أن أوكينلك ظل على عناده. إذا توافرت الفرصة للقيام بمثل هذا الهجوم سوف نبادر إلى ذلك على الفور. أما الآن، فلا. ازداد تشرشل عناداً بدوره: «إن الحروب لا تخاض على أساس الانتظار إلى أن يصبح كل شيء جاهزاً. وإنه لأمر مخيف أن نمضي أربعة أشهر ونصف الشهر من دون أن نفعل شيئاً».

استمر الاجتماع إلى ما لا نهاية! هكذا كتب أوكينلك إلى زوجته. غير أن تشرشل وعد في النهاية بأنه سوف يضع استنتاجاته على ورقة خلال يومين. والواقع أن تشرشل اعترف بالهزيمة: «لقد هّز أوكينلك جميع وزرائي بالتفاصيل التي قدمها. أنا شخصياً لم أقتنع. لكن أوكينلك ظل بالنسبة إليّ الرجل الأفضل، ولذا أذعنت وقبلت تشرين الثاني/نوفمبر موعداً».

كعادته حين ينهزم، أصبح تشرشل ودياً ومتفهماً. وهكذا دُعي أوكينلك لتمضية عطلة الأسبوع في «التشيكرز». وانضم إلى الاثنين أنطوني إيدن، فذهب تشرشل إلى النوم. بحث الاثنان في أمر الجنرالات الآخرين. وأبلغه أوكينلك أن تشرشل مصرٌ على تعيين الجنرال ميتلاند ولسون قائداً في الصحراء الغربية، «لكن الرجل بطيء» بالنسبة إلى حملة من هذا النوع. وفي وقت لاحق من ذلك المساء اجتمعت اللجنة الحربية مرة أخرى.

كان ذلك في 2 آب/أغسطس. وكان الموضوع تلك الليلة: تركية! لقد بحث البريطانيون كيف يمكن مساعدة تركية ـ التي لا تزال على الحياد ـ في وجه أي غزو ألماني محتمل! لم تتغير الأشياء. في الحرب الأولى كان أوكينلك ـ النقيب في الجيش آنذاك ـ يحارب الأتراك، وكان الألمان إلى جانبهم.

عاد أوكينلك إلى القاهرة في العاشر من ذلك الشهر، من طريق جبل طارق ومالطة، وكانت مثل هذه الرحلة الجوية في تلك الأيام تستغرق يومين. وعمد فوراً إلى تعيين الجنرال آلان كانينغهام قائداً للجبهة الغربية، وليس ميتلاند ولسون الملقب «جامبو» لسمنته. وأبرق إليه تشرشل يهنئه، لكنه في الواقع كان ضد التعيين. وسوف يقول مونتغمري عن أوكينلك بعد ذلك: «إنه كان سيئاً في اختيار الرجل». لكن الحقيقة أن بريطانية كانت تعاني نقصاً في قادة الميدان آنذاك، والرجل الذي كان يريده أوكينلك، آبي أوكونور، كان قد أصبح في الأسر الألماني الآن.

كان كانينغهام في الرابعة والخمسين من العمر، أما ولسون فكان في الستين. وكان الأخير قد قاد «جيش النيل»، وقام بالحملة الأولى على «برقة» تحت إمرة ويفل، كما تولى قيادة المعارك في سورية.

في هذه الأثناء كان رومل يعيد تنظيم قواته بعد نجاحه في «فأس المعركة». وقد مكنته التعزيزات التي وصلته خلال الصيف من تدعيم كتائبه. وكان رومل قد أقنع هتلر خلال آب/أغسطس، بأن القوات الألمانية والإيطالية في إفريقية يجب أن تتوحد تحت إمرته. وظلت طبرق هاجس رومل الأول، لكنه وزع أيضاً بعض قوات المحور بين «حلفايا» و«سيدي عمر» لصد أي هجوم بريطاني من مصر. ولم يكن أوكينلك يخدع نفسه تجاه منافسه «إنه عدو سريع الحركة، وخطر جداً ، ومتفائل. ويجب أن تظل على حذر منه طوال الوقت».

أسبوع بعد أسبوع، تدفق الرجال والعتاد للفريقين في الصحراء. وها هم ألوف الرجال، من جنسيات متعددة، يتعرفون أول مرة إلى حر الصحراء ومسافاتها اللامتناهية. وعلى هذه الرمال «الممتدة حتى الأفق» سوف يتقاتلون قريباً: «مسافات خلف مسافات من الرتابة الفسيحة، وفوقها مسافات من السماء الفسيحة: شمس حارقة، وأرض تعكس حرها كأنها مرآتها».

يطرأ تحول جديد. إن أوكينلك، بعكس ما كان موقفه في لندن، أصبح مقتنعاً الآن أن في إمكانه تقديم موعد الهجوم. وها هو يكتب إلى تشرشل في 21 آب/أغسطس، أنه

بدلاً من «الهجوم المحدود» في الخريف يمكن القيام بالهجوم الكبير الذي تعد لندن نفسها به. ومع حلول أيلول/سبتمبر كان يصدر إلى كانينغهام أمراً يقول: إن الهدف من حملة الخريف هو «إخراج العدو من شمال إفريقية». وحدد ذلك في مرحلتين، الأولى: احتلال بنغازي وجوارها، والثانية احتلال طرابلس وجوارها، أو المنطقة التي كان الأجانب يسمونها «تريبوليتانية».

وفي لندن كان صبر تشرشل ينفد من جديد، ويتذمر علناً من أن هناك «600 ألف فم يجب إطعامه في مصر». لكن مع منتصف أيلول/سبتمبر كانت المناوشات الحقيقة قد بدأت فعلاً بين أوكينلك ورومل. وأرسل الثعلب الألماني فرقة من المدرّعات باتجاه «سيدي براني» لظنه أنها مخزن الوقود البريطاني.

وعندما لم يجد شيئاً هناك استمر في تقدمه، فيما تراجع الإنكليز في دهاء. وتوقف رومل في 16 أيلول/سبتمبر عن المضي في تلك المعركة التي سميت «حلم ليلة صيف»، مقتنعاً هذه المرة بأن تقديراته بضعف البريطانيين قد صحت.

وهكذا أدار رومل ظهره لعدوه، بينما راح الإنكليز يبنون هذه المرة فعلاً مخازن وقود في «سيدي براني». هو كان يريد ضرب حصار حول طبرق. غير أن متاعب الإنكليز كانت كثيرة أيضاً، وبينها كما يروي وزير زائر: كثرة الضباط «من الدرجة الثانية». ومن ثم فإنه «ما لم يتبدل هؤلاء بدماء جديدة، فإن الحالة سوف تزداد انهياراً».

وعلى أي حال وضع الجنرال كانينغهام خطة محددة للهجوم، إنه الآن قائد «الجيش الثامن»، مع أن تشرشل كان يريد أن يطلق على القوة اسم «جيش النيل». واعترض أوكينلك على التسمية: «أين نحن من النيل؟ إنها رومانطيقية ساذجة. وعلى أي حال فإن الجنود لا يهمهم بشيء أي اسم تطلقه عليهم». كانت خطة كانينغهام تقضي بشن الهجوم عبر الجزء المهجور تقريباً من الحدود المصرية ـ الليبية قرب «سيدي عمر»، على أن تتجه القوة البريطانية الضاربة في الشمال الغربي نحو طبرق. وكان الهدف من ذلك استدراج رومل وفرقتيه المدرعتين «بعيداً عن حصنه». وعندما يتم ذلك تندفع الحامية البريطانية إلى القتال بدورها، ثم تقوم فرقة أخرى من الجيش الثامن بتطويق المواقع الألمانية على الحدود، قبل أن تندفع نحو «البردية» وطبرق.

في غضون ذلك تابع أوكينلك مسؤوليات أخرى. وفي 3 تشرين الأول/أكتوبر بدأ جولة تفقدية على قواته في سورية وفلسطين، استمرت حتى العاشر منه. وعلى عكس تشرشل ظل خائفاً من مخاطر محتملة في تلك «الجبهة الشرقية». وقد كان على حق، ففي الجانب الآخر كان رومل يحلم ـ إذا توافرت له التعزيزات ـ بدحر حملة بريطانية توقعها في أوائل الربيع، يندفع بعدها في نهايات الربيع إلى قناة السويس، ومن هناك إلى العراق، وخصوصاً البصرة.

لكن في حين كان أوكينلك يتطلع بطرف عينه إلى الشرق، كان نظر تشرشل مركزاً على غرب تلك الجبهة الطويلة! كانت للعجوز اللندني أحلام بعيدة المدى، أقلها إبعاد رومل من ليبية: «إذا أخذنا طرابلس، ولم تتحرك فرنسة، فإن حيازتنا لمالطة سوف تمكننا من الزحف على صقلية، وبذلك نفتح «الجبهة الثانية» الوحيدة الممكنة في أوروبة.

وشاركه وزراء آخرون هذا الحلم الذي بحثته لجنة الدفاع في 15 تشرين الأول/أكتوبر في جلسة خاصة. وبحث الوزراء أيضاً في وضع روسية، وعدم مساعدة بريطانية للحليف المتألم. ولذا قال إتلي: «إن السياسة الحكيمة هي أن نكون مستعدين لاستغلال نجاحنا في الصحراء». أما إيدن فكان يعتقد أن «اللحظة المناسبة للزحف على صقلية قد تكون خلال الهجوم على طرابلس». وأصر اللورد بيفربروك على أنه يجب القيام بأي عمل في الحرب لمساعدة الروس.

انهمك أوكينلك في تعديل الدبابات الواصلة الحديثة، بحيث تستطيع القتال في الصحراء. كان هذا يعني تأخير موعد الهجوم إلى 15 تشرين الثاني/نوفمبر. وطار صواب تشرشل من جديد، ومن جديد أيضاً تطايرت البرقيات بين القاهرة ولندن، وأصر العجوز البريطاني من عاصمته على أن قواته تملك الآن 616 دبابة، في حين يملك الألمان 186 «أي أربع دبابات مقابل واحدة. وهذا كثير».

غير أن تشرشل عاد فأذعن لقرار جنراله المتأني: «ليس لدينا خيار سوى أن نقبل اقتراحك الجديد، لذلك فإنني لن أضيع المزيد من الكلام في الحديث عنه».

لكن أوكينلك، بعد بروز صعوبات جديدة في تدريب بعض الفرق، سوف يؤجل الموعد مرة أخيرة حتى 18 من ذلك الشهر. في المقابل كان رومل يركز اهتمامه على طبرق لطرد الحامية البريطانية منها، ويهيئ للقيام بهجوم عليها بين 15 و 18 تشرين الثاني/نوفمبر. وكتب أوكينلك بعد الحرب إنه درس آنذاك إمكانية «تأجيل حملتنا، إلى أن يكون رومل قد بدأ هجومه، وعند ذلك نهاجمه من الخلف لكننا لم نكن نعرف موعده».

غادر ثعلب الصحراء إفريقية الشمالية لبضعة أيام في منتصف الشهر، فيما كان الجيش البريطاني الثامن يتخذ مواقعه للهجوم. وفي 15 منه وجه تشرشل رسالة إلى رجال أوكينلك: «إن جيش الصحراء قد يضيف صفحة جديدة إلى التاريخ الذي كتب في بلنهايم وواترلو. إن أنظار جميع الأمم تتطلع إليكم».

حل فجر الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1941. وعنه كتب أحد المشاركين في المعركة: «لقد بدأت! هذا الصباح استيقظنا في الرابعة تحت جنح الظلام، وكذلك استيقظت على ما يبدو جميع الوحدات في فرقتنا المدرعة، وكأننا في سباق عظيم... وعلى مدّ النظر في تلك الصحراء كانت هناك عربات من كل الأنواع ـ دبابات وسيارات مصفحة ومدافع وطنابر وشاحنات ولوريات ـ كلها تتجه غرباً نحو ليبية».

طوال ذلك النهار سارت القوات البريطانية، من دون أن ترى أمامها أي قوات ألمانية سوى وحدات الاستكشاف. ومع المساء كان أحد الفيالق قد وصل إلى موقعه في «جبر صالح» جنوب غرب طبرق، حيث أمل في استدراج الألمان. لكن الألمان لم يتحركوا، وقد خيل إلى رومل، الذي عاد إلى الصحراء قبل يوم واحد، أن القوات البريطانية لم تكن سوى قوة استكشاف ضخمة، وهكذا استمر في الإعداد للهجوم على طبرق. والهدوء الألماني أدى بدوره، عن غير قصد، إلى إرباك الإنكليز الذين حاروا في تفسيره، وهكذا غيّر البريطانيون خططهم بأن وزعوا جنودهم... ومن ثم قواهم، وقد كتب رئيس أركان رومل الجنرال فريتزبايرلين فيما بعد: «إنه فقط بعد ظهر الثامن عشر تيقنت فرقة البانزر من أن العدو قد شن حملة رئيسة».

وبدأت وحدات دبابات «البانزر» بالتجمع في 19 تشرين الثاني/نوفمبر، باتجاه «جبر صالح». غير أن القوات البريطانية كانت قد قطعت شوطاً من التقدم نحو «سيدي رازق» وطبرق، وهو تقدم لم يكن مهماً بسبب تفرق القوات، والمسافات التي تفصل بينها.

تعالت ضراوة الاشتباك في كل اتجاه، واستطاعت فرقة بريطانية اقتحام إحدى النقاط الألمانية، إلا أن رومل صد المزيد من التقدم، فيما دارت الدبابات والمدرعات البريطانية حوله وحول نفسها أيضاً في مساحات الصحراء، وتوقف عدد كبير من الدبابات بسبب أعطال ميكانيكية أو لنفاد الوقود، وانقطعت خطوط الاتصال، وضاعت وحدات كثيرة، ثم وجدت، ثم ضاعت من جديد. «لم يكن ضباب الحرب بهذه الكثافة في أي معركة».

في هذه الحالة من الضياع والفوضى فقد الجنرال كانينغهام قبضته الأولى على المعركة، وفقد أعصابه أيضاً. وكان رومل يستخدم في الجانب الآخر حدة الهجوم وصلابة القتال، فاستعاد المبادرة لقوات المحور. أما أوكينلك الذي كان يزوّد بتقارير خاطئة من الجبهة، فكان يرسل هذه التقارير بدوره إلى لندن. وفي 22 تشرين الثاني/ نوفمبر أبرق إلى لندن يقول: «إن إمكانات تحقيق هدفنا الفوري، أي تدمير القوات الألمانية المدرعة، تبدو جيدة». وفي برقية أخرى ذلك النهار: «إن الشجاعة والإقدام اللذين أظهرهما القادة والقوات كانا رائعين. وفي رأيي إن كانينغهام قد أنهى حتى الآن هذه المعركة الشديدة التعقيد بمهارة وجرأة».

بعد بزوغ فجر 23 تشرين الثاني/نوفمبر بقليل، كان رومل يهجم على المواقع البريطانية، فيحطم الكثير منها، ويوقع في صفوف الإنكليز 3.994 قتيلاً. وفقد البريطانيون أيضاً مئات الدبابات. أما الألمان ففقدوا نحو 60 دبابة فقط.

وبدا أن كانينغهام سيأمر بين لحظة وأخرى بتراجع جماعي إلى مصر. غير أن رئيس أركانه، الجنرال ألكسندر فالواي عارض مثل هذه الخطوة بشدة، وأبرق إلى القيادة في القاهرة بالأمر. وأبرق كانينغهام يائساً إلى أوكينلك يطلب منه الحضور فوراً.

حتى تلك اللحظة لم يكن أوكينلك قد تدخل في المعركة. وقد قال فيما بعد: «آخر ما كنت أريد هو أن أتدخل، إلا إذا ساءت الأمور». لكن ها هو يستقل الطائرة العسكرية التي تحلق به في العاصفة «على علو 100 متر فقط أحياناً». وما أن وصل حتى انتحى جانباً بكانينغهام، الذي أطلعه على الخسائر الفادحة في الدبابات. وسأله قائد الحملة: ماذا نفعل الآن؟

كان أوكينلك حاسماً: يجب على «الجيش أن يهجم. يجب إنزال خسائر موازنة بالعدو. الآن وقت الضغط عليه». فقد لاحظ أن الألمان أيضاً يعانون من التشتت: «إنهم يهاجمون هنا وهناك، وفي كل مكان، في ما بدا لي محاولة يائسة للإخلال بتوازننا وزرع الفوضى في صفوفنا. صحيح أن العدو كان قد استرد المبادرة التكتيكية، لكن المبادرة الإستراتيجية ظلت في أيدينا: نحن نهاجم، أما هو ففي موقع الدفاع»، وهكذا قرر أوكينلك تخطي الصعاب بدلاً من أن ينوء تحتها مثل جنراله. لم يفقد أعصابه أمام مشهد المدرعات والسيارات المحترقة التي تضيء ليل الصحراء. أما ثعلب الصحراء فقد عاد إلى قاعدته في «العدم» وهو شديد الفرح. لقد قرر رومل الآن أن يقوم بأجرأ خطوة في حياته العسكرية: سوف ينتقي أفضل وحداته ويقودها نحو مصر، ضارباً أولا الأجنحة الخلفية للجيش الثامن، مشتتاً الفيالق الأخرى! ولو نجح رومل في ذلك لاعتبرت تلك من أمكر الخطوات ذكاء في تاريخ الحرب، لكنه سوف يفشل بسبب أوكينلك.

في ذلك النهار بالذات كتب رومل إلى زوجته يقول: «يبدو أن المعركة قد تخطت أزمتها». أما أوكينلك فكان يبرق إلى لندن: «يبدو أن المعركة تتجه نحو ذروتها». الأول اعتقد أن ساعة النصر قد حانت، والثاني كان يعتقد أن اللحظة الحاسمة لم تحن بعد.

«إن السرعة حيوية جداً» هكذا قال رومل لجنرال نويل صباح اليوم الثاني، 14 تشرين الثاني/نوفمبر، وبعد قليل كانت الدبابات الألمانية تتجه نحو مصر تتقدمها، سيارة رومل! ووصف أحد الضباط الإنكليز تلك الساعات بقوله: «كان رومل يتقدم وكأنه ثور فالتٌ في مخزن للأواني الزجاجية»: لقد بدا الآن أن مصر في متناوله.

على طاولة مفككة في الصحراء كان أوكينلك يكتب أوامره: 1- «استمروا في مهاجمة العدو بلا هوادة مستخدمين جميع إمكاناتكم حتى الدبابة الأخير. 2- هدفكم الفوري هو تدمير دبابات العدو. 3- هدفكم النهائي لا يزال احتلال برقة، ثم الاتجاه نحو طرابلس».

استمرت حملة الجيش الثامن على الرغم من ضربات رومل. وفي «سيدي رازق» أعاد الفريق المهزوم تجميع أفراده، وفي الشمال اندفعت الفرقة النيوزيلندية نحو طبرق.

تحرك رومل بلا راحة، وتعطلت سيارته قرب دورية بريطانية، لكنه نجا من الأسر. إلا أن أوكينلك ظل مطمئناً. وقال لأحد المراسلين الأميركيين: «إنه يقوم بمحاولة يائسة، لكنه لن يذهب بعيداً. إن ذلك الطابور من الدبابات غير قادر، بكل بساطة، على الحصول على مؤن».

من ناحية أخرى كان عليه أن يستبدل كانينغهام. لا مفر من ذلك. إنه يتلقى كلاماً طيباً من تشرشل وأنباء جيدة من الجبهة. لكن البدائل كانت قليلة. وفي النهاية اختار أحد رفاقه في القيادة، ريتشي، وهو قرار سوف يثير الانتقادات فيما بعد، وكتب إلى كانينغهام رسالتين، واحدة شخصية والثانية رسمية. وفي الأولى يقول له: «ليس هناك جدوى من أن أقول لك كم أكره هذا. لكن لا خيار أمامي. إنها قناعتي». وسوف يصبح كانينغهام، على الرغم من ذلك، المفوض السامي وقائد القوات البريطانية في فلسطين بين العامين 1945 و1948.

بدا القائد الجديد متفائلاً: «إن الوضع العام في برقة جيد بصورة عامة، والدلائل تشير إلى أن صعوبات العدو آخذة في التزايد». غير أن تشرشل كان يبرق إلى أوكينلك. لماذا لا يقود المعركة بنفسه؟ لكن الجنرال ردَّ بأن ذلك قد يترك تأثيراً سيئاً في الجنود. ولكل مسؤولياته في الميدان.

في غضون ذلك، في 28 تشرين الثاني/نوفمبر، كان ثعلب الصحراء قد عاد إلى «العدم» وأعاد قواته إلى منطقة «سيدي رازق» التي احتلها بعد يومين، واستعد من جديد لضرب طبرق.

وفي أول كانون الأول/ديسمبر عاد أوكينلك إلى الجبهة ليرى أن رومل قد خسر الكثير من الدبابات. ففرقة البانزر الحادية والعشرون لم يبق لديها سوى 21 دبابة، أما الفرقة الخامسة عشرة فبقي لها 15 دبابة، وبالمقابل حصل الإنكليز على 120 دبابة جديدة: لم يبق أمامنا سوى التراجع. هكذا قال أحد أركان رومل.

لكن رومل نفسه لم يوافق. وقد حاول القيام بهجوم مضاد في 2 كانون الأول/ديسمبر. وفي الرابع منه كان مشهد القتال بين سيدي رازق وطبرق مضحكاً ومأساوياً معاً: الدبابات والمدرعات تدور حول نفسها في الصحراء، المشاة غارقون في الرمال، يقاتلون، يغرقون، ثم يقدمون ثانية. وكتب الكابتن روبرت كريسبا، أحد المشاركين في تلك المعركة: «أستطيع القول بكل صدق: إن أحداً منا لم يكن يعرف أين نحن من يوم إلى يوم ومن ساعة إلى ساعة. ولم نكن نعرف ماذا يحدث لقواتنا أو لقوات العدو. لقد انتقلت الحملة، في عنف شديد من أحد جوانب الصحراء إلى الجانب الآخر... كنا نطارد السراب ونشعر أن السراب يطاردنا أيضاً. لم ننم . لم نأكل. لم نستحم . والكلام الوحيد الذي كان يقال على اللاسلكي فقط».

بعد ثلاثة أيام بدأ رومل، الذي لم تصله أي مؤن، بعكس الإنكليز، يفكر في الانسحاب في ضوء خسائره البشرية والمادية. وعرف البريطانيون بأزمة ثعلب الصحراء، فراحوا يشبعون قواه ضرباً. وفي الثامن من ذلك الشهر كان المارشال الألماني ينسحب من أطراف طبرق بعد حصار دام 242 يوماً. أما أوكينلك فكان يعود إلى القاهرة، كلاهما سوف يستعد الآن لواحدة من أشهر المعارك في تاريخ الحروب: العلمين!

رومل:
أحب الصحراء.. فهزمته الصحراء

هناك اسم غريب بين «جنرالات الشرق». لا هو فرنسي مثل جنرالات «المشرق»، ولا هو بريطاني مثل أولئك العسكريين الإنكليز الذين هاموا بالصحراء من أطرافها إلى أطرافها وكأنها حديقة غناء في أواسط لندن. إنه الماريشال أروين رومل.

لقد خرج رومل في نهاية الأمر مهزوماً من الحرب العالمية الثانية. وخرج مهزوماً من معركته الكبرى من أجل الوصول إلى مصر. لكن الغرابة أن الجميع يعاملونه وكأنه منتصر، والمؤرخون الغربيون الذين يلعنون عسكر النازية صباحاً ومساء يعاملون أروين رومل بإعجاب غريب. ولعل السبب الأول والأخير أنه في الحرب حيث تسود القذارات، حرص رومل على الأعراف، وفي الحرب حيث لا تعود هناك مبادئ، حرص رومل على احترام القواعد. أما السبب الآخر فهو أن الرجل ولو أنه هزم في النهاية، فقد كان من الصعب جداً أن يهزم.

لقد وضع البريطانيون ثلاثة من كبار قادتهم في وجه أروين رومل. ومن أجل أن يهزم هذا الماريشال الألماني الوسيم، كان تشرشل يغير الجنرالات في ليبية ومصر وتونس، كما يغير سيجاره المشتعل أبداً.

إذاً، من هو رومل الذي قرأنا عنه في الفصول عن ويفل وأوكينلك؟

إنه العام 1944. وبالتحديد في 18 أيار/مايو، ثمة من يبلغ هتلر خلال الاجتماع الحربي هذا الصباح أن العدو قد نفذ عمليتين تخريبيتين على الساحل الفرنسي على الرغم من دفاعاته الشديدة. وفي مسرح العملية الأولى تبادل الألمان النار مع الكوماندوس المهاجمين، أما في الثانية - قرب نهر السوم - فقد تم اعتقال ضابطين بريطانيين.

وفي صوت متهدج قال الجنرال ألفرد جودل رئيس العمليات العسكرية في الفيرماخت لسيده ألفوهرر «لقد جاءا بقارب من المطاط أنزله مركب بريطاني بخاري».

يتغير المشهد إلى قصر فرنسي عتيق، مبني على ظهر صخرة ضخمة تطل على وادي السين. وكان ذلك بعد يومين من الاجتماع بقيادة ألفوهرر. تقف سيارة عسكرية مسرعة أمام القصر، ويترجل منها جنديان متعبان من عناء الرحلة التي بدأت قرب المانش. يتقدم العسكريان وخلفهما رجلان عصبت أعينهما وشد وثاقهما. إنهما من الكوماندوس البريطاني. عند المدخل تفك العصبة عن أعينهما فتلمع الشمس فيهما لمعاناً محزناً. لقد كانا يعرفان أن أوامر ألفوهرر واضحة: كل رجل كوماندوس يعتقل يسلم إلى رجال الغستابو فوراً ويرمى بالرصاص.

يدفعهما الجنود إلى زنزانات مختلفة، لكنهما يجدان هناك فناجين شاي وقطعاً من الخبز. يرفض أحدهما، اللفتانت روى وودريج أن يتفوه بأي كلمة، أما الضابط الآخر جورج لين فيساق إلى مقابلة الكولونيل هانز – غيروغ فون تمبلهوف. ويقف تمبلهوف بكل هدوء ويقول لأسيره بتحبب: «لا بد أن الطقس جميل في إنكلترة اليوم».

ودهش لين أمام طلاقة الرجل في الإنكليزية، فشعر تمبلهوف بذلك وسارع إلى التوضيح: «إن زوجتي إنكليزية». وراح يتأمل أسيره طويلاً، ثم وقف فجأة وطلب إليه أن يذهب ليغتسل: «إنك ستقابل شخصاً مهماً... شخصاً مهماً جداً. الفيلد ماريشال رومل»!

كان الحلفاء على بعد 17 يوماً فقط من موعد الهجوم الكبير على فرنسة التي يحتلها النازيون، وفي مرافئ بريطانية كانت أساطيل ضخمة تتجمع، استعداداً لتلك العملية الحاسمة في الحرب الكونية الثانية. ومن أجل ذلك فقد وضع هتلر على رأس القيادة في فرنسة ماريشاله المفضل أروين رومل، ثعلب الصحراء الشهير، والرجل الذي دوخ الأميركيين والبريطانيين من قبل.

إنه يعرف ماذا يغضب الأعداء، ويستطيع أن يتكهن بكل حركة سوف يأتونها. وقد لاحظت طائرات الاستكشاف التابعة للسلاح الجوي الألماني قبل أيام حشداً لسفن الإنزال قبالة منطقة السوم. ثم جاءت عملية الكوماندوس لتؤكد أن الغزو الحليف سوف يبدأ من هناك. لكن أنى لهذا العسكري الذكي أن يعرف أن سفن الإنزال تلك

كانت نماذج فارغة، وأن رجال الكوماندوس أنزلوا عمداً لكي يزودوا الألمان بمعلومات كاذبة! لقد كان كل شيء جزءاً من خطة خادعة دبرها الإنكليز.

اختار رومل هذا القصر المنيع مقراً له لأنه مليء بالأقبية. وقد أضاف إلى الأنفاق الأساسية أنفاقاً أخرى حفرها رجاله في الصخرة الضخمة. ومنذ خمسة أشهر وهو يعد الجيش الألماني للهجوم الحليف، فيزرع الأسلاك الشائكة والأفخاخ البشرية والألغام والمصائد. ومن ثمّ فإنه لم يفاجأ بأن يركب الإنكليز المخاطر لكي يعرفوا ماذا يدبّر!

يدخل اللفتانت لين إلى مكتب الفيلد ماريشال، فيراه جالساً ينظر من النافذة. إنها غرفة طويلة ضخمة، مزينة جدرانها بأربع لوحات نادرة، وأرضها مغطاة بالسجاد الثمين، وقد انتشرت التحف في كل زاوية منها. أما رومل نفسه فكان قد بدأ يخسر بعض وسامته الشهيرة: إنه الآن مائل إلى السمنة، وشعره بدأ يتساقط، لكن عينيه الزرقاوين تزدادان عمقاً. وبدأ واضحاً ذلك النهار أن الشمس قد لوحت وجهه بسبب جولاته الكثيرة على الساحل. وكان يضع حول عنقه وسام الاستحقاق المذهب، الذي منحه في العام 1917 وهو أرفع وسام كانت تقدمه بروسية لضباطها.

يقف رومل ويحيي أسيره البريطاني بلطف. ثم طلب من لين أن يتقدم ويجلس، وقبل أن يفعل، يقول له:

إذاً، أنت واحد من رجال الكوماندوس المجرمين؟».

فيرد لين قائلاً:

- «إنني فخور بكوني من رجال الكوماندوس، ولست مجرماً».

ويقول رومل: «ربما لست مجرماً. لكن لنا تجارب سيئة معكم معشر الكوماندوس. فهم لم يتصرفوا دائماً كما يجب». ثم يضحك ساخراً ويضيف «إنك طبعاً في مأزق، فأنت تعرف ماذا نفعل بالمخربين».

يتطلع لين إلى المترجم ويقول له: «لو كان سيدك يعتقد أنني مخرب، لما دعاني إلى هنا».

فضحك رومل وقال: «إذاً، أنت تعتبر هذه دعوة».

فيجب لين: «يجب أن أعترف بأنني أعدّها كذلك، ولذا فأنا أشعر بالفخر».

ويضحك الجميع. ثم يقول رومل: «بالمناسبة، كيف حال صديقي القديم مونتغمري».

ويجيب لين: «إنه ممتاز. شكراً. وقد سمعت مؤخراً أنه يعد لغزو ما».

وتصنع رومل الدهشة: «هل تعني أنه سوف يكون هناك حقاً غزو ما؟».

ويرد الأمير: «هكذا تخبرنا «التايمس». وهي كما تعرف جريدة موثوقة».

وقال رومل: «إنك تعرف ولا شك أنه سوف يترتب على الإنكليز للمرة الأولى أن يقاتلوا بصورة حسنة».

فأجاب لين: «لكن كيف قتالهم في إفريقية؟».

آه، رد رومل: «لقد كان ذلك لعب أطفال. والسبب الوحيد الذي جعلني أتراجع آنذاك هو أن المؤن لم تعد تصل إلي».

وأخذ رومل مدة عشرين دقيقة يستعيد ذكريات الحرب، ويلقي على لين العظات حول تراجع بريطانية وانحسار امبرطوريتها، وحول المستقبل العظيم الذي ينتظر الرايخ الثالث. ويعتذر لين: هل يسمح له الماريشال بهذا السؤال: أليس الاحتلال العسكري ظلماً؟

لا. يرد رومل. ثم إن العسكريين، بسبب تنشئتهم، يتحولون إلى ديكتاتوريين مثاليين. إن الجنود معتادون على الأزمات، وهم يعرفون كيف يواجهون أقصى حالات الطوارئ: «ولو أنك تجولت في أنحاء فرنسة اليوم، وفتحت عينيك جيداً، لرأيت كم هم الفرنسيون سعداء. ها هم يعرفون للمرة الأولى ماذا يجب أن يفعلوا، لأننا نحن الذين نعلمهم ذلك! وهذا ما يفضله السواد الأعظم من الشعب».

بعد فترة تعصب عينا اللفتانت لين من جديد. ويخرج من مكتب رومل إلى معسكر الاعتقال و... العفو كما شاء الماريشال! وفيما هو يركب السيارة، أمسك بذراع آسره الكولونيل ستارب واسر، وقال له:

«هل لي بطلب منك؟ قل لي أين نحن الآن».

ورفض ستاوب واسر بتهذيب، لأسباب أمنية. لكن لين عاد يصر: «أقسم لك بأنني لن أخبر أحداً، لكن غداً عندما تنتهي هذه الحرب، أريد أن أحضر أولادي وأقول لهم: هنا قابلت رومل».

في العام 1944 كان رومل قد أصبح أسطورة حية. فقد عرفه أعداؤه وجنوده معاً، إنه يملك مقدرة نادرة على القيادة: إنه لا يكف عن القتال، لكنه لا يسأم من العفو. يعرف كيف ينتصر ويعرف كيف يعامل المهزومين. كان يهاجم مثل إعصار، كما يقول المؤرخ ديفيد إرفينغ، لكن أعداءه كانوا يحسدونه على أسلوبه في الانسحاب.

رأى فيه بعض الناس هنيبعل معاصراً، يعرف كيف يطوق أعداءه، وكيف يدكهم ويهبط معنوياتهم، وكيف يحقق النصر بعد النصر، إلى أن ترغمه «قوة خارجة عن كل إرادة» على الانسحاب، وكان يفعل ذلك بأقل كمية ممكنة من الخسائر.

كان فتياً دائماً بالنسبة إلى رتبته العسكرية، يعشقه جنوده حتى الموت، ويقال إنه أحيا في الحرب تلك الفروسية التي نسيها الناس منذ زمن. ففي حرب نسف فيها الناس جماعات، ودمرت فيها المدن حتى الحجر الأخير، كان رومل يأمر جنوده بالقتال مع الخلق. كان يحترم الأسرى والممتلكات الخاصة. وإننا نقرأ في أمر يومي إلى جنوده في إيطالية في العام 1943: «لا تنهبوا. حافظوا على النظام، واحترموا الفيرماخت الألماني». وقد رفض فكرة السخرة في فرنسة ودفع للعمال رواتبهم بالطرق العادية. وفي العام 1942 تجاهل حتى اللحظة الأخيرة أوامر هتلر الشهيرة بالإعدام الفوري لكل رجال الكوماندوس، وعندما اعتقل بعض العرب الذين عملوا إلى جانب الحلفاء رفض الانتقام من الرهائن قائلاً: «الأفضل أن نترك هذه الحوادث من دون ثأر، من أن نثأر من الأبرياء».

لم يكن يشعر بالفرح في قتل جندي عدو، في حين أن المارشال مونتغمري كان يقول: «اقتلوا الألمان أينما وجدتموهم». وكان أيزنهاور يقول: «بالنسبة إليّ كل جندي يقتل ألمانيةً هو رجل أحبه، وإذا كان بإمكاني أن أساعده على قتال اثنين بدلاً من واحد

فعلت ذلك». لم يتفوه رومل إطلاقاً بمثل هذه الأقوال، بل كان يكتفي بالتفوق على عدوه ذكاء وخداعاً وقوة، ويقال إن متعته الكبرى كانت في حمل عدوه على الاستسلام قبل الوقت الضروري.

وقبل أي شيء كان جنرالاً مقاتلاً، يندفع إلى الميدان قبل الجميع غير عابئ بأي أخطار، وإنه كما يقول إرفينغ: الرجل الذي لم تمزقه قذيفة عدو، ولم يقتله لغم، ولم تسقط على مقربة منه قنبلة تصرعه. ولقد كانت أسطورة رومل قوية لدرجة أنها أسرت أعداءه قبل حلفائه. وقد عمد الحلفاء إلى تضخيم أسطورته خلال الحرب، في البداية لكي يبرروا خسائرهم، ثم بعد ذلك لكي يرفعوا من شأن انتصاراتهم. كذلك كان هناك سببٌ ثالثٌ هو إبراز هذا الألماني النبيل بوصفه نقيضاً للقذارات النازية الأخرى.

لقد كان هناك زمن كان فيه اسم رومل وحده يساوي بضعة فرق. وعندما أقعده المرض أخفى الأمر عن الجنود لكي لا يصيبهم الإحباط. وعندما أيقن الحلفاء أن رومل لم يعد حقاً في أرض القتال، بدأت حملة من التكهنات الغربية. وامتلأت واشنطن بإشاعات تقول إنه يقود جيشاً سرياً في اليونان أو رومانية أو يوغوسلافية. أم هل هو فعلاً في إيطالية؟ في فرنسة؟

ولقد تعرض رومل مرتين لعملية اغتيال. وفي المرتين نجا مثل هتلر. وساد العالم شعور بأنه «لا يقهر». وكان أول المصدقين رومل نفسه.

أينما تلفت كان يرعب الحلفاء. وفي آذار/مارس 1942 كتب قائد القوات البريطانية في إفريقية الشمالية السير كلود أوكينلك إلى ضباطه يحذرهم: «ثمة خطر من أن يتحول صديقنا رومل إلى أسطورة في نظر جنودنا، لكثرة ما يتحدثون عنه. إنه ليس سوبرمان، على الرغم من طاقته ومقدرته. وحتى لو كان سوبرمان حقاً فإنه ليس لجنودنا أن ينعموا عليه بهذا اللقب».

وبعد ذلك بأربعة أشهر وصلت نسخة من هذه المذكرة إلى رومل فضحك. كذلك أبلغ رومل أن برنارد مونتغمري، خلف أوكينلك، كان يعلق في قاطرته صورة لرومل. أما الفيلد ماريشال نفسه فيبدو أنه لم يعجب بأحد من أعدائه. إنه لا يذكر أحداً منهم بالاسم في آلاف الصفحات التي تركها من مذكراته.

إذا كانت هذه نظرة الأعداء إلى رومل فماذا كانت نظرة شعبه؟ الحقيقة أنه كان قد أصبح أسطورة بالنسبة إلى الألمان منذ العام 1941 وهوليوود، مصنع الأساطير، أدت – هي أيضاً – دوراً في صناعة صورة رومل. ونادراً ما كتب جنرال إلى آخر من دون الإشارة إليه أو إلى أمثولاته. فقد أجمع هؤلاء على أن الرجل ربح معارك كان صعباً على الآخرين أن يأملوا بربحها. لكن للأسف فإن رومل تعلم فن الإستراتيجية وتكتيك القتال في ميدان القتال. والميدان وحده ليس كلية كاملة. فالخبرة القتالية لا تكفي وحدها بالنسبة إلى الجنرالات. وكان رومل ينظر باحتقار إلى ضباط الأركان العامة، ولذا حاول أن ينجح من دون العلم الذي أتقنوه، أي الاستخبارات والتموين وسلاح الإشارة والعمليات وغيرها. ومن هنا يقول أحد نقَّاد الجنرال إينو فون رينتلن: «لم يكن رومل إستراتيجياً كبيراً، بل كان يفتقر إلى تدريب ضباط الراين الذي يمكن أن يجعل منه واحداً. وقال الجنرال غيرها رد فون شفيرن الذي قاتل إلى جانب رومل، بكل سخرية: إن الفيلد ماريشال «تعلم الكثير من الأخطاء التي ارتكبها». أما الفيلد ماريشال غير فون روندشت فقال إن رومل لم يكن «أكثر من قائد فرقة جيدة».

بعض هذه الانتقادات كان لها في رأي الخبراء ما يبررها. وثمة من يقول إن النقص الآخر لدى رومل بالنسبة إلى بقية رفاقه، هو تكرسه المطلق للفوهرر، الذي كان بدوره يعد رومل ماريشاله المفضل. وقد عرف رومل أيضاً كيف يدير الآلة الدعائية حول «ألمانية الجديدة» وحول نفسه، بحيث نشأت حركة من نوع «عبادة» رومل، كما قال أحد الجنرالات الألمان، ونادراً ما ذهب إلى مكان من دون طابور من المصورين، كما أن أكثر الصور التي التقطت له كانت «مخرجة» و «مدبرة» مثل فيلم سينمائي حسن الإخراج.

ويقال إن ضباطه عرفوا نقطة ضعفه هذه، فكانوا يعمدون من أجل استمالته إلى وضع مصورين في انتظاره كلما زار نقطة ما، حتى لو كانت آلات التصوير خالية من الأفلام!

وقد رأى بعض الجنرالات في ذلك بعداً عن المهنية والروح العسكرية، وقد كتب الجنرال هاينز غودريان إلى زوجته من أرض القتال في موسكو يقول لها: «لن أسمح

لنفسي في أي ظرف من الظروف أن أحيط اسمي بهذه الدعاية الفارغة على الطريقة الروملية، وإذا ما حاولت ذلك فأرجو أن تمنعيني».

لقد عبّر الآخرون عن حسدهم لروميل في أشكال كثيرة. وقال أحد الجنرالات مردداً الإشاعة الأكثر شعبية: إنه «كان يتحدث إلى هتلر بالهاتف شخصياً كل أسبوع»! أما الحقيقة فهي أنه تحدث إلى الفوهرر مرة يتيمة خلال الحرب كلها. وقد كان مغتبطاً بهذه المكالمة، لدرجة أنه كتب عنها في عدة مناسبات فيما بعد. لقد كان الحسد وليد الأسطورة نفسها، وقد أدى هذا الحسد دوراً في نهاية روميل المأساوية. إذ عندما احتاج إلى أصدقاء لم يكن هناك أحد.

بعد موت روميل كبرت الأسطورة أكثر فأكثر. وفيما خجل الألمان بعد الحرب بالجنرالات الآخرين، فقد ظلوا يفاخرون بروميل الذي أطلق اسمه على أحد السفن الحربية. ولعله الجنرال الوحيد من الحرب العالمية الثانية الذي أطلق اسمه على بعض الشوارع. وقد وضع الأميركيون، أعداء الأمس فيلماً ملحمياً عنه بعنوان «ثعلب الصحراء».

إنه اللقب الذي ربحه في صحاري ليبية، التي عرفت حتى الاستقلال بأنها «برقة» و«طرابلس».

ويستحيل أن نكتب عن روميل «ثعلب الصحراء» أو بطل «العلمين» من دون الدخول في ملحمة كتابية. لذلك، وكما فعلنا بالنسبة إلى الجنرالات الآخرين. لا بد من فصل واحد. لماذا لا يكون ذلك الفصل عن روميل على مشارف «العلمين»، المعركة التي رفعت اسمه ورافقته في التاريخ.

ها هو روميل على بعد مئة ميل فقط من القاعدة البريطانية البحرية الضخمة في الإسكندرية. وقد بدا للبريطانيين آنذاك أن مصر أصبحت في متناول يده، ولذا فإن بين الخطط التي وضعها الجنرال أوكينلك، لائحة بأسماء المنشآت التي يجب تدميرها حين يقترب روميل من النصر: محطات إذاعة، وآبار نفط، ومحطات تلغرافية، ومولدات الطاقة. وفي الوقت نفسه باشر البريطانيون بتعزيز الدفاعات

حول الأهرام. وثمة من أبلغ رومل أن حالة الطوارئ قد أعلنت في العاصمة المصرية، وأن القوات البريطانية تتولى حفظ الأمن في القاهرة.

كانت شهرة رومل قد سبقته. كان يعرف أن المصريين المتعبين من الاستعمار البريطاني ينتظرون وصوله بحماس لم يحاولوا إخفاءه، ولذا فإنه كان يأمل بأن يضع المصريون نهاية للجيش البريطاني الثامن عن طريق التظاهرات. وهكذا، أبرق من الشاحنة التي جعلها مقراً متحركاً إلى وزارة الخارجية في برلين يطلب «استخدام أقصى حد من الدعاية في مصر في أقرب وقت ممكن».

وفي لندن كان ونستون تشرشل يقاتل من أجل المحافظة على منصبه. وكان النائب العمالي أنورين بيفان قد أطلق آنذاك جملته الشهيرة: إن تشرشل ربح مناقشة بعد أخرى، لكنه خسر معركة بعد أخرى. والآن كان عدد من النواب المحافظين قد تقدموا بطلب لسحب الثقة من تشرشل. وقد وقف السير جون والدرو ميليني في البرلمان ليقول له بكل تحدٍ: «إنه لواضح تماماً لأي مدني أن سلسلة الكوارث التي حلت بنا في الأشهر القليلة الماضية ـ وفي الحقيقة خلال العامين الماضيين ـ ناتجة عن عيوب جوهرية في القيادة المركزية للحرب». ويقف الأدميرال كيز ليؤيد هذا الاقتراح، الرجل الذي فقد ابنه في الهجوم العبثي على مقر رومل. ثم يقف اللورد ونثرتون مؤيداً هو أيضاً قائلاً لتشرشل: إن بريطانية «لم تعان مثل هذه الهزائم في الحرب الماضية».

في اليوم الآتي، 2 تموز/يوليو 1942، يزداد الهجوم على تشرشل حدة. ويقول أحد النواب: إن سبب الهزائم الروح الطبقية التي تسيطر على الجيش، ثم يضيف: «هناك قناعة في هذا البلد أنه لو كان رومل بريطانياً، لكان ما زال عريفاً في الجيش».

يقف تشرشل مدافعاً، فينقل اللوم من كتفيه إلى أكتاف جنرالاته: كلوبير وريتشي وحتى أوكينلك نفسه. إنه سيد من خطب طبعاً. ثم ينتقل إلى هناك ـ الهزيمة في إفريقية الشمالية ـ من دون أن ينسى أي تفصيل حزين، متحدياً أنه «إذا كان هناك من يرى الكارثة بوضوح أكثر منه فليتفضل». وينجو تشرشل بجلده ذلك النهار، عندما يضع اللوم كله في هزيمة الجيش الثامن على... كفاءة رومل.

وتلقفت ألمانية هذا الكلام بفرح بالغ. وغداة ذلك اليوم صدرت صحيفة «برلينز بورسنتسايتونغ» بعنوان عريض: «تشرشل يقول: «رومل هو المسؤول». وفي بروسية الشرقية يغرز هتلر سكينه في العشاء النباتي الذي يتناوله، ثم يروح يشرح غلطة تشرشل التكتيكية في رفع معنويات جنرال عدو. ويقول: يسألنا الناس كيف يتمتع رومل بهذه الشهرة العالمية، والحقيقة أن الفضل في ذلك يعود أحياناً إلى خطابات تشرشل في مجلس العموم، حيث يصور رومل دائماً على أنه قائد عبقري». يضحك الفوهرر ثم يضيف: «إن الاسم وحده يصبح سلاحاً مرعباً. تصوروا لو أننا أخذنا نقول مثل هذا الكلام عن الماريشال السوفياتي تيموشنكو! إن جنودنا أنفسهم سوف يرون فيه في النهاية رجلاً متفوقاً».

وإذ انصرف النواب البريطانيون إلى التصويت في الأروقة، كانت قوات رومل أمام طريق مسدود مع قوات أوكينلك. فقد وصل جيش البانزر إلى دفاعات «العلمين» ومعه فقط 53 دبابة ألمانية و 32 دبابة إيطالية. وكانت القوات منهكة من التعب، يعذبها العطش والحر. وقد سمح رومل لنفسه بالاستحمام مرتين في البحر، لكن المياه كانت حارة إلى درجة أنها أتعبته ولم تنعشه. وعندما طلبت الكتيبة التسعون أن يسمح لقناصتها بالشيء نفسه، رفض رومل ذلك، ودفعهم أكثر نحو أرض المعركة.

بعد ثلاث ساعات من منتصف ليل 2 تموز/يوليو، استقل قناصة الفرقة التسعين ورجال الرشاشات شاحناتهم، وتحركوا في تشكيل عريض نحو العلمين. وهبت عاصفة رملية هائلة، أعمت رجال رومل وجعلتهم يسقطون في قلب الدفاعات المعادية. وكانت أول مرة ترد فيها كلمة «رعب» في المفكرة الحربية الألمانية. وانهارت مجموعات من الفرقة، وتراجعت إلى الخلف، لكن الضباط أرغموها على العودة إلى خطوط القتال، وعلى التمرس هناك، وبعد ذلك جاء رومل بسيارته إلى الموقع، وشعر فوراً بقسوة القصف المدفعي على قوته الصغيرة المؤلفة من 20 شاحنة ومصفحة.

وكتب الألماني إمبرستر عن تلك الليلة قائلاً: «لقد كان الأمر مرعباً حقاً. فقد انفجرت قذيفة على بعد ستة أقدام فقط من سيارة القائد العام. وتحت نيران شديدة حفرنا بجنون خنادق، واختبأنا فيها طيلة ثلاث ساعات، وكان الغسق قد أطل قبل أن

نستطيع الخروج منها». وقد ازداد الأمر سوءاً، إذ راحت تمطر في المساء، فاختلط المطر المتواصل بالقصف الجوي المتواصل.

كانت قد بقيت لدى «الفيلق الإفريقي» 37 دبابة فقط. وكان لا يزال على مسافة بعيدة قليلاً. وكالعادة لم يطل الإيطاليون، أما الفرقة التسعون المسكينة، فقد فقدت ثلاثة أرباع قوتها العادية. وعلى الرغم من ذلك أمر رومل الكتيبة بأن تستأنف القصف حين يطلع القمر. وقد شجعته الآن أنباء من السلاح الجوي الألماني، تفيد بأن الأسطول البريطاني قد رسا في الإسكندرية وأنه يستعد للاختباء في أمان قناة السويس. وقد شعر رومل آنذاك بأن معنويات «المحور» أفضل من معنويات أعدائه.

كتب إمبرستر يقول: «كانت ليلة مخيفة. وبين منتصف الليل والرابعة صباحاً، كانت هناك ثماني طائرات تقصفنا باستمرار». وقبل الفجر بساعة واحدة بدأ قناصة الفرقة التسعين قصفاً ميدانياً من دون استعداد مدفعي. وبعد 2000 قدم فقط سحق هجومهم وسط نيران مدفعية رهيبة. وأبلغ رومل بالأمر في العاشرة من ذلك الصباح غير أنه لم يهدأ. وبعد ظهر ذلك اليوم أمر «الفيلق الإفريقي» بدفع كتيبتي الدبابات إلى القتال، في محاولة أخرى لشق الطريق إلى الساحل. وفي الساعة 4.30 بعد الظهر اضطرت الفرقة التسعون مرة أخرى إلى التوقف، بعدما تقدمت 500 ياردة أخرى. وفي غضون ذلك، التحمت فرقتا البانزر بالألوية البريطانية المدرعة في قتال عنيف استمر حتى هبوط الظلام. آنذاك كان قائد الفرقة الجنرال نيرنغ قد خسر 11 دبابة أخرى، وانخفض عدد دباباته إلى 23 فقط.

اليوم الآتي، 3 تموز/يوليو أوقفت اندفاعات رومل في كل مكان. وهو يسجل في مفكرته ظهر ذلك النهار أنه كان يتعرض للغارات الجوية باستمرار، وأنه يحاول حث ضباط المدرعات على المزيد من الجهد. ويسجل ضابط آخر إن «القائد العام مقتنع بأن كتيبتي الدبابات تتسكعان بكسل. وفي الساعة 12.50 أمر الفيلق الإفريقي كله بالزحف بأي ثمن. غير أن رومل كان الآن يخاطب الصم أو الموتى أو الذين لا معنويات لهم. حتى «أرييت»، الفرقة الإيطالية الأسطورية بدأت بالانهيار. فقد هاجمتها الفرقة النيوزلندية بكل بأس ذلك الصباح، واستولت على ما تبقى من مدافعها وأسرت منها نحو 380 رجلاً، أما باقي الإيطاليين فقد رموا أسلحتهم، وأطلقوا سيقانهم للرياح.

ويبدو أن رومل أيقن أخيراً أنه يخوض معركة خاسرة عندما قتل أقرب ضباطه إليه، الكابتن فون هوماير. وقد اعترف في لحظة ضعف نادرة بأن «الأمور تسير للأسف عكس ما نشاء. إن المقاومة التي نلقاها كبيرة جداً، فيما قوتنا تزداد ضعفاً. إنني منهك حقاً». وصباح الرابع من تموز/يوليو أبلغ ضباطه المتعبين بالقرار الصعب. إنه سوف يسحب المدرعات من الخطوط الأمامية، ويستبدلها بالمشاة، وخصوصاً الإيطاليين. وبذلك يمكن رجال «البانزر» من الاستراحة، وإعادة تنظيم أنفسهم. وبعدها ـ أكد رومل ـ يستأنف الحملة.

كان موسوليني قد طار إلى ليبية مع مجموعة من وجهاء الفاشية، وراح ينتظر بفارغ الصبر لحظة الدخول إلى القاهرة. كذلك كان في الانتظار، حصان «الدوتشي» الأبيض. وطارت البرقيات بين برلين وروما حول تعيين حاكم إيطالي على مصر. وفي غضون ذلك بث البريطانيون إشاعات تفرقة تقول إن ثروات مصر سوف تسقط في أيدي الجيش الألماني وحده. وكانت هذه واحدة من الإشاعات التي زرعت الفوضى والشك في صفوف الإيطاليين الذين تحت قيادة رومل، وما إن حل منتصف الشهر حتى أبرق إلى برلين يقول: إن «كتائب كاملة» قد لاذت بالفرار. والواقع أن شقوقاً حقيقية بدأت الآن تظهر في جبهة «المحور». ومن مقر رومل نفسه كتب ألفرد برندت إلى وزير الدعاية غوبلز، يبلغه أن الجنود الألمان يشعرون بالتذمر من المدائح التي تعطيها الصحف الألمانية للإيطاليين. وقال غوبلز لأركانه: «إن على أحدنا أن يشرح لرومل لماذا قرر الفوهرر أنه من الضروري أن ندغدغ مشاعر الإيطاليين».

كان رومل ينظر إلى هذه الأمور على أنها سياسات تستدعي الاحتقار، لكنه قرر أن يتجاهل الأمر، إلى أن يكون قد انتهى من احتلال القاهرة. وكان هو أكثر من غيره، يعرف صعوبة الوضع الذي هو فيه، فقد كان مستوى الذخيرة والوقود منخفضاً إلى أقصى الدرجات، وكانت وحداته متعبة. وفي شهر حزيران/يونيو وحده فقد الفيلق 845 قتيلاً، فيما أصيب 318 رجلاً بجروح. وكانت خطوط التموين الألمانية طويلة وصعبة، بينما خطوط أعدائهم قصيرة وسهلة. لكن حتى الآن كان الألمان قد حافظوا على مواقعهم بسبب تفوقهم في السلاح. كذلك أظهرت المعارك الأخيرة أن القوات الحليفة كانت تستفيد من الالتحام بجيوش رومل، وهذا خفض من نسبة تفوق الألمان.

كانت القوات الإيطالية تنتشر على خط طويل، يمتد من مياه المتوسط الزرقاء في «العلمين» إلى المستنقعات المالحة في منخفض «القطارة» على بعد 38 ميلاً. وكان رومل مأخوذاً بوعورة المنخفض، فلا يتعب من التأمل فيه. وإننا نقرأ مذاكرات ذلك الشهر كيف أنه غالباً ما يقف على مرتفع يطل على تلك الكثبان المليئة بالصمت والزمن، والتي لم يطأها على الأرجح بشري من قبل. وطالما التقط له رجال غوبلز الصور وهو يتأمل في المنخفض على عمق 600 قدم! هل كان ينوي أن يعبر ذلك الوعر نحو النيل؟

وذات مرة من ذلك الشهر قال لمساعده، الخبير في الشؤون المصرية: «برندت، سوف أطلب منك أن تسيطر على جسر فوق النيل لم يلحق به أي دمار». فأجاب الضابط ضاحكاً: «كان عليك ياسيدي أن تطلب مني ذلك في العام 1939».

كان رومل ينوي أن يدفع بدبابات البانزر عبر ثغر جنوب آخر خط القتال في 11 تموز/يوليو. وقبل ذلك بيومين احتل موقعاً مهجوراً لأعدائه في «باب القطارة». وفي هذا الموقع الحصين اجتمع إلى بسمارك، قائد الفرق المدرعة، ذي الرأس الذي يشبه الرصاصة، وكالعادة استخدم رومل الأقلام المتعددة الألوان لكي يرسم هجوم البانزر المقبل. وأقام مقر البانزر المتقدم في ذلك الحصن المهجور أيضاً، لكنه اكتشف فيما بعد أنه كانت في الموقع مستعمرة من الذباب. وهكذا اختار «القائد العام أن ينام في سيارته حيث يمر الليل بسلام».

أثناء نومه سمع رومل صوت الرعود، ثم في الرابعة صباحاً سمع الصوت ثانية، وكان الصوت بعيداً. وحين استيقظ جيداً عرف أن هذا ليس الرعد على أي حال، بل هو صوت قصف مدفعي شديد، لم يسمع مثله منذ الحرب العالمية الأولى. ثم أصغى من جديد فعرف أن القصف آتٍ من بعد 40 ميلاً فقط إلى شماله! لقد بدأ العدو هجوماً مفاجئاً وغير متوقع على تلتين قرب الساحل، يتمركز حولهما الإيطاليون. وتساءل رومل في قلق: هل وقعنا في فخ؟

لقد خشي رومل فوراً أن يصل البريطانيون إلى خطوط التموين. وكتب مساعده في مفكرة ذلك النهار: «لقد اتجهنا شمالاً على الفور بالسيارات، ومعنا فرقة مقاتلة

ومجموعة من رجال البانزر. وقد تولى القائد العام بنفسه إطلاع المقاتلين في الميدان على آخر التطورات». وقبل وصول رومل كان قائد العمليات ميللنتان قد دفع بكل وحدة ألمانية متوافرة لملء الفراغ؛ إداريين ومشاة وسلاح إشارة وحتى الطباخين. ذلك أن الفرقة الإيطالية المدافعة «صبراته» ذابت تحت القصف مثل الملح هاربة نحو ستة آلاف ياردة. وتتحدث مذكرات رومل عن الحادث بتهذيب: «لقد كانت هناك مظاهر تدعو إلى الأسف في صفوف الوحدات الإيطالية». غير أن ضابطاً آخر يفقد جأشه في وصف الإيطاليين: «لقد دمر البريطانيون كتيبتين من قاذورات صبراته».

وفي تلك الساعة أيضاً سقط الكابتن سيبوم، الضابط الألماني الذي أظهر المقاومة الوحيدة، وقد فقد فيه رومل سنداً ذكياً وفنياً، كان يمكنه دائماً من التفوق على الإنكليز في التشويش على الاتصالات. الآن سيبوم قد مات، ورجاله المدربون أفضل تدريب قد أسروا ومعهم كتب فك الرموز القيمة. ولا شك في أن تلك الخسارة قد أثرت في رومل لشهور طويلة، وهذه الكتب المصادرة أظهرت للحلفاء كم كان جهاز الاتصالات عندهم ضعيفاً. الآن، إذاً، سوف يقاتل رجال البانزر كالعميان. ولن يكون بإمكان رومل أن يضبط بعد اليوم تلك الرسائل التي بعث بها الملحق العسكري الأميركي في القاهرة الكولونيل فيللرز إلى واشنطن. فقد استدعى فيللرز إلى عاصمته، تاركاً برلين في حزن شديد، «لقد كان يبلغنا سلفاً بكل تحركات العدو».

صباح اليوم التالي، في العاشر من تموز/يوليو هاجم الأوستراليون إحدى التلتين، (تل العيسى)، واحتلوها في منتصف النهار. وحقق طابور صغير من الدبابات والمشاة انتصاراً مهماً آخر على الإيطاليين في منطقة دير الأبيض. الأمر الذي جعل أحد ضباط رومل يدون: «يجب جلد الإيطاليين بالسياط. لقد حاصرت ستُّ دبابات بريطانية كتيبة كاملة، وأسرتها في شاحنتين. إن هذه الأمة من الـ... يجب أن ترمى بالرصاص! وإنهم لا يزالون يطلبون منا أن نقاتل من أجلهم. إنه لعار كبير، وموقف القائد العام يدعو حقاً إلى الشفقة».

كان لهذه الهجمات المحدودة مضاعفات تكتيكية خطيرة على رومل، ذلك أنها أخلت في توازن جيش البانزر، وجردت رومل من احتياطي الوقود والذخيرة الذي كان ينوي استخدامه للقيام بحملته.

في 13 تموز/يوليو جعل فرقة البانزر الحادية والعشرين بقيادة بسمارك، تقوم بهجوم آخر على خطوط الحلفاء، وكانت خطته تقضي بقطع الطريق على المنطقة المعروفة «بالصندوق» في العلمين، ثم القيام بهجوم ساحق. وقرر أن يقوم بالهجوم ظهراً حين يكون كل شيء معرضاً للذوبان في حر الصحراء، ومن ثَمَّ يجعل من المستحيل على المدافع المعادية أن تصيب أهدافها. وفي الظهيرة تماماً تحركت الدبابات وسط عاصفة رملية هائلة، حجبتها عن الأنظار. وتقدم رومل كالعادة بسيارته إلى منطقة المعركة، لكن كان من الصعب أن يتبين أي شيء.

ولم يعرف إلا في الخامسة بعد الظهر أن كتيبة البانزر توقفت عند جبل في منطقة القصابة. وفي غضون ذلك كان السلاح الجوي الألماني ينتظر بفارغ صبر، ليعرف ما هي الأوامر الآتية. وأخيراً في السادسة والنصف، تحركت القاذفات والدبابات معاً.

بعد ذلك بدا كل شيء مفرحاً. ونحو الثامنة اتصل رومل بمساعده فالداو، فوجده مرتفع المعنويات، وأبلغه أن فرقة البانزر استغلت الهجوم الجوي الناجح لتقتحم خطوط الحلفاء، «وهي ستحاول الوصول إلى الطريق الساحلي شرق العلمين الليلة». غير أن الحقيقة البشعة، كما يصفها ضابط من فرقة المشاة الملحقة بجيش البانزر، كانت مختلفة تماماً. «إننا ننبطح أمام الأسلاك الشائكة التي زرعها العدو، وقد عجزت كل الأدوات التي نستخدمها عن اختراقها. ولم تصل معنا إلى هنا سوى كاسحات أسلاك قليلة العدد. إنه الغسق، وأرض المعركة مضاءة فقط بنيران الآلات المحترقة، وضوء القمر. وفجأة، تستدير دباباتنا في الاتجاه المعاكس، فهل نفد لديها الوقود أم الذخيرة؟ ها هو الكابتن فون روتنفلد يقفز على أقرب دبابة لكي يمنعها من التراجع. وفجأة تسقط عليه قذيفة مضادة للدبابات وتمزقه. وعند منتصف الليل يقود الميجور شوتي كتيبتنا إلى التراجع من جديد».

في غضون ذلك عاد رومل من أرض المعركة إلى مقر قيادة جيش البانزر، وتشير مفكرته إلى أنه «نحو العاشرة ليلاً أبرقت قوات البانزر معلنة أن هجومها قد أخفق أخيراً». وهكذا يصدر رومل أمره إلى الفرقة بالعودة إلى منطلقها الأول. لا العاصفة الرملية أفادت، ولا الهجمات الجوية.

لقد كانت علة رومل الأساسية في الإيطاليين. فقد انهارت فرقتان إيطاليتان أخريان، هما بافيا وبريسكيا، وهذا زاد في وضوح التكتيك البريطاني أمام رومل، الذي كتب إلى زوجته في 17 تموز/يوليو يقول: «إن العدو يحاصر تشكيلاً إيطالياً بعد آخر. وقواتنا الألمانية أضعف من أن تصمد بمفردها. إنني أشعر بحاجة إلى البكاء»، وبعد كتابة هذه الرسالة أبلغ أن الأوستراليين اخترقوا وحدات إيطالية جديدة، وحملوا رجالها على الفرار. وهكذا وجد نفسه يرمي في المعركة آخر ما عنده من الاحتياط.

وعندما زاره أفراد القيادة الإيطالية ذلك اليوم أبلغهم بكل أسى: «إننا لم نعد نحتمل. ضربة أخرى من هذا النوع وينتهي كل شيء». وفي اليوم الآتي، 18 تموز/يوليو، شعر بالارتياح حين لم يواجه بأي مفاجآت أخرى، كانت الجبهة هادئة، وقد أمضى اليومين الآتيين يتفقد الخطوط كلها، فيأمر بزرع الألغام، وتحصين المواقع، وغير ذلك. وقال لقائد الفرقة التسعين بمرارة «إن فشل الفرق الإيطالية الأربع التي دمرت تقريباً، قد وضعنا في أزمة لن تنتهي إلا بوصول الأعداد الكافية من القوات الألمانية خلال 8 أو 10 أيام».

في 21 تموز/يوليو بدا وكأنه أكثر تفاؤلاً. فقد تجمعت لديه نحو 42 دبابة ألمانية و50 دبابة إيطالية. وكتب في مفكرته: «شكراً للعناية الإلهية، فقد هدأت الجبهة الآن، وتسنى لي أن أخزن بعض الأسلحة. لكنها سوف تكون أزمة طويلة. فالحشود على الجانب الآخر تتم بسعة وسهولة». وكان قد أخذ آنذاك يرتدي سرواله القصير من جديد. لقد كان هناك جحيم من الذباب والحر والرطوبة.

كان كلود أوكينلك يهدف من هجومه الآتي، قبل أي شيء، إلى تدمير قوة البانزر المدرعة، وقد بدأ الهجوم ذلك المساء بطلعات جوية عنيفة وضخمة أكثر منها فاعلية، يرافقها قصف مدفعي مكثف، وخلال ساعات الظلام، استطاع فصيل نيوزيلندي أن يتقدم من الجنوب نحو منخفض المرير الأجرد، وهو أشبه بصحن نحاسي وسط الصحراء. وكان من المفترض أن يرفق أوكينلك ذلك بهجوم للمدرعات عند الفجر.

غير أن الجنرال نيرنغ كان يراقب الوضع عن كثب، وأعطى مدرعاته الأوامر بصد الهجوم قبل ثلاث ساعات من وقوعه في الرابعة صباحاً.

في تلك اللحظة كان الألمان في حالة تأهب قصوى، بكل ما لديهم من أسلحة. ساعاتهم مربوطة بالساعة الصفر. وكان النيوزيلنديون قد اطمأنوا لدرجة أنهم نصبوا الخيام في المنخفض. وفي اللحظة المحددة أطلقوا في الجو إشارات نارية تعلن بدء الهجوم، فكان أن الذي بدأ هو الألمان، الذين التفوا بدباباتهم على المهاجمين، وكلفوا الجنرال أوكينلك أكثر من ألف قتيل وأطنان الأسلحة.

بعد ذلك بدأت المرحلة الثانية! فقد دفع الحلفاء بمئة دبابة إلى القطاع نفسه من الشرق. وكانت هذه الدبابات حديثة الصنع، وصلت للتو من بريطانية. وفي السابعة والنصف اقتحم الرتل حقول الألغام. وتخطّى خط الدفاع الألماني عند رجال المشاة القليلي العدد. آنذاك قام كولونيل يدعى برونر بدبابات البانزر (بسمارك كان قد أصيب) لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأوقف فرار كتائب المدفعية الهاربة، وجعلها تواجه الحلفاء من جديد. ثم اقتحم بدوره جناح العدو وقلب الموازين. وخلال ساعتين من القتال استطاع ضباط رومل، بما يملكونه من مهنية وكفاءة، أن يجردوا البريطانيين من 200 رجل و 87 دبابة.

كانت هناك بطولات على كل مستوى. ولعل أبرزها تلك التي أظهرها النفر غونثر هالم الذي لم يتعد التاسعة عشرة، فقد كانت مهمة هالم أن يعبئ المدافع الروسية من عيار 76.2 المضادة للدبابات، والتي كان يفترض أنها آخر موقع دفاعي، قبل أن يتمكن العدو من الاقتحام. غير أن طاقم المدفع لم يستطع أن يحفر في الأرض الصلبة لتركيزه، وهكذا جلس مدفعيان على ذنبه لامتصاص ارتداده. وفجأة أقبل على الموقع طابور من الدبابات البريطانية. وخلال دقيقتين كان هالم ينسف أربع دبابات من طراز فالنتاين. وتوقفت الدبابات الأخرى لتبحث عن الموقع الظاهر على أي حال، ثم فتحت النار عليه. وسقطت قذيفة بين ساقي هالم. ثم قذيفة على ساق رفيق له، فأخذ مكانه مدفعي آخر، ثم دمرت خمس دبابات بريطانية أخرى قبل أن تعطب مدفع هالم. وفي غضون ذلك كانت فرقة البانزر قد وصلت، وقضت على الرتل الحليف. وقال أحد الضباط الإنكليز الأسرى غاضباً: «لقد أمضينا عامين في التدريب، وقطعنا نصف الكرة لكي نصل إلى هنا، ثم في خلال نصف ساعة انتهى كل شيء!». بعد ذلك

بأسبوع منح رومل النفر هالم وسام الفرسان، وكانت تلك أول مرة يعطى فيها مثل هذا الوسام لنفر في تاريخ الجيش الألماني.

بعد ظهر اليوم الآتي، 23 تموز/يوليو، كتب أحد ضباط رومل في مفكرته: «لقد انعكس التيار بشيء من الانتقام! وها هو الفصيل البريطاني المدرع قد أبيد. لقد فقد الإنكليز 146 دبابة و1200 رجل. يا لها من لحظات مثيرة. وقد أدار القائد العام المعركة هذه المرة من المؤخرة، وجعل الرعب يدب في نفوس الإنكليز».

قام رومل بجولة في الميدان، فشكر قواته وأثنى على رجاله ووزع الأوسمة. ثم راح يتفحص الدبابات البريطانية الحديثة التي وصل بعضها إلى مسافة 2000 ياردة من دبابات البانزر، لكنها رابضة الآن، وإلى جانبها طواقمها الذين قتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر. وكتب رومل في رسالة إلى صديق: «إن الصعوبات التي مررنا بها في الأيام الأخيرة تفوق كل وصف. لكننا بالطبع لا نزال بعيدين جداً عن رأس الحربة. إن العدو يملك تفوقاً عددياً هائلاً، لكنه بيذل الكثير قبل أن يستبدل الدبابات التي دمرناها في اليومين الماضيين».

الآن أيضاً أعطي الفرصة لأن يقرأ بريده. وهذه رسالة من نائب هتلر، رودولف شموندت، ومعها إشارة السيف التي كان رومل يحتاجها ليصبح برتبة فيلد ماريشال. لكن قبل أن يفض تلك الرسالة، فتح الرسالة الآتية من زوجته وفيها صورة ابنه مانفرد. وقبل أي شيء أخذ يقرأ التقرير المدرسي الذي أفرحه: لقد تقدم مانفرد عن المرة السابقة. وبعدما قرأ رسالة زوجته إليه، وفيها تبلغه أن زوجة بسمارك اتصلت بها قلقة لأنها لم تسمع من زوجها منذ فترة، فنقل رومل الأمر إلى بسمارك فوراً، (بعد ذلك بثلاثة أسابيع مات بسمارك). كذلك أخبرته زوجته أن آخر أشرطة الأخبار السينمائية تعرض فيلماً لموسوليني في إفريقية وآخر للقادة الإيطاليين برفقة رومل حول خطوط العلمين. وطار صواب رومل. فقد كانت زوجته تعرف أيضاً مدى ما يعانيه مع الإيطاليين. وفي رسالة أخرى تروي له لوسي أن ونستون تشرشل يقوم بزيارة إلى ستالين، «آه كيف تتساقط هذه البريطانية العظمى. واليوم أيضاً أعلن أن عدوك أوكينلك قد أقيل، وعين مكانه الجنرال مونتغمري»! لم يكن هذا الاسم يعني شيئاً لرومل بعد.

ها هو يحزر في أوائل آب/أغسطس 1942 أن أمامه أربعة أسابيع أخرى قبل أن يقوم البريطانيون بهجوم جديد. وفي الوقت نفسه فإن حملة هتلر الضخمة باتجاه بلاد القفقاز الروسية سوف تؤثر في تحركات البريطانيين في الشرق الأوسط، وكان يعرف أن بإمكان جيش البانزر أن يتحمل هجمات متوسطة الحجم من العدو لكنه أصدر أشد الأوامر محذراً من الاستسلام لمثل ذلك الرعب الذي دب في قواته في تموز/يوليو: «إنني أطلب من كل رجل أن يتمسك بموقعه وألا يتراجع. إن التخلي عن مواقعكم يعني الإبادة. وإنكم تعرفون أن محافظتنا على مواقعنا في المعارك الليلية جعلتنا نربح مع القليل من الإصابات. كل من يهجر موقعه سوف يتهم بالجبن ويقدم إلى المحكمة العسكرية» التوقيع: رومل.

ثمة شيء كان شديد الوضوح : الانتصار أو الهزيمة يتوقفان على القوات الألمانية المتمركزة هنا. لم تغب هذه الحقيقية عن بال رومل. وقد رد على الجنرالات، الذين كتبوا إليه يهنئونه بالترقية قائلاً: «إن هذه الثقة الرفيعة التي منحني إياها الفوهرر هي في الواقع نتيجة لشجاعة جنودي الألمان فقط».

شيئاً فشيئاً أخذ يملأ الثغرات. وخلال تموز/يوليو استقبل نحو 5400 عسكري، والكتائب الأولى من فرقة جديدة هي الـ164. وهذا يعني أن نحو 123300 عسكري جديد قد وصلوا إلى إفريقية الشمالية الآن. وكان المزيد يصل بمعدل 1000 في اليوم. ومع أوائل آب/أغسطس وضعت تحت قيادة رومل أيضاً وحدة خاصة من السلاح الجوي، هي فصيل المظليين الأول. وكان قائد الفصيل أشبه بوحش سينمائي، إذ امتلأ فمه بالأسنان المعدنية التي استبدلها بأسنانه التي فقدها خلال هبوط اضطراري في كريت. وكان رجاله أيضاً من المتفوقين. لكن بما أنهم كانوا من السلاح الجوي وليس من الجيش، فإن رومل لم يعطهم الكثير من الانتباه. لكنهم كانوا «ألماناً ونظاميين»، كما يقول إرفينغ، وهكذا دفع بهم رومل إلى خط الدفاع الواقع بين المنخفض والبحر. وكانت المدفعية الجديدة تصل باضطراد، والذخيرة تتكوم، والألغام تزرع بكل إتقان. كذلك كانت تصل يومياً وحدات إيطالية إضافية... لكن رومل لم يضعها في حسابه: «هذه البضاعة التي تصلنا لا نفع فيها». وفي 29 تموز/يوليو عندما اجتمع إلى قائد

فرقة «بولونيا» للمشاة الجنرال اليساندرو غلوريا ضرب هذا على صدره وأقسم أن القوات الإيطالية لن تعمد «إلى الفرار أبداً».

والواقع أن الإيطاليين أسهموا هذه المرة بوحدة من الدرجة الأولى، مدربة على أيدي الألمان. وقد توضحت نوعية تدريبهم عندما ألقى قائد الوحدة التحية العسكرية على رومل. لكن خلافاً لتلك التحية وإعجابه بها، لم يغير رومل رأيه: «إن ما أحتاجه هنا ليس الإيطاليين، والمزيد من الإيطاليين، بل جنوداً ألمان وعتاداً ألمانياً أستطيع معهم أن أقوم بحملتي في نهاية الأمر».

الآن نشأ نوع من الخلاف بينه وبين أركانه. فقد قرر، خلافاً لنصيحة الضباط، أن يرمي بجيش البانزر كله مرة واحدة، وأن يقتحم خط العدو في الطرف الجنوبي منه، فيلتحم بالجيش الإنكليزي هناك، وفي الوقت نفسه يقوم بهجوم صاعق على جسور النيل في القاهرة والإسكندرية. وثمة خريطة في أوراق رومل، تظهر كيف رسم زحف كل فيلق وفرقة وكتيبة، على أن يندفع نصفها من القاهرة نحو قناة السويس ويتحول النصف الآخر من القاهرة جنوباً في محاذاة النيل إلى قلب إفريقية. ويبدو أن زواراً غامضين وصلوا إلى عربيه آنذاك. كان هؤلاء ضباطاً مصريين وعدوه بإعلان انتفاضة عسكرية ضد الإنكليز، في الوقت الذي تصل قواته إلى القاهرة والإسكندرية. لكن مع اقتراب شهر أيلول/سبتمبر كان قد أيقن أن الجيش الثامن من القوة بحيث يصعب على رومل نفسه أن يهزمه. إذاً، لا بد من الهجوم في آب/أغسطس. ولأنه يفضل المعارك الليلية فلا بد من ضوء القمر. إذاً، أيضاً، نهاية آب /أغسطس: «وبعدها سوف ننجح في هذه البوابة الأخيرة قبل حقول مصر الخصبة».

طوال شهر آب/أغسطس حفر جنود رومل الخنادق. وكان الصدى في الصحراء يحمل بعيداً صوت المعاول والانفجارات. وزرعت عشرات الآلاف من الألغام، تحسباً لأن يقوم الحلفاء بالهجوم أولاً. ويبدو أن كاتب رومل قد تعب من اللحاق به، فهو يدون في الثاني من آب/أغسطس: «إنه حر لا يطاق، لكن القائد العام لا يتعب».

لكن هذا الأتون في دلتا النيل لن يحرق دبابات البانزر وحدها، بل إن رومل أيضاً أصيب بالمرض. وفي الثاني من آب /أغسطس بدأ يشعر بالتعب، ثم في منتصف الشهر

كان قد تعب حقاً. والواقع أنه كان الضابط الوحيد الذي تخطى الأربعين من العمر، وأمضى كل هذا الوقت في الصحراء، وفي 11 آب /أغسطس لاحظ أركانه أنه مصاب بصداع دائم، وبألم في الحنجرة. وكتب طبيبه تقريراً يقول فيه إنه مصاب أيضاً بهبوط في ضغط الدم نتيجة اضطرابات معوية.

وأبرق رومل بنص التقرير إلى برلين، وأوصى بأن يخلفه الجنرال هانز غودريان. وفي الوقت نفسه طلب مساعده أن ترسل إليه ـ دون علمه ـ خضروات طازجة كل يوم.

في 24 آب/أغسطس شعر رومل بأنه قادر على تحمل الرحلة إلى مرسى مطروح لإجراء تخطيط في القلب. وحين عاد إلى مقر قيادته وجد برقية تقول: إن برلين لم توافق على غودريان، لأن بنيته لا تتحمل حر الصحراء كفاية (السبب الحقيقي أن هتلر كان غاضباً من غودريان لأنه عصى أوامره في الشتاء السابق)، وهكذا بقي رومل في مكانه شبه عليل.

في هذه الحالة من المرض، راح رومل يخطط لأكبر حملة في التاريخ ضد الإمبراطورية البريطانية. وراح أيضاً يحلم أنه بعد ستة أسابيع سوف يسافر إلى النمسا، حيث يستطيع أن يستحم في مياه جارية، وأن يكون إلى جانب لوسي ومانفرد... لكنه قبل ذلك سوف يكتب في تاريخ الحروب فصلاً لا مثيل له بعنوان: العلمين!

العلمين:
سوف يربحها مونتغمري

خاض معركة العلمين أربعة من أشهر جنرالات الحرب العالمية الثانية على الجانبين، البريطاني والألماني. وكان يخيل إلى الناس أن العلمين مدينة إستراتيجية كبرى، تقاتل من أجلها الحلفاء ودول المحور بكل قواهم وحتى اللحظة الأخيرة. لكن العلمين لم تكن في الحقيقة سوى تل صغير على بعد نحو مئة كيلومتر من الإسكندرية عند الطريق الساحلي إلى مرسى مطروح، أقيمت فيه محطة صغيرة بين الخط الحديدي والبحر.

في هذه المحطة الصغيرة كان يتوقف الجنود البريطانيون المتمركزون في مصر، قبل الحرب العالمية الثانية، من أجل أن يمضوا ليلة مريحة، وهم في الطريق إلى مرسى مطروح.

ولم تكن هناك آنذاك طريق معبدة بل ممر، وأما في محطة «تل العلمين» فكان باستطاعة المرء النزول إلى المياه الصافية الزرقاء، من أجل الاغتسال من رمال الصحراء وتعب الطريق، كما يقول المؤلف مايكل كارمز.

إضافة إلى العلمين كانت قرية الحميمات على بعد نحو ستين كيلومتراً إلى الجنوب، محطة مشهورة أخرى عبر الصحراء بين القاهرة ومرسى مطروح، ومنها إلى بلدة سيوة، كان يقوم حاجز طوله نحو 200 ميل، لا يمكن للعربات أن تخترقه إلا في مكان أو مكانين، وتعرف هذه بمنخفض القطارة، وهي أرض مالحة رطبة على 200 قدم تحت سطح البحر، لا تستطيع حتى الجمال عبورها إلا في أمكنة قليلة. وإلى الشمال منها، وحتى سيوة كانت تقوم سلسلة من التلال الحادة. أما من الزاوية الجنوبية الغربية لهذا المنخفض، وعلى مقربة من سيوة، فكان يمتد حاجز هائل آخر، يمتد إلى الجنوب والغرب مئات الأميال، ويعرف ببحر الرمل الكبير.

جنوب هذه الحواجز أو الأسوار وشرقها، كانت تمتد الصحراء، برمالها المغطاة بطبقة من الحصى الناعمة. وكان بالإمكان أن تقطع هذه المسافات في شاحنة قليلة الحمولة، ذات دواليب صحراوية خاصة، شرط ألا تسد الطريق عليك فجأة الكثبان الرملية التي تكونها الرياح. أما إلى الشمال والغرب فكانت الطبيعة الصحراوية مختلفة تماماً، فلا أهوار مالحة، ولا رمال إلا عند البحر، وما عدا ذلك أرض صخرية تستطيع أن تتحمل من الشاحنات والناقلات ما لا حد له. وكانت تقطعها في بعض الأماكن المنخفضات والتلال ومساحات من الرمل الناعم أو الأجمات التي يمكن أن تسد الطريق في أي وقت، بحيث يصبح السير مستحيلاً في الليل من دون الأضواء العالية.

إذاً، لم تكن تخفى على أحد الأهمية الإستراتيجية لهذا العنق من الأرض الممتدة بين العلمين والحميمات، والتي لا بد لأي جيوش تهاجم مصر من الغرب أن تعبرها، وقد كانت الصحراء الممتدة مئات الأميال غرباً، الحاجز الطبيعي في وجه المهاجمين قبل بدء العصر الآلي!

كيف حدث إذاً وتحول هذا العنق من الأرض الممتدة نحو 30 ميلاً، في خريف العام 1942، إلى ساحة لإحدى أكبر المعارك بين جنود الإمبراطورية البريطانية من جهة، وبين جيوش هتلر وموسوليني من جهة أخرى؟ كانت الجيوش البريطانية تتمركز في مصر منذ العام 1882، حين أنزل السير غارفت وولزلي الجنود القادمين من إنكلترة في الإسماعيلية، وأولئك القادمين من الهند في السويس، وألحق الهزيمة بقوات الخديوي إسماعيل في التل الكبير، بينما كان الأسطول الملكي يقصف الإسكندرية. وبعد افتتاح قناة السويس في العام 1869 أخذت بريطانية تعطي أهمية أكبر بكثير لذلك العنق الضيق من الأرض بين المتوسط والبحر الأحمر. وعندما انهار اقتصاد الخديوي، وعجز عن تسديد ديونه الخارجية، دعت بريطانية فرنسة إلى مشاركتها في حماية المصالح الأوروبية في مصر، لكن الفرنسيين تمنعوا عن ذلك وبقيت بريطانية تحكم وحدها.

وكانت الإمبراطورية تكرر دائماً أنها ستخرج من مصر بعد ترتيب أوضاعها، غير أن حالة مختلفة تماماً استجدت في العام 1914، فقد كانت مصر لا تزال، اسمياً، تابعة للآستانة، حين أعلنت تركية تحالفها مع ألمانية في الحرب العالمية الأولى، فما كان من بريطانية إلا أن أعلنت استقلال مصر. وقامت القوات التركية، يساعدها الألمان، بهجوم من فلسطين أوصلها حتى قناة السويس. وتحولت مصر خلال الحرب العالمية الأولى إلى قاعدة أساسية للنشاط العسكري في غاليبولي وسالونيكا وفلسطين.

بعد الحرب الأولى وسقوط الإمبراطورية العثمانية، اتسع الدور البريطاني في الشرق الأدنى. وزاد أهمية مصر الإستراتيجية لدى الأميرالية أكثر من عامل جديد، بالإضافة إلى النفط، بينها ظهور الطائرة كوسيلة مدنية وعسكرية. وفي العام 1935 قامت إيطالية بحملتها الشهيرة على الحبشة فخشي البريطانيون على وضعهم في مصر وأخذوا يجددون شباب حاميتهم العسكرية هناك، ومعظمها آنذاك من المشاة والخيالة.

حين انضمت إيطالية، التي تتمركز قواتها في ليبية، إلى ألمانية مع سقوط فرنسة في العام 1940، كان للبريطانيين قوة مدرعة ضخمة (اللواء السابع) في مرسى مطروح عند الصحراء الغربية، أقدمت على عبور الحدود عند السلوم بعد ساعات من إعلان الحرب، يدعمها سربان مقاتلان وثلاثة أسراب قاذفة.

مع بداية العام الآتي هزم الجيش الإيطالي في ليبية، أولاً في معركة سيدي براني ثم في معركة كبيرة قرب بنغازي في شباط/ فبراير 1941. وفجأة خشي الألمان أن يقع المغرب العربي كله تحت سيطرة الحلفاء. فإذا استطاع البريطانيون اقتحام منطقة طرابلس الغرب، فإنهم سيتحالفون مع الفرنسيين الذين قد يعلنون آنذاك الاستقلال عن حكومة فيشي. ومثل هذا الوضع سيقلب كل شيء في حوض المتوسط برمته.

وأقدم الألمان، على عجلة، على إرسال قوة إلى طرابلس لدعم الإيطاليين في الدفاع عن الغرب الليبي. وكانت هذه القوة بقيادة جنرال يدعى أروين رومل الذي كان قد أثبت عبقرية فذة في قيادة كتيبة من الدبابات في فرنسة في العام السابق. وسوف تعرف هذه القوة فيما بعد باسم «الألوية الألمانية في إفريقية».

لم تتقدم القوة البريطانية في مصر وبرقة (التي انضمت إليها الآن قوات من أوسترالية وجنوب إفريقية ونيوزيلندا والهند وروديسية) نحو طرابلس، بل صرفت اهتمامها إلى إنقاذ اليونان وكريت من الهجوم الألماني. وفيما كانت غارقة في ذلك، وجه رومل ضربة صاعقة إلى القوة البريطانية الصغيرة المتمركزة في مرسى بريغا عند خليج سرت، وتقدم من هناك فرحاً وهو ينشر الفوضى في صفوف أعدائه، فحاصر طبرق، ووصل إلى الحدود المصرية في السلوم، فتوقف قليلاً بعدما كان قد استعاد كل ما خسره الإيطاليون في حملة الشتاء (راجع الفصل السابق).

حقق رومل معجزات عسكرية ستترك تأثيرها فيما بعد في الحملة برمتها. ذلك أنه أقدم على كل ما فعل متمرداً على أوامر القيادتين الألمانية والإيطالية، ومن ثَمَّ فها هو يثبت الآن أن التمرد على الأوامر يمكن أحياناً أن يلقى التصفيق. كذلك تجاهل كل التعليمات العسكرية التي أُعطيَها، خصوصاً من قيادة الأركان. وقد أثبت، على الأقل مدة من الزمن، أن ما لا يستطيع الإنسان أن يحققه بالمنطق، يمكن أن يحققه بالإرادة الصلبة وسرعة الحركة واستغلال ذهول الخصم. لكن هذا الأسلوب الذي سيكرره رومل فيما بعد، هو الذي سيؤدي في النهاية إلى هزيمته.

في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو 1941، حاول البريطانيون عبثاً طرد رومل من الحدود، وإعادة الالتحام بحاميتهم المحاصرة في طبرق، كما أخفق رومل نفسه في حمل تلك القلعة على الاستسلام! في هذا الوقت حل الجنرال كلود أوكينلك محل الجنرال إرشيبالد ويفل ليكون قائداً أعلى للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، وكان أول ما فعله إقامة دفاع قوي في العلمين، التلة التي تشرف على السهل المفتوح إلى الجنوب الغربي. وكان الموقع المرتفع التالي عند قرية العبد على بعد 15 ميلاً، أما المنطقة بين التلتين فكانت من المنخفضات والصخور الصعبة. وفي منتصف الطريق بين التلتين كانت تلة الرويسات، وإلى شمالها منبسط سهل العبور.

هذا كان، في العام 1941، إطار أكبر معركة دارت رحاها على أرض عربية خلال الحرب العالمية الثانية. لقد انهزم البريطانيون في اليونان وكريت ومالطة، وفقدوا برقة (بنغازي)، وها هو الجنرال أوكينلك يحاول استعادتها ومنع طبرق من السقوط.

وما أن بدأ العام المقبل حتى كانت القوات الألمانية ـ الإيطالية قد تعبت من جديد فيما وصلت قوات جديدة إلى طبرق. لكن كما اضطر البريطانيون في العام السابق إلى نقل قوات من الشرق الأوسط إلى اليونان ها هم الآن يضطرون إلى تحويل عدد كبير من الرجال إلى الشرق الأقصى، حيث سقطت سنغافورة، وأصبحت بورما مهددة، فما كان من رومل إلا أن استغل الموقف مرة أخرى وبنجاح.

ووقف الفريقان يستعدان لمواجهة أخرى: رومل يريد إسقاط طبرق، والبريطانيون يأملون بإقامة مطارات محصنة في برقة. وأخذت الأميرالية تلح على أوكينلك بالقيام بحملة هجومية، لكن الرجل ظل يتردد، إلى أن صدرت إليه الأوامر بأن يفعل ذلك مهما كانت النتائج. وحين اقترب موعد المعركة في أيار/مايو، كان الألمان يحققون النجاح في روسية وكان اليابانيون قد استولوا على بورما، وبدؤوا التقدم نحو سيلان (سري لانكا). عبثاً حاول أوكينلك إقناع القيادة بتأجيل الهجوم، فقد أرادت لندن أن تخفف الضغط عن حاميتها في مالطة القريبة بأي ثمن.

أخيراً سقطت طبرق أمام رومل في 21 حزيران/يونيو، وأخذ يتقدم باتجاه العلمين، حيث اشتعل القتال طوال شهر تموز/يوليو، فإذا عبر الألمان من هنا ماذا يحدث للشرق الأوسط الذي دفع إليه البريطانيون ما استطاعوا من قوات منذ العام1940؟ لقد تقهقروا الآن حتى الدلتا من جديد، وأسر رومل الكثير من رجالهم، وفيما دخلت لندن السنة الرابعة من الحرب، سرت إشاعات بأن الأميرالية قد تضطر إلى إخلاء مصر نفسها.

لا شك في أن هذه النتائج قد أثرت أيضاً في معنويات «جيش الصحراء»! وفي لندن كان ونستون تشرشل يتساءل لماذا لم تعرف القوات البريطانية سوى الكارثة في الشرقين الأقصى والأوسط؟ لا بد إذاً من تغيير في القيادة. أسماء كثيرة عرضت وفي النهاية تلقى مونتغمري برقية من وزارة الحربية تطلب منه السفر إلى مصر لقيادة الجيش الثامن، أو اللواء الثامن! في الخامسة من صباح 13 آب/ أغسطس غادر مونتغمري القاهرة باتجاه الصحراء، كل شيء سوف يتغير بعد الآن.

الدفاع عن مصر – قرر مونتغمري – سوف يكون في العلمين لا خلفها. لن يكون هناك انسحاب أو تراجع، ومقر القيادة نفسه يجب أن يكون أكثر ارتياحاً، وأن ينقل إلى الساحل لكي يكون أقرب إلى القيادة الجوية. إن أوامره واضحة: دمّر رومل! لكنه لن يتسرع. إذا قرر رومل الهجوم خلال أسبوع ستقع كارثة، أما خلال أسبوعين أو أكثر فثمة مكان للحظ!

على الجانب الآخر كان ثعلب الصحراء منهمكاً في حفر الخنادق وزرع الألغام، وكانت تحركاته تشير إلى أنه يعد لهجوم وشيك، ربما حين يكون القمر مكتملاً في 26 آب/أغسطس. وكانت القيادة البريطانية في الصحراء تعتقد أن رومل سيلتف من الخلف. لكن ها هو مونتغمري يراجع الخرائط والمعطيات، ويقرر أن ذلك غير وارد، كذلك ينتبه إلى أهمية تل الرويسات ومنطقة الماحلفا، ويفكر في طلب تعزيزات من القوات المتمركزة في الدلتا: لماذا تعريض حامية العلمين للخطر، في حين يستريح الآخرون على مقربة منها؟

خلال الأيام العشرة الآتية كان الجيش الثامن يُدّعم بالرجال والمدرعات، كما أخذ مونتغمري يضلل الثعلب الشهير، بالتظاهر وكأنه يعد لهجوم من الجنوب، ثم وضعت كتيبتان من الدبابات المزيفة في منطقة الحميمات، ونُشِرت ألغام مزيفة ومواقع مشاة مزيفة أيضاً. كل هذه الترتيبات تمت نحو 25 آب/أغسطس. إذاً، حين يكتمل القمر، يكون الجيش الثامن في وضع أفضل بكثير. لكن القمر صار بدراً ولا هجوم. وقد شعر الخداعون المحترفون بشيء من الارتياح: لقد نجحوا في إخافة رومل.

• • •

بعد سقوط طبرق بين يديه في 21 حزيران/ يونيو شعر رومل، الذي رقي إلى رتبة فيلد مارشال، أن بإمكانه صرف النظر عن خطته القاضية بالتوقف عند الحدود، إذ بإمكانه بعدما استولى على كل تلك المؤن في طبرق، أن يستغل إلى أقصى حد تلك الفوضى التي وقع فيها الإيطاليون، ومن ثَمَّ فهو سيتقدم نحو الإسكندرية والقاهرة، قبل أن يتمكنوا من جمع صفوفهم.

كان رومل، – رغم أنه قائد للجيش الألماني ـ الإيطالي المدرع في إفريقية – خاضعاً لأوامر القيادة الإيطالية العليا التي يرأسها المارشال كالفيرو، والتي ألحق بها الجنرال فون رنتلن مندوباً للقيادة الألمانية. كذلك كان يقيم في إيطالية الفيلد مارشال كسرلينغ الذي كان رومل نظرياً من مرؤوسيه، وكان يشكو دائماً من تضارب الأوامر بين الإيطاليين والألمان، إلا أنه في الواقع كان يستغل ذلك من أجل استقلاليته.

عارض الإيطاليون وكسرلينغ معاً فكرة رومل بالهجوم مباشرة على الإسكندرية والقاهرة. فقد شعرت القيادتان أن قواته لا تستطيع التقدم أكثر من 300 ميل بما تملكه من مقومات، كما أنه ما لم تسقط الحامية البريطانية في مالطة تماماً، فإن صمود القوة الألمانية في مصر لن يكون مضموناً. وكان رئيس أركان العمليات في قوة رومل، الكولونيل سيغفريد ويستفال، يشارك القيادتين هذا الحذر.

لم ير رومل في هذا الحذر أكثر من علامات جبن وخوف. إن ألمانية أمام فرحتها الكبرى للاستيلاء على المنطقة الرئيسة في الشرق الأوسط، والالتقاء بالقوات الألمانية شمال القفقاز، ولذا لا بد من تجاهل تلك التحذيرات المتشائمة عن صعوبات الدعم الجوي والمؤن، كما فعل قبل ذلك مرتين حين اندفع من العقيلة (وردت العجيلة، بلفظها المصري في فصول سابقة)، خطط أنه سيصل إلى الدلتا قبل أن يدرك البريطانيون ذلك، وسوف يرى غنيمةً أمامه، كل ما يملكون في قاعدتهم الكبرى ومطاراتها. وبعد ذلك لن يعود بإمكان جيشهم التحرك في شرق المتوسط بحرية، وسوف يكون بإمكانه آنذاك التفوق على صعوبة التزود بالمؤن من إيطالية.

كان رومل بحاجة إلى موافقة رجل واحد: هتلر! وقد سارع هذا إلى تقديمها، فيما شد رومل الرحال باتجاه النيل.

أخفق رومل في الهجوم الأول الذي استنفد فيه كل ما غنمه في طبرق. وفي نهاية تموز/ يوليو حين توقف الفريقان لشيء من الراحة كان وضع رومل التمويني بدأ يسوء. ذلك أن طبرق – بوصفها ميناء – لم تكن تستطيع أن تستقبل أكثر من 600 طن في اليوم، أي جزء ضئيل جداً من احتياجاته، كما كانت معرضة دوماً للغارات الجوية. كذلك كان

لابد له من استخدام بنغازي وطرابلس. وحاول جاهداً، لكن عبثاً، استخدام الخط الحديدي بين طبرق والجبهة. وكانت رحلة الشاحنات من طرابلس وإليها تستغرق 12 يوماً. ومن بنغازي سبعة. وكان رومل يفتقر إلى وسائل النقل، لأن معظمها استولى عليه البريطانيون، أما العدد الكبير مما بقي فكان يفتقر إلى قطع الغيار. والأمر الذي زاد الأمور سوءاً أن جميع التعزيزات التي أرسلت إليه قد وصلت جواً، من دون آليات.

كان الافتقار إلى العربات والمؤن أكثر ما يقلق رومل. وقد ازداد قلقه مع ازدياد الغارات البريطانية على قوافل التموين في البحر والبر. ولم يتلق طيلة شهر تموز/ يوليو سوى 6 طن، أي خمس ما كان يريد. وفي الأسابيع الثلاثة الأولى من آب/ أغسطس استهلك «الطابور الإفريقي المدرع» ضعف ما نقل عبر المتوسط في تلك المرحلة مع أن المعارك التي وقعت في المدة نفسها لم تكن ذات شأن. وزاد في حنق رومل أن الإيطاليين أرسلوا إلى ليبية كتيبة بيستويا ومعها نحو 400 عربة، في حين لم يكن يملك على الجبهة أكثر من 60 عربة.

في آب/ أغسطس أيضاً وصلت من إيطالية 30 سفينة شحن، و14 مركبة، وست غواصات، فأغرقت منها 4 سفن بنار الغواصات، و3 بالغارات الجوية، ووصلت إلى طبرق 14 سفينة، و13 مركباً، وغواصتان، وإلى بنغازي 7 سفن، وغواصتان، وسفينة واحدة، وغواصة إلى طرابلس، وغواصة إلى درنة. ومن أصل 3.720 طناً من الذخيرة فقد 1660 طناً. ومن أصل 15.500 طن من الوقود فقد 2700، كذلك فقد 2120 طناً من المؤن من أصل 6.370، و43 مدفعاً من 220، و367 عربة من أصل 1147. ووصلت 39 دبابة كاملة.

بالإضافة إلى كل هذه الأسباب المقلقة، أضيف سبب آخر! المرض! إن معظم الضباط والجنود في الطابور المدرع الإفريقي يقاتلون منذ عامين ونصف العام من دون انقطاع. وقد بدأت تظهر عليهم ـ وعليه ـ علامات التعب والإعياء، فبدأ يصاب بنوبات إغماء متكررة. وكانت آلام عنيفة تقصف برئيس أركانه الجنرال كونر، في حين أصيب الكولونيل ويستفال بالكبد.

إذاً، لم تكن القوات البريطانية وحدها الآن في وضع مقلق. لكن رومل شعر أن التعزيزات القادمة من أميركة وبريطانية قد تصل إلى الجبهة في أي وقت. وإذا ما برهنت زيارة تشرشل إلى مصر على شيء، فقد برهنت على مدى الأهمية التي تعطيها لندن للبلد. وسرعان ما توافرت لدى الاستخبارات الألمانية معلومات تفيد أن 100 ألف طن من المعدات والمؤن سوف تصل إلى السويس قبل بداية أيلول سبتمبر، ولذا كان مهماً لرومل أن يوجه ضربة أخرى، قبل أن يستفيد الجيش الثامن من الوضع الجديد. والوقت الأكثر ملاءمة لذلك هو بدر السادس والعشرين.

لم يكن ذلك الاعتبار الوحيد أمام القائد الألماني من أجل القيام بضربة مبكرة. إذ مع مرور كل يوم كان يلحظ تعزيزاً جديداً في الدفاعات البريطانية. لكن المؤن التي طلبها من كالفيرو وكسرلينغ لم تصل بعد. ولذا قرر رومل أن يكرر تماماً ما فعله في طبرق في 27 أيار/مايو: اندفاع صاعق خلال الليل حول الجيش الثامن من الجهة الجنوبية شمال الحميمات، بحيث يُطوّقه تماماً، وتقطع عنه الإمدادات كلياً، وهكذا تُشل المطارات البريطانية، ويقف الألمان على مشارف الإسكندرية، ولا يعود أمامهم سوى القاهرة وما خلفها.

كان لا بد من ثلاثة أشياء لتأمين نجاح هذه الخطة: المفاجأة والسرعة، والتموين الكافي لخوض معركة متحركة. ومن أجل أن يؤمن عنصر المفاجأة، كان ضرورياً أن يخبئ رومل حتى اللحظة الأخيرة تنقل قواته المتحركة. ولذا قضت الخطة بأن تنقل الدبابات خلال الليل إلى مخابئ على مدى أربع ليال، أي الربع كل ليلة، على أن يرافق ذلك بهجوم تمويهي جانبي عند تل الرويسات! لكن رومل كان لا يزال ينتظر بفارغ الصبر وصول مادة بالغة الحيوية: النفط! وفي 30 آب/ أغسطس، أبلغه كسرلينغ وكافاليرو معاً أن الوقود سيكون لديه خلال ساعات.

مضت خمسة أيام على اكتمال القمر، وكان مقرراً أن يظهر الآن قبل 20 دقيقة من انتصاف الليل. وقبل ساعتين من ذلك بدأت طوابير رومل في التقدم نحو المنطقة الواقعة بين قرية العبد وجبل الكلاخ، لكن سرعان ما ذهلوا حين بدأت بعد قليل غارات جوية عنيفة على مراكز مستودعاتهم شمال غرب الكلاخ، التي كان السلاح الجوي

البريطاني قد حدد موقعها الليلة السابقة، وهكذا بدأت الشكوك الأولى حول كون الهجوم مفاجئاً حقاً. وما إن طلع القمر حتى بدأت التقارير من الوحدات المتقدمة تتحدث عن حركة عسكرية واسعة. وإذ شرع الألمان في نزع الألغام من أمامهم انهالت النار عليهم من كل مكان، إلا أنهم استمروا في الاندفاع لشق طريقهم شمال الحميمات. وبدا حجم الهجوم واضحاً الآن، فطلبت القوات الأمامية من السلاح الجوي الإغارة على المنطقة بين حقل الألغام وجبل الكلاخ، فكانت الحرائق التي يشعلها القصف الجوي تضيء المكان، وتسهل عمليات القصف البري.

كان الطابور الألماني المدرع، أو جيش «البانزر» يتوقع عبوراً سهلاً، لا يعيقه أكثر من نزع بعض الألغام هنا وهناك ـ وليس كل هذه الغابة ـ منها. وراح رومل يتصل هاتفياً المرة بعد الأخرى، لكن جواب القوات الأمامية ظل واحداً، وهو أن المقاومة ثقيلة، والألغام كثيرة وأن الخسائر فادحة. وفي الرابعة والنصف؟ أي قبل نصف ساعة فقط من اندلاع الفجر، استطاع الألمان أن يشقوا طريقاً لهم شمال الحميمات، إذ عبرت نحو 60 دبابة حقل الألغام الأول، وبدأت تضغط على الحقل الثاني، فأخذت القوات البريطانية تتراجع قليلاً قبل أن تتعرض للنار المواجهة.

في الثامنة صباحاً كان رومل في جبل الكلاخ، حيث تلقى تقريراً قاتماً عن الهجوم الذي بَنَى عليه كل آماله. إذ ما إن اجتازت قواته الحقول التي زرعتها بنفسها، حتى واجهت ما أسماه الألمان «حزاماً بريطانيةً هائلاً من الألغام، مليئاً بالأفخاخ، ومغطىً بالنيران الثقيلة». وحدثت إصابات كثيرة، كان بينها الجنرال فيرينغ قائد الطابور الإفريقي الذي أصيب بجروح، كما قتل الجنرال فون بسمارت قائد كتيبة البانزر.

لا شيء توافر من تلك الشروط الثلاثة: المفاجأة، السرعة، التموين. وفكر رومل جدياً في التخلي عن العملية كلها، لكنه رأى أن الأمر يتوقف الآن على أداء الطابور الإفريقي الذي عين قائداً له رئيس الأركان، الكولونيل بايرلين.

مقابل التقرير القاتم الذي تلقاه رومل، تلقى مونتغمري تقريراً مبهجاً! في الساعة ونصف الساعة الآتية، سيكون اندفاع الطابور الإفريقي من الحميمات، الحدث الرئيس: مئة دبابة تتقدم، العواصف الرملية تملأ المنطقة، الالتحام مستمر يوماً

آخر، وكذلك التقدم الألماني المحدود. في هذه الأثناء يجتمع القائد العام، الجنرال ألكسندر، مع مونتغمري. الأمر اليومي واضح: لا انسحاب ولا استسلام. والقرار الوحيد الذي يتخذانه هو نقل الفرقة المدرعة الثامنة، من شرق القاهرة، إلى غرب النيل، قرب الأهرام. وطلب مونتغمري من الطيران أن يقصف التجمعات الألمانية تلك الليلة في منطقة راغيل. وإذ سره النقص في إدارة النقل لدى رومل، فقد أصدر الأوامر بجعل العربات الألمانية هدفاً رئيساً. وتكبدت قوات الاستطلاع الألمانية خسائر كبرى هي أيضاً، في حين جلس رومل ينتظر أطنان النفط التي وعده بها كالفيرو، والتي لم تكن قد وصلت بعد. ويقول رومل في مذكراته: إنه بالإضافة إلى ذلك كله أعاق البريطانيون خطوط التموين الألمانية، ولم تكن هناك أي قوات بريطانية إلى جانب حقول الألغام ذلك اليوم أو حتى اليومين المقبلين. ويقول رومل - أيضاً -: إنه بسبب أزمة التموين، قرر أن يحصر الهجوم في اليوم الآتي بفرقة البانزر الخامسة عشرة، وأن يكون الهدف فقط الاستيلاء على الماحلفا.

كان ذلك قراراً غريباً في رأي الخبراء العسكريين: إما أن رومل أساء تقدير الوضع، أو أنه أراد الوصول إلى حل جزئي، بدلاً من الهجوم الشامل. وعندما درس مونتغمري الموقف في أول أيلول/سبتمبر، كان مقتنعاً بأنه لم يعد ثمة خطر من هجوم كبير شرق الماحلفا. لكن ما إن حل المساء، حتى عاود الألمان محاولتهم من جديد.

• • •

بعد شهر تقريباً من الكر والفر، بدا أن ثعلب الصحراء وأفضل جنرالات هتلر يقوم هذه المرة في مغامرة يائسة. كما بدا أن البريطانيين مع مونتغمري، يرون أول مرة تباشير الانتصار. ها هي معركة الماحلفا تشارف على نهايتها، لكي يبدأ الألمان الجولة الثانية من القتال، وهم - تقريباً - فاقدو الأمل. وقد زاد في المأساة أن صحة رومل تدهورت أكثر فأكثر، فيما تراجع الألمان والإيطاليون إلى الخط البريطاني القديم في الجنوب. وأظهر طبيبه الخاص، البروفسور هورستر، أن على رومل أن يذهب إلى أوروبة لكي يمضي بضع أسابيع على الأقل في الاستشفاء. وهكذا بدأت الاستعدادات لتعيين خلف مؤقت له، الجنرال شترومي البالغ السادسة والخمسين، والقائد السابق

لفرقة البانزر السابعة، الذي خدم أيضاً على الجبهة الروسية. ولم يكن أمام روميل سوى أسبوعين، يعيد خلالهما تنظيم جيشه، من أجل مواجهة هجوم مونتغمري الذي كان يعتقد أنه سيبدأ بين أربعة أو ستة أسابيع. وقد نقل الآن فرقة البانزر الخامسة عشرة إلى الساحل أولاً من أجل استراحة أسبوع، ثم إلى منطقة سيدي عبد الرحمن، بينما توزعت بقية القوات الألمانية والإيطالية هنا وهناك.

كانت خطة روميل في السابق تقضي بحمل البريطانيين على خوض معارك متحركة، لكنه من الواقعية بحيث يعرف أن هذا الأمر لم يعد نافعاً الآن. ذلك أن مهارته في هذا المضمار انهارت أمام التفوق العددي في الآليات الذي يملكه البريطانيون. فقد كان الجيش الثامن يتلقى إضافات هائلة من القوة الآلية بلا انقطاع، في حين كانت التعزيزات التي يتلقاها روميل خالية من الآليات، الأمر الذي جعلها، حسب تعبيره، «صالحة من أجل لاشيء في الصحراء العارية» وبسبب تفوق البريطانيين الهائل في القوة الجوية، وافتقار روميل الدائم إلى النفط، رأى نفسه مرغماً على وقف دفاعه عند خط جامد محصن، وجعل قوة المشاة تستغل الألغام إلى أقصى الحدود.

هذا النوع من القتال، في رأي روميل، سوف يمكن البريطانيين من استخدام المدفعية إلى أقصى حد، وكذلك من استغلال مهارة فرق المشاة الأوسترالية والنيوزيلندية، التي كان ثعلب الصحراء معجباً بها أيما إعجاب. إنه الآن يريد الحيلولة دون فتح أي ثغرة في دفاعاته بأي ثمن. وقد كان في ظنه أن الجيش الثامن سوف يشن هجوماً متعدد الأضلاع من أجل تحقيق هذه الثغرة. ومن أجل الحيلولة دون ذلك؛ اتخذ خطوات دفاعية كثيرة، أولها ضم القوات الألمانية والإيطالية وقيادتهما.

قبل أن يسافر في رحلته الصحية الإرغامية، لم يترك روميل تفصيلاً واحداً من دون أن يتوقف عنده مع مساعديه. وكان أكثر ضباطه يعانون من أمراض مختلفة أيضاً، الأمر الذي اضطره إلى استبدالهم. كذلك لم تكن كميات النفط التي طلبها قد وصلت بعد، حين غادر درنة في 23 أيلول/ سبتمبر. وفي اليوم الآتي التقى الدوتشي موسوليني، وعرض عليه مرة أخرى أهمية وصول المؤن، وحالة وسائل النقل. وبعد ذلك بأيام التقى هتلر وغورينغ، وأبلغهما بالصعوبات التي يواجهها، لكنه شعر بأنهما يعتقدان، مثل موسوليني، أنه يبالغ في الأمر.

كان رومل قد تخطى الصعوبات أو الاستحالات اللوجستية مرات عديدة من قبل، وقد اعتقد هتلر أنَّ بإمكانه أن يتخطاها الآن مرة أخرى! وذهب رومل إلى جبال سيميرنغ في النمسا للاستشفاء وهو منقبض النفس. وهناك (حسب مذكراته) راح يفكر في التأثير الذي سيكون لاشتراك دولة صناعية مثل أميركة في الحرب في الحيلولة دون تحقيق الانتصار الألماني. كان عقله مع طابور البانزر في الصحراء، والتقارير التي تلقاها من شترومي وويستفال لم تطمئنه إطلاقاً. إذ على الرغم من أن العمل في حقول الألغام كان يسير على ما يرام، فإن استعدادات الجيش الثامن كانت أيضاً تتقدم. وكان البريطانيون يغيرون على طبرق كل ليلة، ويلحقون الخسائر والأضرار الكبرى بعمليات التموين. ومع أن الحالة التموينية تحسنت قليلاً، إلا أنها ظلت دون الحد الأدنى من مطلب رومل.

وعلى الجبهة أثّر غياب رومل في معنويات الطابور المدرع الإفريقي. وقد تبخرت الآن الأحلام بالسيطرة على مصر، حتى لدى أكثر الضباط تفاؤلاً. وفيما ساءت الحالة الصحية تحول تكاثر الذباب إلى أزمة حقيقية. وسادت حالة من التشاؤم في صفوف الإيطاليين، الذين أخذوا يطالبون بإنهاء الحرب، فانتقل الخلاف بينهم وبين الألمان من القمة إلى القاعدة. لكن هذا لم يَحُلْ دون إقامة خط دفاعي جديد خلف الخط القديم.

كان الثالث والعشرون من تشرين الأول/أكتوبر يوماً مثل باقي الأيام، بالنسبة إلى طابور البانزر الذي استعد لليلة هادئة أخرى، إلا أنه في التاسعة إلا ثلثا، اشتعلت الجبهة مرة واحدة وانهالت القذائف على المدفعية، على المشاة، على الرمال.

• • •

كان لدى الجانب البريطاني 426 مدفعاً بعيد المدى، و48 متوسطاً. الألمان كان لديهم 232 مدفعاً بعيد المدى، و40 متوسطاً، و24 مدفعاً ثقيلاً. وكان بإمكان المدافع المتوسطة البريطانية أن تطال 80 موقعاً مدفعياً ألمانيةً تقريباً، كما كانت هذه تطلق 96 قذيفة كل دقيقتين. وكان الرد الألماني ضعيفاً نسبياً، وظل ضعيفاً حتى الرابعة

صباحاً. وفي ضوء القمر تقدَّم المشاة البريطانيون وكأنهم في مناورة. لكن هذه السهولة ما لبثت أن توقفت حين بلغوا حقل الألغام الثاني، فأخذ الرصاص والانفجارات تحيق بهم من كل مكان.

الآن كان همٌّ البريطانيين تأمين جسر عبر حقول الألغام الألمانية قبل الفجر، ومساعدة الدبابات على الوصول إليه. كذلك كان عليهم، خلال الساعات الثلاث التي تسبق طلوع الضوء، أن يحفروا الخنادق لمواجهة أي هجوم بالمدافع المضادة للدروع، في حين تتحرك دباباتهم في تشكيلات صغيرة من أجل تأمين الجسر بأي ثمن. ولم يكن الاستسلام مسموحاً إلا للجرحى.

مع حلول المساء سمح للجنود بتناول العشاء في السابعة، لكن هؤلاء كانوا أكثر اغتباطا: بأنهم استطاعوا أن يمدوا سيقانهم قليلاً بعد الساعات الطويلة في الخنادق. إلا أن موعد الجولة المقبلة لم يكن بعيداً. وقد وصفه الكابتن غرانت موراي بالكلمات الآتية:

«بدأت عقارب ساعتي وكأنها تزحف حول نفسها، إذ جلسنا نصغي ونراقب. أمامنا كان كل شيء هادئاً، باستثناء نور خافت وبعض أصوات الرشاشات. وإذ اقتربت ساعة الصفر استدرت وتطلعت عبر خطوطنا في الخلف. وفجأة صار الأفق كله زهري اللون، ولثانية أو ثانيتين كان هناك صمت متجمد، ثم هبط علينا أزيز مدافع الجيش الثامن، مثل جدار من الصوت جعل الأرض كلها تهتز. ومن خلال هذا الجدار أخذنا نميز صوت القذائف وقرقعة الرشاشات، وأخيراً صوت القرب الاسكتلندية. ثم طالعنا مشهد سيظل حياً في ذاكرتنا إلى الأبد: صف خلف صف من رجال يعتمرون الخوذ، ويحملون البنادق التي تلمع حرابها في ضوء القمر... لكن فوق كل شيء عويل القرب، وفرقة الموسيقى تتقدم نحو صفوف الأعداء التي لفها الدخان. وكانت آخر مرة شاهدنا رجالها وهم يقتحمون الدخان، ونيران العدو تتساقط بينهم».

ما هو إلا قليل حتى بدأ الرجال يتساقطون. وقد سقط القرَّاب دنكان ماكنتاير وهو يعزف. وعمت الفوضى وتباطأت خطى المهاجمين. وفي الجانب الآخر كان

شترومي يتأكد من أن هذا القصف المدفعي لم يعرفه أحد منذ العام 1918، وها هو الآن يدمر شبكة الاتصالات الألمانية كلها. وبسبب خشية شترومي على ذخيرته، لم يصدر الأوامر بردٍّ فوري، وهو أمر اعتبره رومل فيما بعد خطأً فادحاً، إذ تفادت التجمعات البريطانية القصف. وحين فتحت المدفعية الألمانية نيرانها أخيراً، أصبح أثرها ضعيفاً، بعدما تمكن البريطانيون من التمركز في الدفاعات الألمانية التي استولوا عليها.

إنه اليوم الثاني من المعركة الآن، الرابع والعشرون من تشرين الثاني/ أكتوبر. وها هو رومل يقرُّ فيما بعد بأن قصف الجيش الثامن كان «دقيقاً جداً» وأن الخسائر جسيمة بين قواته، وأن معظم الأسلحة الثقيلة لدى المشاة الألمان قد دمرت. وقيل يومها إن عدداً كبيراً من الإيطاليين فر إلى الصفوف الخلفية بسبب شدة القصف. ووسط هذا الجو العنيف قرر شترومي أن يرى بنفسه ماذا يحدث، ولم يكن يرافقه في هذه المهمة سوى الكولونيل بوكنغ وسائقه الرقيب وولف، ورفض أن يأخذ معه عربة مواكبة أو سيارة اتصال، بحجة أنه لن يذهب بعيداً. أما الواقع فإنه ذهب حتى الجبهة، حيث أطلقت عليه النار من الأوستراليين، فقتل الكولونيل بوكنغ، بينما استدار الرقيب وولف بسرعة قصوى عائداً، وكان شترومي يتعلق بالسيارة من حافتها، حين أصيب بنوبة قلبية وسقط. ولم يعرف وولف ماذا حدث إلا حين أبطأ قليلاً، لكن العثور على جثة شترومي تم فقط بعد 24 ساعة.

صباح السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر جلس مونتغمري يدرس الخطوات الآتية: على الرغم من أن الفيلق الثلاثين قد حقق معظم أهدافه، فإن خسائره بلغت 4.500 قتيل بالإضافة إلى 500 في الفيلق العاشر، و1000 في الثالث عشر. ولم تكن هذه أرقام فائقة نسبياً، لكن أيضاً لم تكن هناك تعزيزات متوافرة للفيلق الجنوب إفريقي أو النيوزيلندي الذي مني بـ 800 إصابة، أي ثلث قوته، فيما فقدت الفرقة الاسكتلندية 2.100 قتيل. لكن تقييم خسائر الألمان كان صعباً. فقد أسر البريطانيون نحو 2000 عسكري بينهم 600 ألماني. أما التقدير العام لخسائر الألمان والإيطاليين فكان 32 ألف ألماني، و29 ألف إيطالي. في الدبابات 250، و580.

في المدافع الميدانية 140، و200. في مدافع 88 ملليمتراً 50، و40، وفي الأسلحة الأخرى المضادة للدروع 400، و320. كانت هذه أرقاماً مرتفعة حقاً، وإذا صحت كلها فهذا يعني أنه لم يعد أمام الجيش الثامن الكثير من القتال.

الأنباء السيئة أعادت رومل إلى الجبهة من مصحه النمساوي. هذه المرة كان هتلر نفسه هو الذي اتصل به عند منتصف الليل، وطلب منه العودة فوراً، فطار إلى روما في الصباح الباكر، حيث تلقى تقريراً قاتماً عن كل شيء، خصوصاً عن المؤونة النفطية: ثلاث حصص في اليوم بدلاً من الثلاثين التي طلبها كحد أدنى! كان ذلك كافياً لإعطائه صورة واضحة عن سير المعركة ومستقبلها. وحين وصل إلى أرض المعركة فجر اليوم الآتي أعطاه ويستفال صورة أكثر واقعية وأشد قتوماً: لقد حال النقص في النفط دون أي حركة ذات مغزى. ولم يكن هناك أي شيء ممكن، سوى بعض الهجمات المضادة. والغارات الجوية والميدانية البريطانية التي لم تتوقف في الليل أو النهار، أثرت كثيراً في معنويات الجنود.

قرر رومل أن أول ما يجب أن يفعله هو طرد البريطانيين من خط دفاعه الأول خلال الأيام القليلة الآتية. ومن أجل ذلك اشترك في المعركة حرس القيادة الألمانية، المعروف ببأسه ومهارته. لكن الذي كان يلعب لعبة المخادعة العسكرية الآن مونتغمري وليس رومل. وفيما قلب القائد البريطاني كل إستراتيجيته مع حلول الثامن والعشرين من تشرين الثاني/أكتوبر، كان رومل لا يزال يعتقد خطأً أن مونتغمري سيهاجم من الشمال، وهكذا نقل معظم قواته من الجنوب. إلا أن نقطة الهجوم الحقيقية عرفت تلك الليلة حين بدأ الأوستراليون هجومهم. وكان ذلك هجوماً بعيد المطامح. لكن الذي أخفق الجانبان - مرة أخرى - في تقديره، هو قراءة أفكار بعضهما بعضاً. ففي حين أخذ رومل يفكر جدياً في الانسحاب، كان البريطانيون يعيدون النظر في نتائج المعارك الرهيبة المستمرة منذ ست ليال وخمسة أيام بلا جدوى سوى أكوام الخسائر البشرية. وها هي الإشاعات تنتشر عن انسحاب النيوزيلنديين من الخطوط الأمامية، فتعود إلى الذاكرة الإخفاقات الأولى، والحرب العالمية الأولى أيضاً.

وتلك الليلة أرسل رئيس الوزراء إلى القائد العام الجنرال ألكسندر برقية يعرب فيها عن قلقه صباح التاسع والعشرين. وبدا تشرشل متضايقاً الآن من اختيار مونتغمري، واتهمه بخوض المعركة من دون حماس. إلا أن مونتغمري الذي أبلغ بمزاج الرجل الضخم في لندن، قرر المضي في خططه العسكرية دون تغيير، شن هجوماً ضد الألمان في أقوى دفاعاتهم عند الساحل. لكنه ما لبث أن تراجع حين أبلغ بالتطورات الأخرى، بينها عودة رومل إلى قيادته.

الآن بدأ البريطانيون الاستعداد «للهجوم الكبير» في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر. إنه الحل الحاسم الوحيد في رأي مونتغمري، الذي حدد موعداً في الساعة الواحدة إلا خمس دقائق تلك الليلة. وقد تقرَّر أن تحقق فرقة المشاة أهدافها قبل الرابعة إلا ربعاً، ثم تكون مهلة لساعتين، تتقدم بعدها الوحدة المدرعة نحو 2000 ياردة، باتجاه منطقة سيدي عبد الرحمن، وفي السابعة إلا الربع يتقدم طابور مدرع آخر، فيما يركز السلاح الجوي غاراته على فرقة البانزر الحادية والعشرين والفرقة الخفيفة التسعين.

تلك الليلة قرر جيش البانزر أن يغير الساعة من الوقت الصيفي في ألمانية إلى التوقيت الأوروبي العام. إلا أن ذلك لم يساعد كثيراً في تخفيف الفوضى التي عمت حين راحت الغارات تدك مقدمة الطابور الإفريقي، الذي أصيب قائده فون توما بجروح طفيفة. ولم يتمكن الألمان من إصلاح شبكة الاتصالات إلا في الخامسة والنصف صباحاً، ومن ثمَّ فإن رومل لم يستطع أن يبلغ أوامره إلى القيادة الرئيسة. وخيل للألمان في البداية أن الهجوم الرئيس يتم من الشمال، لكنهم تبينوا نحو الرابعة صباحاً أنه في الجنوب. أما مونتغمري فكان عالماً «بالفوضى التي دبت في الجانب الآخر من التلة» وقد غادر مقره في السابعة والنصف صباحاً، ليتوجه إلى مقر القيادة التكتيكية، حيث قدمت له معلومات مشجعة. وقد وصف مراسل حربي الوضع على الجبهة آنذاك كالآتي:

«تركنا مواقعنا، وعبرنا حقول الألغام في خط واحد. لم تطلق أي طلقة علينا. والإعاقة الوحيدة لتقدمنا حدثت فقط حين اصطدمت السيارة بمدفع من عيار

88 ملليمتراً. كان موقعاً مليئاً بجثث الألمان. وكان العدو مذهولاً، بحيث لم يقم بأي حركة ونحن نتقدم، أو ربما القطاع الإيطالي ظن أننا ألمان، والقطاع الألماني ظن أننا إيطاليون. لقد لوحوا لنا بالأعلام الألمانية، وكنا نقول لهم بالألمانية: تأهبوا! أو أي شيء آخر يمكننا من عبور صفوفهم. وحتى حين طلع الضوء تماماً، وأيقنوا أنهم أخطؤوا فإنهم لم يصدقوا أعينهم. مررنا أحياناً على بعد 10 ياردات فقط من مدفعيتهم. وأحياناً أخرى مررنا أمام ألمان يحملون بنادقهم، لكنهم لحسن الحظ أخفقوا في إطلاقها. وكان أحدهم يكتشف أننا بريطانيون، فيهرع ليخبر رفيقه، ثم يقف الاثنان مذهولين لا يصدقان.

«بعد قليل مررنا بإيطالي ينام في سريره. وقد عرفنا من كثرة الشاحنات والعتاد التي حوله أنه في مقر قيادي، أيقظناه فقفز أمتاراً من الخوف، ثم رمينا قنبلة يدوية في الشاحنة قربه فأحرقتها. تقدمنا أكثر فإذا نحن أمام مقر أكبر، فأيقظنا أهله بالقنابل التي أسقطناها على الشاحنات».

كان هم مونتغمري طبعاً، أن يستغل إلى أقصى الحدود الضعف الذي أظهره الإيطاليون والألمان في الجزء الجنوبي من الجهة، إلا أن تلاحماً هائلاً جعل الدبابات تتحرك في مواقعها:

«لقد أرغت وأزبدت قرب سيدي عبد الرحمن». الدبابات تشتبك مع الدبابات، والمدافع المضادة للدروع تدك الدروع. من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب. إنه أطول اشتباك مدرع في المعركة كلها. وقد ضحى رومل بمواقعه المضادة للطائرات، لكي يشرك مدافعه في معركة الدروع، إلا أنها ما لبثت أن دمرت. ثم تهاوت الدبابات الإيطالية فيها. ومع حلول الظهيرة أيقن رومل أن هجومه المضاد الأول قد أخفق، فأمر بهجوم ثانٍ في الساعة الثانية. لكن الهجمات الآتية لقيت المصير نفسه. وبعد الظهر كان عدد الدبابات الصالحة لدى الطابور الإفريقي قد انخفض إلى 35، فاتخذ رومل القرار المرير بالانسحاب إلى فوقا فوكا على بعد 60 ميلاً، بينما يستمر الفيلق العشرون في مقاومة الجيش الثامن، ويعمل على الانسحاب ببطء. وأبرق رومل بقراره إلى هتلر قائلاً إنه لم يعد بإمكانه أن يصد الاندفاع البريطاني المقرر لليوم المقبل. وكما يفعل كل ليلة، جلس وكتب إلى زوجته الرسالة الآتية:

3تشرين الثاني/ نوفمبر 1942

عزيزتي لو

المعركة ضدنا ثقيلة جداً. إن ثقل العدو، بكل بساطة، يسحقنا. لقد قمت بمحاولة لإنقاذ جزء من الجيش، ولست أدري إن كانت ستنجح. إنني أمضي الليل مفتوح العينين، أفكر في طريقة أنقذ بها قواتي المسكينة من هذا العذاب. إن الموتى سعداء الحظ، فقد انتهى كل شيء بالنسبة إليهم. إنني أفكر فيك بكل جوارحي، وقد تسير الأمور على ما يرام وأشاهدك ثانية.

• • •

استدعى الفيلد مارشال مونتغمري أركانه إلى اجتماع خاص في التاسعة من صباح 3 تشرين الثاني/ نوفمبر. إنه شبه واثق الآن من أن رومل بلغ النفس الأخير، وتطلع إلى القطاع الجنوبي من الجبهة من أجل الاقتحام. وخلال الاجتماع وصلت إلى الضباط تقارير عن انفجارات على الجبهة حيث يقاتل الفيلق الثالث عشر، وعن انسحابات ألمانية في ذلك القطاع. أما في مقر القيادة الألماني فكان رومل يشعر بضيق حقيقي. وخوفاً من أن يلقى تقريره أثراً سيئاً جداً في برلين، قرر أن يرسل مساعده الشخصي اللفتنانت برندت لكي يشرح الأمر بنفسه لهتلر. وطلب منه أن يشرح للفوهرر خطته بأن يخوض معارك جانبية إلهائية في الصفوف الخلفية، إلى أن تصل التعزيزات، فإذا لم تصل تمكن من إجلاء قواته بسلام عن طريق المتوسط. انتهى من هذه الترتيبات، وقام إلى مقر القيادة الساحلي يتفقده، فرأى في الطريق قوافل مؤونة إيطالية وتعجب من أن السلاح الجوي البريطاني لم يكن يقصفها. ولدى وصوله إلى المقر أبلغ أن الجيش الثامن لا يقوم بمحاولة جدية لضرب الطابور الإفريقي، الذي لم يعد لديه الآن سوى ثلاثين دبابة، بل هو منهمك في إعادة تنظيم نفسه.

وقرر رومل استغلال هذا الهدوء، لكي يأمر معظم الإيطاليين بالانسحاب. لكن السلاح الجوي البريطاني لم يستطع مقاومة الإغراء بقصف هذه التجمعات على الطريق الساحلي، وكاد رومل نفسه يقضي وهو عائد إلى مقره الرئيس. وبعد عودته بقليل، وصله رد هتلر على التقرير الذي كان بعث به الليلة السابقة:

«إننا نتابع ـ الشعب الألماني وأنا ـ بالثقة المطلقة بشجاعتك وقيادتك، الصراع البطولي في مصر.

وفي هذه الحال التي أنت فيها لا تخطر فكرة سوى الصمود، فلا تسلم شبراً واحداً، وادفع بكل رجل ومدفع إلى أرض القتال. إن تعزيزات جوية ضخمة ترسل إلى القيادة في الجنوب. والدوتشي (موسوليني)، والقائد الأعلى يبذلان أيضاً أقصى الجهود لكي يرسلا إليك جميع وسائل القتال. إن عدوك، على الرغم من تفوقه، لا بد أن يكون هو أيضاً قد استنفد قواه، ولن تكون هذه أول مرة في التاريخ تنتصر فيها الإرادة القوية على المعارك الكبرى. أما بالنسبة إلى قواتنا فإن لك أن تخيرها بين طريقين لا ثالث لهما: النصر أو الموت!».

كانت تلك ضربة قاصمة لرومل. وفي شيء من اللامبالاة ألغى الأوامر بالانسحاب. إلا أنه أبلغ مساعده برندت تفاصيل جديدة، خلاصتها أن تنفيذ أوامر هتلر يعني القضاء على جيش البانزر خلال أيام. وعلى أي حال بدأ جيش البانزر الآن بالعودة عن حالة الانسحاب، فيما كان البريطانيون يستعدون للاقتحام. إلا أن رومل كان موقناً بأنه سيطوق خلال ساعات بعدو يملك 20 ضعفاً من الدبابات أكثر منه. وفي اليوم التالي تبين له أنه لم يعد من المجدي الإصغاء إلى أوامر الفوهرر، فأمر الطابور الإفريقي بالانسحاب فوراً، فيما أمل مونتغمري بأن يأسر جيش البانز قبل أن يتراجع. لم يعد هناك ما هو مهم سوى سلامة من بقي. لقد انتهت معركة الثعلب الألماني أمام الثعلب البريطاني الضيق العينين.

• • •

كانت معركة العلمين في الواقع معركة مصر. أو المعركة من أجل مصر. وإذ ابتهجت لندن بعد ثلاثة أعوام من الوجوم، أيقنت أيضاً أن الألمان لن يحققوا ذلك الحلم التاريخي بعبور قناة السويس إلى مصر، ومنها إلى منابع النفط. لكنها معركة كبدت فيها أبطالها الكثير من الرجال والمال. لقد بدأها رومل بمائة ألف رجل، أسر منهم 30 ألفاً، بينهم عشرة آلاف ألماني. وقتل أو أصيب 20 ألفاً. وترك رومل في أرض

الميدان 1000 مدفع، و450 دبابة. وترك الإيطاليون خلال انسحابهم 75 دبابة بسبب الافتقار إلى الوقود. وحين انسحب الطابور الإفريقي من مرسى مطروح في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر لم يكن لديه أكثر من 20 دبابة. أما خسائر الجيش الثامن، بين قتيل وجريح، فكانت 14500 رجل، أي 8 في المئة من القوة المقاتلة، وعطلت 500 دبابة، ودمر 100 مدفع.

لقد كانت معركة العلمين أهم معركة على أرض عربية خلال الحرب العالمية الثانية، لكنها أيضاً إحدى المعارك التي حسمت مجرى الحرب في كل مكان، وأنزلت الهزيمة بأشهر جنرالات ألمانية.

الجنرال ألكسندر:
من صحاري مصر إلى زيتون تونس

إنه الفيلد مارشال هارولد ألكسندر. وهو إيرلندي الأصل، لكنه سوف يذهب إلى التاريخ العسكري والبريطاني حاملاً اسم تونس. هو إذاً، «ألكسندر لورد تونس».

لقد اختار الاسم الأحب إليه. هكذا فعل غيره من الجنرالات!

إنه أيضاً، الإيرلندي الذي تقاسم مع دوايت أيزنهاور قيادة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. الرجل الذي استسلم له مليون عسكري، كما يروي لنا تشرشل في مذكراته! لقد كان هناك أربعة رجال يختارون القادة العسكريين خلال الحرب: تشرشل، ومستشاره العسكري الجنرال آلان بروك، وروزفلت، ومعه الجنرال جورج مارشال، وهؤلاء الأربعة اختاروا معاً للقيادة العليا في أوروبة: أيزنهاور لشمال غرب القارة وألكسندر لقيادة القوات «الحليفة» في إيطالية، التي ستطبق مع قوات أيزنهاور على رجال الفوهرر. لكن الأول عاد إلى بلاده لكي يصبح رئيساً للجمهورية، أما الثاني فعاد لكي يدون مذكراته الحربية والسياسية.

وثمة كتب كثيرة وضعت عن ألكسندر. لكننا وقد قررنا اختيار فصل واحد من كل جنرال، لم نجد أفضل من ألكسندر نفسه يحدثنا عن تونس، وقد عاد إليها بعد سنوات طويلة من نهاية الحرب. لنقرأ معاً هذا الفصل بعنوان «العودة إلى الصحراء الغربية» لكي نرى كيف يتذكر قائد عسكري في أيام السلم، تلك الصحراء التي عرفها أيام الحرب:

«عدت إلى الصحراء في ربيع 1960. ثمانية عشر عاماً مرت! زالت كما تزيل شمس الفجر الندى المبكر. وها أنا أشاهد مرة أخرى زرقة البحر الرائعة ـ زرقة رائعة لدرجة أننا لو وضعناها على لوحة لاعتقدنا أنها خيالية ـ وأشاهد أيضاً الكثبان الرملية البيضاء، وأحس الريح تأتي هادئة من البحر: إنه الماضي يعود إليَّ حياً.

إن المرء ينسى كم هي المسافات عظيمة إلى أن يراها من جديد. والصحراء تبدو خالية تماماً الآن، كأن شيئاً لم يحدث هناك. لكن قبل 18 عاماً كانت الأرض التي نقف عليها تضج بالحركة. أما الآن فما هناك سوى الصمت. لا شيء ـ على ما يبدو ـ ينمو أو يعيش في الصحراء سوى أشجار الشوك. وإنك تلمح بين فترة وأخرى عصفوراً وحيداً يطير من مكان إلى آخر. لا شيء سوى الرمال والمساحات الخالية والريح، وهنا وهناك خيمة بدوي عربي وجمل ما. ويبدو لك وكأن هذه الصحراء تركت من غير إزعاج آلاف السنين، لكنك لا تلبث أن تلمح آثار ذكرى أو أكثر: بقايا علبة تنك صدئة، أو قطعة قديمة من سلك هاتفي، تلك الأشياء الصغيرة تذكرك بأن معركة ما قد وقعت هناك.

رحت أتفقد موقع المعسكر الذي كنا فيه (مبنا) في الصحراء، على أطراف القاهرة، وقد أطل على الصحراء الغربية والجبهة. هنا كان مقر العمليات الرئيس عندما تسلمت القيادة العليا في الشرق الأوسط. هنا أيضاً أمضى الجنرال أوكينلك وعدد من ضباطه بعض الوقت، قبل أن يتسلم قيادة الجيش الثامن في نهاية حزيران/ يونيو 1942. لكنني قبل أن أصل إلى القاهرة في آب/ أغسطس 1942 كان المعسكر قد فكك. وهكذا بدا معسكراً مهجوراً حين وصلت آنذاك،واليوم ،في تشرين الأول/ أكتوبر 1960 لم يكن ممكناً أن أعرفه، لولا الحجر الذي يشير إلى أن معسكراً كان قائماً هنا. لقد أقفلت أبوابه وأغلقت نوافذه، لكن لا بد أن بعض الإصلاحات قد أحدثت في السنوات الماضية، ولا بد أن أحداً ما قد جعل من هذا المعسكر بيتاً، لأن ثمة حارساً يقطن ما كان في السابق مطبخاً. إنه عربي بسيط، ومعه ولد صغير، ودجاج وصيصان وكلب وسيارة جيب مهترئة، لعلها آخر الدلائل على الحرب.

وحيث كان مطعم المعسكر المبني من الخيام، ليس هناك الآن سوى الرمال وبضعة أعمدة خشبية مغروزة في الأرض. ولعل الهرم الكبير الذي يطل على موقع المعسكر، قد شهد عبر العصور ثكنات عسكرية كثيرة أخرى. وربما يكون نابوليون قد أمضى ليلة في ظلاله عندما زار الأهرام، كما فعلنا نحن، أهل الجيش الثامن قبل ثمانية عشر عاماً...».

بهذه الكلمات الشاعرية يتذكر الجنرال ألكسندر أحد فصول الصحراء، لكن «العلمين» وضواحي القاهرة لم تدخل التاريخ على أنها معركته، بل تونس هي المعركة. ففي 17 شباط/ فبراير 1943 يتلقى ألكسندر من أيزنهاور البرقية الآتية:

«لقد عينت نائباً للقائد العام لقوات الحلفاء في شمال إفريقية، قائداً لمجموعة الجيوش العاملة في تونس».

وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر، كان ألكسندر يرسل إلى تشرشل البرقية الآتية في 13 أيار/ مايو 1943:

سيدي، من واجبي أن أبلغكم بأن حملة تونس قد انتهت، وتوقفت كل مقاومة للعدو.

لقد دانت لنا السيطرة على سواحل إفريقية الشمالية».

كان ذلك بعد معركة «العلمين» مباشرة. وكان الناس مأخوذين بانتصار مونتغمري، غير أن قادة الحرب كانوا يعرفون أيضاً أنه لولا دور ألكسندر لظل الانتصار ناقصاً.

ولنعد إلى قصة ألكسندر من أولها!

في كانون الثاني/يناير 1943 اجتمع ونستون تشرشل إلى الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت، وكبار القادة العسكريين من البلدين، في مدينة الدار البيضاء لرسم الخطوات المقبلة ضد قوات «المحور»، الآن وقد أصبحت أميركة طرفاً في الحرب. وانتهى النقاش الطويل في ذلك اللقاء إلى الاتفاق على نقطتين محددتين:

الأولى: احتلال جزيرة صقلية، في اليوم الذي يطلع القمر فيه كاملاً في شهر تموز/ يوليو. والثانية: تعيين أيزنهاور قائداً للقوات الأميركية ـ البريطانية، يُعينه ثلاثة من الضباط البريطانيين، هم: الأميرال كانينغهام للقوات البحرية، والجنرال ألكسندر للقوات البرية، والجنرال تيدر للقوات الجوية.

وتقرَّر أيضاً أن تصبح كل القوات البرية المتجمعة في تونس تحت إمرة ألكسندر. عندما يتمكن الجيش الثامن من عبور الحدود الليبية إلى الغرب من طرابلس، يصبح على مسافة قريبة من قوات الحلفاء، التي كانت تقاتل في الجبال، وأطلق على مقر

قيادة الجنرال ألكسندر اسم المجموعة العسكرية 18، على اعتبار أنه كان مكلفاً بتنسيق عمليات الجيش الأول الذي كان يقوده الجنرال أندرسون في تونس، والجيش الثامن الذي كان يتقدم من طرابلس بقيادة مونتغمري.

وهكذا اسْتُدعى ألكسندر وتيدر إلى الدار البيضاء، ليطلعا تشرشل على تطورات المعركة في الصحراء. وقد تكلم ألكسندر يومها بنبرة الواثق من نفسه، وقال عنه آرثر بريانت: «طار ألكسندر من القاهرة إلى الدار البيضاء، حيث سحر جميع الحاضرين في المؤتمر بما سماه تشرشل الكياسة العفوية المطمئنة».

وقد أكد تشرشل هذا الانطباع بقوله: «بعد يوم أو يومين جاء ألكسندر وقدم لي وللرئيس (روزفلت) تقريراً عن تقدم الجيش الثامن، وترك ألكسندر انطباعاً حسناً لدى الرئيس الذي أعجب به وبما قاله عن اقتراب الجيش الثامن من طرابلس... وكانت ثقته الكبيرة بنفسه من النوع الذي ينعكس على الآخرين».

والواقع أن فكرة تعيين ألكسندر مكان أيزنهاور خطرت في أكثر من بال. وترددت أكثر من مرة في الصحافة العالمية، وعلى ألسن المراسلين. ويعلق روبرت شيرwood على الأمر قائلاً:

«في وقت من الأوقات، كان هناك شك في بقاء أيزنهاور قائداً أعلى لعملية غزو صقلية، وكان أكبر منافس لأيزنهاور الجنرال ألكسندر الذي يعلوه رتبة...».

وقد شاركت دول «المحور» في هذه الدعاية، لكن لأغراض في نفسها. أي لزرع الشقاق في صفوف الحلفاء. وفي هذا الشأن كتب الكوماندر بوتشر: «توقَّع راديو برلين نقل إيك (أيزنهاور) إلى... واستلام ألكسندر المسؤولية في إفريقية الشمالية. وقد جاء ذلك وقت تزداد الانتقادات الموجهة إلى أيزنهاور في بريطانية والولايات المتحدة، والتلميحات إلى وجوب استبداله...».

لكن موقف أيزنهاور لم يكن في الحقيقة مهدداً. إذ بالإضافة إلى أن تشرشل كان معجباً بطريقته في قيادة جيوش الحلفاء، فإنه كان يدرك في الوقت نفسه ضرورة أن يكون القائد العسكري الأعلى أميركياً حتى يضمن بقاء المجهود الحربي الأميركي

مركزاً ﴿ أوروبة بدلاً من المحيط الهادئ. ومن ناحية أخرى كان تشرشل يعتقد أن مسؤوليات كبيرة وكافية قد أعطيت للجنرال ألكسندر، الذي عُد بطلاً بعد عملية الانسحاب من دنكرك. والواقع أن ألكسندر لم يخذل رئيس حكومته يوماً.

ويذكر أن الأميركيين قبلوا على مضض متابعة العمليات العسكرية ﴿ حوض المتوسط بعد سقوط تونس. وقد فعلوا ذلك فقط لكي يبقوا على قواتهم منشغلة ونشطة، بانتظار شن الهجوم على شمال غرب أوروبة ﴿ ربيع 1944، على أن تغادر كل العناصر العسكرية والسفن والطائرات الحربية المطلوبة حوض المتوسط لتنفيذ الإنزال ﴿ النورماندي خلال الخريف.

و﴿ المقابل كان ونستون تشرشل مصمماً على إنجاح إستراتيجيته ﴿ منطقة المتوسط. كان يريد تحقيق ما يستطيع من انتصارات هناك، قبل أن ينشغل حلفاؤه بالغزو الأوروبي الكبير عبر المانش. ولذلك راح يلح على ألكسندر للعمل على طرد جميع قوات المحور من إفريقية الشمالية بأكبر سرعة ممكنة، من أجل تسهيل الانقضاض على جنوب أوروبة، قبل حلول فصل الشتاء. فالأميركيون كانوا يعارضون القيام بأي عمليات رئيسة ﴿ المطر والوحل.

وصل ألكسندر إلى الجزائر ﴿ 18 شباط/ فبراير، مصطحباً معه الجنرال ديك ماك كريدي كرئيس للأركان، إلى جانب مجموعة من الضباط البريطانيين الذين عملوا ﴿ القاهرة، وذلك لتشكيل نواة للمجموعة 18 ﴿ مدينة الجزائر. و﴿ مقابل ذلك كان مقر قيادة الجنرال أيزنهاور يعمل ﴿ الجزائر أيضاً، ولكن «على الطريقة الأميركية». وأمضى ألكسندر ليلته الأولى ﴿ المدينة يفكر ﴿ كيفية معاودة مد الجسور بينه وبين أيزنهاور بعدما كانت قد انقطعت قبل نحو السنة.

يقول الكوماندور بوتشر: إن التصا﴿ بين الرجلين بدأ عندما «قال الجنرال ألكسندر إنه أصيب بخيبة أمل لإلغاء أول مهمة كلف بها تحت إمرة أيزنهاور، بعد 24 ساعة من التكليف».

وردَّ أيزنهاور بأن أعرب عن رضاه التام لما قام به ألكسندر ومونتغمري خلال ملاحقة رومل في الصحراء. وأعرب عن اعتقاده «بأن القيادة ستكون من نصيب ألكسندر بعد كل المنجزات التي حققها».

في هذه الأثناء كانت تطورات مهمة تجري في الميدان. فقد تدهور وضع الحلفاء في تونس منذ اجتماع الدار البيضاء، إذ تمكنت قوات المحور من نقل التعزيزات بسرعة كبيرة بفضل الجسر البحري الجوي الذي أقيم بين إيطالية وصقلية وتونس. وفي هذا الوقت أخلى رومل مدينة طرابلس، بعد أن دمرت قواته تجهيزات المرفأ وعطلتها. وانضمت هذه القوات إلى قوات فون آرنيم المسيطرة على وسط تونس وشمالها.

أما مونتغمري فوجد نفسه عاجزاً عن التقدم بسبب الشلل الذي أصاب مرفأ طرابلس. في حين بات التفوق العددي لقوات المحور في تونس ينذر بعواقب وخيمة. وفي الجبال الشمالية حول تونس المدينة وبنزرت، أوقفت قوات فون آرنيم الجيش البريطاني الأول بقيادة أندرسون عن التقدم. ولم تكن قوات الجنرال كولتز (فرنسي) والجنرال فريدندال (أميركي)، التي تولت القتال على المحاور الأخرى للجبهة التونسية بأفضل حال من قوات أندرسون، وقد عانت الأولى غياب العدد الكافي من الدبابات والمدفعية الثقيلة، في حين عانت الثانية قلة الخبرة وسوء التدريب.

وقد سبب ذلك مشكلات جمة لأيزنهاور، الذي وجد مشقة كبيرة في قيادة العمليات، لاسيما أن الجنرال الفرنسي رفض العمل تحت إمرة الجنرال أندرسون لأنه بريطاني، لذلك اضطر أيزنهاور إلى الإمساك بزمام القيادة بنفسه من مقره في قسطنطينة (الجزائر). ولم تسهل مهمة أيزنهاور إلا بوصول الجنرال ألكسندر.

بدأ الهجوم الألماني في 14 شباط/فبراير، في وقت كان الجنرال ألكسندر يودع القاهرة، وسرعان ما تفوق جيش فون آرنيم على الفرنسيين والأميركيين في أكثر من محور وموقع، فاخترق دفاعات قوات فريدندال في الفايد، بينما احتل جيش رومل قفصة. وتراجع الأميركيون بقيادة فريدندال لإقامة تحصينات دفاعية جديدة في الكاف وتبسة.

ووسط هذا الجو المقلق بالنسبة إلى الحلفاء، قام ألكسندر بأول جولة له في مواقع القتال، تمهيداً لتسلمه القيادة في 20 شباط/فبراير. ولم تكن حصيلة الجولة التي رافقه فيها الجنرال ديك ماك كريدي مشجعة على أي حال، لأن الوضع كان يعاني من الفوضى، على الرغم من جهود أندرسون ومحاولاته ضبط الأمور. ولاحظ ألكسندر أن الروح المعنوية لدى الجنود، ولاسيما لدى الأميركيين كانت ضعيفة، وأن خليط الجنسيات بين القوات المسلحة سبب كثيراً من الارتباك، وانعدام التنسيق والتنظيم. وأدرك ألكسندر بفضل خبرته الطويلة أسباب الوضع المتدهور لقوات الحلفاء في شمال إفريقية، وفهم تماماً أن ما يعانيه الأميركيون يعود إلى قلة خبرتهم الميدانية، وشعورهم بالفارق الشاسع بين حرب النظارات والحرب الدقيقة.

وفي ليلة 19 ـ 20 شباط/فبراير تمكنت قوات رومل من طرد الأميركيين من ممر القصرين، وفتح الطريق باتجاه تبسة والكاف، الأمر الذي استدعى إرسال تعزيزات بريطانية للإسهام في وقف المد الألماني الجديد.

أما القوات الفرنسية فكانت من سوء التجهيز، بحيث لم تكفها الشجاعة البالغة للصمود ميدانياً.

قرر ألكسندر تولي قيادة المجموعة العسكرية 18 يوم التاسع عشر من شباط/فبراير، أي قبل يوم واحد من الموعد المحدد، وذلك لأن الوضع في القصرين لم يكن يحتمل الانتظار. وفي ذلك الوقت اعتبر رومل أن ما لديه من قوات لا يخوله متابعة الهجوم واحتلال المزيد من مواقع الحلفاء، كما أنه لم يكن يستطيع ترك مونتغمري يجهز قواته بهدوء على الجبهة الجنوبية لتونس. وهكذا أمر رومل قواته بوقف الهجوم للاستعداد لمواجهة الجيش الثامن الذي يقوده مونتغمري.

ولعل أفضل ما يعبر عنه الوضع الميداني على الجبهات التونسية، ما جاء في رسالة بعث بها ألكسندر إلى بروك بعد تسلمه مهام القيادة: «الوضع غير مرضٍ أبداً. والقوات البريطانية والأميركية والفرنسية تعاني من الارتباك، ولاسيما على الجبهة الجنوبية، ولا تملك خطة واضحة أو توجهاً عسكرياً موحداً. لقد فقدنا المبادرة».

بعد هذه الرسالة بأيام ثلاثة، أبرق ألكسندر إلى لندن يقول: إن الوضع على الجبهة سيئ، دون أن يعرف بأن رومل بدأ بالانسحاب... وبعد أيام قليلة كتب ألكسندر إلى تشرشل وبروك قائلاً: «لقد صعقني واقع الحال هنا. وإذا كان من واجب أندرسون تنظيم الأمور بسرعة أكبر مما فعل، فإن الوقت لم يسمح له لأنه لم يتسلم القيادة فعلياً إلا في 24 كانون الثاني/ يناير، الأكبر هو غياب التوجيهات من رؤسائه وغياب أي خطة واضحة ومحددة. وأنا أشك في كون أندرسون مؤهلاً لهذه المهمة، على الرغم من المزايا التي يملكها... لا أريد تثبيط العزائم، لكن النصر النهائي في إفريقية الشمالية ليس أمراً قريب الحصول، وعلينا القيام بالكثير لتحسين أوضاع القوات البرية والجوية، والجنرال أيزنهاور يبدي كل التعاون...».

كان في مقدور ألكسندر وضع الخطة العسكرية التي شكا من غيابها، لكن عدم ثقته بالأميركيين لم يكن أمراً يمكن حله بين ليلة وضحاها، علماً أن بعض الناس اعتقد أن ألكسندر قد ظلمهم، وأن الأميركيين كانوا قادرين على تحقيق قفزات نوعية وسريعة والتعلم من أخطائهم.

كانت الخطة الأسهل في نظر العسكريين تجميع القوات في منطقة «الفندق»، والاندفاع باتجاه القيروان إلى سوسة الساحلية، أو الاندفاع من الفايد في اتجاه صفاقس، لقطع الخط الذي يربط بين جيش فون آرنيم وجيش رومل، لاستفرادهما في مرحلة لاحقة... والواقع أن فكرة القيام بهذه العملية كانت تدور في خلد أيزنهاور منذ شهر كانون الأول/ديسمبر، لكن ألكسندر عارض الفكرة عندما طرحها أيزنهاور في لقاء الدار البيضاء، لأن تنفيذها قد يؤدي إلى حشر جيش فريدندال الأميركي بين جيشين ألمانيين حسني التدريب، ويجعله لقمة سائغة بين فكي كماشة.

كان ألكسندر واقعياً، يقيس الأشياء بمقياس العقلانية والتروي، وقد أخذ بعين الاعتبار أربعة عوامل عندما بدأ بوضع الإستراتيجية العسكرية لمعركة تونس. العامل الأول: هو الازدياد المضطرد لقوة جيشي فون آرنيم ورومل براً وجواً، بفضل سيل الإمدادات المتدفق عبر الجسر، البحري - الجوي الذي يمر بصقلية، الأمر الذي يوجب شل فاعلية هذا الجسر من خلال تحقيق التفوق الجوي لقوات الحلفاء في ذلك

الجزء من البحر المتوسط، وهو أمر لا يمكن القيام به إلا باحتلال أكبر قدر ممكن من المطارات والمدرجات التي تستطيع الطائرات الانطلاق منها، وبلوغ المسالك البحرية المفضية إلى المرافئ التونسية، علماً أن معظم المطارات في تونس تقع في السهل الأوسط بين قابس جنوباً والنفيضة شمالاً.

العامل الثاني هو التقدير الحقيقي لقوة جيش فون آرنيم وروملِ، فألفوهرر كان يعلق آمالاً كبيرة عليهما، لإلقاء قوات الحلفاء بعيداً عن جنوب أوروبة، ولذا أمر بإجراء تعديلات في هيكلية القيادة بعد معركة القصرين، مكلفاً روميل بتنسيق كل العمليات بين جيشه وجيشي فرن آرنيم، كما تسلم الجنرال الإيطالي ميسي القيادة المباشرة للجيش الذي كان تحت أمر رومل.

العامل الثالث: هو التقدير الحقيقي للقوة الموضوعة في تصرف ألكسندر نفسه. الجيش البريطاني الأول الذي يقوده أندرسون في شمال تونس كان على قدر مقبول من الفاعلية، ولاسيما بعد انضمام الجنرال جون كروكر إليه، وتعزيزه بفرقتين من المشاة استقدمتا من إنكلترة. أما القوات الفرنسية التي يقودها الجنرال كولتز، فكانت تعاني من نقص فادح في التجهيز، ومن عدائية الأنكلوسكونيين، مع الإشارة إلى أن عناصرها كانوا يملكون خبرة جيدة في حرب الجبال.

تبقى القوات الأميركية بقيادة الجنرال فريديندال، وكانت مجهزة بأكثر مما تحتاجه، ومدفوعة بالشجاعة والإقدام اللذين تنقصهما الخبرة والتدريب الكافي.

ويمكن أن يضاف إلى هذا العامل، وجود الجيش البريطاني الثامن بقيادة مونتغمري في الجنوب، وهو جيش كان يتفوق بنوعيته على كل القوات التي في تصرف ألكسندر. وهكذا يتضح أن هدف الجنرال ألكسندر المباشر والملح كان في رفع مستوى قوات الحلفاء في تونس، بما يجعل أداءها متقدماً، ويبدأ ذلك أولاً بإعادة تنظيم الجبهة، وتقسيمها إلى قطاعات، تتولى القتال فيها القوات البريطانية والفرنسية والأميركية، من غير تداخل بين العناصر، بحيث يكون الجندي خاضعاً لأوامر ضباط من مواطنيه. وبعدها يكلف كل جيش بمهمات يستطيع تنفيذها وفقاً لقدراته، حتى تتعزز الثقة، وتبنى الخبرة القتالية بالشكل الصحيح.

العامل الرابع والأخير كان طوبوغرافياً: وخلاصته أن تنتشر قوات المحور في منطقة واسعة يحدها البحر شمالاً وشرقاً، والجبال غرباً، ومستنقعات المياه المالحة جنوباً حتى حدود قابس الساحلية، وانطلاقاً من هذا الواقع الجغرافي الصعب كان أمام قوات الحلفاء طريقان: أولهما: الانطلاق داخل الصحراء لمهاجمة قوات المحور من الطرف الغربي، والثاني: سلوك الطريق الضيقة بين قابس والمستنقعات المالحة. وكانت الطريق الأولى صعبة وغير عملية بالنسبة إلى قوات عسكرية كبيرة الحجم، في حين كانت الطريق الثانية شبه مستحيلة، بسبب طبيعة المنطقة الجغرافية، واحتماء قوات المحور خلف التحصينات الدفاعية التي بناها الفرنسيون في مارث.

وقد لخص ألكسندر خطته المبنية على العوامل الأربعة المذكورة قائلاً: «يجب أن تقسم الحملة العسكرية إلى مرحلتين: في المرحلة الأولى ينفذ الجيش الثامن إلى شمال قابس، حيث يصبح متصلاً بالجيش الأول ويكرس تفوقه في القدرة على الحركة والقوة النارية... وفي المرحلة الثانية يجب أن تكون مهمة الجيشين الأول والثامن احتلال القدر الكافي من المطارات والمدرجات، لتحقيق التفوق الجوي البريطاني ـ الأميركي. وعندما نصل إلى هذا الهدف يصبح بوسعنا تضييق الخناق على مواقع العدو».

1- الهدف: تدمير قوات المحور في تونس في أقرب وقت ممكن.

2- المجموعة العسكرية: تسيطر المجموعة العسكرية 18 على الجيش الثامن، والفيلق الأميركي، والجيش الأول، والفيلق الفرنسي.

3- القطاعات: توزع القوات البريطانية والفرنسية والأميركية على قطاعات مختلفة، ويكون الجنود خاضعين لإمرة ضباط من مواطنيهم، بالقدر الذي يكون ممكناً.

4- التنظيم: تعمل الفرق العسكرية بوصفها فرقاً كاملة، ولا تقسم إلى مجموعات صغيرة.

5- القوات الخاصة مثل فرق الكوماندوس والمظليين تسحب من أرض المعركة في أقرب فرصة، من أجل الراحة وإعادة التدريب والتجهيز.

6- احتياطي المجموعة 18 يتكون من: 6 فرق مدرعة، وفرقة مشاة بريطانية، و9 فيالق عسكرية، ولواء مظليين، و6 فرق كوماندوس، والفيلق التاسع الذي يخضع لتدريبات مكثفة على العمليات الهجومية.

7- الاحتياطي المحلي: على كل فيلق أن يعمل على إيجاد احتياطي خاص به يضم فرقة مشاة وفرقة مدرعة.

8- المدرعات: تسحب الدبابات من الخطوط الأمامية وتجمع بوصفها احتياطياً محلياً لتؤدي دورها في الهجمات المعاكسة.

9- القواعد الثابتة: تحول المواقع الأساسية إلى قواعد ثابتة وحصينة تساندها المدفعية والدبابات، وتراقب الدوريات الدائمة في المناطق الفاصلة بين هذه القواعد. ويكون التعامل مع أي خرق صغير يقوم به العدو لهذه المناطق من مهمة الاحتياطي المحلي، في حين يتولى احتياطي الفيلق التعامل مع أي خرق كبير.

10- يكون الموقف في الجبهة حالياً دفاعياً، وإنما بروحية الاستعداد للهجوم، مع ضرورة إقامة دوريات مستمرة، وعمليات هجومية صغيرة، تهدف إلى تحسين المواقع، وتدريب الوحدات العسكرية، والإمساك بزمام المبادرة...

وهكذا نرى أن ألكسندر اعتمد التكتيك العسكري الذي أثبت نجاحه قبل معركة العلمين، إنما على نطاق واسع يشمل مجموعة جيوش كاملة.

ومن ناحية أخرى يسجل أن ضابطاً كبيراً واحداً فقد مركزه خلال هذه المدة، بمبادرة من أيزنهاور لا من ألكسندر. فبعد معركة القصرين رأى أيزنهاور أن القوات الأميركية فقدت الثقة بقائدها فريدندال، فاستدعى الجنرال باتون من المغرب للحلول محله.

ديغول:
الضابط الذي حارب الإنكليز من لندن

«لقد ترملت فرنسة»!

هكذا قال جورج بومبيدو! لكن من هو ذلك الرجل الواحد الذي يمكن أن يرمل أمة كاملة؟ إنه، بالتأكيد، شارل ديغول. وها هو الآن، ذلك العملاق الهائل القامة، الضئيل الشاربين، ينطفئ بهدوء في قريته الصغيرة «كولومبي» ذات مساء خريفي حزين من أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر في العام 1970.

لقد طوى شارل ديغول كتاباً كاملاً لا صفحة واحدة: تاريخ فرنسة الحديث، هو. وهو أيضاً «زوجها»، شاءت أم أبت. إنه يترك كل شيء منذ العام 1940، لكي يتزوج فرنسة. وهكذا سوف يعاملها. هو يقول لها أي رداء ترتدي، وأي قبعة تعتمر، وأي دولة تصير. هو يترك لها حرية الأكل والشراب والتنزه على البولفارات الطويلة السارحة تحت أشجار الإمبراطورية، لكن إذا حل المساء فالمخدع واحد: الديغولية تنام في مخدع فرنسة.

كرهه الإنكليز، وامتعض منه الأميركيون، وحاربه الألمان، ولم يثق به الروس. فقط الفرنسيون وحدهم أحبوه ثم سحبوا منه هذا الحب، ثم أعطوه، وأخذوه من جديد. هكذا تفعل فرنسة مع قادتها. إنها تُسحَر بهم في المساء، وفي الصباح تخرج إلى الشوارع لتتظاهر ضدهم. لكن شارل ديغول كان يعرف تاريخ فرنسة جيداً: سوف يكثر من الاستفتاءات، وفي النهاية يفعل ما يشاء.

وسوف يستهوي فرنسة باللغة التي تفهمها أكثر من أي شيء آخر، وتحبها أكثر من أي شيء آخر: اللغة! إنه جنرال من غير عسكر ومن غير عسكرية. وعلى وجه الدقة فهو كجندي ربح معركة واحدة فقط في إبيفيل، مقاطعة بيكاردي، في العام 1940. ولعلها كانت المعركة الوحيدة التي ربحتها فرنسة في تلك الأيام الحزينة، لكنه كان انتصاراً ضئيلاً، لدرجة أن الفرنسيين، وحتى الجيش الفرنسي، اختاروا أن يتجاهلوه.

بالكلمات، لا بالمعارك، ربح ديغول حروبه الكثيرة، وخصوصاً غزوته لفرنسة. وحول شخصه فقط توحد الفرنسيون، أحياناً ضده، أحياناً معه، لا فرق. ذلك أن كلا الموقفين كان دليلاً على أنه وحده نقطة الاستقطاب، ووحده استطاع أن يطبع اسمه على ثلاث جمهوريات: الثالثة التي سقطت في الذبول، والرابعة التي امتلأت بالكوارث، والخامسة التي استنبطها من بين الركام.

كان يحب الكلام ويجيده، وكانت مؤتمراته الصحافية أشبه بأمسيات شعرية تلقى كل قصائدها من الذاكرة. وكان ممتعاً أن تسمعه، بقدر ما هو ممتع أن تقرأه. وكان يدور ويدور حول شعار واحد هو عظمة فرنسة. ومن أجل هذه العظمة ذهب إلى السلام طائعاً، وإلى الحرب متقدماً. وبعد سنين قليلة من ولادة الجمهورية الخامسة، كان يحقق ما لم يحققه أي قائد من بلاد الغال أو أي زعيم جرماني من قبل، أي المصالحة بين ألمانية وفرنسة. وهو أيضاً أول زعيم فرنسي يستطيع أن يقف في وجه المد الشيوعي الفرنسي، على الرغم من أنه اتهم بالتواطؤ مع السوفيات. وشارل ديغول الحاكم هو الذي سدد لأميركة ديون خطة مارشال قبل موعدها بكثير. وهو الذي أعاد إلى سطح الأرض ذلك (الفرنك) الغارق في ضباب الهاوية. وذلك الخطيب الحماسي الذي أدار فرنسة من الإذاعة، ثم من التلفزيون، هو أيضاً ذلك السياسي البارد الذي عندما أخفق المتطرفون الفرنسيون في اغتياله بسبب سياسته الجزائرية، نظر إلى الرصاص الضائع حوله وقال: ملعونٌ أبوهم، إنهم لا يجيدون الرماية!

وهذا الرجل الإمبراطوري النابوليوني الأهواء، كما يقول لنا أندريه مالرو، هو الذي سيفتك بالإمبراطورية الفرنسية، ويصبح أيضاً الناطق الأول باسم الدول الصغيرة، منتقداً الهيمنة المتقاسمة بين الأميركيين والسوفيات.

ذلك كان شارل ديغول، الرجل الذي ترك آثاراً طويلة في العالم العربي. لكن بما أن هذا الكتاب يعنى فقط «بجنرالات الشرق» في المرحلة الواقعة بين العامين 1914 و1945. فإننا للأسف نحصر حديثنا عن الرجل في تلك المرحلة، أي المرحلة التي تزعم فيها ديغول «فرنسة الحرة» من خارج فرنسة، وقاد الحرب و«الإنقاذ» منتقلاً من برازافيل، إلى السنغال، إلى القاهرة، إلى دمشق، إلى بيروت، إلى لندن.

كان العام 1941 حاسماً في الحرب الكونية الثانية. فهذه السنة سوف ينضم إلى النزاع العالمي الاتحاد السوفياتي واليابان والولايات المتحدة دفعة واحدة. وفي هذه السنة أيضاً سوف تبدأ العلاقة بين ديغول وحلفائه بالتدهور. وقد وصلت الأزمة بين «فرنسة الحرة» والإنكليز إلى ذروتها، خلال الحملة المشتركة على قوات فيشي في سورية ولبنان، لكنها لم تنفرج بعد ذلك طوال السنوات الأربع اللاحقة. وفي تلك الأثناء بعثت «هيئة الأحرار الفرنسيين» المقيمة في لندن ببرقية إلى ديغول، الموجود آنذاك في القاهرة، تحذره فيها من أن سياسته قد تؤدي إلى خلاف نهائي مع بريطانية «الأمر الذي يعني نهاية فرنسة الحرة، ونهاية آخر أمل في إنقاذ وطننا البائس».

وقد رد ديغول على لجنته ببرقية تأنيب، لا بد لنا من قراءتها لأنها سوف تكون قاعدة لسياسته طوال الحرب:

«إنني أعي، أكثر من أي كان، المضاعفات القومية والدولية الخطيرة، المترتبة على أي انشقاق بين فرنسة الحرة وبريطانية. وإنني لهذا السبب بالذات قررت أن أضع إنكلترة وجهاً لوجه أمام هذه المضاعفات، فيما إذا خطر لها أن تتصرف تجاهنا بطريقة غير مقبولة. ولقد سمعت أن البريطانيين قد تذمروا، لكن هذا التذمر لا وزن له بالمقارنة مع واجباتنا تجاه فرنسة. إنني أدعوكم لأن تكونوا أكثر صموداً، وألا تعطوا الانطباع بأن أولئك الذين يمثلونني لا يتبعون سياستي تماماً. إن عظمتنا وقوتنا تكمنان فقط في عنادنا بشأن كل ما يتعلق بحقوق فرنسة».

ففي القاهرة نفسها كانت لديغول أيضاً مشاحنات كثيرة مع الجنرال إدوارد سبيرس الرجل الذي نظم المراحل الأولى من الدعم البريطاني «لفرنسة الحرة». وبعد عام من الانسجام بين الرجلين بدأ الامتعاض المتبادل يظهر على السطح، ثم تحول هذا الامتعاض إلى فراق بعد انتقال سبيرس من القاهرة إلى منصبه الجديد في سورية ولبنان. ويروي سبيرس أن ديغول انفجر في وجهه ذات يوم قائلاً: «لا أعتقد أن بإمكاني بعد اليوم التفاهم مع الإنكليز. إنكم جميعاً سيان، لا يهمكم سوى مصالحكم وأهدافكم، ولا تشعرون بمتطلبات الآخرين. هل تعتقد أنه يهمني أن تربح بريطانية الحرب؟ لا، إطلاقاً، إن كل ما يعنيني هو انتصار فرنسة».

وعندما رد سبيرس أن الانتصارين واحد، قال ديغول: أبداً (pas du tout).

كان ديغول يدفع بالخلاف مع حلفائه إلى أقصى الحدود، لكي يؤكد للفرنسيين في الداخل إنه هو – وليس حكومة فيشي – الذي يناضل من أجل حماية مصالح فرنسة، وإعادتها إلى صفوف الكبار، وكان يعرف أن فرنسة الضعيفة لا تملك إلا أن تكون صلبة. وقد روى أنطوني إيدن إنه أبلغ ديغول ذات يوم بأنه من بين جميع الحلفاء، يجد صعوبة في التعاطي معه، فأجابه ديغول: «وكيف تريدني أن أتصرف. إن فرنسة دولة عظمى».

ويروي المؤرخ هارولد نيكلسون أن تشرشل انفجر ذات يوم، عندما قال أحدهم إن ديغول رجل عظيم، وقال: «ديغول عظيم؟ إنه أناني، متعجرف ويعتقد أنه نقطة الثقل في العالم... عظيم؟ أجل، إنك على حق، إنه لرجل عظيم».

سواء كان عظيماً أم لا في نظر الإنكليز. فقد كان في الشرق حليفهم وعدوهم في وقت واحد.

وقد كتب ديغول يقول: «في بداية آذار/ مارس 1941 أيقنت بلا أي شك أن الحرب في الشرق الأوسط وإفريقية ستؤدي بنا إلى تجارب كبرى في وجه العدو، وإننا سنواجه في وقت واحد معارضة شديدة من قبل حكومة فيشي، وسوف نمر في خلافات خطيرة مع حلفائنا. لذلك كان عليَّ أن أتخذ القرارات الضرورية في لحظتها. قررت الذهاب إلى هناك ومعي أفكار بسيطة. كنت أعرف أنه وسط ذلك التعقيد من العناصر والأمور، فإن لعبة حيوية تلعب هناك. إذاً، لا بد أن يكون لنا دور فيها».

وهكذا طار الجنرال ديغول إلى القاهرة، حيث حاول أن يضغط على الجنرال ويفل لقبول اقتراحين: الأول: أن يسمح للقوات الفرنسية الحرة ـ وعددها آنذاك نحو ستة آلاف رجل ـ (في الشرق الأوسط) بالتجمع، وشن حملة هجومية للسيطرة على سورية ولبنان. والثاني: أن يشدد ويفل الحصار البحري على موانئ المشرق، وصولاً إلى جيبوتي. حيث يرغم تلك المقاطعات على أن تغير مواقفها. غير أن ويفل رفض أياً من هذه الخطوات، على أساس أن لديه ما يكفيه من المتاعب في جبهات أخرى، وتخوفاً من

الغرق في صعوبات لا نهاية لها مع حكومة فيشي. وكانت وزارة الخارجية البريطانية تدعم ويفل في هذا الموقف، لأنها كانت لا تزال تأمل في أن تجتذب حكومة فيشي إليها. وأكثر من ذلك فإن ويفل بصفته رجلاً عسكرياً، كان يشعر أن ديغول يبالغ في التفاؤل في حمل المقاطعات الفرنسية آنذاك على تغيير مواقفها، والوقوف إلى جانبه بدلاً من البقاء إلى جانب حكومة فرنسة الفيشية المستسلمة للألمان.

هكذا، ترك ديغول القاهرة في شيء من الحيرة في منتصف نيسان/ إبريل، عائداً إلى مقره الأساسي في برازافيل، وفي ظنه، - بل ربما في قناعته - أن هدف الإنكليز الأول هو إبقاؤه خارج لبنان وجيبوتي، بحيث تتم لهم السيطرة على تلك المناطق في وقت لاحق.

يصل ديغول إلى برازافيل إذاً، في الوقت الذي كان الجنرال ويفل يركز قواته في العراق. ومن برازافيل يرسل ديغول تعليمات إلى نائبه في القاهرة الجنرال كاترو بأن يضغط على الإنكليز مرة أخرى، لكنه سوف يتلقى برقية من الجنرال سبيرس في التاسع من أيار/مايو، يخبره فيها «بأنه من المستحيل علينا أن نؤمن النقل لقوات فرنسة الحرة خلال شهر على الأقل» نظراً إلى العمليات العسكرية التي كانت قائمة في العراق ويضيف: «إن الجنرال ويفل قد طلب إليَّ أن أخبرك بأنه على الرغم من كونه سعيداً دائماً برؤيتك شخصياً، فإنه لا يرى أي ضرورة لأن تأتي إلى القاهرة الآن أو في المستقبل القريب». وإذ فرغ ديغول من قراءة هذه البرقية، شعر أن رأسه الطويل يكاد يضرب السقف، وبعث ببرقية إلى كاترو في 12 أيار/ مايو يطلب منه الانسحاب من القاهرة:

«في ضوء السياسة السلبية التي اتبعها حلفاؤنا الإنكليز في الشرق الأوسط، فإنني أعتقد أن وجود شخصية في حجمك في القاهرة لتمثيل فرنسة الحرة هناك، لم يعد له ما يبرره. أرجوك أن تبلغ الإنكليز بهذا القرار. وليس أمامك أي سبب لأن تخبئ عنهم الداعي لرحيلك، على العكس إني أطلب منك أن توضح لهم ذلك».

غير أن تشرشل في هذه الأثناء، كان قد بعث في 9 أيار/ مايو ببرقية إلى الجنرال ويفل، يقول فيها:

«إنك تعرف ولا شك الخطر الذي يمكن أن يتأتى عن إقدام بضعة آلاف من الألمان المنقولين جواً على احتلال سورية. وفي ضوء قناعتك الواضحة بأننا نفتقر إلى الكثير من الإمكانات، فإننا لا نرى أي طريق آخر مفتوحاً أمامنا، سوى أن نقدم على تزويد الجنرال كاترو بوسائل النقل اللازمة، وأن تدعه هو وقوات فرنسة الحرة يبذلون ما يستطيعون في هذه اللحظة وما يرونه مناسباً...».

ثم عندما سمع تشرشل بتعليمات ديغول إلى كاترو بالانسحاب من القاهرة، بعث على الفور برسالة مهدئة إلى برازافيل. طالباً إلى الجنرال الفرنسي أن يعود عن قراره، ومبلغاً إياه بالتعليمات الجديدة التي بعث بها إلى ويفل، لتأمين وسائل النقل للحملة التي تنوي قوات فرنسة الحرة القيام بها في سورية ولبنان. وأضاف إلى ذلك كله خبراً حسناً جداً، إذ قال إن حكومة الحرب في لندن قد قررت تشديد الحصار حول جيبوتي كما طلب ديغول. وقد فوجئ ديغول بهذا الموقف البريطاني المستجد والمفاجئ، لدرجة أنه أبرق أول مرة إلى تشرشل باللغة الإنكليزية، خاتماً رسالته بتحية نادرة: «إنكم سوف تربحون الحرب بلا شك». غير أن السعادة التي رافقت تلك البرقيات المتبادلة بين الرجلين لم تختم دائماً على علاقاتهما في المشرق أو في الشرق الأوسط. بل على العكس فإن ضباباً كثيفاً سوف يظل يجلل تلك العلاقات حتى نهاية الحرب، في العام 1945.

على أي حال يعود ديغول إلى القاهرة في 25 أيار/ مايو، وفي غضون ذلك يكون الجنرال ويفل الذي يخضع لكل أنواع الضغوط، قد استطاع أن يجمع من هنا وهناك، شمل قوة ضعيفة مزركشة الألوان، للقيام بما يسمى «الحملة السورية»، في مواجهة ثلاثين ألف جندي فرنسي موالين لحكومة فيشي وبقيادة الجنرال دنتز. لم تكن قوة فرنسة الحرة تزيد على ستة آلاف رجل كما ذكرنا بقيادة الجنرال لوجنتيوم، وتدعمها نحو عشر دبابات على الأكثر، ونحو أربع وعشرين طائرة، وبضع قطع مدرعة أخرى. أما القوات البريطانية في الحملة، فكانت مؤلفة من الجنود الأوستراليين الذين أمكن الاستغناء عنهم في طبرق.

ويبدو أن دنتز لم يكن ينوي المقاومة في بادئ الأمر، غير أنه عاد واتخذ قراراً معاكساً، بعد تزايد الدعم الجوي الألماني، إذ أخذت طائرات الفوهرر تهبط بصورة منتظمة في مطارات سورية.

مرة أخرى خشي الفرنسيون أن يعودوا إلى مواجهة بعضهم بعضاً كما حدث غير مرة في التاريخ، وأن يتقاتل جنود فرنسة خارج أراضيها بالحرب، وأن يشوهوا وجوه بعضهم بعضاً. لكن الأمر بدا حتمياً إلى حد ما. وكان على ديغول أن يختار بين أن يمضي في معركته وحلمه، وبين أن يتجنب المواجهة مع دنتز الذي قرر الآن تصعيد الدفاع.

بدأت الحملة البريطانية ـ الفرنسية ضد سورية ولبنان في 8 حزيران/ يونيو 1941، ومعها أوامر مشددة بعدم إطلاق النار إلا إذا أطلقت النار عليها. ولم يطل الأمر أمام مثل هذه اللحظة. وظهر بادئ الأمر أن الحملة تتقدم بشكل جيد، لكن قادة قوات فيشي الفرنسية ما لبثوا أن لاحظوا ضعف القوات المهاجمة، وبدأت عندها المقاومة تتصلب، فاضطرت القوات الفرنسية الحرة إلى التوقف على الطريق إلى دمشق، في حين لقيت القوات البريطانية مواجهة عنيفة إلى الشمال من مدينة حلب. لكن الوضع في العراق كان خلال ذلك قد تغير لصالح الإنكليز، وهنا استطاع ويفل أن يحرك ثلاثة ألوية أخرى إلى سورية من الشرق، وفي 21 حزيران/ يونيو دخلت قوات فرنسة الحرة إلى دمشق، لكي يلحق بها الجنرال ديغول بعد ذلك بثلاثة أيام.

وقد عرف الجنرال دنتز الذي لم تكن لديه تعزيزات يطلبها من أي مكان، أنه لا يستطيع الاستمرار في القتال إلى الأبد. وفي 18 حزيران/ يونيو طلب من القنصل الأميركي في بيروت أن يأتي له بشروط الهدنة التي يريد الإنكليز وضعها. إلا أن القتال ظل مستمراً في غضون ذلك، ولم يطلب دنتز وقف النار حقاً إلا في 10 تموز/ يوليو، حين أعلن الدخول في مفاوضات الاستسلام. وقد شعر ديغول آنذاك بأن مواطنيه الفرنسيين الذين يدينون بالولاء لألمانية هم الذين عمدوا عن قصد إلى إطالة الحملة على سورية، من أجل إراحة القوات النازية المندفعة نحو روسية، على أي حال انتهت الحملة بنحو أحد عشر ألف قتيل وجريح ومفقود، من الفرنسيين الأحرار، وأعدائهم الفيشيين، وأيضاً من الأوستراليين والإنكليز والهنود والآخرين.

ازدادت الهوة اتساعاً بين ديغول والإنكليز. فالجنرال الفرنسي لم يكن راضياً عن طريقة الإنكليز في توجيه المعركة، ولا عن الطريقة التي أرسلت بها التعزيزات إلى قواته. وسوف تكبر الهوة أكثر، إذ تتجاهل لندن الشروط التي بعث بها هو إلى دنتز حول قبوله بالهدنة. لقد أصبح مقتنعاً الآن بأن البريطانيين ينكرون الانتصار على قوات فرنسة الحرة.

ثم أعقب ذلك سلسلة حوادث صغيرة مع القوات، لكن هذا التمنع لن يدوم طويلاً. وسوف يستدعى ديغول إلى مواجهة مع تشرشل في 10 داوننغ ستريت في الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر.

ثمة حقيقة لا بد أن تقال عن تشرشل، ذلك الرجل الذي عرف بقسوته وفظاظته ولؤمه، لم يكن يعرف كيف يحقد. لقد كان رجلاً ذكياً يعرف ضعف الإنسان، ويعرف أن للحياة هبوطها وصعودها، ولذلك غالباً ما كان يميل إلى العفو. وقبل أن يعقد تلك المواجهة مع ديغول قال لسكرتيره الخاص جون كولفيل: إنه عندما يدخل ديغول إلى المكتب، «سوف أقف وأنحني قليلاً، لكنني لن أصافحه، وسوف أومئ إليه ليجلس على الجانب الآخر من الطاولة». وكان مقرراً أن يقوم كولفيل، الذي يجيد الفرنسية بدور المترجم. وقد وصل ديغول في الساعة الثالثة تماماً كالعادة، وجلس في الكرسي الذي أشار إليه تشرشل، وراح يحملق فيه منتظراً منه أن يبدأ الحديث. وقد روى كولفيل في مذكراته فيما بعد وقائع ذلك الاجتماع المسلي، الذي لم يكن بالفعل مسلياً آنذاك. يقول كولفيل: بدأ تشرشل بالقول: «أيها الجنرال ديغول، لقد طلبتك أن تجيء إلى هنا بعد هذا الظهر»، ثم توقف ونظر إلى كولفيل الذي ترجم الكلام بقوله: «سيدي الجنرال لقد دعيتك إلى المجيء بعد هذا الظهر...» غير أن تشرشل اعترض بقسوة قائلاً: «إنني لم أقل سيدي الجنرال ولا قلت دعوتك». واستطاع كولفيل أن يصمد بداية الاجتماع، وسمع ديغول وهو يعطي رده الأول، لكن عندما ترجم الرد إلى الإنكليزية، قاطعه ديغول الذي كان يجيد اللغة تماماً، لكنه يرفض أن يتكلمها، وقال: «أبداً ليس هذا المعنى الذي قصدت».

عند ذلك صرف تشرشل سكرتيره كولفيل، وطلب إليه أن يبعث بمترجم آخر. وجيء آنذاك، بأكثر الدبلوماسيين طلاقة بالفرنسية في وزارة الخارجية، الذي قطع الشارع بين مبنى الوزارة ومبنى رئاسة الحكومة راكضاً. وبعد عشر دقائق من دخوله إلى غرفة الاجتماع خرج أحمر الوجه، وقال لكولفيل: «لقد أصيبا بالجنون». وبعد ذلك أكمل الرجلان الحديث من دون مترجم، ومعهما فقط سكرتير يدون الملاحظات. بعدها بنحو ساعة كما روى كولفيل قائلاً: «حاولت أن أتنصت، لكن الأبواب المزدوجة كانت قد أغلقت، لم أستطع أن أسمع شيئاً. ودخلت إلى القاعة، وحاولت أن أجرب على رأسي قبعة الجنرال ديغول التي تركها في المدخل ولَكَمْ فوجئت من مدى صغر حجم رأسه. حاولت أن ألهي نفسي بأي عمل، أو أتظاهر بأي عمل، لكنني لم أفلح. ثم قرع الجرس، فدخلت إلى الغرفة، لأجدهما وقد ظهرت على وجهيهما علامات الرضى. وكان ديغول، لأهداف تكتيكية طبعاً، يدخن إحدى سيجارات رئيس الوزراء، ويتحدثان بالفرنسية، وهو إغراء لم يكن تشرشل يستطيع أن يقاومه طويلاً».

في حين أن الأزمة السورية كانت أبرز هموم ديغول في صيف 1941، فإن انضمام الاتحاد السوفياتي إلى الحرب فتح أمامه إمكانات سياسية عدة، ما لبث أن استغلها بسرعة. فقد سارع ديغول بذكائه السياسي المعروف، إلى أن يلعب «الورقة الروسية» ضد حلفائه الآخرين. وهي إستراتيجية ظل يتابعها حتى أيامه الأخيرة في السلطة في العام 1969.

كان الجنرال ديغول مجتمعاً إلى ليتلتون، عندما شن هتلر هجومه في 21 حزيران/ يونيو 1941. وفيما كان ينتظر أن يدخل دمشق، بعد انتصار الفرنسيين الأحرار على قوات فيشي، بعث ببرقية تعليمات إلى لجنته في لندن في 24 حزيران/ يونيو يقول فيها:

«من دون حاجة في الوقت الحاضر إلى البحث في شهوات، بل في جرائم النظام السوفياتي، يجب أن نعلن مثل تشرشل، إننا بكل صراحة مع الروس، لأنهم يحاربون الألمان. حاولوا الاتصال بهدوء بالسفير السوفياتي في لندن إيفان مايسكي، وأبلغوه باسمي أن الشعب الفرنسي يقف مع روسية، وأننا نريد أن ننظم العلاقات العسكرية مع موسكو».

لماذا كان ديغول يستعجل لأن يمنح روسية هذا التأييد؟

طبعاً لأنه كان بحاجة إلى اعتراف موسكو بفرنسة الحرة. ولم يَطُلْ هذا الاعتراف أن يهل عليه. إذ بعد أسابيع قليلة تنقل موسكو سفيرها ألكسندر بوغومولوف من فيشي إلى لندن، لكي يصبح ممثل ستالين لدى الجنرال ديغول. وقد طرب ديغول لهذه الخطوة، لدرجة أنه عرض على السفير الجديد أن ينقل فرقتين من المشرق إلى الجبهة الروسية. كيف يستطيع أن ينقل هاتين الفرقتين وأن يجهزهما وأن يدربهما؟ أمر متروك له. غير أنه من خلال ذلك نجح في الضغط على تشرشل أكثر فأكثر. وبعد أسبوع من اللقاء مع السفير السوفياتي، يبعث إليه تشرشل بمن يبلغه أن الجنرال أوكينلك القائد الجديد في الشرق الأوسط، سوف يضم إلى قواته لواءً من الفرنسيين الأحرار في العمليات العسكرية الجارية في برقة (الآن الجماهيرية الليبية). لقد حققت «الورقة الروسية» نجاحها الأول. فالاعتراف السوفياتي دعم من مركز الفرنسيين الأحرار، وزاد من استقلالهم كقوة كبرى أكثر فأكثر ضد البريطانيين، وزاد من قوته السياسية، ومن عدد أتباعه في فرنسة نفسها. وكان موقف ستالين الحار من ديغول متناقضاً بصورة واضحة مع البرودة والعداء اللذين أظهرهما روزفلت والولايات المتحدة تجاهه، مع العلم أن أميركة ـ ومن ثَمَّ رئيسها ـ كانت قد بدأت آنذاك تنحني أمام الوقائع الجديدة الظاهرة أمامها، وتتجاهل عواطفها الحقيقية نحو ديغول.

بعث ديغول برسوله الأمين رينيه بلوفان إلى الولايات المتحدة في مهمة خاصة من أجل الدفاع عن قضية فرنسة الحرة. وقد أمضى الرجل نحو أربعة أشهر بين حزيران/يونيو وتشرين الأول/أكتوبر. لكن روزفلت رفض مقابلته. غير أن واشنطن على الرغم من ذلك قبلت عرض ديغول باستخدام الوسائل البحرية في المقاطعات الإفريقية الفرنسية. وأرسلت الحكومة الأميركية فرقاء اختصاصيين، للتفاوض حول استخدام المطارات عبر إفريقية الفرنسية، من أجل نقل المساعدات الجوية إلى البريطانيين في الشرق الأوسط.

وفي 4 تشرين الأول/أكتوبر منح بلوفان أخيراً مقابلة مع وكيل وزارة الخارجية سمنر ويلز في واشنطن. وكتب إلى ديغول يقول عن اللقاء: إن «ويلز كان بارداً جداً. إن الجميع هنا يعرفون أن ويلز وتلامذته يشعرون بأنهم أكثر دراية بالأمور من حلفائنا الإنكليز بل وحتى منا نحن بشؤون فرنسة».

أمر ديغول وحدة عسكرية من قوات فرنسة الحرة بإعادة احتلال المبنى بالقوة إذا اضطر الأمر، وبالفعل تجنب الفريقان تبادل الرصاص في اللحظة الأخيرة. وفي حادث آخر رفضت الشرطة العسكرية الأوسترالية بكل فظاظة السماح للجنرال كاترو بالدخول إلى مقر القيادة البريطانية. وفي كل مكان كان البريطانيون يتصرفون وكأنهم يريدون إبعاد الفرنسيين الأحرار. وحين تلقى ديغول تقارير من كاترو عن هذه المسائل، شرع في العودة إلى القاهرة التي وصلها بعد يومين في 20 تموز/يوليو. وكان يشرح في الطريق إلى العاصمة المصرية لجميع الحكام والقادة العسكريين الإنكليز «مدى خطورة المسألة» كما كتب في مذكراته فيما بعد.

وهذه المرة يجد ديغول في القاهرة شخصية بريطانية إضافية، إنه أوليفر ليتلتون الذي كان أول وزير تقرر حكومة الحرب إرساله إلى الخارج، لكي تشدد على أهمية المنطقة بالنسبة إليها. وقبل أن يتسنى للوزير الجديد، أن يستحم فعلاً، كان ديغول يمنحه حماماً حاراً من التأنيب. إذ خلال اجتماع استمر ساعتين ونصف بين الرجلين استنكر ديغول «الأساليب الرديئة والمهترئة» التي استخدمها الإنكليز في قيادة الحملة السورية، وانتقد الحكومة البريطانية لأنها تريد إبعاد المشرق عن فرنسة بعكس ما ينص عليه انتداب عصبة الأمم. وهاجم أيضاً حكومة تشرشل، لأنها لم تأخذ بالتوصيات التي بعث بها حول شروط الاستسلام، كما انتقد قرارها بمنع ضباطه من إجراء أي اتصال مع ضباط فيشي المستسلمين. وأوصل الهجوم إلى ذروته بأن سلم ليتلتون بياناً مكتوباً كان أعده من قبل، وينتهي بالكلمات الآتية: «إن فرنسة الحرة، أي فرنسة نفسها، لم تعد مستعدة لأن توكل إلى القيادة العسكرية البريطانية واجب قيادة القوات الفرنسية في الشرق الأوسط. إن الجنرال ديغول ومجلس الدفاع الفرنسي الإمبراطوري سوف يستأنفون قيادة جميع قوات فرنسة الحرة في المشرق ابتداءً من

ظهر الرابع والعشرين من تموز/ يوليو 1941». ولم يعرف ليتلتون المسكين كيف يرد على هذا الشلال المتدفق من الهجمات. وعلى طريقة الإنكليز عاد ببرودة إلى ذاكرته، فلم يجد سوى التعبير الدبلوماسي العتيق: «non venu» وخلاصته أنه حدث لم يسمع ولم يرَ، أي أنه لا يستطيع تقبل الاحتجاج بالطريقة التي قدمه بها ديغول.

وفي اليوم الآتي حدث ما يمكن أن يطري الأجواء قليلاً. فقد علم ليتلتون أن قوات فيشي قد اعتقلت 52 ضابطاً وشحنتهم إلى فرنسة. وعندها أمر فوراً باعتقال الجنرال دنتز وغيره من الضباط الفيشيين، إلى أن يتم إطلاق سراح الضباط الإنكليز. وهذا أرضى ديغول بعض الشيء، ثم وصل الرجلان إلى تسوية بشأن شروط الهدنة، كما سحب ديغول طلبه بسلخ القيادة من أيدي البريطانيين. وفي أثناء ذلك عين الجنرال كاترو مفوضاً سامياً أعلى لشؤون المشرق، لكن يبدو أن الأوان قد فات بالنسبة إلى ديغول في البحث عن جنود إضافيين في وحدات فيشي المتقهقرة، والتي كانت قد تركت المنطقة. وهكذا استطاع كاترو أن يجتذب 127 ضابطاً من قوات فيشي فقط، واختار ستة آلاف جندي البقاء في الشرق الأوسط، والقتال تحت راية ديغول، بينما أبحر 25 ألفاً عائدين إلى فرنسة.

في هذه المرحلة بدا وكأن الأزمة انتهت. غير أن ما يعرف بـ«المشكلة السورية» بين ديغول والإنكليز استمر ناراً تحت الرماد. فقد كان الإنكليز يضغطون عليه، كما يقول كاتب سيرته دون كوك، من أجل الإيفاء بتعهده بإعطاء الاستقلال للدولتين المشرقيتين سورية ولبنان، غير أنه استمر أيضاً معانداً، بأن التعهد لا يمكن تنفيذه قبل نهاية الحرب.

ولا شك في أن المسألة السورية قد أحدثت شرخاً كبيراً بين الفريقين بالنسبة إلى القضية المشتركة والهدف المشترك، إذ بصرف النظر عن الأخطاء التي يمكن أن يكون الإنكليز قد ارتكبوها، فإن تشرشل ومعه بالطبع حكومته، قد شعروا بالكثير من المرارة بسبب التهم التي أطلقها ديغول، وبسبب طريقته في معاملة ليتلتون والتهجم عليه.

بعد المواجهة مع ليتلتون عاد ديغول مجدداً إلى برازافيل في نهاية آب/ أغسطس، ليستعد للذهاب من هناك إلى لندن. لكن عشية سفره إلى العاصمة البريطانية أوصل العلاقات مع بريطانية مجدداً إلى حافة القطع، عندما أجرى حديثاً رسمياً مع مراسل أميركي يدعى جورج ويلر من صحيفة «الدايلي نيوز»، قال فيه:

«إن إنكلترة خائفة من الأسطول الفرنسي. وإن ما تنفذه إنكلترة الآن هو في الواقع صفقة حرب مع هتلر، تقوم فيها حكومة فيشي بدور الوسيط. حكومة فيشي تخدم هتلر بإبقاء الشعب الفرنسي خاضعاً، وبتقديم الإمبراطورية الفرنسية لقمة سائغة لألمانية. لكن لا تنس أن حكومة فيشي تخدم أيضاً إنكلترة بإبقاء الأسطول الفرنسي بعيداً عن أيدي هتلر. إن بريطانية تستغل حكومة فيشي بالطريقة التي تستغلها بها ألمانية.

إن ما يحدث بالفعل هو تبادل منافع بين دولتين عدوتين، بحيث تبقى حكومة فيشي على قيد الحياة، ما دامت بريطانية وألمانية متفقتين على بقائها».

هذه الطريقة في التفسير ازدادت غرابة عندما مضى ديغول يقول للصحافي الأميركي: «إنني لا أنوي إخفاء الحقائق بعد الآن. لقد عرضت على الولايات المتحدة الأميركية حق استخدام مرافئنا الرئيسة في إفريقية التابعة لفرنسة الحرة كقواعد بحرية ضد هتلر. لقد عرضت عليهم ذلك على أساس إيجار طويل المدى، وبالطريقة نفسها التي عرضت فيها بريطانية قواعدها الأطلسية على الولايات المتحدة. غير أنني لم أطلب أي مدمرات بحرية مقابل ذلك».

وصل ديغول إلى لندن في أول شهر أيلول/سبتمبر، وكأنه لم يقل شيئاً، ولم يدل بأي حديث، غير أن الأمر لم يدم طويلاً قبل أن يشعر ببرودة الجو في المدينة. وكان تشرشل قد أبلغ حكومته قبل ذلك قوله: «في ضوء سلوك ديغول المزعج في الأسابيع الأخيرة، فإن على الوزارات في الوقت الحالي أن تتبنى موقفاً حذراً نحو جميع المطالب التي تتقدم بها فرنسة الحرة. وبادئ ذي بدء منع ديغول لدى عودته من أن يلقي خطاباً متفقاً عليه في هيئة الإذاعة البريطانية، لكنه رد على ذلك فوراً بأن منع جميع الفرنسيين الأحرار من الإدلاء بأي شيء عبر تلك الإذاعة. ثم بعث برسالة خطية

إلى تشرشل يقول فيها إنه سوف يكون سعيداً إذا استقبل في 10 داوننغ ستريت. غير أن تشرشل بعث برد بارد يقول فيه «إن الدلائل التي تلقيتها عن موقفك غير الودي نحو الأمة البريطانية قد ملأتني بالدهشة والحزن، ومن الآن وإلى أن تتجمع لدي تفسيرات لذلك فإنني لا أعرف ما إذا كان أي لقاء بيننا سوف يكون مفيداً».

وقد استمر هذا الصراع إلى ما بعد خروج الألمان من المشرق بكثير ولم يكن ثمة شك لدى ديغول بأن بريطانية تتمنى الانتصار لأعدائه وتريد له السقوط «لقد كان البريطانيون، وخصوصاً تشرشل يتمنون أن أصاب باليأس ومن ثم أن يؤدي ذلك إلى سقوطي». وحين عرض عليه الإنكليز نقل التعزيزات الفرنسية إلى المشرق قال ديغول لداف كوبر، الرجل الذي قدم العرض: «إننا نشعر بأمان أكبر في نقل قواتنا بأنفسنا. وفوق ذلك فأنت تعرف أن المحافظة على النظام في المشرق هو أمر موكل إلى الفرنسيين، وإلى الفرنسيين وحدهم، ولا يحق للقيادة البريطانية في الشرق الأوسط أو للحكومة البريطانية أن تتدخل في المسألة».

ويروي ديغول في مذكراته أن السفير البريطاني كوبر اعترض على هذا الاعتراض قائلاً: «إن الجنرال بادجيت يتولى قيادة جميع القوات الحليفة في الشرق الأوسط بما فيها قواتكم».

ورد ديغول: «أجل، لقد وافقنا على ذلك. لكن العدو قد طرد من الشرق الأوسط منذ أكثر من عامين، ومن ثم فإن قواتنا في المشرق لم تعد خاضعة للقيادة البريطانية في أي حال».

واعترض كوبر مجدداً: «إن الوضع في سورية مرتبط بالوضع في العالم العربي كله وهو وضع أعطيت فيه بريطانية المسؤولية العليا».

وأجابه ديغول «في دول المشرق ليست هناك مسؤولية أعلى من مسؤولية فرنسة كدولة انتدابية. وإن سلوكك يدل على أنه على الرغم من التطمينات التي تقدمت بها حكومتك، وعلى الرغم من استدعاء سبيرس إلى لندن، فإن السياسة البريطانية لم تتغير. إنكم ما زلتم تصرون على الوقوف بين فرنسة وبين الدول الواقعة تحت انتدابها، ولذا فإن لنا الحق في الاعتقاد بأن هدفكم هو طردنا».

يقول ديغول إنه أمام ذلك هز المستر كوبر كتفيه ومشى غاضباً!

لكن الخلاف البريطاني ـ الفرنسي حول المنطقة لن ينتهي هنا، إنه سوف يستمر إلى الأبد، إذ بعد ذلك بأسابيع يبعث إليه تشرشل برسالة «تؤكد في أسلوبها ومحتواها» الخط الذي اعتمده مع الفرنسيين الأحرار في السنوات الماضية. فقد أعلن تشرشل مرة أخرى أنه «يعترف بوضع فرنسة الخاص في المشرق»، لكن هذا لا يمنع بريطانية من الاهتمام ببعض الشؤون في المنطقة، انطلاقاً «من التزاماتها وواجباتها». وبما أن تشرشل لم يعد قادراً ـ كما يقول ديغول ـ على التذرع الآن بأخطار هتلر وموسوليني على قناة السويس، «فقد تذرع هذه المرة بالحرب مع اليابان»، لذا طلب من ديغول التوقف عن إرسال الإمدادات العسكرية إلى القواعد الفرنسية في المنطقة، وإعادة القوات «الخاصة» إلى حكومتي دمشق وبيروت، «راجياً العمل على ذلك بسرعة لتجنب أي محنة تضاف إلى الصعوبات التي نمر بها».

لماذا طلب تشرشل ذلك أيها الجنرال ديغول؟

«لم أخدع نفسي لحظة واحدة في شأن ما طلب. فإذا كان المستر تشرشل يؤنبني بسبب إرسال تعزيزات من 2500 جندي فرنسي، إلى منطقة يتمركز فيها 60 ألف جندي بريطاني، سينضم إليهم قريباً 15 ألف جندي آخر، ومعهم 2000 طائرة مقاتلة، فذلك لأن الإنكليز كانوا على وشك إثارة فوضى كبرى.

وفي ردي على رئيس الوزراء شعرت أنه من الحكمة أن أشير إلى المسؤولية التي تتحملها بريطانية في تدخلها في شؤوننا، وإنها بذلك تضع عقبة كبرى في وجه أي اتفاق بين باريس ولندن. ولذا كتبت إليه أقول إننا اعترفنا باستقلال دول المشرق، كما فعلتم في مصر والعراق، وإننا نحاول فقط أن نؤلف بين هذه الأنظمة وبين مصالحنا في المنطقة. وهذه المصالح ذات طابع ثقافي واقتصادي. وهي أيضاً ذات طابع إستراتيجي... إننا مثلكم مهتمون بخطوط اتصالات مع الشرق الأقصى، ومهتمون أيضاً بأن تكون لنا سيطرة مستقلة على حصتنا في نفط العراق».

ثم يكشف ديغول عن مرارته من الحركة الاستقلالية في سورية ولبنان فيمضي قائلاً: «أعتقد أن هذه المسألة ما كانت لتثار، لولا أن حكومتي دمشق وبيروت لم تشعرا بأن

بإمكانهما الاعتماد عليكم من أجل التحرر من أي التزام. إن وجود «قواتكم، ونصيحة عملائكم يشجعانهما في هذا الموقف السلبي المؤسف. ويجب أن أبلغكم بأن دخول قوات بريطانية جديدة من فلسطين إلى لبنان هو أمر يدعو للأسف الشديد...».

لكن الأمور لم تسر كما شاء لها قائد فرنسة الحرة. بل إن «محنة جديدة بدأت بعد يومين فقط من هذه الرسالة، في 8 أيار/ مايو خلال احتفالات النصر في بيروت. فقد مرت في شوارع المدينة كتيبة من الجنود العرب الملحقين بالقوات البريطانية في فلسطين، وأخذت تطلق الإهانات لفرنسة. وبعد ذلك وقعت حوادث عدة ضد القوات الفرنسية في سورية، من دون أن تتدخل الشرطة لمنعها (...)، وبما أن القيادة البريطانية استمرت في تزويد الشرطة بالسلاح من دون موافقتنا، فقد أصبحت لدى السيد شكري القوتلي وحكومته قوة من 10 آلاف شرطي، وتحت تصرفها أحدث الأسلحة».

هذه القوة استخدمت أيضاً ضد الفرنسيين. وفي إثارة أعمال «الشغب». ويتساوى هنا ديغول مع أي محتل آخر. كل عمل استقلالي هو عمل «ضد» فرنسة. وكل حركة وطنية هي شغب واضطرابات، ولذلك سوف يؤرخ في الكثير من المرارة والأسى تلك المقدمات لاستقلال سورية، وسوف يرى طبعاً ظل بريطانية في كل مكان: «لقد هاجمت وحدات من الشرطة والمتظاهرين مراكزنا في كل مكان، مسلحة بالقنابل البريطانية الصنع».

لم يكن ديغول يقبل من الإنكليز حتى الوقوف على الحياد، «خلال ثلاثة أسابيع من التظاهرات لم يحرك الإنكليز ساكناً. ففي القاهرة ظل السير إدوارد غريغ، وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط، صامتاً وكذلك القائد الأعلى الجنرال بادجيت. وفي المشرق لم يقم الجنرال بيلو، قائد الجيش البريطاني التاسع بأي خطوة لتحريك القوات الكثيرة الموجودة تحت إمرته في المنطقة. وفي لندن نفسها ساد الصمت».

استمرت التظاهرات في دمشق ومدن سورية الأخرى، وظل ديغول يرى الشبح البريطاني، بل إن حكومة تشرشل استدعت سفيره في لندن، وحذرته من أن بريطانية لن تقف طويلاً مكتوفة اليدين تجاه ما يجري في سورية. والرجل الذي وجه التحذير كان أنطوني إيدن بالذات، الذي سوف يقوم في العام 1956 بالعدوان على السويس ومعه فرنسة!

ويروي ديغول أنه بعد ما توصلت فرنسة إلى وقف إطلاق النار في دمشق عاد تشرشل فوجه تهديداً آخر، «لكي يصور نفسه حامي العرب، وأملاً في أن تحدث هذه الصدمة هزيمة سياسية داخل فرنسة وربما سقوط ديغول».

إذاً، يقول ديغول، الإنذار البريطاني وجه بعدما أوقف الفرنسيون إطلاق النار في دمشق، وثانياً فإن أنطوني إيدن قرأ على مجلس العموم رسالة قال إن تشرشل بعث بها إلى ديغول، في حين أن الرسالة لم تكن قد وصلت إليه، إلا أن حملة «الإذلال» البريطانية للفرنسيين لم تتوقف هنا!

«ذلك النهار أيضاً جاء الجنرال بادجيت إلى بيروت، وسلم إنذاراً إلى الجنرال (الفرنسي) بينه. وقد أطلق الإنكليزي على نفسه في هذه الوثيقة لقب «القائد الأعلى في مسرح عمليات الشرق الأوسط»، مع العلم أنه على مساحة 10 آلاف ميل مربع لم يعد هناك جندي عدو واحد في كل هذا «المسرح». وقد أعلن أنه تلقى تعليمات من حكومته بأن يتولى القيادة العليا في سورية ولبنان، ومن ثم فهو يأمر السلطات الفرنسية «بأن تنفذ من دون أي معارضة»، أي أوامر يصدرها إليها.

وكان أول الأوامر أن توقف قواتنا القتال، وتنسحب إلى ثكناتها.

«وقد استخدم الجنرال بادجيت لمناسبة زيارته عرضاً عسكرياً استفزازياً إلى أقصى الحدود. فقد رافقت طائرته إلى بيروت أسرابٌ مقاتلة عدة، وتقدمه من المطار إلى مقر المندوب الفرنسي طابور من الدبابات، وسيل من السيارات المقاتلة، أقلت جنوداً كانوا يرفعون السلاح في وجه قواتنا لدى المرور بها.

«ولقد أبلغ الجنرال بينه الجنرال بادجيت أنه فيما يتعلق بالأوامر فإنه لا يتلقى أوامره إلا من الجنرال ديغول وحكومته. وقال له إنه قد أصدر أمراً بوقف إطلاق النار وفقاً لتعليمات تلقاها مني. وزاد: إن قواتنا في الوقت الحاضر سوف تبقى حيث هي، أما بالنسبة إلى القوات البريطانية فبإمكانها أن تذهب وتأتي حيث تشاء...

«وبالفعل سحب الجنرال بادجيت قواته في هدوء ومضى...».

لكن الستار لم يسدل طبعاً على ذلك النزاع التاريخي بين لندن وباريس أو بين ديغول والإنكليز.

الماريشال لايوتيه المغربي:
الحظ يطفئ النيران

من غرائب الصدف ـ أو ربما ليس من غرائبها ـ أن عهد العسكريين الفرنسيين بوصفهم مفوضين سياسيين في الخارج انتهى في المغرب في أواخر الخمسينيات. لقد قررت الجمهورية الخامسة يومها، أن الروح الاستعمارية قد انتهت في العالم، ومعها انتهى أيضاً دور البزّات العسكرية لدى الآخرين.

وفي المغرب أيضاً - في المغرب العربي عموماً - كان العسكريون قد بدؤوا منذ أواخر القرن الماضي، ذلك الدور العسكري ـ السياسي، الذي أوكلته إليهم تلك الجمهورية التي ورثت إمبراطورية، التي ورثت مملكة. ولعل أبرز الأسماء في حقبة ما بين الحربين، أي الحقبة التي يغطيها هذا الكتاب كان الماريشال لايوتيه.

إنه - أيضاً - كما قالت الأميرة مارتا بيبسكو ذات يوم: «الملكي الذي أعطى إمبراطورية للجمهورية». وهو أيضاً مرحلة انتقالية من القرن الماضي إلى النصف الأول من هذا القرن. وهو أيضاً من العسكريين الذين بنوا مجدهم السياسي في المغرب العربي، في المرحلة التي كان فيها غورو وكاترو وويغان وساراي يرسمون الدوائر السياسية على صفحة المشرق.

شيء آخر لا بد من الإشارة إليه قبل الدخول في سيرة لايوتيه: هو أيضاً، مثل ماريشالات وجنرالات فرنسة الآخرين، أدى خدمته العسكرية في ذلك الأتون المعروف باسم الهند الصينية. بل إنه من هناك جاء إلى الجزائر.

كانت الحرب بين الفرنسيين وأهل المغرب قد بدأت قبل زمن طويل. وفي العام 1880 في أعقاب ثورة «بو عمامة»، احتل العسكر الفرنسي منطقة «عين صفراء» الجبلية في الجزائر، وجعلوا منها مركزاً عسكرياً. وقد لجأ بو عمامة إلى المغرب، حيث ظل يحرض من هناك على الجهاد المقدس. وعبثاً حاول الفرنسيون بناء التحصينات في

وجه المقاتلين. وهكذا قررت حكومة فرنسة أن تحتل الواحة التي يأخذ المقاتلون منها المؤن، وعقدت من أجل ذلك «معاهدة مع حكومة المغرب».

لكن الأمور ازدادت سوءاً بالطبع. ما إن وصل حاكم الجزائر العام المسيو جونارت في العام 1903 حتى فقد 25 رجلاً من مرافقيه في كمين هائل. وهكذا فكر جونارت بأن يطلب المساعدة من ضابط كانت له الخبرة في قمع الحركات في الصين! اتصل بالكولونيل ـ آنذاك ـ لايوتيه واجتمع إليه، لكن لايوتيه تساءل: هل يجوز تعميم الأشياء؟ هل الأشياء في الصين مثلها على الحدود المغربية ـ الجزائرية؟

لم يتردد جونارت. نعم! وبعد ذلك بأسابيع تعرضت فرنسة لهزة هائلة جديدة. ففي 17 آب/ أغسطس1903 اقتحمت قوة من أربعة آلاف مقاتل المركز العسكري الفرنسي في «تاغيت»، ثم تلاها بعد أسابيع هجوم كبير آخر. وفي غضون ذلك كان الجنرال أندريه وزير الحربية يحضر في باريس مناورات لرشاشات جديدة، سوف تستخدم في جنوب وهران. وكان معه أيضاً المسيو جونارت. وفي نهاية المناورة التفت جونارت إلى الجنرال أندريه وقال: «إنني بحاجة إلى قائد كفء هناك، وإني أعرف واحداً».

قرأ الكولونيل لايوتيه في الصحف عن منصبه الجديد. وقد التقى أحد الجنرالات الذين كانوا سابقاً في عين صفرا فقال له «هل تعرف يا صديقي المسكين ماذا ينتظرك في عين صفرا؟ إنها الجحيم عينه. إنك لن تستطيع شيئاً، لكنك سوف تُعد دائماً مسؤولاً. إنني أشفق عليك».

بعد رحلة طويلة وصل إلى عين صفرا «عاصمة وهران»، (الآن عنابه) الصحراوية، تسترخي وحيدة معزولة في واد من الرمال، بين تلك المرتفعات الرتيبة، وبين الأتون الصحراوي إلى الجنوب، إنها «مدينة صغيرة صحراوية جداً، عند سفح تلة ذهبية اللون، ترتفع فيها المآذن المقدسة، وتكثر فيها الحدائق الزرقاء الداكنة». بعد ذلك، الصحراء.

لكن في هذه الصحراء سوف يجد لايوتيه، الذي رقي إلى رتبة جنرال، سعادته! إن بعض الناس لا يستطيعون أن يعيشوا إلا حيث يهلك الآخرون. وقد كان لايوتيه

سعيداً في الصحراء كما كان سعيداً من قبل في غابات تونكين وأحراجها. والسبب أنه وحيد وسيد المكان. فقد كان جونارت، الرجل الوحيد الأرفع رتبة منه، بعيداً في مدينة الجزائر، بينما كان هو يملك وحيداً هذه المجموعة من الواحات والجرود الصحراوية. وسرعان ما عرف نقاط الضعف عند العرب، وكيف يحاول استمالتهم، «إنهم أناس فخورون بأجدادهم، يحبون النبلاء» ولذا فقد دهشوا عندما عرفوا «أن السيف الذي أحمله ورثته عن جدي الذي كان جنرالاً في جيش نابوليون».

ويقول لايوتيه إن هذا الأمر ساعده أيضاً عندما نقل إلى المغرب حاكماً عاماً فيما بعد، «فقد كان العرب يعجبون كثيراً بهذا الفارس الذي يرتدي عباءة سوداء مقصبة بالذهب كلما قام بزيارة السلطان».

وكان لايوتيه، بالنسبة إلى المنطق الفرنسي، رجلاً واقعياً يعيش في الحاضر. فقد جاء إلى المغرب ومعه بضعة مبادئ عامة، تكونت لديه في الهند الصينية وفي جنوب وهران، لكنه أيضاً كان مستعداً لأن يرمي هذه المبادئ بعيداً إذا ما تعارضت مع الوقائع المستجدة. وكان يردد دائماً: إن «الإنسان يحكم الطبيعة فقط بإطاعتها». وعلى الرغم من خلفيته السياسية والعسكرية والعائلية، فقد كان يجعل من الماضي «فقط أمثولة لما هو الآن».

بهذه القناعات انتقل من عين صفرا لكي يصبح حاكماً عاماً على شرق المغرب. وفي هذه الأثناء حدث أمران بالنسبة إليه: الأول: أنه تزوج من أرملة كولونيل آخر، والثاني: أن طلائع الحرب العالمية الأولى بدأت في الظهور، وفي 11 تموز/ يوليو رمت السفينة الحربية «بانزر» مرساتها في أغادير، كتحدٍ للسلطة الفرنسية على المغرب، لقد كان الصراع الألماني ـ الفرنسي على المغرب، يشبه إلى حد بعيد الصراع الفرنسي ـ البريطاني في سورية ولبنان، ولكن المسألة ما لبثت أن حسمت مؤقتاً عندما استطاعت فرنسة أن توقع معاهدة حماية السلطان.

إلا أنه فيما كان الفريقان يحتفلان بالمعاهدة، اندلعت في مدينة فاس حركة تمرد واسعة، وارتد الجنود المغاربة الذين كانوا يعرفون «بالطابور» ضد مدربيهم الفرنسيين،

فقطعوا رؤوسهم، ثم راحوا ينهبون المدينة مخزناً مخزناً. واشتد الأمر على السلطان عندما لجأ نحو 10 آلاف يهودي إلى قصره. وقام رأي يقول بقصف فاس، ورأي آخر بمهادنتها. وفي باريس عقد رئيس الحكومة ريمون بواريه اجتماعاً مع وزير الحربية ميللرنان وبقية الوزراء، قطعه كالعادة غداء فخم. واقترح البعض عدم إرسال جنرال إلى المغرب ليكون مقيماً عاماً هناك، وكان الرئيس فالبير من هذا الرأي، لكن فريقاً آخر تذرع بتردي الأوضاع في فاس، فاستسلم فالبير للنقاش، معلناً أنه اختار لايوتيه للمهمة.

استقل لايوتيه الباخرة إلى الجزائر من جديد، لكي يجتمع من هناك إلى المسؤولين الذين خلفوه. وكان عليه في أي حال أن يعمل بالتنسيق معهم، لأن جزءاً من مملكته، شرق المغرب، تفصله عن مدينة فاس مقاطعة «تازه»، التي لم يستطع الفرنسيون إخضاعها، ومن ثم لا يمكن الوصول إليها إلا من الأراضي الجزائرية.

من هناك اتجه لايوتيه إلى الدار البيضاء، حيث جمعته الصدف التاريخية بجنرال آخر من جنرالات الشرق، لكنه كان لا يزال آنذاك برتبة كولونيل: غورو!

وسأله لايوتيه فوراً: ماذا تفعل هنا؟

- «لا شيء، سيدي الجنرال. لقد وصلت إلى هنا مع كتيبة استعمارية، لكي نحل محل القناصة. وها أنا أنتظر المزيد من الأوامر».

وردَّ لايويته فوراً: «من الآن فصاعداً سوف تكون معي، وسوف تكون مسؤولاً عن فرقة الحرس، وإنني أترك لك أن تضع كل الترتيبات لحملتي على فاس». ومن هناك انطلق الاثنان، على الخيل، إلى الرباط.

وعلى أبواب المدينة التقى باثنين من الفرنسيين القادمين من فاس، فأعطياه لوحة عما يجري في المدينة، وأبلغاه أن القبائل التي سمعت بما جرى تنزل من الجبال واحدة بعد الأخرى! في هذه الأثناء خطرت له فكرة الحصار.

وخلال يومين وصلت قافلة المقيم العام إلى مكناس. وجاء إليه بعض الضباط يعتذرون، لأنهم لم يطلقوا مدافع التحية: «إن المدينة هائجة ولا نستطيع أن نخسر قذيفة واحدة، والثورة العامة في البلاد قد تبدأ بين لحظة وأخرى».

على بعد ساعتين من فاس جاء إليه ضابط الاستخبارات في المدينة القومندان دو لاموشار، وسأله لايوتيه:

- كيف الأمور هناك؟

- على أسوأ ما يمكن أن تكون، ولو أنك تأخرت إلى غد لما كان باستطاعتك أن تدخل المدينة. كل القبائل تنزل إليها، ولا شك في أننا سوف نحاصر. إن الضباط هنا يسبحون في بحر التفاؤل، لكن من جهتي فأنا أخشى الأسوأ.

وبعد ذلك بساعة رأى الموكب عاصفة من الغبار. وكان ذلك الجنرال موانييه.

وقال لايوتيه: صباح الخير يا موانييه. لقد سمعت أن الأمور ليست على ما يرام.

وأجاب موانييه متعجباً:

- ليست على ما يرام؟ من قال ذلك؟ إنني طبعاً سعيد بمجيئك، لكن من الناحية العسكرية تمت تسوية كل شيء.

وسرعان ما بدت لهم قباب المدينة وأسوارها. وكان بين المستقبلين المسيو ريغينو، المقيم السابق. ولم يضع لايوتيه الكثير من الوقت، بل راح يعلق أوسمته استعداداً لمقابلة السلطان، وتقدم منه أحد ضباطه القدامى، الجنرال بورلار وقال له: «لقد فات الأوان يا سيدي الجنرال، فلو أنك جئت إلى هنا قبل أسبوع لكانت أساليبك الذكية قد نفعت... أما الآن فقد فات الأوان».

قال بورلار ذلك ثم أجهش بالبكاء، لكن لايوتيه اعتمر القبعة الإمبريالية، وخرج وسط أصوات الرصاص التي تسمع من بعيد! وسأل غورو أحد المرافقين ما هي هذه الأصوات فقال هذا: «لا شيء إنهم يسرقون بعض المشمش».

أقامت الجالية الفرنسية في تلك الليلة حفلة راقصة تكريماً للمقيم العام الجديد. ونحو منتصف الليل سمعت أصوات رصاص في الحديقة، فالتفت غورو إلى ذلك الرجل وقال: «هل هم لصوص المشمش من جديد؟»

لقد كان الهجوم على وشك أن يبدأ، وها هو الجيش الفرنسي المستعمر يجد نفسه محاصراً في مدينة من الأزقة الضيقة ونحو 90 ألف نسمة. وكان من الغباء العسكري طبعاً أن يخوض العسكريون القتال داخل المدينة، بل كان عليهم أن يخرجوا منها ثم يرتدوا إلى الدفاع. لكن كيف؟ لقد كان في قلب المدينة أيضاً مستشفى عسكري مليء بالمرضى، كذلك كان لايوتيه يخشى أن يقدم أحد على فتح أبواب السجون، أما المصدر الأكبر للخوف فكان من الثكنات العسكرية المليئة بالقوات التابعة للسلطان.

فوق هذا وذاك، كان هناك نحو 4 آلاف فرنسي في مدينة من 90 ألف فاسي.

لكن لايوتيه قرر ألا ييأس من «أسلوبه». وتحت دوي الرصاص دعا إلى اجتماع للعلماء والشرفاء، وقال أهل فاس إنهم أيضاً مع السلام، فهم التجار الذين يملكون المخازن التي تنهب، ولكن أي سلام؟ لقد فات الأوان.

وأخذت الثورة تشتعل. وكان باستطاعة المقيم العام أن يشاهد من شرفته كيف تتم محاصرة الكتائب الفرنسية الواحدة بعد الأخرى، لترغم بعدها على الانسحاب. وقرر لايوتيه أن المستشفى هو نقطة الدفاع الأخيرة، فأمر بالدفاع عنها، وبإحراق مقر المقيم العام لدى إخلائه. ودخل لايوتيه ليتناول طعام العشاء مع ضباطه. لقد عرف أن كل شيء قد انتهى. وتطلع إلى أحد ضباطه الذي يقرأ الشعر وقال:

- اقرأ علينا يا دروان شيئاً من شعرك، وشيئاً من شعر «فينيي»! وفيما راح دروان يقرأ الشعر، دخل عليهم المقيم السابق: ريغينو: طاب مساؤكم أيها السادة!

لكن لايوتيه عرف أنه جاء للاختلاء، به فقام عن الطاولة. وعندما أغلقا باب الغرفة المجاورة قال ريغينو: إن الحالة خطيرة جداً، أليس كذلك؟ ثم عاد هذا الديبلوماسي إلى الابتسام كأن شيئاً لم يكن، أما لايوتيه الذي كان قد مضى عليه يومان دون نوم فاستأذن لكي يدخل إلى فراشه، ولو لساعة واحدة.

لكنه عندما استيقظ، وجد أن الشمس قد طلعت. واكتشف أن التعب جعله ينام عشر ساعات متواصلة، غير أنه ذهل عندما سمع الهدوء يلف المدينة. واستدعى ضباطه على الفور، فشرحوا له أن «معجزة» قد حصلت. ذلك أن انسحاب الفرنسيين

من المدينة مكّن المدفعية من قصف المقاتلين. واستطاع كولونيل يعرف المدينة جيداً ويدعى مازيليه أن يتسلل إلى شمال المدينة، ويقصف المقاتلين من هناك. لكن هذه لم تكن طبعاً نهاية كل شيء. وعندما أمكن التجول في المدينة في الصباح، تبين أن ضابطاً وأربعين من رجاله قتلوا في موقع واحد.

على أي حال، كان لا بد من جبهتين بالنسبة إلى لايوتيه: الأولى سياسية، والثانية عسكرية. وقد أوكل الجانب السياسي إلى غورو، فعمد هذا إلى الدوران مع بعض الرجال حول المدينة، وألهى بذلك المقاتلين، الأمر الذي سمح للحامية بتلقي بعض المؤن والبريد. وقد كتب لايوتيه إلى صديقه الكابتن دو مون يشرح له ما حدث، فقال: إن السبب الرئيس كان استعباد عدد كبير من العمال، وتسخير عدد آخر، ولاحظ أن الطبقة الوسطى في فاس كانت متضررة هي أيضاً، ثم يضيف: «لكن السلطات العسكرية لم تر شيئاً من هذا، فقد عاملت الجميع سواسية. وهناك عائلات معروفة شعرت بأنها مهملة ومهانة، فأخذت تهاجر إلى طنجة بعيداً عن دوافع الألم هنا».

في تلك الرسالة أيضاً نرى سطراً غير مألوف إطلاقاً، حين يعدد لايوتيه المساعدات التي تلقاها من ضباطه ومن بعض الفئات... «وأيضاً من القنصلية الفرنسية التي قدمت إليّ مساعدات وإخلاصاً جماً. لقد جهلت السلطات العسكرية أيضاً هذا المصدر الأساسي للمعلومات! وإنني أجتمع كل يوم إلى وجهاء المدينة، وأصغي إلى شكاويهم، وغالباً ما أقرهم على ما يقولون. والحقيقة أنني من خلال هؤلاء فقط بدأت أستطيع إقامة بعض العلاقات مع القبائل، وبفضل هؤلاء توافر لغورو الآن بعض الوطنيين الذين يرافقون الطابور الذي يقوده».

غير أن فاس ليست المغرب كله، يقر لايوتيه. ويتذمر من أن الرحلة إلى الدار البيضاء تستغرق أسبوعاً كاملاً، في حين أن هناك زعماء كثيرين لا بد من مقابلتهم: الجلاوي، وسي عيسى بن عمر، ومتوغوي وغيرهم.

ثمة مشكلة رئيسة أخرى أمام لايوتيه: السلطان مولاي حافظ! فقد كان الجنرال يعتمد على هيبة السلطان لتهدئة خواطر الثوار. لكن مولاي حافظ كان يريد الاستقالة.

فقد كان رجلاً ذكياً، ويعرف أنه في موقع متناقض تماماً. في الحقيقة إنه وصل إلى السلطة كرمز للمقاومة ضد الأوروبيين، ولذا كان صعباً عليه الإقرار بأنه سلطان لمحمية. وقد شعر السلطان بالقلق من حركات التمرد في الأشهر الماضية، كما أنه كان يخشى أن يقتل على يد الجنرال موانييه. والآن لم يكن يريد شيئاً سوى التقاعد. خذوا السلطة وأعطوني التقاعد. ولكي يقبل بتوقيع معاهدة الحماية اشترط قبل كل شيء أن يسمح له بالانتقال من فاس إلى الرباط. أما الناس فلم يروا في هذا التصرف سوى رضوخ الفرنسيين واستسلامهم. «إنه أسيرهم». هكذا سرت الشائعة.

إلى ذلك، كان السلطان يعرف الوضع الدولي تماماً، كما كان يعرف متاعب فرنسة الداخلية. لديه جهاز إعلامي كفءٌ يترجم له كل يوم صحيفتي «لو ماتان» و«لو تون».

وعشية مغادرته قال له لايوتيه: «سوف نطلعك على التطورات برقياً»، فرد السلطان عن طريق مترجمه: «إن جلالته يبلغك امتنانه، لكنه يفضل أن يتلقى الأنباء من طريق وكالة هافاس».

في باريس كانت الكي دورسيه ترتعد من تخلي السلطان عن العرش... ليس من أجله طبعاً، لأن عدداً من الدول الأوروبية لم يكن قد اعترف بالمحمية بعد، غير أن لايوتيه كان قد هلك من محاولات الإقناع، وكان يعرف أن قرار السلطان نهائي! إذاً، المشكلة المقبلة هي موضوع الخلافة، فقد كان السلطان يريد الخلافة لأحد من أبنائه، لكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب صغر سنهم، ومن ثم الخوف من أن يسيطر «الوزير الأول» على الحاكم الصغير. وهكذا التفت إلى شقيقه، عبد العزيز الذي كان آنذاك في طنجة، ومولاي يوسف الذي كان في السابق حاكماً على فاس. ومع أن مولاي يوسف كان محترماً من الجميع، فإن المأخذ عليه كان «ضعفه» في مواجهة القبائل، غير أن الاختيار وقع عليه.

لحظة اتخاذ القرار أراد الفرنسيون أن يغادر السلطان البلاد على الفور، لكن الرجل الصلب أراد شيئاً آخر: أن يبقى في البلاد، ثم أن يؤدي فريضة الحج إلى مكة المكرمة، ويعود بعدها إلى الرباط! وفي محاولة لإقناعه أقام له لايوتيه في العاشر من

آب/أغسطس مأدبة عشاء حافلة جداً. وتلك الليلة قال السلطان للجنرال إن فرنسة أخطأت حين طلبت توقيع معاهدة محمية مع المغرب، فالإنكليز في مصر لم يتفوهوا بمثل هذه الكلمة، مع أنهم يمارسون «الحماية»، وكتب لايوتيه فيما بعد يقول إن الرجل كان في منتهى الذكاء والحنكة.

في اليوم الثاني تعمد السلطان أن يدمر أعصاب الفرنسيين وأعصاب وزرائه المستعجلين على ذهابه. وبين القصر والميناء تردد غير مرة ثم أقدم. وفي نهاية الأمر عندما صعد إلى سلم البارجة «دو شايلا»، أعطى رسالة التخلي إلى وزيره الأول... فكاد لايوتيه ينهار من الانفراج!

وتسلم الوزير الأول مولاي حافظ المقري الرسالة، وقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وله وحده المجد. فلتحل بركة الله على الرسول وسلالته، إلى خادمنا الحبيب ومستشارنا الأفضل الوزير الأول الحاج محمد المقري كان الله معه...».

منها ينتقل السلطان إلى تعليل الاستقالة بالأسباب المحلية: «لقد اخترنا أن نترك العرش والصولجان لأسباب تتعلق بصحتنا الجسمانية... وإنني أدعو للمسلمين أن يختار الله لهم حاكماً يكون ذا فائدة لهم».

ووجه السلطان إلى لايوتيه الرسالة الآتية:

«المجد له تعالى وحده. لا إمبراطورية دائمة سوى إمبراطوريته، إننا نتسقط دائماً أخبارك ونأمل أن تظل بصحة طيبة.

إننا نحب أن نعلن لفخامتكم أن جلالتنا الشريفية راضية في القلب، ومرتاحة في البال، وإنه من دواعي سرور جلالتنا، أن فخامتكم تستحقون الإطراء، لما لقيناه منكم أخيراً من ود وكياسة، مما يحملنا على شكركم الآن ودائماً (...)، وإذا كان الشعب قد اختار شقيقنا مولاي يوسف لأن يتسلم دفة القيادة، فلا مانع لدينا.

إنا نأمل أن يختار الله تعالى رجلاً يجمع في قلبه الخير للمنتخبين ولعامة الناس معاً!».

مرحلة جديدة تبدأ في صيف العام 1912: جديدة في تاريخ المغرب وفي حياة لايوتيه أيضاً.

فالسلطان الجديد، مولاي يوسف، لم يكن معروفاً كثيراً في أنحاء البلاد، ومن ثم كان محدود السلطة، فيما كانت تقوم في الجنوب ثورة أخرى ضد الفرنسيين، لقد كانت مأساة لايوتيه في الرباط «مثل قبطان يعطى قيادة سفينة غارقة».

على أي حال لم يكن حول ذلك القبطان سوى قلة من الرجال. لم يكن هناك مدير لشؤون المال، لم يكن هناك مدير للأشغال العامة، وكان مقر المقيم العام، الذي هو القنصلية الألمانية السابقة، رمزاً لحالة المسكنة الفرنسية آنذاك. وعندما أقام ذات مساء حفلة لتكريم الرئيس الجديد لمحكمة التمييز، هبت عاصفة اقتلعت الخيمة الإضافية التي أقامها، وأرغمت الناس على العودة إلى بيوتهم فوق البغال.

لكن لايوتيه، بديبلوماسيته لا بعسكريته، سوف يغير الكثير خلال عامين. وعندما أعلنت الحرب في العام 1914 كان مطمئناً لدرجة أنه استطاع أن يرسل معظم قواته إلى القتال، من دون أن يخشى خسارة المغرب.

غير أن هذا «الانتصار» لم يكن على المغربيين وحدهم، بل على الغريم الآخر، باريس، فقد كانت الكي دورسيه العدو الأول لكل مقيم عام. وكان لايوتيه بالذات يحلم منذ طفولته بأن يكون حاكماً مطلقاً في أي مكان. وها هو الآن في الرباط، يخاطب الرباط «من فوق»، من خلال السلطان. وهكذا ظلت الأمور بالنسبة إليه من العام 1913 إلى العام 1925، رجلٌ يخلط بين الديكتاتورية والديبلوماسية، بين الإنجاز والتعسف، بين الاستعمار والبناء.

لكن لعل أكثر صفاته أهمية كانت طاقته على العمل. طاقة طاغية قتلت كل شيء فيه، حتى الحاجة إلى النوم. ويتحدث أحد ضباطه في مذكراته عن يوم رهيب في المغرب، ترأس لايوتيه خلاله مجلس الحرب، ثم مجالس الوجهاء، قطع مئات الكيلومترات يجتمع إلى القبائل. ثم عاد يملي البرقيات إلى باريس حتى الثانية صباحاً، وأخيراً، في نهاية ذلك الليل، القصير، نادى لايوتيه الضابط المسكين، فهرع هذا إليه مسرعاً: ما الخطب يا سيدي الجنرال؟

الخطب؟ أجاب لايوتيه: ألا ترى أنني مصاب بالضجر؟!

هذا الرجل يحفظ له الفرنسيون أيضاً أنه بعد ثلاثة عشر عاماً من الحكم المطلق في بلد بعيد، عاد إلى بلاده وهو أكثر فقراً مما كان يوم غادرها. وثمة قيم كثيرة حاول أن يمارسها. وغالباً ما كان يتفقد الرباط أو فاس في الليل وهو على جواد، لا يرافقه سوى مترجم، يسأل الناس والتجار عن أحوالهم. وكان يحاول دائماً ـ كما تقول الرواية الفرنسية على الأقل ـ ألا يغذي الانطباع بأنه في بلد مستعمر، فكان يظهر كل احترام للدين الإسلامي وللمؤسسات والقادة والباشاوات. وقد حفظ جيداً ما قاله له القنصل غايار: «عندما أخاطب فلاحاً مغربياً، فإنني أخاطبه مثل فلاح فرنسي، وعندما أخاطب بورجوازياً مغربياً، فإنني أخاطبه مثل بورجوازي فرنسي».

وبقدر ما كان يطمح إلى فرض الثقافة الفرنسية على المملكة، حاول أيضاً أن يحترم كل تقليد وتراث، وخصوصاً في الهندسة المعمارية. وكان شعاره الدائم «إن العنصرين الأساسيين في كل مستعمرة هما: حرية التجارة، وغياب الشرطة».

ويروي غليوم دو تاردي كيف كشف لايوتيه مرة عن عواطفه تجاه باريس: «كان يقوم في أحد الأيام بزيارة مركز فرنسي صغير. وقد أعجب كثيراً بذكاء الشاب الدليل الذي كان يرافقه. ونظر لايوتيه إلى مساعده وقال: إنه لشاب ممتاز. يجب أن نعينه مراقباً مالياً! فرد المساعد: مستحيل سيدي الجنرال، إنه يافع جداً ولا خبرة له، وأنت تعرف القوانين! وانفجر الجنرال قائلاً: إذاً، يجب أن تترك هذه الطاقة المتحركة تدفن في مركز صغير. يا للسخف. كأنما لدينا رجال كثيرون. ومن أين تأتي هذه القوانين؟ من باريس طبعاً! لكن ما قد يصح بالنسبة إلى باريس والوزراء النائمين نحتقره، نحن هنا حيث يجب أن نبتدع كل شيء. إني لا أعرف كيف تؤمن بذلك، لكن هذا الشاب يجب أن يعين مراقباً على الفور».

كان لايوتيه يتقدم وكذلك كانت الحرب. وعندما ساءت الأمور بالنسبة إلى باريس أخذت هذه تبحث عن وزير جديد للحربية، وصدر مقال في صحيفة «الصامد» يقول: إن اثنين من الفرنسيين على الأقل قد أثبتا مهارة في التنظيم: إدوار هريو رئيس بلدية

ليون، ولايوتيه في المغرب. وكان هذا رأي الحكومة أيضاً، التي أبرقت إلى لايوتيه في هذا الوقت تستدعيه.

غير أن الأمور في المغرب كانت أيضاً تتخذ منحىً جديداً. فقد استغل الألمان حركة التمرد في الجنوب، وأنزلوا بعض الغواصات على الأطلسي. وعندما تلقى هو برقية الكي دورسيه كان قد أرسل بدوره برقية تقول: «إن الوضع في المغرب خطر». وتحدث عن احتمالين، الأول: أن يقصف الألمان الدار البيضاء والرباط «في أي وقت الآن، وقد يترك ذلك آثاراً سيئة في الوضع الداخلي». والاحتمال الثاني: أن يعمد الألمان إلى إنزال قواتهم في مقاطعة قائد الحركة (الهبا)، والتحريض على حملة ضد الفرنسيين تبدأ في الجنوب.

في ضوء ذلك، بماذا يرد لايوتيه على البرقية الآتية من الحكومة؟ لا شك في أن العرض مغرٍ. وقد كان يطمح منذ زمن أن يؤدي دوراً مهماً في تاريخ فرنسة. لكن هل هذا الوقت المناسب لعودته؟ هل يستطيع أن يفرض إرادته على الائتلاف الحاكم، أو أن يحقق الانتصار المنشود، وقد انهارت جبهة الشرق بسقوط رومانية واليونان؟ وهكذا، أبرق إلى حكومته يبلغها أنه تحت تصرفها، لكن يجب أن تدرس قرارها في ضوء الوضع في المغرب. وردت الخارجية ببرقية صباح اليوم الثاني: ماذا لو تم تعيين غورو خلفاً لك هناك؟

غورو؟ إنه الرجل المناسب تماماً، لكن يجب أن أنتظر وصوله إلى هنا لكي لا يحدث خلل في القيادة!

في هذا الوقت كان غورو يقود الجيش الرابع في «شامبانيا». وقد اعتذر طويلاً عن قبول المنصب الجديد. وفي 13 كانون الأول/ ديسمبر 1916 تلقى لايوتيه بلاغاً رسمياً بتشكيل الحكومة الجديدة.

رئيس الحكومة وزير الخارجية: بريان.

العدل والتوجيه العام: فيفياني.

المال: ريبو.

الداخلية: مالفي.

الحربية: لا يوتيه.

البحرية: الأميرال لاكاز.

الاقتصاد الوطني، التجارة، الصناعة، الزراعة: كليمنتل.

النقل والمؤن العسكرية والمدنية: هريو.

المستعمرات: دوميرغ.

الذخيرة والصناعة الحربية: ألبير توماس.

تظهر هذه اللائحة كيف كانت تشكل الحكومات زمن الحرب. لكن لايوتيه غضب من أمرين، الأول، أنه لاحظ أن وزارة الحرب قد فككت، والثاني: أن قرار تعيين غورو لم يلحظ أنه «مقيم عام مؤقت» فقط. وكتب إلى بريان يعترض على الأمرين، فرد هذا يعتذر عن الاضطرار بالنسبة إلى الأمر الأول، أما غورو فهو مقيم مؤقت لا أكثر.

كانت وزارة الحربية سلسلة من المرارات بالنسبة إلى لايوتيه. فالحلفاء كانوا يطعنون بعضهم بعضاً، والتنسيق بينهم كان غائباً. وعندما ذهب مع بريان لحضور مؤتمر روما الشهير في العام 1917. تبين له أكثر فأكثر مدى التفكك، وخصوصاً مدى اليأس من وزارته. فقد أصرّ منذ بداية الحرب على قيادة واحدة لجميع الجيوش الحليفة، لكن ها هو بعد ثلاث سنوات يرى تلك القيادة في أيدي مجموعة من المدنيين والعسكريين، الذين لا يجمع شيء بينهم. وقد اختلف بصورة خاصة مع رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج حول الصلاحيات الواجب إعطاؤها إلى الجنرال ساراي، قائد حملة سالونيكا آنذاك (المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان فيما بعد)، وكانت علاقة لايوتيه بساراي سيئة جداً قبل الحرب، لكنه بصفته وزيراً للحربية أعطاه كل الدعم الذي يريد. وعندما استدعى المؤتمر الجنرال ساراي إلى روما، اتجه لايوتيه نحوه مباشرة، وأمسك به من ذراعه قائلاً: «تستطيع الاعتماد عليّ. قل لي ما تحتاج وسوف أبذل جهدي». وقد كتب ساراي عن خصمه السابق قائلاً: «لقد كان الجنرال لايوتيه قائداً، وحتى رفيقاً بالنسبة إلي». أما بالنسبة إلى المؤتمر نفسه فقال: «يقول البلاغ الرسمي إن ثمة اتفاقاً تاماً بين الحلفاء. ليس هناك من اتفاق. ولا قرارات هناك. لا شيء سوى الكلام والمزيد منه».

بعد مدة وجيزة استقال لايوتيه وسط جلسة برلمانية عاصفة، وعاد إلى منزله في شارع بونابرت. وكانت تلك أيضاً رصاصة الرحمة بالنسبة إلى حكومة بريان الهزيلة، فقد انهارت بعد الاستقالة بيومين.

واستدعاه رئيس الحكومة الجديد، المسيو بيو كي يسأله عن مشاريعه للمستقبل، فقال لايوتيه: لا شيء. إنني أنوي الذهاب إلى فيشي لبعض العلاج (من الكبد)، وبعدها أعود إلى الجبهة!

وسأله بيو: وماذا عن المغرب؟ ألا تنوي استئناف مهمتك هناك؟

عاد لايوتيه إلى المغرب، الذي سيدخله التاريخ الفرنسي. وقد بقي هناك حتى العام 1925، ويوم عاد إلى فرنسة، لم يجد أحداً في استقباله. إنها عادة فرنسة مع جنرالاتها.

من يربح الجو يربح الأرض أيضاً

كان هناك أيضاً جنرالات في الجو!

فالأرض لم تكن وحدها تشتعل في الحربين، بل كان قد أطل في السماء في الحرب العالمية الأولى جسم غريب اسمه الطائرة، وها هو الآن، في الحرب العالمية الثانية يتحول إلى أسراب من الطائرات تملأ الأجواء أزيزاً وتقرر الساحة بعيداً، من هو المنتصر على الأرض وكيف؟

وكانت أرض المعركة تبدو مختلفة من فوق عما يراها الناس من تحت، تماماً مثل روما القديمة. فالدبابة لم تكن ترى أكثر من مسافة مئة متر، والجنود المشاة لم يكونوا يرون أكثر من أنوفهم وخنادقهم ورؤوس بنادقهم. أما تلك الطائرات الحديثة العهد، الكثيرة الضجيج فقد كان في إمكانها أن ترى أمامها مدّاً منبسطاً على مدى ألفي ميل.

ذلك كان حوض المتوسط، من أقصاه إلى أقصاه، أو من بدايته إلى نهايته. وفي حزيران/ يونيو من العام 1940. كان كل هذا الحوض يستحم تحت شمس دافئة، وفي مياه عميقة كثيفة الزرقة: من الجزائر إلى لبنان، وثمة منطقة واحدة كان يربط بينها رذاذ المتوسط أو موج الأطلسي ـ أو العكس ـ حيث تتداخل مياه المحيطين في مضائق تصغر أو تكبر، وتنتهي في حوض واحد في مساحة تمتد من المغرب العربي إلى سواحل فرنسة وإسبانية ومن ثم إلى الساحل الإيطالي الطويل، وإذ يضيق هذا الممر المائي ثانية فإنه يمر عند رأس البر التونسي، ثم يمتد إلى صقلية، حيث تنفتح هذه القناة المثلثة على المتوسط الأرحب: إلى الجنوب، تضرب الأمواج برتابة عجيبة سواحل إفريقية السفلى، وإلى الشمال تتكئ إيطالية على جبال ألبانية عبر مضائق أورتانتو. وإذا نظرت شرقا رأيت خوراً من المياه يربط بين رأس البر اليوناني والجزء الليبي من إفريقية عند منبسطات بنغازي. وعلى النصف الشمالي من المتوسط تقع

سواحل يونانية أخرى، وسواحل تركية امتداداً حتى الجزر الإيجية فبوابة الدردنيل المحروسة مثل قصر، وتمضي جنوباً فترى المتوسط يتسع ويستطيل عند بلاد المشرق، حيث ترتفع سطوح القرميد الحمراء في بيروت، وتبدو من البعيد بساتين البرتقال في صيدا وصور. وعند الزاوية القصية منه تلتقي إفريقية وآسية في مجاهل سيناء، حيث تربض على مقربة منها مدينة بورسعيد، حارسة تلك القناة التي تربط الشرق بالغرب، وعلى مسافة قليلة من هناك كانت الإسكندرية، تلك المدينة التي تشبه في مطلها على البحر الأزرق، شيئاً من الريو دو جانيرو.

هذه كانت صورة الأرض، صورة هذه البقعة الجميلة من الأرض، كما تبدو من الجو، لكن من بين زرقة المياه وسطوح القرميد الأحمر كانت تبدو أيضاً أعلام فرنسة وأعلام بريطانية، فيما كانت الحرب تزحف ببطء على الساحل الإيطالي! لم تكن الحرب قد وصلت بعد إلى حوض المتوسط، بل كانت لا تزال على بعد 400 ميل، حيث الفرق الفرنسية المتعثرة تقف في مواجهة الألمان من الحدود الشرقية بين البلدين، حتى القناة الإنكليزية. وكان الزحف الألماني الهادر قد أطاح بالنروج، وتخطى هولندا. وأخذ الفرنسيون يتراجعون، بينما كان الإنكليز يحاولون التقاط أنفاسهم بعد هزيمة دانكرك. لكن قلب البريطانيين كان أيضاً على الإمبراطورية، وليس فقط على بريطانية، وكانت عيونهم على المتوسط وقناة السويس ومصر، تلك البوابة المهمة إلى مصر، بل أكثر من ذلك، البوابة المهمة إلى النفط في العراق وإيران.

لكن كي تقطع بريطانية الطريق على الزاحفين نحو الإمبراطورية، كانت بحاجة ماسة إلى إيطالية! غير أن إيطالية، بدهائها التاريخي المعروف، كانت قد حزرت ثلاث مرات في السنوات التسعين الماضية من سيكون المنتصر في الحرب، ووقفت إلى جانبه، وفي حزيران/ يونيو 1940 لم يكن صعباً على إيطالية أن تحزر من هو الرابح، فالفرنسيون كانوا يقفون على شفير الهزيمة، وهذا الأمر سوف يسهل على الإيطاليين الوصول إلى نيس والسافوي وكورسيكا. غير أن أحلام إيطالية كانت أكبر من ذلك بكثير: لقد كانت تريد إمبراطورية!

فالحبشة لم تكن كافية بالنسبة إليها. ومصر كانت إقليماً رائعاً يمكن أن يسد الفراغ بين صحراء ليبية والمرتفعات الإيطالية في شرق إفريقية. لقد كانت المكاسب واضحة بالنسبة إلى روما، أما الخسائر فلا أهمية لها.

ومع اقتراب نهاية حزيران/يونيو كان الدوتشي موسوليني قد اتخذ قراره، وها هو ظل إيطالية الطويل يخيم الآن على كل المتوسط.

في الجانب الآخر، عند البوابة الغربية للمتوسط، كان البريطانيون يحكمون قبضتهم على جبل طارق. وكان الجنود الإنكليز يختبئون وراء مدافعهم، أو يذرعون شوارع تلك الصخرة المعلقة في البحر. من فوق هذه الصخرة، كان الإنكليز يراقبون كل شيء، ويصل مدى أنظارهم عبر الأندلس المتعبة بالحرب الأهلية، لكن في البعيد كانوا مطمئنين إلى وجود العلم الفرنسي المثلث على ساحل الجزائر.

من الجو يبدو لك أن المتوسط آخذ في الاتساع. وعلى بعد 200 ميل خلف جبل طارق يتصل سطح المياه الإسبانية من جديد بالحوض الغربي للمتوسط، وكانت كل هذه الفسحات المائية الواقعة بين إيطالية وإسبانية، في أيدي الحلفاء. إذ من الجهة الشمالية كانت تمتد فرنسة على ساحل المتوسط الشمالي، من جبال البيرينه إلى جبال الألب، ثم تواجه الجزائر عبر 400 ميل من المياه. وكانت السفن المبحرة جنوباً تتجه بأمان من مرسيلية إلى قناطر الجزائر البيضاء، محتمية بالساحل الجزائري. لكن المياه كانت تضيق حين تصل إلى الكثبان الأولى في أرض تونس. والحقيقة أن سردينيا لم تكن تبعد أكثر من مئة ميل عن حافة إفريقية. وكان الساحل التونسي الآمن يواجه صقلية على مدى 80 ميلاً، ومن ثم كان واضحاً أنه بإمكان القادة السياسيين في إيطالية أن يقطعوا المتوسط إلى نصفين.

لا نزال، إذاً، نتطلع من الجو:

وسوف نرى هنا حقيقة أخرى في هذا الحوض الكبير: إنها مالطة التي تقع على بعد 60 ميلاً من إيطالية، وعلى بعد 800 ميل من أقرب قاعدة بريطانية. كانت الجزيرة تبدو حقاً مثل مدينة البندقية وهي تستحم مثل غيرها في دفء

المتوسط، لكنها كانت أيضاً في منتصف الطريق بين جبل طارق وبورسعيد بالنسبة إلى البريطانيين. والذي يستطيع أن يحض مالطة ضد الهجوم، يستطيع أيضاً أن يعرقل تحرك القوات الإيطالية من القارة الأوروبية إلى طرابلس (ليبية). لكن البريطانيين الكثيري الحذر عمدوا إلى سحب قواتهم إلى الإسكندرية، كما أنهم تمنعوا عن استخدام مالطة حتى ولو قاعدة جدية، بسبب قربها من البر الإيطالي. وهذا الحذر جعل مسألة الدفاع عن مالطة، بدورها، قضية صعبة؛ لأنه لم يكن من الممكن إيصال المؤن إليها إلا بحراً. فإذا استطاع الإنكليز البقاء في مالطة فإنه يمكن بقاؤها بوابة إلى الشرق، لكن ما إن تخلوا عنها بسبب قربها من إيطالية حتى أصبحت مثل محطة مهجورة على طريق مهجور.

كانت الطريق البحرية إلى السويس تمر بصقلية. وكان ذلك يعني أن قوافل الحلفاء سوف تكون تحت رحمة الإيطاليين أيضاً. وقد كانت تلك ـ ومن ثم ـ العلة الكبرى في قناة السويس، أي مسألة الوصول إلى القناة نفسها عبر المضيق الصقلي، وعلى مدى قريب من المقاتلات الإيطالية الرابضة على الشواطئ! إذاً، لم يتغير شيء. العامل الجغرافي لا يزال هو الأهم كما قال لنا البروفسور هولاند روز في كتابه «المتوسط في الحروب القديمة 1933»، لقد كانت المواقع الإيطالية تسيطر تماماً على جانبي الطريق البحري المؤدي إلى المتوسط. ففي هذه المرحلة كان جزء كبير من المغرب العربي في يد فرنسة، لكن الساحل كله من طرابلس إلى حدود مصر كان في يد إيطالية، وكان موسوليني يحلم بإكمال الطريق حتى السويس.

فالواقع أن الساحل الجنوبي من قلب المتوسط كان ليبيةً. وكان المؤرخ الأول هيرودوتوس قد حذر قبل مئات السنين «من أن أرض ليبية لا يمكن مقارنتها بأوروبة أو آسية»، ولذلك يصعب على الغزاة احتلالها. وها هي ولاية طرابلس الآن في أيدي الإيطاليين الذين كانوا احتلوها في العام 1911. وقد رفع الحاكم الإيطالي فوق مكتبه في طرابلس شعار: لا حدود للإمبراطورية الرومانية، لكن الحقيقة أنه من الناحية الإستراتيجية كانت حدود ليبية الأمامية بالنسبة إلى الحلفاء: البحر وتونس ومصر، أما حدودها الأخرى مع الصحراء والسودان فلم تكن مهمة كثيراً، لخلوها التام من

المياه. وهكذا وزع المارشال الإيطالي «غرازياني» ما يملك من الأسلاك الشائكة في وجه البريطانيين على الحدود مع مصر. أما مصر نفسها فكانت بالنسبة إلى الإنكليز كل شيء في المنطقة. بل إن أهميتها كانت واحدة بالنسبة إلى الشرق والغرب معاً. فهي تقع «على معابر طرقات عدة في البر والبحر»، فتشكل مدخلاً إلى أوروبة في المتوسط، وتشكل مدخلاً إلى المحيط الهندي من البحر الأحمر، تماماً مثل مضيق الدانوب بالنسبة إلى الحرب بين فرنسة والنمسا.

بكلام آخر، كانت السيطرة السياسية على مصر تعني السيطرة على الشرق. إذ من أجل الوصول إلى الهند لا بد من أن تنتظر في مصر أولاً بعض الشيء. وقد كان هذا حلم نابوليون من قبل في العام 1798، غير أن الإنكليز دمروا له الحلم عندما دمروا أسطوله في معركة النيل. ولم ينس الإنكليز تلك الأيام الدرامية حين أخذ نلسون يبحث عن أسطول نابوليون في عرض المتوسط، ومن ثم فإن مصر سوف تظل بالنسبة إليهم نقطة حيوية جداً من الناحية الإستراتيجية.

وكان أمن مصر أحد الهواجس الرئيسة لرجال السياسة البريطانيين في القرن التاسع عشر. إنها - أي مصر - حارس الطريق الأمين إلى الهند. وكان هناك في الواقع طريقان أمام بريطانية إلى «جوهرة التاج»: الأول: هو الطريق البحري الطويل عبر جنوب الأطلسي، ثم على طول الساحل الإفريقي، وصولاً إلى المحيط الهندي بالإبحار حول رأس الرجاء الصالح. أما الطريق الثاني والأقصر مسافة: فكان عبر المتوسط والبحر الأحمر مروراً بقناة السويس.

لذلك كانت مصر ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى بريطانية. ومع أن الإنكليز كانوا ينفون تكراراً أنهم ينوون ضم مصر غير أن أحد وزراء الملكة فيكتوريا كتب ذات مرة يقول: «إننا لا نريد مصر، لأنفسنا. لكن مصر بالنسبة إلينا محطة حيوية مثل خانات المسافرين على الطريق: فيها نستريح، وفيها نأكل، وفيها نعيد إسراج الجياد». وإذا كان اللورد بالمرستون قد رفض «ضم» مصر، فإنه وجميع من خلفه كانوا واضحين في أنهم لا يريدون أيضاً لمصر أن تقع في يد أي قوة أخرى. وقد أصبح شعاراً غير مكتوب لدى الإنكليز أنه لن يسمح لأي دولة بالسيطرة على هذه «المنارة» الواقعة في منتصف

الطريق، ومن هنا كان بالمرستون أول من وقف ضد المشروع الفرنسي لشق القناة بين السويس وبورسعيد، لأنه اعتقد أن فرنسة ستسيطر آنذاك على «طريق الاتصالات بين إنكلترة والهند البريطانية»، وأنها ستقيم بين سورية ومصر حاجزاً مائياً تدعمه بالدفاعات العسكرية، وسوف تصبح القناة فيما بعد جزءاً من حياة الإنكليز، وخرافة من أساطيرهم، لدرجة أن أحد قادة السلاح الجوي البريطاني أعلن أن «مفتاح الإمبراطورية هو المتوسط... لسبب بسيط وهو أنه يؤدي إلى القناة».

لقد كتب هيرودوتس قديماً أن مصر هي بلد التناقضات، ومن ثم فإن المؤقت سرعان ما يصبح دائماً، وهكذا كانت الحال بالنسبة إلى أول فرقة «استطلاعية» ذهبت إلى مصر في العام 1882، إذ سرعان ما حول الجنود البريطانيون القاهرة والإسكندرية إلى موطن لهم. ومنذ ذلك الوقت كان في صلب الإستراتيجية البريطانية أن تظل دفاعات وادي النيل في منتهى القوة. فتلك المنطقة لم تكن تغطي فقط الطريق القصير إلى الهند، بل تشمل أيضاً الممر الطويل إلى «الكاب» عبر إفريقية. وكان أول امتحان دخلت فيه بريطانية حول القناة في الحرب العالمية الأولى عندما دافعت عن مصر ضد هجمات الأتراك، لكن الوضع سوف يكون مختلفاً الآن، وقد كثر المهاجمون والطامعون، كما يقول فيليب غوديللا في كتابه «درس في القوة الجوية».

مع قدوم الحرب العالمية الثانية، لم تفقد مصر شيئاً من أهميتها الإستراتيجية بل العكس. إنها الآن تحرس شيئاً أكثر أهمية بكثير من الطريق إلى الهند: النفط! فالحرب تعتمد قبل أي شيء آخر على الحركة. وفي السنوات الأخيرة صارت كل حركة تقريباً تعتمد على النفط. لا طائرة تستطيع أن تحلق، ولا مدرعة تستطيع أن تسير، ولا باخرة تستطيع أن تبحر من دون نفط. والافتقار إلى النفط يمكن أن يشل تماماً السلاح الجوي لأي بلد، وأن يشل الجيش، ويعيق تحرك أي أسطول. وبما أنه لا يمكن الانتصار في الحروب بواسطة الدبابات المعطلة أو الطائرات المشلولة، فقد أصبح الوصول إلى النفط الآن مشكلة عسكرية من الدرجة الأولى. وهذه المشكلة كانت تواجه بريطانية بالذات. ذلك أن خمسة أسداس ما يستهلكه العالم من النفط كان ينتج خلف الأطلسي، ونصف هذه الكمية كانت تأتي من روسية ورومانية، اللتين يصعب الوصول إليهما. ومن ثم كان لا بد لبريطانية من أن تحصل على النفط من العراق وإيران.

بكلام آخر كانت المنطقة الممتدة من الموصل إلى الخليج العربي شيئاً بالغ الحيوية، بالنسبة إلى دولة تعتمد على السلاح الجوي تماماً، كما كانت السويس مهمة بحرياً. وكما كانت البحرية البريطانية متمحورة ذات مرحلة حول مالطة، ها هو السلاح الجوي البريطاني يتركز في مصر، ويقيم منشآت جوية في العراق. غير أن الدفاع عن العراق ضد عدو أوروبي لم يكن يبدأ في آسية لأنه لا يمكن لأي مهاجم الوصول إلى هناك مرة واحدة. إذ كان للدفاع عن العراق (بالنسبة إلى بريطانية) لا بد من صمود عسكري في سورية وفلسطين. ومن أجل النجاح في بلدان المشرق، لا بد من النجاح أولاً في مصر. ولم تكن بغداد تبعد عن القاهرة أكثر من 800 ميل.

كانت بريطانية تحكم القبضة العسكرية جيداً على مصر، وكانت تأمن جانب الصحراء في سيناء، لأنها تسيطر على فلسطين، لكن إلى الغرب، وعلى بعد 300 ميل من الإسكندرية، كانت الحدود المصرية تحاذي ليبية، أي الاحتلال الإيطالي.

لقد كانت «الصحراء الغربية» أكثر الأراضي صعوبة واستحالة، لكن من أجل الدفاع عن مصر لا بد للمعركة من أن تجري هناك إذا ما شن الإيطاليون هجومهم من ليبية. وكان ثمة خوف أيضاً من أن يصل الإيطاليون إلى كينيا بسبب تعزيزاتهم وحشودهم في الحبشة وأريترية.

بكلام آخر كان لا بد للإنكليز من المحافظة على وادي النيل بأي ثمن، على الرغم من المشكلات الكبيرة التي تعترض ذلك. ولم يكن الخوف من الناحية البحرية كبيراً، لأن الأسطول الإيطالي لم يكن مشهوراً بتفوقه الشديد. غير أن السلاح الجوي الإيطالي بعكس ذلك، كان وافر العدد وكثير الفاعلية. ولقد وضعت الجغرافية السياسية الإيطاليين على جانبي النيل. إذ كان بإمكانهم الزحف براً من ليبية على مصر أو من أريترية على السودان. ومن ثم كان الإنكليز في وضع لا يحسدون عليه، لأن وصول المؤن والتعزيزات إليهم سيكون شبه مستحيل. إذ مع توقف عملية الإبحار الحليف تقريباً في المتوسط لم يبق أمام البوارج البريطانية من ممر بحري سوى الطريق الطويلة حول رأس الرجاء الصالح، وحتى عن تلك الطريق كان هناك خطر شديد إذا ما استغل الإيطاليون الفرصة تماما وعمدوا إلى إغلاق البحر الأحمر، وكان بإمكان السفن

الحليفة عبور باب المندب، لكن المضيق لم يكن يزيد عرضه على 20 ميلاً. ومع أن هذا المضيق كان في حراسة القوات الفرنسية المتمركزة في جيبوتي والقوات البريطانية في عدن، إلا أن الطائرات الإيطالية كانت على بعد بضعة أميال فقط في أريترية.

إذاً، كان الخطر على مصر واضحاً أمام أي خريطة مرسومة من الجو: فالطائرات الإيطالية تستطيع، إذا استخدمت بفاعلية، أن تغلق قناة صقلية والبحر الأحمر أمام الملاحة البريطانية. وإذا حدث ذلك لن يعود بالإمكان نقل المؤن والتعزيزات إلى مصر، ومن ثم فإن سقوطها سيصبح حتمياً. بل إن السلاح الجوي الإيطالي، إذا أراد، أو إذا استطاع، كان يمكنه أن يسوي المسألة العسكرية كلها بعزل وادي النيل. ولكي يتجنب البريطانيون مثل هذه الهزيمة، لابد لهم من تعزيزات جوية عاجلة. لكن كيف يمكن لهذه التعزيزات أن تصل؟

ما دامت فرنسة قادرة على البقاء في الحرب، كان يمكن نقل تلك الطائرات عبر الأجواء الفرنسية وحتى مالطة، لكن عندما تصل هذه الطائرات إلى مالطة أو حافة تونس سيظل فاصلاً بينها وبين مصر نصف المتوسط على الأقل والعرض الليبي! وكانت بريطانية قد شعرت في الواقع قبل سنوات بمشكلة التعزيزات الجوية إلى مصر، حين أخذت علاقتها مع شواطئ إيطالية تتدهور. وخطرت للإنكليز غير مرة فكرة نقل هذه الطائرات في أجواء إفريقية، لكن شواطئ ساحل الذهب (غانا الآن) كانت تبعد 200 ميل عن وادي النيل.

... لكن كان لا بد من المحافظة على مصر! فالزاوية الجنوبية ـ الشرقية كانت شديدة الأهمية بالنسبة إلى الحلفاء. وكانت القوات الفرنسية يومها تجمّع في سورية ولبنان، والسفن الحربية البريطانية ترسو في حيفا في ظل جبل الكرمل، وكان الأسطول الحليف في الإسكندرية يؤمن سلامة المشرق. كان كل شيء مهيأً، ولم يبق سوى أن تبدأ لعبة الحرب. وكان بعض اللاعبين، مثل تركية، قد خرجوا من الحرب، أما اليونان وجزرها وصولاً حتى كريت فكانت محايدة، ومن السماء في العام 1940 بدأ كل شيء على الأرض قلقاً: زرقة المتوسط، وكثبان الرمل البنية اللون، والرجال الذين جلسوا ينتظرون بصمت قرب مدافعهم.

• • •

هكذا كان يبدو هذا «البساط» الحربي، الذي سوف تدور حوله أضخم المعارك في الحرب العالمية الثانية، وكما كان هناك جنرالات على الأرض، هكذا أيضاً كان هناك ضباط وجنود في «السماء» لكن المعارك الجوية في ذلك العصر لم تكن تنطبق عليها شروط الميدان. ففي الجو ـ أيام تلك الطائرات ـ لم تكن هناك خطط ومخططات، بل كان العنصر الأول هو شجاعة الطيار ومقدرته، كل ما عليك هو أن ترمي شاباً شجاعاً إلى الجو وتتركه لحظّه ومقدرته. إنها، أي المعارك الجوية «دورة الفروسية القاتلة»، كما قال رايلي وهو يصف المعركة في سماء لندن. وعن هؤلاء الطيارين أيضاً قيل: «لم يحدث في تاريخ النزاع البشري، أن شعر مثل هذا العدد الكبير من الناس، أنه مدين لمثل هذا العدد القليل».

استقبل العلم العسكري هذا القادم الجديد في بادئ الأمر بشيء من رباطة الجأش، لأنه ظهر أولاً في صورة منطاد، لكن أيضاً منذ العام 1670 تكهن أحد الإيطاليين بالكثير من الحماس بأنه ذات يوم سوف تنفجر حرب بين السفن الطائرة، تكون قادرة على تدمير المدن وخطوط الملاحة. وفي العام 1783 حلق في سماء فرساي منطاد يحمل نعجة ودجاجة وبطة، فقيل يومها إن هذا الاختراع الجديد لن يفيد العسكريين في أكثر من عمليات الاستطلاع. وبالفعل استخدمت المناطيد لهذا الغرض على نطاق ضيق في الجمهورية الأولى، كما عرض على نابوليون مشروع يقضي بغزو إنكلترة في مجموعة مناطيد، يحمل كل منها ألف رجل و25 حصاناً ومدفعين! لكن نابوليون هز كتفيه ضاحكاً.

إلا أن فكرة المهاجمة من الجو ظلت تحاصر الجميع، بل إن البندقية هوجمت من الجو، عندما أسقطت عليها المناطيد النمساوية كميات مختلفة من القنابل. واستخدمت المناطيد أيضاً في الحرب الأهلية الأميركية، وفي الحرب الألمانية ـ الفرنسية، وفي حروب الباراغواي. وفي العام 1890 عمد البريطانيون إلى تشكيل فرقة خاصة للمناطيد، بعدما نجحوا في استخدامها في السودان وبتسوانا لاند.

غير أن استخدام الأجواء ظل محصوراً إلى حد بعيد بعمليات الاستطلاع. ويقول و. رايلي في كتابه «الحرب في الأجواء ـ 1922»: إنه عندما حلقت أول «طائرة» في

بريطانية بسرعة 40 ميلاً، علّق أحدهم قائلاً: «كيف يمكن لنا أن نستطلع الأشياء، وهذه الآلة الشيطانية تحلق بمثل هذه السرعة العجيبة». لكن في العام 1911 كانت «فرقة جوية» تلحق بالقوات البريطانية للقيام بالمهمات الاستطلاعية، ويبدو أن فرنسة طبقت القاعدة نفسها كما يفهم من كتاب «تحولات الحرب ـ 1911» للكاتب الفرنسي كولان. والحقيقة أن مؤتمر السلام الشهير في لاهاي أصدر بياناً يمنع فيه «إسقاط المتفجرات من المناطيد، أو غيرها من الوسائل المشابهة». إلا أن الإيطاليين كانوا في العام 1911 أول من استخدم الطائرات للاستطلاع والقصف معاً، وذلك ضد الأتراك في طرابلس، ومن دون أن يكون باستطاعة هؤلاء الرد عليهم.

وهكذا بدأت التجارب في هذا الحقل تأخذ أبعاداً أخرى. وكان الرواد يتساقطون بأعداد كبيرة، الأمر الذي حمل رايلي على القول: «إن أولئك الرجال الذين استطلعوا الجو وسيطروا عليه في القرن العشرين، هم ورثة أولئك الذين اكتشفوا أميركة وسيطروا عليها في القرن السادس عشر». ولن تمضي سنوات طويلة قبل أن يصبح الجو سلاحاً آخر، ليس بأهمية الجيوش فحسب، بل أكثر أهمية منها أيضاً.

• • •

منتصف العاشر من حزيران/ يونيو 1940 دخلت إيطالية الحرب ضد الحلفاء. ولم يكن الحدث مفاجئاً. فالكلام الصادر عن روما منذ فترة لا يخفي عواطفها تجاه دول المحور، وكان الحلفاء يستعدون لمواجهة مثل هذا التطور، وقد عقد البريطانيون والفرنسيون اجتماعات عدة حول الموضوع في فلسطين وسورية، وذهب ضباط بريطانيون إلى القيادة الفرنسية في تونس والجزائر، وحتى إلى الدار البيضاء من أجل التنسيق بين الفريقين. وبما أنه كان هناك خوف من أن تهدد إيطالية الطرق الجوية عبر إفريقية، عقد الحلفاء دراسات على الطبيعة في التشاد أيضاً. واتجه التفكير بادئ الأمر إلى أن تقوم القوات الحليفة في المشرق بعمل عسكري ما بقيادة الجنرال ويغان في بيروت، وراح الفرنسيون يحلمون بالوصول إلى المناطق التي توقفوا عندها في الحرب العالمية الأولى، غير أن الحقائق كانت قد تغيرت كثيراً الآن، ولذا اكتُفي بالمنطقي من الأحلام، أي أن يسعى الأسطول الفرنسي إلى تدمير جزء كبير من

الأسطول الإيطالي، ومن ثم يحافظون على الوضع في المتوسط غرب صقلية، في حين يسيطر الأسطول البريطاني في الإسكندرية على الطرق البحرية الشرقية، وكانت لدى الحلفاء آنذاك أسباب تدعوهم للافتراض بأنه في مواجهة التعدي الإيطالي تستطيع القوة البحرية الحليفة أن تبقي على الخط البحري مفتوحاً من وإلى قناة السويس، وكذلك يمكن إيصال التعزيزات إلى مالطة، جواً أو بحراً، من المستعمرات الفرنسية القريبة، في حين يؤمن الفرنسيون حراسة بوابات البحر الأحمر من جيبوتي. أما براً فكان لا يزال منطقياً أن يقوم الفرنسيون بهجوم على ليبية من الغرب، مع أن قوات فرنسية كثيرة كانت قد سحبت إلى فرنسة. وكانت طرابلس تقع في مرمى المدافع الفرنسية الرابضة في مطارات تونس، بل إن ثلثي الأراضي الإيطالية كان يمكن قصفها من «إفريقية الشمالية»، كذلك بقي عدد كبير من الطائرات الإيطالية في إيطالية للمساعدة في حماية القواعد والموانئ والمدن هناك. غير أن غزو القوات الفرنسية لولاية طرابلس كان شديد الاحتمال، لدرجة أنه: كان هاجس الإيطاليين أكثر مما كان هاجس الحلفاء، ولذا تجمعت قوات غرازياني في الغرب، لمواجهة مثل هذا الزحف. وكانت القوات الإيطالية في وضع لا تحسد عليه، لأنها كانت مهددة أيضاً بغزو بريطاني من الشرق، من مصر، ومن ثم لم يكن سهلاً على الإيطاليين الصمود على جبهتين صحراويتين، يفصل بينهما 200 ميل، مع أن سلاحهم الجوي كان أقوى من سلاح أعدائهم.

هذه الفرضيات الجميلة كانت مفتوحة أمام الحلفاء حين بدأت الحرب ضد إيطالية، لكن الأحداث التي تسارعت في أوروبة غيرت كل شيء، فالمقاومة الفرنسية على الجبهة الألمانية كانت تضعف بسرعة. واستُدعي الجنرال ويغان من بيروت على وجه السرعة، لكي يرث هزيمة كبرى في بلاده. وغادرت الحكومة الفرنسية باريس إلى مدينة «تورني»، أسبوعاً من المداولات هناك، حيث أبرق رئيس الوزراء إلى تشرشل مقترحاً القبول بهدنة مع ألمانية كما أرسل النداء بعد الآخر إلى الرئيس الأميركي روزفلت. وما هي إلا أيام حتى اختار المارشال بيتان الاستسلام لألمانية، معلناً أن بريطانية سوف تذبح في نهاية الأمر مثل دجاجة.

في مثل هذا الجو لم يكن ممكناً بالطبع استخدام القوات الفرنسية لمهاجمة الإيطاليين. لكن الكارثة التي أحاقت بالحلفاء في القارة الأوروبية لم تكن تمنعهم من التحرك في المتوسط. وهكذا اقتحمت البوارج الفرنسية المتمركزة في الإسكندرية بحر إيجه، في حين راح أسطول فرنسي ـ بريطاني يقصف تلال «البردية». وبدأت الحرب الجوية فوراً بغارات متلاحقة على الأهداف الإيطالية، قامت بها طائرات من مصر والسودان وكينية، ورد الإيطاليون بقصف جيبوتي والسلوم ومرسى مطروح. لكن ذلك الهجوم الموعود على ليبية لم ير النور، لأنه بعد أسبوع واحد كان المارشال بيتان يعلن الهدنة مع الألمان. وفي المغرب قبل الجنرال الفرنسي «توغيس» الهدنة متودداً، أما في بيروت فقد أكَّد الجنرال ميتلهاوزر للجنرال الإنكليزي ويفل «عزمه على مواصلة الكفاح». وكان هذا الأمر مهماً طبعاً، لأن الجيش الفرنسي في المشرق كان يسيطر على منطقة حيوية جداً بالنسبة إلى الدفاع عن مصر والعراق. ومن جهة أخرى أعلن الجنرال لوجنتيوم في جيبوتي أن القوات الفرنسية هناك ستظل تقاتل إلى جانب الحلفاء.

كان المارشال بيتان في باريس قد قبل بوقف القتال في جميع الأراضي الفرنسية، والمستعمرات، والمحميات، والدول الواقعة تحت الانتداب، كما وافق على تجريد جميع القوات الفرنسية وتفكيكها. غير أنه كان باستطاعة القادة الفرنسيين في كل منطقة، أن يعصوا تلك الأوامر إذا شاؤوا، إلا أن معظمهم لن يفعل. فقد شملت رغبة بيتان في الاستسلام معظم الجنرالات. وسرعان ما أعاد إلى الألمان 400 طيار، كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي البريطانيين. ثم سارع أميرال البحرية، دارلان، إلى إنزال العلم عن أساطيله، وتبعه الجنرال توغيس في مراكش، ثم ميتلهاوزر في بيروت، ولو بعد تردد، أما لوجنتيوم فما لبث هو أيضاً أن خضع لروح الاستسلام التي عمت ضباطه في جيبوتي. وفَّر عدد قليل من الفرنسيين الأشراف إلى المقاطعات البريطانية لمتابعة القتال، غير أن وجه الحرب كله قد تغير بالاستسلامات التي أعلنت في 22 و24 حزيران/ يونيو.

بدت ثمار ما فعله بيتان بكل وضوح على الخريطة. ذلك أن إلغاء البحرية الفرنسية كلها، بجرة قلم من رجل عجوز، قد غيرت نحو الأسوأ الميزان العسكري كله في المتوسط.

وكان على الإنكليز أن يواجهوا الموقف بتلك القوى البحرية الموجودة في الإسكندرية، وتلك التي ستتوافر لهم في جبل طارق فيما بعد. غير أنه بين هاتين النقطتين كانت تمتد مسافة قدرها 2000 ميل، ليس فيها ميناء صديقٌ واحدٌ سوى فاليتا. وعلى الشاطئ الجنوبي للمتوسط أصبح ألف ميل من السواحل بين ليلة وضحاها في عهدة حياد مشكوك في أمره. وأصبحت لندن تخشى الآن أن أي قافلة بحرية لها لن تستطيع عبور المتوسط من دون عملية حربية.

مع حلول العام 1941 أخذت الحرب البحرية تصبح أيضاً حرب مطارات. وأغلق المتوسط أمام الملاحة العادية، بسبب وجود طائرات «المحور» في مطارات ومهابط خاصة في سردينيا وليبية وصقلية. وصارت التعزيزات والمؤن المرسلة إلى مصر تنقل الآن حول رأس الرجاء الصالح، وعبر مضايق البحر الأحمر، حيث تكون أكثر فأكثر عرضة للطائرات الإيطالية المتمركزة في أريترية. ومن ثم فإن الطريق البحرية إلى الهند قد استطالت تلقائياً بنحو 4 آلاف ميل، وإلى سنغافورة بنحو 3 آلاف ميل.

لذلك وأمام هذه الخريطة المعقدة.. كان لا بد من دور للطيران. وقد كان ذلك الدور كبيراً ورئيساً في الشرق عند الإنكليز وعند الألمان، ناهيك - طبعاً - عن الفرنسيين والإيطاليين، لكن ما دام لا بد من اختيار جنرال واحد كمثال، فالأرجح أن مارشال سلاح الجو البريطاني اللورد تيدر هو... الأفضل!

من هو تيدر؟

بعد نهاية الحرب الثانية، قال أحد المراسلين الحربيين المشهورين في برنامج إذاعي: إن تيدر «لم يملك في أي وقت تلك الصفات المتعارف عليها في قائد حربي. وقد كان أسلوبه في العمل أسلوب رجل علم لا رجل عسكري. وكانت مقدرته الحقيقية بصفته رجلاً أكاديمياً متفوقاً دائماً خلف مكتبه، حيث يخطط للانتصار على عدوه».

ومثل الكثيرين من أبناء جيله لم يكن تيدر يحلم في بداية الأمر بالانضمام إلى الجندية، لكن مع اندلاع الحرب الأولى كان لا بد من البزة العسكرية. أما انضمامه إلى السلاح الجوي أو «الفصائل الملكية الطائرة» في العام 1915 فقد كان بمحض

الصدفة، وذلك لأنه كان يعاني من نقص بسيط في جسمه. وبعد انتهاء الحرب الأولى لم يخرج إلى الحياة المدنية، بل اختار البقاء في الثكنة، متنقلاً في مناصب مختلفة بين تركية والشرق الأقصى.

كان يحب أن يظل في الخارج بعيداً عن مناورات «الوايتهول» ومؤامراتها. لكن في العام 1938 استدعي إلى وزارة الطيران، لكي يعين مديراً للأبحاث والتنمية. وقد أصبح هذا المنصب المهم أكثر أهمية مع اندلاع الحرب في العام 1939.

ذلك أن الكثير من انتصارات أو فشل السلاح الجوي، كان يتوقف على قرارات تلك المديرية. وكان تيدر يعرف الطائرة الجيدة من الطائرة غير الفاعلة، ولذا كان عليه باستمرار أن يواجه تشرشل ووزير الطيران (1940ـ1941) اللورد بيفر بروك، اللذين كانا يعجبان بالبهلوانيات أكثر من الفاعلية الحقيقية. وقد ظل تشرشل كذلك طوال فترة الحرب، وغالباً ما كان يشير إلى تلك الطائرات على أنها «ألعابه».

بعد قليل من اشتعال الحرب سيصبح تيدر واحداً من جنرالات الشرق... ولكن بالصدفة!

بالصدفة! كان قائد السلاح الجوي البريطاني في الشرق الأوسط العام 1940 هو ماراشل الجولونغمور، وفي أواخر ذلك العام طلب أن يعين تيدر نائباً له، لكن الحكومة رفضت ذلك، وبعثت إليه بضابط آخر، غير أن طائرة الضابط البديل أسقطت وهي في الطريق إلى القاهرة، وهكذا عاد المنصب تلقائياً إلى تيدر.

وشد تيدر حزامه وتوجه إلى القاهرة، لكي يلعب «الدور الجوي الأكثر أهمية في الحرب العالمية الثانية» كما يقول لنا المارشال الجوي كريستوفر فوكسلي نوريس. فالمعارك التي جرت في الشرق الأوسط، هي التي أثبتت أن القوة الجوية ليست مجرد قوة مساندة للقوى البرية، وإنما هي القوة الحاسمة.

وعندما وصل تيدر إلى القاهرة في كانون الأول/ ديسمبر 1941 كانت معنويات القوات البريطانية قد عادت إلى الارتفاع. فالبحرية حسمت الميزان لصالحها بعد الغارات الجوية التي قامت بها طائرات البوارج على مدينة تارانتو، والجيش كان

قد صد الهجمات الإيطالية على القواعد في مصر، وحقق مكاسب ميدانية عديدة، أما السلاح الجوي فقد استطاع، على الرغم من اهتراء بعض الطائرات، أن يصد السلاح الجوي الإيطالي في الصحراء الغربية والحبشة، لكن هذه الانتصارات كانت أبعد من أن تكون هي الانتصار النهائي. إذ على الرغم مما حدث في تارانتو ومن ثم تدعيم الوضع في مالطة، فإن الممرات البحرية عبر المتوسط ظلت محفوفة بالمخاطر. وكانت معظم القوات والتعزيزات لا تزال تصل إلى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح. وكانت الطائرات تنقل مفككة إلى نيجيرية حيث يعاد تجميعها، ومن هناك تطير إلى القاهرة.

شعر تيدر بسعادة حقيقية وهو يتسلم منصبه وتكليفه بالإشراف على العمليات في الصحراء الغربية ومصر. وإذ خبر لأول مرة القتال الجوي هناك، اعتراه فرح حقيقي فكتب يقول: «إنه أجمل أسبوع بالنسبة إلي طوال الخدمة العسكرية. ومن الصعب عليَّ أن أشرح ذلك الشعور الذي خامرني وأنا في الصحراء، ولست أدري ما إذا كان السبب هو ذلك الجو النقي اللماع، أم الشعور المعنوي لدى رجالنا». وفي مقاطع أخرى من مذكراته يعرب عن إعجاب شديد برجال الميدان والجو معاً: «لقد أمضيت أربع ساعات أتحدث إلى رجالنا من البريطانيين والأوستراليين والنيوزيلنديين والروديسيين، وفي نهاية الأمر رحنا نغني، إنهم يثيرون الإعجاب حقاً، كيف ينتقلون من حملة إلى أخرى إلى ثالثة، وفي ظروف صعبة بل مستحيلة».

غير أنه بقدر ما كان معجباً بالرجال بقدر ما كان قلقاً بسبب الطائرات نفسها. وكان يشعر أنها رديئة الصيانة، ومتخلفة عن غيرها. وفي حين استطاعت البحرية البريطانية في الشرق الأوسط أن تبعد نفسها عن مناورات السياسيين ونفوذهم، لأن قيادتها كانت في الإسكندرية، فإن الجيش والسلاح الجوي ظلا خاضعين للنفوذ السياسي إلى حد بعيد. لكن تيدر استطاع أن يقيم علاقات حسنة مع القائد العام الجنرال «ويفل»، وكذلك مع خلفه «أوكينلك»، مع أنه كان يتضايق من عناد الاثنين وترددهما، كما كان يشعر أن الكثيرين من الضباط المحيطين بهما دون المستوى المطلوب.

كانت الغيوم تتلبد أكثر فأكثر في سماء الشرق الأوسط. ومع حلول كانون الثاني/ يناير 1941 وصلت طلائع السرب الألماني العاشر إلى صقلية، بعدما رأى الألمان أن حلفاءهم الإيطاليين يعانون من نواقص كثيرة، فهبوا إلى تعديل الميزان. وقد أثرت هذه الخطوة في الوضع البحري أكثر من تأثيرها في الوضع الجوي نفسه، إذ ازدادت المخاطر على القوافل البحرية. وصارت الآن المحافظة على مالطة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى الحلفاء، وكذلك المحافظة على تلك القواعد التي احتلها الإنكليز في برقة (بنغازي).

المراجع

المراجع العربية

البرت حوراني، سورية ولبنان، لندن، ١٩٤٦.
جورج انطونيوس، اليقظة العربية.
عباس عبد الحليم، فتاة من فلسطين، عمان، ١٩٤٩.
عباس مكي، المسألة السودانية، لندن، ١٩٥٢.
عبدالفتاح ابراهيم السيد بدور، العلاقات المصرية السودانية، لاهاي، ١٩٦٠.
مجيد خدوري، العراق المستقل ١٩٣٢ ـ ١٩٥٨، لندن، ١٩٦٠.
ـ مذكرات الملك عبدالله، نيويورك، ١٩٥٠.

المراجع الاجنبية

Barrès, M. *Une enquête au pays du levant,* Paris, 1923.
Berque, J. *L'Egypte, Impérialisme et révolution,* Paris, 1967.
Carver, M. *El Alamein,* B. T. Batsford Ltd, London.
Carver, M, *Tobruck,* B. T. Batsford Ltd, London.
Catroux, G. *Deux missions en Moyen-Orient,* 1919 - 22, Librairie Plon, Paris.
Eisenmenger, V. *Archduke Francis Ferdinand*, Selwyn and Blount Ltd, 1928.
Fabre Luce, *A. Deuil au levant,* Paris, 1950.
Fisher, S. N. T*he Middle East: A History,* Routledge and Kegan Paul Ltd, London.
Froembgen, H. *Kemal Ataturk*, jarrolds Publishers Ltd, London.
Gardner, B. *Allenby of Arabia*, New York, 1966.
De Gaulle, C. *War Memories* 1940-46, A de Capo.
George, L. *Memoirs of the Peace Conference.*

Guedalla, P. *Middle East 1940-42; Study in Air Power*, Hodder and Stoughton, London.

Holt, P.M.A *Modern History of the Sudan*, London, 1961.

Lapierre, J. *Le mandat français en Syrie*, Paris, 1936.

Lenckzowski, G. *The Middle East in World affairs*, Cornell University Press.

Leslie, S. *Mark Sykes: His Life and Letters*, Cassell & Co. Ltd, London, 1923.

Maurois, A. *Marshall Lyautey*, The Bodley Head Ltd, London.

Mockeller, A. *Our Enemies the French*, Leo Cooper, London.

Montgomery, B. *Memoirs*, Collins, 1958.

Morgan-Jones, J. F. *La fin du mandat français en Syrie et au Liban*, Paris, 1938.

Noves, M. I. *Italian Foreign Policy* 1918-32, London, 1932.

Sachar, H. M. *Europe Leaves the Middle East* 1936-54 Alfred A. Knopf, New York.

Sachar, H. M. *The Emergence of the Middle East 1914-24*, Alfred A. Knopf, New York.

Schmidt, H.W. *With Rommel in the Desert*, London 1951.

Spears, E. *Fulfilment of a Mission: Syria and Lebanon 1941-44*, Archon Books.

Villari, L. *Italian Foreign Policy Under Mussolini*, New York, 1956.

Wavell, A. *Allenby: A Study in Greatness*, George G. Harrap & Co. Ltd, London.

Weygand, H. *Idéal vécu*, Falmmarion, Paris.

— *La campagne du général de Falkenhaym en Palestine, Larcher*, Paris.

— *Background of the Middle East*, Cornell University Press.

المحتويات

قيل في الكاتب

«إذا كانت المعرفة هي ثروة الفقراء، فإن سمير عطاالله مليونير ثقافي، أو هو من أصحاب أكبر الثروات المعرفية في العالم العربي».

عبد الله باجبير

(الشرق الأوسط)

«ليس هناك بين الكتاب اللبنانيين من يجيد كتابة ما هو فيه من الصباح إلى المساء مثل سمير عطاالله».

ياسين رفاعية (الظهيرة)

«ومما يزيد في تقريب الكتاب أسلوب سمير عطاالله».

محمد علي فرحات (الحياة)

«سمير عطاالله سرق الكلمات التي كنت سأقولها، وصبّها في قالبه الاستثنائي الخاص المستعصي على التقليد».

غادة السمان (الحوادث)

«وفي لبنان تتوقع كل شيء وأي شيء على حد تعبير الكاتب اللبناني الكبير سمير عطاالله».

إحسان بكر (الأهرام)

«الكاتب الممتاز قارئ ممتاز أولاً. الزميل الأديب سمير عطاالله هو من هذا الصنف بامتياز».

حافظ محفوظ (الحوادث)

«إذا كنت تريد متابعة تحليل سياسي عربي مكتوب برزانة وعمق. فاقرأ سمير عطاالله. وإذا كنت تريد خبيراً في السياسة الدولية يعرف الدول الكبرى مثل كفه والقرى الصغيرة في مجاهل العلم بأزقتها، فاقصد سمير عطاالله. وإذا كنت تريد أن تقرأ نثراً عربياً أقرب إلى الشعر ووصفاً واقعياً أقرب إلى الخيال وأدب الرحلات وقد صيغ بأسلوب أقرب إلى القصة، فتابع سمير عطاالله».

رؤوف سحوري (الصياد)